رسائل جامعية (١٨)

التصوير البياني عند أهل الرقائق حتى نهاية القرن الثالث

الجزء الأول

تأليف الأستاذ
بكري منصور بكري مصطفى
كلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهر الشريف

دار الحرم للنشر والتوزيع

رسائل جامعية
(18)

التصويرُ البيانيُّ عندَ أهلِ الرقائقِ حتى نِهايةِ القرنِ الثالثِ

الجزء الأول

تأليف الأستاذ
بكري منصور بكري مصطفى
كلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر الشريف



التصويرُ البيانيُّ عندَ أهلِ الرقائقِ
حتى نهايةِ القرنِ الثالثِ
الجزء الأول
أ. بكري منصور بكري مصطفى
الإشراف العام: ممدوح على 01001532145
مدير النشر : محمد على 01005624581
رقم الإيداع: 2022/19710



Email: del_haram36@yahoo.com

الترقيم الدولى: 978-977-809-078-2

هذا الكتاب في الأصل

رسالةٌ علميةٌ قُدِّمتْ لقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالقاهرة في جامعة الأزهر الشريف؛ لنيل درجة التخصص الماجستير في البلاغة والنقد.



المقدمة

الحمد لله ذي الفضل والنعم، والجود والكرم، أحمده سبحانه، وأشكره؛ هَدَى، ويسر، ووفق، وألهم، وأطلع عباده على الأسرار والحكم، والصلاة والسلام على النبي الأعظم، وعلى آله وأصحابه الذين هم منَّا بدين الله أعلم، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: ،،،

فقد قال الله - تعالى - في محكم تنزيله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾(سورة النساء:٦٣). قال الزمخشري: قولًا بليغًا يبلغُ منهم ويؤثر فيهم[١]. وقال ابن الجوزي: «**إن مجرد العلم بمسائل الحلال والحرام: ليس له كبير عمل في رقة القلب؛ وإنما ترق القلوب بذكر رقائق**[٢]. **الأحاديث وأخبار السلف الصالحين؛**

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج١، ص٥٢٧، ط: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة.

(٢) معنى الرقائق: كلمة تطلق في الاصطلاح على كل ما يرقق القلوب، ويؤدي إلى تأثرها بما يلقى عليها، وما تسمعه، وما تطلع عليه من المواعظ؛ فتصبح لينة رقيقة رحيمة لنفسها وبغيرها. وقد تطلق الرقائق على علوم الطريقة والسلوك، وكل ما يلطف به سر العبد، وتزول كثافات النفس. ينظر: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١ج، ص:٨٧١). ت: علي دحروج، ط: مكتبة لبنان. والرقة ضد الغلظة كما جاء في الحديث (أهل اليمن هم أرق أفئدة)، أي: ألين وأقبل للموعظة، ينظر: مسند أحمد، (٢ج، ص٣)، ت: السيد أبو المعاطي - عالم الكتب - بيروت.

لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها، والمراد بها».[١]. إن مخاطبة العقل وحده لا تكفي ما لم تكن ممزوجة بإثارة العاطفة؛ إذ إن مخاطبة العقل وحده لا تُنتج إلا معلومات نظرية جافة لا حياة فيها، أما مخاطبة العقل والعاطفة: فإنها تؤدي إلى الإقناع والتطبيق العملي.

ولهذا الدين الإسلاميُّ لم يخلُ في عصر من العصور من أهل التذوق وأرباب الفصاحة الذين جاشت صدورهم برقائق، فأخرجوها بعد طول صحبة وكثرة ورود في صور بيانية، بعدما عرفوا لها شَبَهًا ونظيرًا، أخرجوها في كتبهم بأدق عبارة.

والتصوير البياني أغراضه تتفق مع أغراض الرقائق والوعظ بصورة كبيرة، كالبيان، والتقريب، والترغيب، والترهيب، والتشويق، قال صاحب الكشاف: **«ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل، والنَّظائر: شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق؛ حتى تريك المتخيل في صورة المحقَق، والمتوهَم في معرض المتيقن، والغائب كالمشاهد»**[٢]. والتشبيه، والمجاز، والكناية من أشد وسائل الكلام رقة ورهافة وتأثرًا بالأحوال والطباع[٣].

أهداف الرسالة:

ولذلك هدفت إلى:

١- إيجاد سِفْرٍ يجمع الصور البيانية لأهل الرقائق، ويَتَتَبَّع مجازاتهم وتشبيهاتهم، وما تجوَّزُوا به من ألفاظ.

(١) صيد الخاطر، ص٢٢٨، ت: حسن المساحى، دار القلم دمشق، ط:١.
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (ج ١، ص٧٣، دار الكتاب العربي، بيروت.
(٣) التصوير البياني لمحمد محمد أبوموسى / ص٦٥/ مكتبة وهبة/ ط٨.

٢- ومعرفة كيفية توظيف أهل الرقائق للصورة في نقل أحاسيسهم، ومشاعرهم، وكيف تفصح الصورة عما بداخلهم من أسرار ومقاصد؟.

٣- ومعرفة الأشربة التي استقى منها أهل الرقائق التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، والمصادر التي استمدوا منها روائعهم من قرآن، وسنة، أو بيئة معينة.

منهج البحث:

١- منهج هذا البحث قائم على الاصطفاء الذي يسمى في اصطلاح المناطقة: الاستقراء الناقص. وكان ناقصًا؛ لأنني اكتفيت واستغنيت بالنظير عن النظير، واخترت ما ظننتُ أنه الأكثر إيحاءً من غيره، ومن لم يرج التمكن من الكمال في الإكثار كان حقيقًا أن يقنع بالاختصار، ثم بعد الاصطفاء صنفت المادة على حسب المقامات، واخترت المقامات؛ فِرارًا من تكرار مادة البحث، ثم اخترت ما مالت نفسي إليه، ووقفني نظري عليه، فرب مختار ما يكرهه غيره ومستحسن ما يستقبحه سواه، ولكلٍّ اجتهاد ونظر.

٢- وقد بدأت بجمع رجال الرقائق في القرون الثلاثة، ثم بجمع كتب الرقائق التي ألفت في هذه الفترة أو عن هذه الفترة، ثم بدأت في قراءة أصحها وأقدمها وما أثنى عليه العلماء منها.

٣- وقد تعرضت للمنثور من كلامهم دون المنظوم؛ لأمرين:

الأول: مخافة الإطالة فى البحث والعجز عن جمع المنثور والمنظوم.

والآخر: أن المنثور هو الغالب على كلامهم، فبالنظر إلى كتب الزهد عامة، وكتب ابن أبي الدنيا والحلية وصفة الصفوة خاصةً: نجد أن الغالب والأكثر هو الكلام المنثور، ولا يذكر الشعر إلا قليلًا.

٤- وتركت تخريج أسانيد القصص والآثار؛ لأنه أمر صعب قد تجاوزوه قديمًا، وهو عمل آخر، وبحث آخر، والمقام هنا يضيق، وحذف الإسناد في ميدان المواعظ والحكم مِمَّا لا صلة له بالأحاديث الشريفة وأخبار الصحابة: قد فعله التابعون. فهذا الحسن البصري - رحمه الله - في مجلس من مجالس وعظه: يسأله أحد المستمعين عن خبر من الأخبار: عمن؟، فيقول الحسن: وما تصنع بعمن؟، أما أنت فقد نالتك موعظته، وقامت عليك حجته(١). وَقِيلَ لذي النون المصري: مَا إِسْنَادُ الْحِكْمَةِ؟، قَالَ: «وُجُودُهَا»(٢).

ومن أصرح العبارات التي تدل على ذلك: الباب الذي عقده الخطيب البغدادي في كتابه: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، بعنوان: ما لا يفتقر كتبه إلى الإسناد، قال الخطيب: وأما أخبار الصالحين وحكايات الزهاد والمتعبدين ومواعظ البلغاء وحكم الأدباء: فالأسانيد زينة لها، وليست شرطا في تأديتها(٣).

وقد سلك هذا المسلك في حذف الإسناد الكثيرُ من العلماء، منهم: الإمام ابن الجوزي في كتابه: «صفة الصفوة»، ولو تركنا مثل هذه الأقوال؛ لعدم وجود إسناد لها: لتركنا علما كثيرا، لا سيما الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام.

٥- وربما أدرجتُ كلامًا من الرقائق خرج من أفواه جبابرةٍ كالحجاج بن يوسف، أو مَن ليس على الجادة، كالقطري بن فجاءة (من رؤساء الأزارقة)

(١) العقد الفريد ج١/ ص٦، وعيون الأخبار ج٢/ ص١٥٢.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم / ج٩/ ص٣٧٨/ دار الكتب العلمية، بيروت/ ط:١.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي / ج٢/ ص٢١٣/ ت: د. محمود الطحان/ ن: مكتبة المعارف - الرياض.

وغيره. وفعلت هذا؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها، ومن باب الإنصاف الذي قال فيه النبي ﷺ لأبي هريرة ﷺ: صدقك وهو كذوب.

٦- وهناك رجال عاشوا أكثر عمرهم في القرن الثالث، وماتوا في القرن الرابع، أدخلتهم ضمن القرن الثالث ما لم توجد قرينة أنهم ألفوا الكتاب فى القرن الرابع كالحكيم الترمذي، وأبي بكر الخرائطي، وابن الأعرابي، والخلدي.

٧- ووجدت أحيانًا أهل الرقائق يَرْوون آثارًا كثيرة عن الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - والصالحين، وقد تأثر بيانهم بها تأثرًا كبيرًا، فأوردت في مادة البحث أقوالا منسوبة للأنبياء وغيرهم ممن كانوا قبل عهد النبوة، وكان الضابط لاختيار هذه الأقوال: أن لا يعارض متنها الكتاب والسنة، وأن يكون بينها وبين كلام الصالحين رحم ونسب، وأن يكثر تداولها على ألسنة العلماء الربانيين.

٨- وجعلت المادة التي تتحد في المعنى الواحد مرتبةً حسب الوفاة؛ لمعرفة صاحب السبق، والآخذ من المأخوذ منه.

٩- ووضعت كل صورة بيانية في حقلها مع شاكلتها، وأردفتها بما هو منها بسبيل، مع إظهار ما تولد منها إن وُجد، وما جاء يصب في نفس حوضها مع اختلاف مائه ولونه، ومعرفة من تناول المألوف، وأخرجه من إلفه، وحوَّله إلى قطعة من نفس حيَّة.

١٠- وهناك صور بيانية ليست بقلادة الجيد، وليس فيها كبير شيء، إنما الأمر مشبه ومشبه به، وليس بينهما غور، أو ما يدعو إلى التأمل والتفكر، فأذكرها باختصار؛ لعل الصورة البيانية تكون في مرحلة ميلاد، وفي أول السُلَّم، وأن هناك من أهل القرون الأخرى مَن بنَى عليها، وجوّد وحسّن، وغيَّر، وقدَّم أو أخَّر، أو

حذف ما تزيد بحذفه الصورة البيانية بلاغة، فأذكر الصورة البيانية الأولى؛ لأنها هي اللبنة الأولى التي وضعت، وهي التاريخ للمعاني بعدها إذا أردنا أن نقرأ من أول السطر، فيكون ذكرها من باب الادخار؛ حتى أجد لها صاحبًا مُجودًا، أو يَخرج لها ذو رحم.

١١- وقد ذكرت وفاة صاحب الصورة البيانية أو وفاة الراوي عنه إن لم يوجد له تاريخ وفاة، وقد زاد عددهم عن المائتين وعشرين، غيرِ المجهولين منهم، والبحثُ عن وفياتهم أمر قد أخذ جهدًا كبيرًا، ووقتًا طويلًا.

الصعوبات:

١- من مشقات البحث التي واجهتها: عدم وجود شروح لكلام أهل الرقائق، فإذا غمض عليَّ القول، واستشكل فهمه أرجع لمَن تكلم في مثل هذا المعنى بعدهم ملتمسًا في ذلك تبسيطًا، أو توضيحًا، أو كشفًا، فأرجع أحيانًا بثمرة، وأحيانًا أرجع بخفي حنين.

٢- وهناك مقامات قلَّ فيها التصوير، وقد يأتي المقام خاليا من مجاز مرسل، فوقفت على مثل ذلك طويلًا؛ ألتمس تعليلًا أو سببًا، فلم يستقم لي تعليل يخلو من الاعتراض، والاستدراك عليه.

٣- وقد كنت آمل في بداية البحث جمع الشتات من كتب التصوير البياني ورسائله التي أُلفت في أهل الرقائق (مقترحًا لها أسماء) كبلاغة ابن المبارك، والزهد في العصر العباسي، والزهد في العصر الأموي، وزهد الحسن البصري، وغير ذلك من الأسماء، وكان ذلك أمنية طمعت فيها؛ لتوفير قراءة كثير من الكتب، ولكن ذلك لم يتأت لي؛ لعدة أسباب:



١- أن كثيرًا مما خطر في ذهني من أسماء الرجال لم أجد أحدًا ألف فيه كالزهد عند ابن المبارك، وغير ذلك.

٢- وكذلك بعض العصور لم يَكتبْ فيها أحد عن التصوير البياني عند زهادها، وبعضُ المؤلفات اكتفت بمعالجة التصوير عند الشعراء دون غيرهم من القصاصين والوعاظ والصحابة، زد على ذلك أن ما ألف في هذا البعض في الوصول إليه صعوبة ومشقة.

فأخذت على عاتقي أن أقرأ بنفسي في كتب القرون الثلاثة، أتناول منها ما يروق لي، وما يستحسنه ذوقي، ويوافقني على ذلك الاستحسان البعض، ويخالفني البعض، وأنا مؤمن أن فيها ما يروق غيري دوني، وما يفضله غيري؛ وذلك لسنة الاختلاف التي أمضاها الله في خلقه عز وجل.

ومما يجب أن يُذكر في المقدمة أن للسادة الأساتذة المشرفيْنِ والمناقشيْنِ تعديلات وإضافات ليست بالقليلة ولا بالهينة، فجزاهم الله عني وعن طلبة العلم خير الجزاء.

وكتبه

الفقير إلى عفو مولاه

بكري منصور بكري مصطفى

الباحث بكلية اللغة العربية بالقاهرة



التمهيد

معنى الرقائق:

الرقائق كلمة تطلق في الاصطلاح على كل ما يرقق القلوب، ويؤدي إلى تأثرها بما يُلقى عليها، وما تسمعه، وما تطلع عليه من المواعظ؛ فتصبح لينة رقيقة رحيمة لنفسها وبغيرها. وقد تطلق الرقائق على علوم الطريقة والسلوك، وكل ما يلطف به سر العبد، وتزول به كثافات النفس[١]. والرقة ضد الغلظة كما جاء في الحديث: «أهل اليمن هم أرق أفئدة»، أي: ألين وأقبل للموعظة[٢].

وقد قرن العلماء ذكر كلمة الرقائق بالزهد، وأطلقوها على مؤلفاتهم، ككتاب الزهد والرقائق لابن المبارك، والزهد والرقائق للخطيب البغدادي، والفوائد والزهد والرقائق والمراثي للخلدي، واعتبروا كل ما جاء في الزهد من الرقائق التي ترقق القلوب، وتُزيل ما عليها وحواليها من الرغبة في الدنيا.

ويندرج تحت ظلال الرقائق الحديث عن أعمال القلوب، وآفات القلوب، وآفات النفس، وإدارة النفس وترويضها، ومكايد الشيطان للنفس، وسبل الاحتراز منها، وقد بوَّب كثير من العلماء الذين ألفوا في الزهد أبوابًا مستقلة؛ للحديث عن ذلك.

---

(١) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم(١ج، ص٨٧١).

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٢ج، ص٣).

قد كان الكلام في الرقائق من الأشياء التي تُروح عن قلوبهم، وتشفيها، وتنقلها من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، وأحيانًا من سعة الدنيا إلى ضيق القبور: يقول الجنيد إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْجُنَيْدِ: وَجَدْتُ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَلَى ظَهْرِ كِتَابٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الْبُرْجُلَانِيِّ [البحر الطويل]:

مَـوَاعِـظُ رُهْـبَـانٍ وَذِكْـرُ فِعَالِهِمْ ... وَأَخْبَارُ صِدْقٍ عَنْ نُفُوسٍ كَوَافِرِ
مَوَاعِظُ تَشْفِينَا فَنَحْنُ نَحُوزُهَا ... وَإِنْ كَانَتِ الْأَنْبَاءُ عَنْ كُلِّ كَافِرِ
مَوَاعِظُ بِرٍّ تُـورِثُ النَّفْسَ عِبْرَةً ... وَتَتْرُكُهَا وَلْهَاءَ حَـوْلَ الْمَقَابِرِ
مَوَاعِظُ إِنْ تَسْأَمْ لَدَى النَّفْسِ ذِكْرُهَا ... تُهَيِّجُ أَحْـزَانًـا مِـنَ قَلْبٍ ثَائِرِ
فَدُونَكَ يَا ذَا الْفَهْمِ إِنْ كُنْتَ ذَا نُهًى ... فَبَادِرْ فَإِنَّ الْمَوْتَ أَوَّلُ زَائِـرِ(١).

والجدير بالإشارة هو اهتمام المحدثين وعنايتهم بإيراد أحاديث الزهد والرقائق في مؤلفاتهم الحديثية باسم كتاب الزهد، أو الرقائق، أو الورع، أمثال ابن حبان ومسلم في صحيحه، وابن شيبة في مصنفه، والترمذي في سننه. وهكذا الأدباء؛ فهم أيضًا خصصوا أبواب الزهد في مؤلفاتهم كما فعل ابن قتيبة في عيون الأخبار، والجاحظ في البيان والتبيين، وابن عبد ربه في العقد الفريد، وجاء في مؤلفاتهم ما هو صحيح، وما هو ضعيف، وما هو مقبول عقلًا وشرعًا، وما هو غير ذلك، وعلى العبد أن يميز ما بين هذا وهذا. وكان عند المحدثين اهتمام بالغ بأحاديث الزهد والرقائق؛ حيث كان من دأبهم أن يختموا المجالس العلمية على أحاديث الزهد والرقائق والورع؛ للنصح والتذكير وترقيق القلوب.

إطلالة تاريخية:

كان الكلام عن الرقائق في القرن الأول عبارة عن: مقولات كانت تنقل عن

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم/ ج١٠ / ص١٥١.



الصحابة، ومَن بعدهم، ثم تطور الأمر إلى جمع الأحاديث النبوية، وتفسيرها أحيانًا ببعض آثار الصحابة أو التابعين، وعَقد أبواب وفصول لضروب تصبُّ في دائرة الرقائق، وضَّمن أكثر مصنفي الكتب الستة والسنن مصنفاتهم بكتاب الزهد أو الرقاق، أو هما معًا، وأفرد جماعة من العلماء الزهد بالتصنيف، منهم على سبيل المثال:

- الزهد لابن المبارك ١٨١هـ.
- والزهد للمعافى الموصلي ١٨٥ هـ.
- والزهد لوكيع بن الجراح ١٩٧ هـ.
- والزهد لأسد السنة ٢١٢ هـ.
- والزهد لابن حنبل ٢٤١ هـ.
- والزهد للهناد بن السَّري ٢٤٣ هـ.
- والزهد لأبي داود السجستاني ٢٧٥ هـ.
- والزهد لأبي حاتم الرازي ٢٧٧ هـ.
- والزهد لأبي عاصم ٢٨٧ هـ.
- والزهد لابن أبي الدنيا ٢٨١ هـ.

وبدأ علماء القرن الأول والثاني بتحديد مباحث علم الرقائق، ووضع أسماء للأبواب، والفصول، وجاء القرن الثالث، فأفاض العلماء بما عندهم من: توضيح خواطر، وتصوير خلجات النفس؛ فخرج التصوير نابعًا من بيئة كل قرن، وكانت غايتهم إعلاء شأن الروح، والارتفاع عن أدران المادية الزائلة.

قد تميز القرن الثاني والثالث بالازدهار العلمي في سائر العلوم، وكثرت القراءة، وأخرج العلماء كل طاقتهم؛ لوضع أسس وقواعد كل علم وأخذوا يتنافسون في ذلك، وظهرت طبقات وكواكب من علماء التفسير والقراء والفقهاء والمحدثين والوعاظ، وأصبحت العلوم تميل إلى الاستقلال والاختصاص بعد أن كانت مبعثرة، وكثر التدوين والتصنيف والترتيب، ولا يخلو مصر أو بلد من عالم أو علماء، ففي مصر علماء، وفي نيسابور علماء، وفي خراسان علماء، والتفَّ الناسُ حول علمائهم، ونهلوا من معينهم، وبلغت الحركة العلمية مبلغًا عظيمًا، حيث شاهد العالم الإسلامي أئمة كبارًا أمثال:

- الزهري (ت١٢٤هـ).
- والأعمش (ت ١٤٧هـ).
- وابن جريج(ت١٥٠هـ).
- وابن إسحاق(ت١٥١ـ).
- ومعمر بن راشد (ت ١٥٣ـ).
- وشعبة(ت ١٦٠ـ).
- وسفيان الثوري(ت ١٦١هـ).
- وحماد بن سلمة (ت ١٦٧هـ).
- ومالك (ت ١٧٩هـ).
- وابن المبارك (ت ١٨١هـ).
- والمعتمر بن سليمان(ت ١٨٧هـ).



- وسفيان بن عيينة(ت ١٩٨هـ).
- وابن مهدي(ت ١٩٨هـ).
- وعبد الرازق (ت ٢١١هـ).
- وابن أبي شيبة(ت ٢٣٥هـ).
- والمحاسبي (ت ٢٤٣هـ).
- وابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ).

وكان المحاسبي ممن أجاد وأحسن في التأليف في الرقائق، وله عدة مصنفات، منها:

- الوصايا.
- والرعاية لحقوق الله.
- والتوبة.
- ورسالة المسترشدين.
- والمكاسب والورع والشبهة وبيان مباحها ومحظورها واختلاف الناس في طلبها والرد على الغالطين فيه.
- والتوهم في وصف أحوال الآخرة.
- وآداب النفوس.

أما ابن أبي الدنيا فكان له قدم في جمع الشتات، والترتيب والتصنيف، «ولد سنة ثمان ومائتين، وسمع إبراهيم بن المنذر الحزامي، وخالد بن خداش، وعلي

بن الجعد، وخلقًا كثيرًا، وقد أدب غير واحد من أولاد الخلفاء، منهم: المعتضد، وعلي بن المعتضد، وكان يجري له كل شهر خمسة عشر دينارًا، وكان يقصد أحاديث الزهد والرقائق، وكان لأجلها يكتب عن البرجلاني، ويترك عفان بن مسلم، وكان ذا مروءة، ثقة صدوقا، صنف أكثر من مائة مصنف في الزهد»[1].
منها على سبيل المثال[2].:

(الأَدب)، و: (اصطنَاع المَعْرُوف)، و: (إِصْلَاح المَال)، و: (الأَنوَاء)، و: (أَخْبَار المُلُوك)، و: (الأَخلاق)، و: (الإِخوَان)، و: (الانفرَاد)، و: (أَخْبَار الثَّوْرِيّ)، و: (الأَوْلِيَاء)، و: (الأَمْر بِالمَعْرُوف)، و: (الأَحزَان)، و: (أَخْبَار أُوَيْس)، و: (أَخْبَار مُعَاوِيَة)، و: (الإِخلاص)، و: (الأَيَّام وَاللَّيَالِي)، و: (أَهوَال القِيَامَة)، و: (إِنزَال الحَاجَة بِاللهِ)، و: (إِعْطَاء السَّائِل)، و: (انْقِلَاب الزَّمَان)، و: (أَعقَاب السُّرُور وَالأَحزَان وَالبكَاء)، و: (التَّوبَة)، و: (التَّهَجُّد)، و: (التَّفَكُّر وَالاعتبَار)، و: (التعَازي)، و: (تغيُّر الإخوَان)، و: (تَغْيِير الزَّمَان)، و: (التَّقْوَى)، و: (تعبِير الرُّؤيَا)، و: (التَّوَكُّل)، و: (الْجُوع)، و: (الجِهَاد)، و: (الجفَاة عِنْد المَوْت)، و: (الجيرَان)، و: (حسن الظَّنّ)، و: (الْحذر وَالشَّفقَة)، و: (حلم الحكمَاء)، و: (الْحلم)، و: (حلم الأَحْنَف)، و: (الحوائِج)، و: (الخمُوْل)، و: (الدّين وَالوفَاء)، و: (الدُّعَاء)، و: (ذمّ الدُّنْيَا)، و: (ذمّ الشَّهَوَات)، و: (ذمّ الْمُسكر)، و: (ذمّ الْبَغي)، و: (ذمّ الغيبَة)، و: (ذمّ الْحَسَد)، و: (ذمّ الفَقْر)، و: (ذمّ الرِّيَاء)، و: (ذمّ الرِّبَا)، و: (ذمّ الضحك)، و: (ذمّ البُخْل)، و: (الذّكر)، و: (الرُّهبَان)، و: (الرِّضَا)،

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٢/ ٣٤١)/ ت: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا/ ن: دار الكتب العلمية، بيروت/ ط:١.

(٢) سير أعلام النبلاء / ج١٣/ ص٣٩٧/ ط: الرسالة.



و: (الرِّقَّة)، و: (الزُّهْد)، و: (السَّخَاء)، و: (الشُّكر)، و: (الشَّيب)، و: (شرف الفَقْر)، و: (الصَّمت)، و: (الصَّدَقَة)، و: (صدقَة الْفطر)، و: (الصَّبْر)، و: (صفَة الجَنَّة)، و: (صفَة النَّار)، و: (صفَة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، و: (الصَّلَاة عَلَى النَّبِيِّ صلَّى الله عَلَيْهِ وَسلَّم)، و: (العُزلَة)، و: (العزَاء)، و: (عقوبَة الأَنْبِيَاء)، و: (العوائِد)، و: (العقوبَات)، و: (العيَال)، و: (العبَّاد)، و: (الْعوذ)، و: (العِلْم)، و: (الْعَفو)، و: (الْعُمر وَالشَّبَاب)، و: (الْفرج بَعْد الشِدَّة)، و: (الفتُوْنَ)، و: (فضَائِل القُرْآن)، و: (القصَاص)، و: (قَضَاء الحوائِج)، و: (قصر الأَمل)، و: (القُبُوْر)، و: (القنَاعَة)، و: (كَرَامَاتَ الأَوْلِيَاء)، و: (المدَارَة)، و: (مَنْ عَاشَ بَعْدَ المَوْتِ)، و: (الْمُحْتَضرِينَ)، و: (الْمَرَض وَالكفَّارَات)، و: (المَوْت)، و: (الْمُتَمَنِّينَ)، و: (مكَائِد الشَّيْطَان)، و: (كِتَاب المُروءة)، و: (مكَارم الأَخْلَاق)، و: (مجَابِي الدَّعوَة)، و: (محَاسبَة النَّفس)، و: (الْمَعيشَة)، و: (النَّوادر)، و: (النَّوَازع)، و: (الهُم وَالحزن)، و: (الوَرَع)، و: (الوصَايَا)، و: (الْوَجل)، و: (اليَقين).

مصادر أهل الرقائق، وبلاغتهم:

كان كتاب المولى - جل جلاله - المصدر الأول لأهل الرقائق، وحديثه عن الجنة والنار، والدنيا وقلتها وقلة متاعها، والانقطاع والتبتل، وقيام الليل والتهجد، ثم السنة النبوية المطهرة وما فيها من أمثال وعبر وقصص الأمم الماضية. نعم، اجتمع للقوم كتاب وسنة وشعرُ الجاهليينَ والمخضرمينَ، وأخبار الأمم السالفة، وسلمت ألسنتهم من الخلل، فلم يصبها ما أصاب من بعدهم، فمنهم من أدرك النبي ﷺ، ومنهم من سمع من صحابي، ومنهم من تتلمذ على يد تابعي.

امتزج ريقهم ودمهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وشربوا كثيرًا من أمثال الحكماء والعقلاء، كل ذلك كان له أثر واضح في بلاغتهم، ثم كثرة خلوتهم

وتفكيرهم، ولزومهم الصمت، وتنقيتهم الكلام كما ينقى جيد التمر، كل ذلك جعل كلامهم جوهرًا يُشتهي، وفاكهة تأتي بعد انقطاع، ولا عجب في ذلك؛ فالصف الأول منهم رباهم النبي ﷺ، والذين يلونهم رباهم صحابة النبي ﷺ، فكان منهم الحسن البصري الذي كان كلامه أشبه بكلام الأنبياء، وحاتم الأصم كان لقمان الحكمة.

قال رجل ليونس بن عبيد: أتعلم أحدًا يعمل بعمل الحسن؟، قال: والله ما أعرف أحدًا يقول بقوله، فكيف يعمل بمثل عمله؟!، قال: صفه لنا. قال: كان إذا أقبل فكأنه أقبل في دفن حميمه، وكان إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه، وكان إذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له[1].

قد عَمِل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في قلوبهم، فرقَّت، وظهر الزهد والتواضع على جوارحهم، ونطقت به ألسنتهم، فخرج صادقًا، أخبر عنهم محمد بن زياد الحارثي (الطويل):

تَخَالُهُمُ لِلْحِلْمِ صُمًّا عَنِ الْخَنَا ... وَخُرْسًا عَنِ الْفَحْشَاءِ، عِنْدَ التَّهَاجُرِ
وَمَرْضَى إِذَا لُقُوا حَيَاءً وَعِفَّةً ... وَعَنِ الْحِفَاظِ كَاللُّيُوثِ الْخَوَادِرِ
لَهُمْ ذُلُّ إِنْصَافٍ وَلِينُ تَوَاضُعٍ ... بِذُلِّهِمْ ذَلَّتْ رِقَابُ الْمَعَاشِرِ
كَأَنَّ بِهِمْ وَصْمًا يَخَافُونَ عَارَهُ ... وَمَا وَصَمَهُمْ إِلَّا اتِّقَاءُ الْمَعَايِرِ[2].

وقد استمدوا صورهم وتشبيهاتهم أيضًا من تراثهم الأدبي، «والشاعر والأديب لا تنمو ملكاته البيانية وهو عاطل، وإنما لا بد له من الخبرة بتراثه ووعيه

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٣/ ١١٨) ت: عبدالسلام هارون / ن: الخانجي القاهرة / ط:٧.
(٢) الحلم لابن أبي الدنيا (ص٣٥) / ت: محمد عبد القادر أحمد عطا/ ن: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت/ ط: ١.

وتمثله، وحينئذ تنطبع في نفسه صور التشبيهات، وكذلك المجازات والكنايات؛ لأن ما نقوله هنا صادق عليها صدقًا كاملًا، وتصير هذه الصور التي استمدها من التراث الأدبي كالصور التي التقطها من حياته المعاشة وبيئته الحية، ثم هي عند الدارس المتذوق تصادف هذا الرصيد النفسي، فيُحِسُّها إحساس الأديب بها، ومِن الواضح أننا نُحِسُّ ما في حنين الناقة من فيض، وإن كنا لم نسمعه، وكذلك نُحِسُّ ما في السراب من الخداع والضياع، وربما لم نره، وكذلك حد السيف وسنان الرمح وصلابة القناة، وتنادي الآظار وذعر الظباء، ومرارة العلقم، وغير ذلك، وهو كثير مما ترسَّخَ في نفوسنا بأجوائه وظلاله»[(١)].

«والتزود من مختلف الثقافات والارتشاف من مناهل العلوم والمعارف، وإمعان النظر وإعمال الفكر في ملكوت السماوات والأرض، وما تستجليه حواسنا، واستخلاص العبر من الحوادث والخطوب والمثلات، كل أولئك من شأنه أن يوسع أفق الأديب، ويخصب قريحته، ويشقق معلوماته، ويفتق خياله، ويعمق تفكيره، ويمهد سبيله إلى اقتناص الشوارد وتقييد الأوابد»[(٢)]. «وخيال المنشئ كاتبًا كان، أو شاعرًا، أو خطيبًا: يظهر في تأليف صوره، وتحبيرها بالمعلومات المختزنة لديه، وهذه المعلومات يلقفها مِمَّا تقع عليه حواسُّه، أو يقتبسُها من موارد العلوم والآداب والثقافات المختلفة التي حصَّلها، أو يستمليها من التجارب الشخصية التي مرت به في الحياة، وهذه كلها حقول خصيبة لا ينفد نتاجها، ولا يفنى محصولها»[(٣)].

---

(١) التصوير البياني لمحمد محمد أبوموسى/ ص ٨، ٢١٣.

(٢) فن التشبيه للجندي/ ج٣/ ص٨٣/ مكتبة نهضة مصر / ط:١.

(٣) فن التشبيه للجندي/ ج٣/ ص١٨٥.

التساهل في الأسانيد:

كان علماء الحديث يتشددون في أسانيد الأحاديث في الحلال والحرام، بينما كانوا يتساهلون في الأسانيد حينما تأتي في الترغيب والترهيب، والفضائل والزهد والرقائق، لا لإثبات الاستحباب بالحديث الضعيف الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي، فلا يثبت إلا بدليل شرعي، وإنما كانوا يريدون بهذا أن يكون العمل مِمَّا قد ثبت بنص أو إجماع، كالتلاوة والتسبيح والدعاء والصدقة والعتق والإحسان إلى الناس، وكراهة الكذب والخيانة ونحو ذلك، فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها وكراهة بعض الأعمال وعقابها، فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه، إذا روي في حديث نعلم أنه موضوع: جازت روايته والعمل به؛ بمعنى أن النفس ترجو ذلك الثواب، أو تخاف ذلك العقاب، يقول ابن صلاح في مقدمته: يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِمُ التَّسَاهُلُ فِي الْأَسَانِيدِ وَرِوَايَةِ مَا سِوَى الْمَوْضُوعِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ مِنْ غَيْرِ اهْتِمَامٍ بِبَيَانِ ضَعْفِهَا فِيمَا سِوَى صِفَاتِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهَا. وَذَلِكَ كَالْمَوَاعِظِ، وَالْقِصَصِ، وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ، وَسَائِرِ فُنُونِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَسَائِرِ مَا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالْأَحْكَامِ وَالْعَقَائِدِ. وَمِمَّنْ رُوِّينَا عَنْهُ التَّنْصِيصَ عَلَى التَّسَاهُلِ فِي نَحْوِ ذَلِكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ[1].

ومثال ذلك الترغيب والترهيب بالإسرائيليات، والمنامات، وكلمات السلف، والعلماء، ووقائع العلماء، ونحو ذلك مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم

(١) مقدمة ابن صلاح/ ص٢١٠/ ت: عبد اللطيف الهميم - ماهر ياسين الفحل/ ن: دار الكتب العلمية/ ط:١.

شرعي، ولكن يجوز أن يُذكر في الترغيب والترهيب والترجية والتخويف، فما علم حسنه أو قبحه بأدلة الشرع: فإن ذلك ينفع، ولا يضر، وسواء كان في نفس الأمر حقًا أو باطلًا، فما علم أنه باطل موضوع: لم يجز الالتفات إليه؛ فإن الكذب لا يفيد شيئًا، وإذا ثبت أنه صحيح أثبت به الأحكام، وإذا احتمل الأمرين روي؛ لإمكان صدقه، ولعدم المضرة في كذبه.

سبب ظهور كتب الزهد، وكثرة التأليف:

كثرة الفتوحات في القرون الثلاثة فَتَحَت عليهم الدنيا، فزهدوا عنها وهي مقبلة، وردُّوها قولًا وفعلًا واعتقادًا؛ فخرجت ألفاظهم جزلة، ومعانيهم فريدة؛ لأنها من قلوب صادقة عاملة، معايشة لما تقوله، واصفة ما تجده، نفوس تحارب الدنيا ومتاعها، فتنقل لنا من أرض المعركة الأحداث، وكان الزهد رد فعل لحياة الترف التي عاشها العباسيون، فقد ماجت الخلافة الإسلامية ببغداد ببذخ لا حد له.

ومما كان سببًا في الاهتمام بالزهد والرقائق وجودُ طائفة من أعيان ذلك العصر، سلكوا هذا المسلك من أمثال ابن المبارك، وأحمد بن عاصم الأنطاكي (ت٢٢٠هـ). وكان تلميذًا لأبي سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني، ومثل أبي نصر بشر بن الحارث الحافي (ت٢٢٧هـ). وكان زاهدًا عابدًا مشهورًا في عصره ومحدثًا ثقة، ومن أمثال عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ)، والإمام البرجلاني الذي كان له تأثير كبير في بعض تلاميذه، كابن أبي الدنيا الذي سلك طريقة شيخه في جمع أحاديث الرقائق وعدم الاشتغال كثيرًا بالصناعة الحديثة التي كانت تستحوذ على كثيرٍ من محدثي ذلك العصر، ويظهر هذا جليًا في تآليفه المشهورة التي عالج فيها كثيرًا من الأمراض النفسية والاجتماعية من حقد وحسد

وبخل ورياء وغضب وفحش وغير ذلك، وكان ضروريًا وجودُ هذا المسلك الذي يَعْتني بدراسة أحوال النفس وتوجيهها التوجيه الصحيح المبني على الكتاب الكريم والسنة المشرفة، ولا شك أن هذا التوجه دليل على حفظ الله - عز وجل - لهذا الدين؛ حيث وجه لكل علم من علوم الشريعة علماءً صادقين يخدمونه، ويضعون فيه المؤلفات التي يحتاج إليها المسلم في كل شؤون حياته المختلفة.

وقد زاد من قوة أهل السنة انحياز المدرسة الجديدة التي تمزج بين نص السنة وروحه في أعمق مراتبها، وهم العلماء والزهاد الأوائل الأبرياء من كل دخيل من النظريات أو الأقوال الموهمة المتشابهة. وكان رأس هذه المدرسة الحقيقي هو الحارث بن أسد المحاسبي الذي سبق الغزالي بمزج الفقه الإسلامي مع عنصره الروحاني والنفسي، فجاء أستاذًا فريدًا في بابه، سابقًا في منهجه، وقد أخذ منهجًا عميقًا في تحليل النفس.

التصوير البياني والرقائق:

التشبيه والتمثيل والاستعارة أصول كبيرة لا غنى للمتكلم عنها:

إذا قصد المتكلم تأكيد كلامه، أو إيضاحه، أو المبالغة فيه، أو إقامة دليل عليه، أو بيان قدره وأهميته: فالطريق الأقرب إلى ذلك والأجدر: التشبيه والتمثيل والاستعارة؛ لأن «هذه أصولٌ كبيرةٌ، كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام - إن لم نقل كُلَّها - متفرِّعةٌ عنها، وراجعةٌ إليها، وكأنها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرَّفَاتها، وأقطارٌ تُحيط بها من جهاتها»[1].

---

(١) أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني / ص٢٧/ ت: محمود شاكر أبو فهر/ ن: مطبعة المدني بالقاهرة - ط:١.

ويقول عبد القاهر عن الكناية: «أما الكنايةُ: فإنَّ السببَ في أنْ كانَ للإثباتِ بها مزيةٌ لا تكونُ للتَّصريحِ؛ لأنَّ كلَّ عاقلٍ يَعْلمُ إذا رجعَ إلى نفسهِ أَنَّ إثباتَ الصفةِ بإثباتِ دَليلِها، وإيجابَها بما هُو شاهِدٌ في وجودِها: آكدُ وأبلغُ في الدعوى من أن تجيء إليها، فتثبتها هكذا ساذَجًا غُفْلًا؛ وذلك أنَّكَ لا تدَّعي شاهدَ الصفةِ ودليلَهَا إلَّا والأَمرُ ظاهرٌ معروفٌ، وبحيثُ لا يُشَكُّ فيه، ولَا يُظَنُّ بالمُخْبر التجوُّزُ والغَلَطُ»(١).

والتشبيهُ جارٍ كثيرًا في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم، لم يبعد(٢). وقد يجد المتكلم في نفسه شيئًا لا تنتزعه الكلمات، ولا تُلامِسُه، بل لا تستطيع أن تشير إليه، مع أنها حافلة بوسائل الإشارة، والرمز، والإيحاء، وحينئذٍ تنهضُ ملكةُ البيان، وتصطنع وسائل أخرى تدخل بها وسائط بين اللغة وما التبس من غوامض النفس، فيتيسر بذلك سبيل العبارة عنه، وهذه الوسائطُ منتزعة من الأشياء الكائنة في حياة الناس، والمتكلمُ حالَ اقتناصها يُقلِّبُ وجهه فيما حوله، أو يرجعُ إلى أعماق نفسه، فيفتشُ عن الأشباه والنظائر، والأشياء التي يحضر بعضها بعضًا، ويدل بعضها على بعض، وكل ما يمكن أن يفتح به باب الإفهام لما يجد(٣).

يقول الدكتور أحمد مطلوب: «والصورة البيانية ... هي التشبيه، والمجاز،

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، لعبد القاهر الجرجاني / ص٧٣/ ت: محمود شاكر أبو فهر/ ن: مطبعة المدني بالقاهرة – ط:٣.

(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد / ج٣/ ص٧٠/ ت: محمد أبو الفضل/ دار الفكر العربي القاهرة/ ط:٣.

(٣) التصوير البياني، لمحمد محمد أبو موسى/ ص٦٠.

والكناية، وما يتصلُ بها من فنون تُضفي على الكلام رونقًا وجمالًا، وتنقل اللفظ من معناه الأول إلى معناه الثاني»[1]. «والاستعارة واحدة من أصول صناعة الأدب والشعر، ومن أبرِّ الوسائل البيانية بالحس الخفي، والشعور الغامض، والفكرة المحتجبة؛ من حيث إنها العون على إبراز كل ذلك والعبارة عنه، وإن من الأفكار والمشاعر ما يدق على اللغة المباشرة والأساليب الحقيقية، فلا تستطيع العبارات أن تقبض على بعض المعاني والخواطر والسوانح، وأن تحددها في إطار واضح، وإنما تقدر على ذلك العبارات المجازية التي تشير، وتومئ، وتستعين بالصور المحسوسة، أو المركوزة في الطباع، كما تستعين بالمشابهات القريبة، والبعيدة، والتشكيلات الخيالية؛ لتشيَ بالمعنى، وتكشف من جوانبه الجانب الذي يمكن أن يكشف عنه؛ لأن أكثر خواطر النفس مدفونة في الصدور لا تَفِي بها العبارة الوفاء الكامل مهما قويت ملكة البيان، فليس الحس والفكر والانفعال قابلًا أن ينتقل انتقالًا كاملًا من نفس إلى نفس على متن الكلمات أو جناحي التعبير كما ينتقل الشيءُ من مكان إلى مكان مهما طاعت اللغة، واقتدرت ملكة التعبير»[2].

وإذا علَّمَنا مدى ارتباط علم الرقائق بالنفس وأسرارها ومعالجتها والتأثير فيها علمنا مدى ارتباط التصوير البياني بعلم الرقائق وحاجة علم الرقائق للصور البيانية؛ لبَثِّ قواعده في النفس، وإثارة إعجابها، والتمكن منها بكل تشبيه جيد ومجاز مصيب.

عند النظر في مباحث علم الرقائق نجدُها أعمالًا قلبيَّة لا تقَع تحت الحواس، كالخوف والرجاء، والخشية والخضوع، والإخلاص والرياء، وغير ذلك من

---

(١) ينظر: دراسات بلاغية، د. أحمد مطلوب، نشر: دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص٥٣.
(٢) التصوير البياني، لمحمد محمد أبو موسى/ ص٣٧١.

خبايا النفوس التي تحتاج إلى صور بيانية؛ لتقريبها، ووصفها، وإيضاح كُنْهِها، ويستلزم ذلك وجود العاقل المتأمل المتأنِّي الذي يصوغ مِثْلَ هذه القوالب، ويعرف الأشباه والنظائر.

«والاستعارة ليست حركة في ألفاظ فارغة من معانيها ولا تلاعبًا بكلمات، وإنما هي إحساس وجداني عميق، ورؤية قلبية لهذه المشبهات التي تشكلت في الكلمات المستعارة»(١). «والإنسان من يوم أن وطئت قدمه هذه الأرض وهو من أمرها في كبد يكدح دائبًا في الكشف عن غوامض الكون، وإدناء ما فيه بعضه إلى بعض، وعقد العلاقات والصلات، أعني اكتشافها بواسطة التغلغل والاستغراق في تأمل الأشياء ولمح خصائصها، والبلاغيون كانوا على وعي دقيق بطبيعة هذا الكدح حين ذكروا أن مسيرة النفوس الشاعرة وكدها في كشف محجبات الوجود ليس خَلْقًا، وإنما هو كشف، فالشاعرُ لا يُحْدِث علاقات بين الأشياء، وإنما يكتشفها»(٢). و: «هناك مشابهات خَفِيّة يدقُّ المسلك إليها، فإذا تغلغل فكرُك فأدركها، فقد استحققتَ الفضل؛ ولذلك يُشَبَّه المدقِّق في المعاني بالغائص على الدُرّ»(٣).

الحاجة إلى التشبيه والتمثيل في الرقائق:

جعل الله - ﷻ - في الدنيا أشياء كثيرة تُذَكِّر بدار الآخرة، فنعيم الدنيا يُذَكِّر بنعيم الآخرة، ونار الدنيا تُذَكِّر بنار الآخرة. وقد عقد أهل الرقائق الصلات والعلاقات بين هذه الأشياء مثال:

---

(١) التصوير البياني، لمحمد محمد أبو موسى / ص٢٣٦.

(٢) التصوير البياني، لمحمد محمد أبو موسى / ص١٧٥.

(٣) أسرار البلاغة / ١٥٢/ ت: محمود شاكر/ مطبعة المدني بالقاهرة/ ط١.

تَذَكُّر نار الآخرة بنار الدنيا:

عَنْ أَبِي حَيَّانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ مَرَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِي يَنْفُخُونَ فِي الْكِيرِ، فَوَقَعَ[1].

عَنِ الْبَخْتَرِيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَارِيَةَ الْأَنْصَارِيِّ، «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعُبَّادِ وَقَفَ عَلَى كِيرِ حَدَّادٍ، وَقَدْ كُشِفَ عَنْهُ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي»، قَالَ: «ثُمَّ شَهِقَ شَهْقَةً، فَمَاتَ»[2]. وعَنْ مُغِيرَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ الْأَخْرَمِ قَالَ: مَرَّ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى الْحَدَّادِينَ، فَبَصُرَ بِحَدِيدَةٍ قَدْ أُحْمِيَتْ، فَبَكَى[3].

وقد كان ذم الدنيا، ووصف أمرها، وقلَّتُها، وقصرها، وخبثها: هو الشاغل الأكبر لأهل الرقائق، وأكثروا في وصفها والحديث عنها، وذكر أشباهها من الدنيا: عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «مَا أَكْثَرَ أَشْبَاهَ الدُّنْيَا مِنْهَا»[4]. فوصفوها بالمرأة العجوز وبالخنزيرة وبعروسة تقتل خطابها، وبجيفة، وبعيدان خبيثة، وهكذا، وسيأتي الحديث عن ذلك في الفصل الأول.

كانوا يرون معاني دينهم في كل شيء، روى طاووس عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَعْدَمَا أُصِيبَ فِي بَصَرِهِ يَجُذُّونَ حَجَرًا، وَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟»، قَالَ: يَجُذُّونَ حَجَرًا، فَقَالَ: «عُمَّالُ اللَّهِ أَقْوَى مِنْ هَؤُلَاءِ»[5]. ثم إننا نتعرف بالتشبيه والاستعارة ومسائل البلاغة «على أسرار الأدب، ودقيق إيماضه، وخفي وحيه،

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل(ص١٣٢) / دار الكتب العلمية / ط١.

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا(ص٦٣)/ دار ابن حزم / ط٣.

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل(ص١٣٤).

(٤) الزهد والرقائق لابن المبارك(ص٣)/ ت الأعظمي/ دار الكتب العلمية/ ط٢.

(٥) الزهد والرقائق لابن المبارك (ص٩).

وغوامض إشاراته، نريد أن نعرف بها ما ينطوي عليه الكلام من صدق الإحساس أو زيفه، وما فيه من عمق الدلالة أو سطحيتها[1].

رقائق الترغيب والترهيب وحاجتها إلى الصورة البيانية والكناية:

يُعمق التشبيه من قوة الترغيب والترهيب، ويُوقِع الكلام في القلب موقعًا، ويثبت في الخيال صورة، لا تكون بدونه؛ لذلك أكثر أهل الرقائق من الاستعانة بالتشبيه؛ لقوة التأثير في النفس، وإثارة الوجدان، وقوة الإقناع، يقول ابن الأثير: «وأما فائدةُ التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء: فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو معناه، وذلك أوْكَد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه. ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالًا حسنًا يدعو إلى الترغيب فيها. وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالًا قبيحًا يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه»[2]. والتمثيل «إن كان وعظًا: كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل»[3].

***

(١) التصوير البياني لمحمد محمد أبو موسى/ ص ١٠١.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير / ج٢/ ص٩٩/ ت: أحمد الحوفي / ن: دار نهضة مصر القاهرة/ ط:١.

(٣) أسرار البلاغة١١٦.



الفصل الأول:

التصوير البياني
في وصف الدنيا والوقاية منها

ويشتمل على عشرة مباحث:

المبحث الأول: التصوير البياني في مقام بطش الدنيا.

والمبحث الثاني: التصوير البياني في مقام غدر الدنيا.

والمبحث الثالث: التصوير البياني في مقام قبح الدنيا ومرارتها.

والمبحث الرابع: التصوير البياني في مقام قصر الدنيا.

والمبحث الخامس: التصوير البياني في مقام ترك الدنيا والزهد فيها.

والمبحث السادس: التصوير البياني في مقام المبادرة وقصر الأمل.

والمبحث السابع: التصوير البياني في مقام تزكية النفس.

والمبحث الثامن: التصوير البياني في مقام القناعة والرضا.

والمبحث التاسع: التصوير البياني في مقام طلب الحلال.

والمبحث العاشر: التصوير البياني في مقام التقوى والورع.



المبحث الأول:
التصوير البياني في مقام بطش الدنيا

المحتوى:

١) تشبيه حال الدنيا بحال البحر الهائج.

٢) وتشبيه حال من يركن إلى الدنيا بحال من يبني فوق موج البحر.

٣) وتشبيه طالب الدنيا بشارب ماء البحر.

٤) وتشبيه الدنيا بالغمر.

٥) واستعارة البحر للدنيا (مكنية) لازمها (الدفق).

٦) وتشبيه الدنيا ببحر التلف.

٧) وتشبيه الدنيا بالسم وبالحية.

٨) وتشبيه الدنيا بالسم القتَّال.

٩) واستعارة السبع للدنيا (مكنية) لازمها (آذَنَتْ بِصَرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ).

١٠) واستعارة (الخلب) لإغراءالدنيا (تبعية).

١١) واستعارة (المصارع) للدنيا (مكنية) لازمها (صرعة).

١٢) واستعارة (صالبة) للدنيا (مكنية) لازمها (صلبتهم).

١٣) وتشبيه حال من ينهمك في الدنيا بحال ذباب انغمس في عسل.

١٤) وتشبيه الدنيا بالسبع (مكنية) لازمها (تطلب الهارب).

١٥) وتشبيه الدنيا بالمزرعة.

١٦) واستعارة (والدة موت وناقضة عهد ومرتج عطية) للدنيا.

١٧) وتشبيه الدنيا بمفتاح لبيت مملوء بالشر، والزهد بمفتاح لبيت مملوء بالخير.

١٨) وتشبيه الأيام بالسهام.

١٩) واستعارة (مراتع الأشجان، ومرابض المنايا، وأوعية الرزايا) للدنيا.

٢٠) وتشبيه حال هلاك الناس في الدنيا بحال هلاك المنايا لمن ترميه بسهامها عنوة .

فإليك التفصيلَ:

١) تشبيه حال الدنيا بحال البحر الهائج:

جاء عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، الدُّنْيَا بَحْرٌ غَرِقَ فِيهِ أُنَاسٌ كَثِيرٌ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ سَفِينَتُكَ فِيهَا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَحَشْوُهَا الْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ؛ لَعَلَّكَ تَنْجُو»(١)

شبه حال الدنيا في غدرها بحال البحر الهائج، وعلى الإنسان أن يأخذ بأسباب النجاة، والإيمان بالله والعمل بطاعته والتوكل عليه من أسباب النجاة من غدرها، وكذلك إعداد السفينة إعدادًا جيدًا من مراعاة حسن الصناعة، وجودة الشراع من أسباب النجاة من البحر الهائج.

وتنكير المشبه به: «بحر» يفيد النوعية، أي: كالبحر الهائج الذي ينبغي لمن يريد أن يركبه أن يعد له سفينةً خاصة.

ومن أسباب تأثير هذا التمثيل في النفس: نقل النفس من المعقول إلى المحسوس المشاهد؛ لإبراز خطر الدنيا. ولما كان الهلاك أوضح في البحر وأبين من الهلاك في الدنيا عند الناس: جاء هلاك البحر مشبهًا به، وإن كان من أهلكتهم الدنيا أكثر ممن أهلكهم البحر، ولكن هلاك البحر لا ينكره أحد. أما هلاك الدنيا فأغلب الناس عنه في غفلة، ولا يوقنون به إلا عند وقوعه.

وقوله : «**سَفِينَتُكَ فِيهَا الْإِيمَانَ**»: الإيمان السفينة التي عليها كل مقومات الحياة في البحر، وهو في دين الله بضع وسبعون شعبة(٢).

---

(١) التوكل لابن أبي الدنيا / ص ٤٩/ ت: مصطفى عبد القادر عطا/ ن: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان/ ط: ١.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ بَابًا، أَوْ =

وقوله: «**وَحَشْوُهَا الْعَمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»: غرض تشبيه العمل بالحشو في هذا التعبير حثُّ السامع على الإكثار من العمل كما يكثر ربان السفينة من الحشو في جوانبها وأعلاها وأسافلها.

وقوله: «**وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ؛ لَعَلَّكَ تَنْجُو**»: التوكل شراع في التسيير والمضي، فإن المتوكل يسير مطمئنًا بإرشاد الله وتوجيهه فالله هو المصرف المدبر لأموره الموجه لخُطاه ومسيره. وسفينة هذا النص لها طابع خاص ولون خاص، أُنشئت خصيصًا؛ من أجل خوض هذا البحر (الدنيا) الذي لا ماء فيه، إنما ماؤه فتن تتلاطم، وإغراءات تموج، وشهوات تتعالى، ضرب العنق خير من السباحة فيها.

٢) تشبيه حال من يركن إلى الدنيا بحال من يبني فوق موج البحر:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَى مَوْجِ الْبَحْرِ دَارًا، تِلْكُمُ الدُّنْيَا فَلَاتَتَّخِذُوهَا قَرَارًا»(١).

شبه حال من يركن إلى الدنيا بحال من يبني فوق موج البحر، والصورة هنا من قبيل التشبيه التمثيلي، غرضه بيان حُمق الراكن إلى الدنيا، وتمام غفلته.

والموج لا قرار له، ولا ثبوت، إنما علو ثم هبوط في لمح البصر، والقائم على ظهر الموج عند الصعود يكون الأسفل عند الهبوط، كذلك الدنيا؛ كلما رفعت وضعت وفجعت بقدر رفعها، وكلما أعطت منعت بقدر عطائها، والدار دار غرور.

=بِضْعٌ وَسَبْعُونَ بَابًا أَعْظَمُهَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢١٢)/ت: كمال يوسف الحوت / ن:الرشد- الرياض / ط:١.

(١) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص١٥٩/ ن: دار ابن كثير، دمشق،/ ط: ١.

٣) تشبيه طالب الدنيا بشارب ماء البحر:

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «طَالِبُ الدُّنْيَا مِثْلُ شَارِبِ مَاءِ الْبَحْرِ، كُلَّمَا ازْدَادَ شُرْبًا ازْدَادَ عَطَشًا حَتَّى يَقْتُلَهُ»(١).

شبه طالب الدنيا الذي لا يكتفي ولا يقنع بالقليل ويستزيد مِمَّا يُحاسب عليه - بشارب ماء البحر الذي لا يرتوي ويزداد عطشًا حتى يقتله. والتشبيه هنا تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه هو: الاستزادة فيما فيه الهلاك مظنة المنفعة، فطالب الدنيا لا يهدأ ولا يشبع ولا يقنع، إنما تعلوه النهمة والاغتراف، ولا يملأ جوفه إلا التراب، ولا يوقفه إلا الموت.

- وهكذا تعددت نظرات الناظرين إلى الدنيا على أنها ماء، فمنهم من خاف دفقتها، ومنهم من خاف موجها، ومنهم من خاف غمرتها، ومنهم من حذَّر من شربها، وتتعدد النظرات وفقًا لطباع الأشخاص، ومعايشة كل منهم للدنيا، ومعانات كل منهم، فكل يُسكب تجربته في صورة مضاهية لتجربته، ويُشْبِه هذه النظرة التعددية ما رواه القرطبي في تفسير قول الله - تعالى -: «**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا**»(الكهف:٤٥). وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: إِنَّمَا شَبَّهَ - تَعَالَى - الدُّنْيَا بِالْمَاءِ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَسْتَقِرُّ فِي مَوْضِعٍ، كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تَبْقَى عَلَى وَاحِدٍ، وَلِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَسْتَقِيمُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ كَذَلِكَ الدُّنْيَا، وَلِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَبْقَى وَيَذْهَبُ كَذَلِكَ الدُّنْيَا تَفْنَى، وَلِأَنَّ الْمَاءَ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَهُ، وَلَا يَبْتَلَّ، كَذَلِكَ الدُّنْيَا؛ لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ دَخَلَهَا مِنْ فِتْنَتِهَا وَآفَتِهَا، وَلِأَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِقَدْرٍ كَانَ

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا / ص١٥١/ الأثر:٣٥٨.

نَافِعًا مُنْبِتًا، وَإِذَا جَاوَزَ الْمِقْدَارَ كَانَ ضَارًّا مُهْلِكًا، وَكَذَلِكَ الدُّنْيَا الْكَفَافُ مِنْهَا يَنْفَعُ وَفُضُولُهَا يَضُرُّ»[١].

٤) تشبيه الدنيا بالغمر:

قال أبو بكر ﷺ [ت:١٣هـ][٢]. فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ «رَأَيْتُ الدُّنْيَا قَدْ أَقْبَلَتْ وَلَمَّا تُقْبِلُ ، وَهِيَ جَائِيَةٌ، وَسَتَتَّخِذُونَ سُتُورَ الْحَرِيرِ وَنَضَائِدَ الدِّيبَاجِ، وَتَأْلَمُونَ ضَجَائِعَ الصُّوفِ الْأَزْرِيِّ، كَأَنَّ أَحَدَكُمْ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ، وَوَاللهِ لَأَنْ يُقَدَّمَ أَحَدُكُمْ فَيُضْرَبُ عُنُقُهُ - فِي غَيْرِ حَدٍّ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْبَحَ فِي غَمْرَةِ الدُّنْيَا»[٣].

قوله: «**خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْبَحَ فِي غَمْرَةِ الدُّنْيَا**»: شَبَّهَ الدنيا هنا بالغمرة، وهي: «**الماء الكثير**»، ورشح التشبيه بقوله: «يسبح»، والتشبيهُ يدلُّ على خطورة الدنيا ووعورة خوضها، وشدة إغرائها، وفتنها؛ حيث إن كثرة الماء مَهْلكة ومخافة، وقليل من ينجو.

٥) استعارة البحر للدنيا (مكنية) لازمها (الدفق):

قال داود بن يحيى بن يمان، عن أبيه، قال: قال بهيم [ت:٢٠١ - ٢١٠هـ][٤].:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن / تفسير القرطبي/ ج١٠/ ص٤١٢ / ت: أحمد البردوني / ن: دار الكتب المصرية - القاهرة / ط: ٢.

(٢) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم: توفي ١٣هـ. سير أعلام النبلاء ج٢/ ص٣٩٦/ ن: دار الحديث- القاهرة / ط: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٣) حلية الأولياء/ ج١/ ص٣٤.

(٤) بَهيم العِجْليُّ العابد، من نساك عبادان، يُكنى أبا بكر. تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٥/ ص٤٢ / للذهبي/ ت: الدكتور بشار عوّاد معروف/ ن: دار الغرب الإسلامي/ ط: الأولى، ٢٠٠٣ م.

«إنما أخاف أن تدفق الدنيا دفقة فتغرقني»[١].

استعار البحر للدنيا، والاستعارة هنا مكنية دل عليها الدفق، والبحر لا يكف عن الدفق، ودفقاته متنوعة الحجم والقوة، كذلك الدنيا؛ لا تكف عن الابتلاءات والمصائب والشدائد والمدلهمات، والخطوب مرة في الولد، ومرة في الجسد، ومرة في المال والأهل، وهكذا. وقد رشَّح الاستعارة وقواها بقوله: «**فتغرقني**».

٦) تشبيه الدنيا ببحر التلف:

جاء عن يحيي بن معاذ [ت:٢٨٥][٢]. أنه قال: «**الدُّنْيَا بَحْرُ التَّلَفِ، وَالنَّجَاةُ مِنْهَا الزُّهْدُ فِيهَا**»[٣]. شَبَّهَ الدنيا بالبحر تشبيهًا مؤكدًا، المشبه به جاء خبرًا للمشبه، وإضافة التلف إلى البحر أبرز وجه الشبه بين الدنيا والبحر، وبيّن أنها بحر فريد من نوعه، لا خير فيه، إنما هو شر محض، فلا سلامة ولا نجاة إلا بعدم النزول والاقتراب.

٧) تشبيه الدنيا بالسم وبالحية:

قال جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار [ت:١٣٠][٤].: «إِنَّ اللهَ جَعَلَ الدنيا دَارَ مَفرٍّ، والآخِرَةَ دَارَ مَقر، فَخُذُوا لمَقَرِكم مِن مَفرِكم، وأَخْرِجُوا الدُنيا مِن قُلُوبِكُم قَبْل أَن تَخرُجَ مِنهَا أَبْدَانُكم، ولَاتَهْتِكوا أَسْتَارَكمْ عِندَ مَن يَعْلمَ أَسْرَارَكم، فَفِى الدُنيا حُيِّيتُم، ولِغَيرها خُلقتِم، إِنَّما مَثلُ الدنيا كَالسُّمِ، أَكَلَه مَن لَا يَعْرِفُه، واجْتَنَبه

---

(١) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا / ص١٣٩/ ت: مجدي السيد إبراهيم/ ن: مكتبة القرآن.

(٢) يحيي بن معاذ الواعظ/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ ابن خلكان / ج٦/ ١٦٤/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر - بيروت/ ط:١٩٠٠م

(٣) حلية الأولياء / ج١٠/ ص٥٦

(٤) سير أعلام النبلاء / ج٥/ ص٣٦٤

مَن عَرِفَه، وَمَثَلُ الحَيةِ مَسُها لَينٌ، وفِي جَوفِها السُّمُ القَاتِل، يَحْذَرها ذَوو العُقُول، ويَهْوي إِليها الصِبْيانُ بِأَيدِيهِم»[١].

تعدد الأمر في هذا النص والغرض منه النصح، ثم أتى ابن دينار (رحمه الله) بذكر السم؛ ليناسب السياق، وبِدأ الكلام الذي قال فيه: «**وأخرجوا الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم**»، فشبه الدنيا بداءٍ في القلب ينبغي إخراجه والتخلي عنه، كذلك السم؛ ينبغي أن يتحاشاه كل ذي معرفة.

ثم شبهها بالحية؛ زيادة تأكيد على الغرض؛ لأن وجه الشبه في الصورتين هو: حذر ذوي العقول، ووقوع من لا عقول لهم، وزاد في تشبيهها بالحية «**مسها لين**»، وهو بريق الدنيا ولمعانها الذي في جوفه الهم والغم والنكد والندم والفقر الذي لا يزول عن العينين، يفتن بالبريق كل غافلٍ مغيب، ويحذرها كل عاقل ومجرب يري في أنيابها السم الناقع، ولله در الْحَسَنِ بْنِ السَّكَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ القائل: [البحر المتقارب]:

حَيَاتُكَ بِالْهَمِّ مَقْرُونَةٌ ... فَمَا تَقْطَعُ الْعَيْشَ إِلَّا بِهَمّ
لَذَاذَاتُ دُنْيَاكَ مَسْمُومَةٌ ... فَمَا تَأْكُلُ الشَّهْدَ إِلَّا بِسُمّ
إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمّ[٢].

٨) تشبيه الدنيا بالسم القتال:

يقول يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ [توفي:٢٨٥][٣].: «**الدُّنْيَا سُمُّ اللَّهِ الْقَتَّالُ لِعِبَادِهِ، فَخُذُوا**

---

(١) صفة الصفوة/ ج٣/ ص٢٨٥.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص٩٢.

(٣) يحيي بن معاذ الواعظ/ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ ابن خلكان/ ج٦/ ١٦٤/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر/ بيروت/ ط:١٩٠٠م.

مِنْهَا حَسْبَ مَا يُؤْخَذُ السُّمُّ فِي الْأَدْوِيَةِ؛ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ»[١].

سار يحيي بن معاذ (رحمه الله) على طريق مالك بن دينار (رحمه الله)، فشبه الدنيا بالسم، ولكن عنده يؤخذ من السم بحذر، أما عند مالك بن دينار (رحمه الله)، فنظر من زاوية أخرى رأى فيها المتعاطي للدنيا مغشي العين غائب العقل، ومن ثَم وصفه بعدم المعرفة، وكلمة: «حسب» معناها قدر، فيكفي من الدنيا القليل كزاد مسافر، والاستكثار من أحمالها عبء يثقل صاحبه في السفر، وكثرة السم مهلكة للجسد ممزقة للأحشاء، فيكفي من الترياق مُسكة، فالإقلال مفيد، والإكثار متلف. ووصف السم بالقتال - وهي من صيغ المبالغة -؛ لأن هذا هو عملها الدؤوب المستمر.

٩) استعارة السبع للدنيا (مكنية) لازمها (آذنتْ بصرْمٍ، ووَلَّتْ حذَّاءَ):

يصف عتبة بن غزوان ﷺ [ت:١٧هـ][٢]. إقبال الدنيا عليهم، وقد أصبحوا أمراء على الأمصار بعد ما كانوا قلة، لا طعام لهم إلا ورق الشجر، حتى تجرحت أشداقهم: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصَرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ»[٣].

شَبَّهَ الدنيا بسبع، ولكنه سبع غريب، كشفت عنه الاستعارة التخييلية؛ لأن السبع إذا افترس، وقضى نهمته: ولَّى كافًّا يديه، أما هذه فمجيؤها بصرم، وانصرافها بحذ، فلا خير في أولها ولا آخرها.

- والعمل في زمان بروز السبع وتكشير أنيابه وخروج مخالبه: أفضل من

(١) حلية الأولياء/ ج١٠/ ص٥٩.
(٢) عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب أبو غزوان المازني/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٣٠٦.
(٣) حلية/ ج١ / ص١٧١.

العمل فيما سواه؛ لأن العمل فيما سواه مُوات، والكل يستطيعه، أما هنا فلا أعوان ولا ناصر إلا لمن شمر ساعديه، واستعان بالله على الدنيا.

١٠) استعارة (الخلب) لإغراء الدنيا (تبعية):

قال عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ(ت:٦٥هـ)(١). قَالَ: «**لَأَنْ أَعْمَلَ الْيَوْمَ عَمَلًا أُقِيمُ عَلَيْهِ: أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ضِعْفِهِ فِيمَا مَضَى؛ لِأَنَّا حِينَ أَسْلَمْنَا وَقَعْنَا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ خَلَبَتْنَا الدُّنْيَا**»(٢).

قوله: «**خَلَبَتْنَا الدُّنْيَا**»: استعار فيه (الخلب) لما أحدثته الدنيا فيهم من غرور وفتن على سبيل الاستعارة التبعية، وهذا الخلب ليس إلا انفتاح الدنيا عليهم، وإقبالها بأحمرها وأصفرها الذي له بريق في العين، وكأنه قفاز من ذهب، وتحته مخالب، يعرفها كل ذي عقل.

وإضافةُ «**نا**» الجمع إلى خلبت؛ لبيان كثرة الممزقين والمجروحين المخدوشين وانعدام الهاربين السالمين، فالزمان زمان القابض على الجمر، والبحر قد غمر وعم.

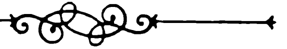
وقد وصفها قطري [ت:٧٩](٣). في خطبته المشهورة بأنها «**غوالة أكالة**»، فقال: «**فهل بلغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسا بفدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب، بل قد أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعقرتهم**

---

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي(ت:٦٥هـ)سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٧٣.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٦٢.

(٣) قطري بن الفجاءة أبو نعامة التميمي المازني/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٥٢.



بالمصائب»[١]. الفوادح والنوائب والمصائب هي أدوات القتل، أو هي مخالبها، واستعار المنجل أو السكين للمصائب، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه، وهو: «**عقر**» على سبيل الاستعارة المكنية، فبالمصائب تنحر بلا رحمة ولا قبول فدية، ولا تقف؛ فهي عمَّالة في البشر إلى يوم القيامة.

١١) استعارة (المصارع) للدنيا (مكنية) لازمها (صرعة):

كتب الحسن [ت: ١١٠ هـ][٢]. **إلى عمر بن عبدالعزيز** ﷺ **(في ذكر الدنيا)**، **فقال**: «**لَهَا فِي كُلِّ حِينٍ قَتِيلٌ تُذِلُّ مَنْ أَعَزَّهَا، وَتُفْقِرُ مَنْ جَمَعَهَا**»[٣]. **وذكر أيضًا**: «**وَاعْلَمْ أَنَّ صَرْعَتَهَا لَيْسَتْ كَالصَّرْعَةِ**».

قوله: «**وَاعْلَمْ أَنَّ صَرْعَتَهَا لَيْسَتْ كَالصَّرْعَةِ**»: صوَّر فيه الدنيا في صورة فارس مصارع فتَّاك قتَّال، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه، وهو: «**الصرعة**»، وصرعة الدنيا لا ينجو منها أحد، وأي صرعة ربما تذهب بحياة الإنسان الفانية. أما الدنيا فصرعتها تذهب بآخرته الباقية، فخسرانه خسران مبين، وهذا ما أفادته أداة النفي: «**ليست**»، وجعلت للدنيا صرعة مختلفة، وبينت أن لها شأنًا آخرَ يجعلها غير أفراد جنسها، وهذا النفي أضْفى على الصورة تهويلًا وغرابةً.

١٢) استعارة (صالبة) للدنيا (مكنية) لازمها (صلبتهم):

مما يزيد الأمر شناعة وغيظًا: أن فتكها يكون بمن أكرمها وآثرها وعمل لها وأعطاها القلب شرايين وأوردة، قَالَ الْحَسَنُ [ت: ١١٠ هـ][٤].: «**إِنَّ قَوْمًا أَكْرَمُوا**

---

(١) البيان والتبيين/ ج٢/ ص٨٧، ٨٦

(٢) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) حلية الأولياء / ج٢/ ص١٤٨.

(٤) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

الدُّنْيَا، فَصَلَبَتْهُمْ عَلَى الْخَشَبِ، فَأَهِينُوهَا، فَأَهْنَأُ مَا تَكُونُونَ إِذَا أَهَنْتُمُوهَا»[(١)]. أثبت الحسن (رحمه الله) الصلب للدنيا، وهو لازم الاستعارة المكنية، فأصبحت الدنيا صالبة لأهلها ولمن أكرموها.

وقوله: «**عَلَى الْخَشَبِ**»: الصلب غالبًا ما يكون على الخشب؛ ولكن ذكره هنا زيادة في شخوص صورة الصلب ومثولها في الخيال، وصلبهم على الخشب لون آخر من ألوان العذاب، وميتة بشعة لم تبعد عن أكل السباع، بل ربما تزيد، فالمصلوب مقهور منظور، ليس أمره ضربة واحدة، فينتهي أمره، إنما الصلب عذاب مستمر يرتقي سلم الموت درجة درجة، ويراوده العذاب في كل قطعة من جسده.

وقوله: «**فَأَهِينُوهَا، فَأَهْنَأُ مَا تَكُونُونَ إِذَا أَهَنْتُمُوهَا**»: استعار فيه الإهانة للترك وعدم المبالاة بها، بجامع عدم الاعتناء بكل، والاستعارة تبعية، وأهنأ ما يكون العبد إذا أخرجها من قلبه؛ لأن وجودها في القلب هم وغم، وحذر وتخوف، وانتظار وتوجس، وألم وتحسر، كلها أحوال يعيشها المصلوب.

هكذا تفعل بأبنائها وخطابها وأزواجها. ومن آثرها صرعت خده، قَالَت أُمُّ الدَّرْدَاءِ [ت:٣٠هـ][(٢)].: «**الدُّنْيَا أَسْحَرُ لِقَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَمَا آثَرَهَا عَبْدٌ قَطُّ إِلَا أَصْرَعَتْ خَدَّهُ**»[(٣)].

---

(١) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص٢٣٣/ الأثر:٦٣٦.

(٢) خيرة بنت أبي حدرد واسمه سلامة بن عمير بن أبي سلمة الأسلمي / الأعلام للزركلي ج٢/ ص٣٢٨.

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل/ ١٣٦/ الأثر:٩٢٠.

١٣) تشبيه حال من ينهمك فيَ الدنيا بحال ذباب انغمس في عسل:

جاء ذلك في التشبيه التمثيلي الذي ذكره سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ [ت:١٦١هـ][(١)].:

«إِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ رَغِيفٍ عَلَيْهِ عَسَلٌ مَرَّ بِهِ ذُبَابٌ، فَقَطَعَ جَنَاحَيْهِ، وَإِذَا مَرَّ بِرَغِيفٍ يَابِسٍ مَرَّ بِهِ سَلِيمًا»[(٢)].

شبه حال من يتعلق بالدنيا وينهمك في ملذاتها فتهلكه وتصرعه، وحال من يعرض عنها ولا يتعلق بها فيخرج منها سليمًا معافى - بحال ذباب يتعلق برغيف عسل، فينغمس فيه، فيهلك، وذباب يمر برغيف يابس، فلا يتعلق به، ولا يهلك، والوجه: هيئة الهلاك بالتعلق، والنجاة بالإعراض.

والعسل هنا ملذاتها وعطايها، ونعيمها الزائل، وشهواتها الهالكة، وإغراءاتها البتَّارة، وانظر إلى غفلة الذباب، وهو يقتحم ما فيه هلاكه، والتشبيه من التشبيهات الغربية، فما يخطر على الذهن أن رغيف العسل يقتل ويقطع، وهذا مقابل لما يعتقده الغارق في الدنيا الذي لا يرى الهلاك في ملذاتها، ويبعد عن عقله أن تكون ملذات الدنيا شرا، فهو والذباب في الاعتقاد سواء، وقد جمع العسل بين ميل النفوس إليه ومحبته وبين القتل والبتر، وهذا من غريب التشبيهات. كذلك الدنيا مع اتحاد المُغَرّر به، وهو من لا عقل له، الطائش في هواه، غير المتعقل لمثواه، والتشبيه تمثيلي.

وخلف المعنى سؤال، وهو: أين مصير الذباب بعد تقطع جناحيه؟، وهذا سؤال مهم، فالذباب هو من يدور عليه النص، وهو الطرف الأول، والرغيف

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩

(٢) حلية الأولياء/ ج٧ / ص٥٥.

الطرف الثاني، ولا شك أنه في خبال العسل مكتوف الأرجل، ثقيل الحركة إن كان هناك حركة، قد غرق في وحل الدنيا، لا يدري مما يصرخ؛ أعلى فقد جناحيه؟، أم على غوص أرجله؟، أم على مصير مجهول؟.

وقوله: «وَإِذَا مَرَّ بِرَغِيفٍ يَابِسٍ مَرَّ بِهِ سَلِيمًا»: الرغيف اليابس هو الخلو من ملذات الدنيا وشهواتها، وتفسير: «سليمًا»: هو أن المار عليه ناج آمن غير متوجس من أن يتعلق في رجله شيء، يمشي علي اليابس بثبات وطمأنينة يأمن من الانزلاق، غير مستكثر مما يُسأل عليه، ويحاسب عليه يوم القيامة، خفيف الظهر، ليس حاملا لوزر، يكفيه من العيش قليله وإن كان يابسًا بلا إدام، هؤلاء أسرع الناس عبورًا للرغيف ومرورًا إلى الجنة، يدخلونها قبل الأغنياء بخمسمائة سنة[1]. وعلى العاقل إزالة الغشاوة من على بصره حتى يراها سبعًا، ويتوحش منها كما يتوحش من السباع.

١٤) تشبيه الدنيا بالسبع (مكنية) لازمها (تطلب الهارب):

قال دَاوُدُ الطَّائِيَّ[ت:١٦٢هـ][2].: «تَوَحَّشْ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا تَتَوَحَّشُ مِنَ السِّبَاعِ»[3].

وقال أَبو سُلَيْمَانَ[ت:٢٠٥][4].: «الدُّنْيَا تَطْلُبُ الْهَارِبَ مِنْهَا، فَإِنْ أَدْرَكَتْهُ

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِنِصْفِ يَوْمٍ، وَهُوَ خَمْسُ مِائَةِ عَامٍ ». «مسند أحمد» (١٤/ ٢٠٨ ط الرسالة).

(٢) داود الطائي أبو سليمان بن نصير / سير أعلام النبلاء / ج٧/ ٤٢٢/ ط:الرسالة

(٣) حلية الأولياء/ ج٧/ ص٣٤٣

(٤) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد / سير أعلام النبلاء / ط: الرسالة ج١٠/ ص١٦٨/

جَرَحَتْهُ، وَإِنْ أَدْرَكَهَا الطَّالِبُ لَهَا قَتَلَتْهُ»[1].

شبه الدنيا بالسبع في طلب الفريسة، ثم حذف المشبه به، ودل عليه بلازم من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

وقوله: «**جرحته، قتلته**»: ترشيح للاستعارة، والسبع مفترس يطلق مخالبه على كل أحد كان مقبلًا أو هاربًا مدبرًا، فلا مفر منها إلا بالجد في الفرار والعزم في الهرب؛ مخافة الإدراك، ومن الفروق بين الكلامين هنا ذكر: «**جرحته**» للهارب، و: «**قتلته**» للطالب، فالهارب منها له مزيد كرامة ومزيد نجاة، فيخرج منها مخدوشًا مجروحًا، والطالب مقتول لا محالة، والصنف الثالث - وهو الهارب السالم - لم يذكر؛ لقلة هذا الصنف أو انعدامه، أو لضراوة السبع.

١٥) تشبيه الدنيا بالمزرعة:

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، كَمَا يَحْمِي الرَّاعِي الشَّفِيقُ غَنَمَهُ عَنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ»[2].

وجاء على لسان عيسى - عليه السلام - أنها مزرعة إبليس، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «**الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ إِبْلِيسَ، وَأَنْتُمْ عُمَّارُهَا**»[3].

---

(١) حلية الأولياء/ ج٩/ ص٢٥٨.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص١٢٦ / والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته/ ص٢٤٩/ الحديث١٩٢٧ / المؤلف:الألباني، أشرف على طبعه: زهير الشاويش/ ن: المكتب الإسلامي ط: المجددة والمزيدة والمنقحة

(٣) الزهد الكبير أبو بكر البيهقي/ ص١٣٩/ حديث ٢٦٧/ت: عامر أحمد حيدر/ ن: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت/ ط: ٣.

وعلى هذه الصورة نسج أهل الرقائق، وحولها حاموا.

شبه الدنيا بالمزرعة، مالكها إبليس، والغرض بيان بشاعة الدنيا، وشناعتها، وإظهارها عيانًا، فهي مزرعة إبليس، فماذا سيجني العبد منها؟!.

وقوله: «**وَأَنْتُمْ عُمَّارُهَا**»: زيادة في إيقاظ القوم، وحملهم على الفرار، وإشعارهم أنهم على خطر، وفي أرضِ ألغام وسباع محفوفة بأخطار وأهوال، وتنبيه القوم أنهم يعملون في المكان الخطأ، ويشيدون لمن لا يستحق، ويعملون عند من ليس بأهل لذ

١٦) استعارة (والدة موت وناقضة عهد ومرتج عطية) للدنيا:

ومن أبشع تشبيهات الدنيا أن تكون والدة الموت، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْس [توفي في زمن معاوية][(١)].: «**الدُّنْيَا وَالِدَةُ الْمَوْتِ، وَنَاقِضَةٌ لِلْمُبْرَمِ، وَمُرْتَجِعَةٌ لِلْعَطِيَّةِ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا يَجْرِي عَلَى مَا لَا يَدْرِي، وَكُلُّ مُسْتَقِرٍّ فِيهَا غَيْرُ رَاضٍ بِهَا، وَذَلِكَ شَهِيدٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارٍ**»[(٢)].

قوله: «**وَالِدَةُ الْمَوْتِ، وَنَاقِضَةٌ لِلْمُبْرَمِ، وَمُرْتَجِعَةٌ لِلْعَطِيَّةِ**»: المعنى قائم في هذه الصور الثلاث على التخييل المبني على الاستعارة المكنية؛ حيث شَبَّهَ الدنيا بوالدة تلد، وشبهها بمن ينقض العهود المبرمة، وهذا أغدر ما يكون، وبمن يرتجع العطية، وهذا كلب عائد في قيئه، هذه الصور الثلاث أظهرت أبشع ما في الدنيا، وأبرزت قبحها.

والتلازم الذي بين الموت والدنيا هو التلازم الذي بين الأم وابنها؛ فكما أن

---

(١) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٥

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا ص١٧٩/ الأثر ٤٤٨.

الأم سبب في وجود الابن كذلك الدنيا سبب في وجود الموت، فكيف الفرح بها والسرور فيها؟.

١٧) تشبيه الدنيا بمفتاح لبيت مملوء بالشر، والزهد بمفتاح لبيت مملوء بالخير:

قال الْفُضَيْلُ بْنَ عِيَاضٍ (١٠٥-١٨٧هـ)[١].: «**جُعِلَ الشَّرُّ كُلُّهُ فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مُفْتَاحُهُ حُبَّ الدُّنْيَا، وَجُعِلَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي بَيْتٍ، وَجُعِلَ مُفْتَاحُهُ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا**»[٢].

شبه حب الدنيا بمفتاح لبيت مملوء بالشر، والزهد بمفتاح لبيت مملوء بالخير، والصورة هنا من قبيل التشبيه التمثيلي المركب، والوجه: هو الهيئة الحاصلة من الهلاك في التعلق والنجاة في الإعراض.

وإنما شبَّه حب الدنيا بمفتاح، والزهد كذلك؛ لتأنس النفس بهذا التصوير الذي يهدف إلى التقريب، وهذه مفاتيح لم يعهدها الناس، وبيوت لا تُشاهد إلا بالتخيل، والاستعارة والتشبيه غرضهما العام إظهار العلاقة بين الشر وحب الدنيا، وبين الخير والزهد في الدنيا.

وأتى هنا بأشياء بسيطة معروفة: (بيت، ومفتاح)؛ لتقريب أشياء معقولة، أو ما ينكره بعض الناس، ويتجاهله، فمن أحب الدنيا فقد فتح على نفسه مرابض المنايا وسباع الأشجان، ورأى الخبايا، فحذارِ حذارِ مِن هذا المفتاح الذي يتعس به كل من اقتناه، ويشقى كل من تمناه، وينجو منه كل من زهد فيه، وتحاشاه.

---

(١) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣/ ن: دار العلم للملايين/ ط: الخامسة عشر - ٢٠٠٢م.
(٢) الزهد لابن أبي الدنيا / ص١٣٦/ الأثر ٣٠٦

١٨) تشبيه الأيام بالسهام:

قال ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ][1]. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «الْأَيَّامُ سِهَامٌ، وَالنَّاسُ أَغْرَاضٌ، وَالدَّهْرُ يَرْمِيكَ كُلَّ يَوْمٍ بِسِهَامِهِ، وَيَتَخَرَّمُكَ بِلَيَالِيهِ وَأَيَّامِهِ، حَتَّى يَسْتَغْرِقَ جَمِيعَ أَجْزَائِكَ. فَكَمْ بَقَاءُ سَلَامَتِكَ مَعَ وُقُوعِ الْأَيَّامِ بِكَ، وَسُرْعَةِ اللَّيَالِي فِي بَدَنِكَ؟، لَوْ كُشِفَ لَكَ عَمَّا أَحْدَثَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ مِنَ النَّقْصِ، وَمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ هَدْمِ مَا بَقِيَ مِنْكَ لَاسْتَوْحَشْتَ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَيْكَ، وَاسْتَثْقَلْتَ مَمَرَّ السَّاعَاتِ بِكَ، وَلَكِنْ تَدْبِيرُ اللَّهِ فَوْقَ الِاعْتِبَارِ، وَبِالسُّلُوِّ عَنْ غَوَائِلِ الدُّنْيَا وُجِدَ طَعْمُ لَذَّتِهَا، وَإِنَّهَا لَأَمَرُّ مِنَ الْعَلْقَمِ إِذَا عَجَنَهَا الْحَكِيمُ، وَأَقَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسَمَّى بِقَلِيلٍ، وَقَدْ أَغْنَتِ الْوَاصِفَ لِعُيُوبِهَا بِظَاهِرِ أَفْعَالِهَا، وَمَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ أَكْثَرُ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ الْوَاعِظُ، نَسْتَوْهِبُ اللَّهَ رُشْدًا إِلَى الصَّوَابِ»[2].

قوله: «الْأَيَّامُ سِهَامٌ»: شَبَّهَ فيه الأيام بسهام، والسهام هنا عند الحكيم هي الأيام، وهذا أشد وأوجع؛ لأن سهم المنايا واحد، وينتهي الأجل والألم، أما كون الأيام سهاما فهذا ما لا طاقة لأحد به.

ثم فرَّع على التشبيه بقوله: «وَالدَّهْرُ يَرْمِيكَ كُلَّ يَوْمٍ بِسِهَامِهِ»، وهو مجاز عقلي علاقته الزمانية، أسند الفعل (يرمي) إلى الزمان، وأحد طرفي هذا المجاز (بسهامه) مجاز لغوي؛ حيث استعار السهام للشدائد: (استعارة تصريحية أصلية).

وقوله: «وَيَتَخَرَّمُكَ بِلَيَالِيهِ وَأَيَّامِهِ، حَتَّى يَسْتَغْرِقَ جَمِيعَ أَجْزَائِكَ»: مجاز عقلي

---

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد[المتوفي:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر – بيروت/ ط:١.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١٢٠/ حديث ٢٦٨.

علاقته الزمانية يتضافر مع المجاز السابق؛ لبيان شدة عمل الدهر في الإنسان وقوة تغييره، والغرض هنا: بيان الأمر والتبصير بحراك الأيام وانقضائها، وإبرازها في هذه الصورة التي لا ينكرها عاقل، وكشفها لكل ناظر، يقول: «**لَوْ كُشِفَ لَكَ عَمَّا أَحْدَثَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ مِنَ النَّقْصِ، وَمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ هَدْم مَا بَقِيَ مِنْك لَاسْتَوْحَشْتَ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَيْكَ، وَاسْتَثْقَلْتَ مَمَرَّ السَّاعَاتِ بِكَ، وَلَكِنْ تَدْبِيرُ اللَّهِ فَوْقَ الِاعْتِبَارِ**».

١٩) استعارة (مراتع الأشجان، ومرابض المنايا، وأوعية الرزايا) للدنيا:

قال ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ][١]. **قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ - وَذَكَرَ الدُّنْيَا -: فَمَا لِي وَلِلْمُقَامِ فِي مَرَاتِعِ الْأَشْجَانِ، وَمَرَابِضِ الْمَنَايَا، وَأَوْعِيَةِ الرَّزَايَا**»[٢].

صوَّر الدنيا في صورة «**مراتع، مرابض، أوعية**» على سبيل الاستعارة التصريحية، وقيد كل مستعار بقيد، فالدنيا مراتع، ولكن للأشجان، لا لشيء آخر، ومرابض للمنايا، وأوعية لا تحوي إلا الرزايا، والصور الثلاث تبث في النفس خوفًا وهلعًا، وتُبرز الدنيا في أقبح صورة.

قوله: «**مراتع الأشجان**»: هذه الصورة فتحت بابًا من الخيال أمام السامع يذهب فيه ذهنه كل مذهب، حتى يدرك ما في الصورة من بشاعة، فالأشجان أصبحت غَنَمًا ترتع على سبيل الاستعارة المكنية، إنه غَنم من نوع خاص، في مرتع من نوع خاص، لا اتفاق بين الناس على شكله ووصفه وصورته، بل الأمر متروك للتحليق، والانطلاق في الخيال، كلٌّ حسب ثقافته وانطلاق خياله وانتشار ذهنه، وطريقة تفيكره.

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد[المتوفي:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر - بيروت/ ط:١.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص١٢٩

ويقال مثل هذا في قوله: «وَمَرَابِضِ الْمَنَايَا، وَأَوْعِيَةِ الرَّزَايَا»: صوَّر المنايا في صورة أغنام رابضة، ونقلها من المعقول إلى المحسوس في أهول صورة، والاستعارة مكنية، «وَأَوْعِيَةِ الرَّزَايَا». وذِكر أوعية بلفظ الجمع: له عمله وتأثيره الذي لا يُؤديه المفرد: «وعاء»، فلو كان وعاءً لتحاشيناه وصبرنا على أذاه، ولكن كيف بالسير في دنيا أو أرض مملوءة بأوعية الرزايا عن اليمن والشمال، بها أحزان وأشجان ترتعُ ومنايا رابضة منتظرة؛ حتى تقوم وتنهب من حان أجله.

٢٠) تشبيه حال هلاك الناس في الدنيا بحال هلاك المنايا لمن ترميه بسهامها عنوة:

قال أبو العباس المبرد [ت:٢٨٦هـ][١]. يروى عن جعفر بن محمد أنه قال: مات أخ لبعض ملوك اليمن، فعزاه بعض العرب: «إنما نحن في الدنيا أغراضٌ تَنْتَضلنا فيها المنايا، ونَهب المصائب، مع كل جَرْعة شَرْقة، وفي كل أكلة غُصص. لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل معمَّر يومًا من عُمره إلا بهَدم آخَر؛ من أجَله، ولا تحدث له زيادة في أَكْلة إلا بنفِد ما قبلها من رزق، ولا يَحيا لَه أَثر إلا مَات له أَثر. فَنَحن أَعْوَان الحُتُوف على أَنْفُسِنا، وأَنْفُسنا تسوقُنا إلى الفناء، فمن أين نرجو البقاء؟، وهذا الليل والنهار، لا يرفعان من شيء شرفًا إلا أُشرعا في هَدم ما رَفَعا، وتَفْريق ما جَمَعا، فاطلب الخير وأهله، واعْلم أن خيرًا من الخير معطيه، وشرًا من الشر فَاعله، والسلام»[٢].

---

(١) المبرد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر / سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ٥٧٧

(٢) التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا/ ص٧٦ / أبو العباس، المعروف بالمبرد/ ت: إبراهيم محمد حسن الجمل/ ن: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

قوله: «**إنما نحن في الدنيا أغراضٌ تَنْتَضلنا فيها المنايا**»: **شَبَّهَ** حال هلاك الناس في الدنيا بحال هلاك المنايا لمن ترميه بسهامها عنوة، والتشبيه تمثيلي، والوجه: الهلاك دون هوادة. وقد دل الفعل «**تنتضل**» على تجدد سقوط الأنفس الواحدة تلو الأخرى.

وقوله: «**ونهب المصائب**»: أي: مأخوذ المصائب، وما تنتهبه، فالمصائب سباع (استعارة مكنية) تنتهب بني البشر، والاستعارة أفادت وحشية المصائب وقوة ضررها.

وقوله: «فنحن أعوان الحتوف على أنفسنا، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء»، وهنا انشقت النفس إلى اثنين بينهما صراع، وهما: «**نحن**»، و: «**وأنفسنا**»، فنحن أعوان للحتوف على أنفسنا، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء، عداءٌ متبادل، وخراب ذاتي، وهدم داخلي.

وقوله: «**وأنفسنا تسوقُنا إلى الفناء**»: النفس قائدة سائقة، ونحن منقادون لها (استعارة مكنية)، وأصبح في الصورة البيانية أعوان ومساعدون للحتوف، وهم «**نحن**».

* * *

والخلاصة:

قد دارت الصور البيانية في وصف بطش الدنيا بين: البحر، والماء، والتلف، والغرق، والعطش، والموج، والسباحة، والسم، والحية، والسبع، والصالب المفترس، ومفتاح الشر، والموت، والبقرة المهلكة.

وهي في مجملها صورٌ بيانية متعمقة في وصف الدنيا بالغدر والخداع، وأنها براقة لكنها خدَّاعة.

وهي صورٌ تتناسب مع غدر الدنيا ونقضها للعهود والمواثيق، وتُؤذن بعدم الركون إلي الدنيا؛ لأنها مهما أظهرت لك الخيرَ فستفضي بك لا محالة يومًا ما إلى الشر والهلاك والخراب.

المبحث الثاني:
التصوير البياني في مقام غدر الدنيا

المحتوى:

١) استعارة المرأة اللئيمة للدنيا.

٢) وتشبيه الدنيا بعروس محلاة.

٣) وتشبيه انفتاح الدنيا وزهرتها بعروس تعرضت لزوجها.

٤) و[أم الدفر] كناية عن الدنيا.

٥) واستعارة السحارة للدنيا.

٦) وتشبيه الدنيا بالنذلة.

٧) وتشبيه حال المستغني بالدنيا بحال من يطفئ النار بالتبن.

٨) واستعارة المرضع للدنيا.

٩) و[محادثة الدنيا] استعارة تخييلية.

١٠) واستعارة المرأة الساخرة للدنيا.

١١) وتشبيه قلة الرخاء بالغيبة، وكثرة البلاء بالمزنة.

١) استعارة المرأة اللئيمة للدنيا:

قَالَ أَبو سُلَيْمَانَ الداراني [ت:٢٠٥][(١)].: «إِذَا جَاءَتِ الدُّنْيَا إِلَى الْقَلْبِ تَرَحَّلَتِ الآخرة مِنْهُ، وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا فِي الْقَلْبِ لَمْ تَجِئِ الآخرة تَزْحَمُهَا؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا لَئِيمَةٌ، وَالآخرة عَزِيزَةٌ»[(٢)].

أتى أبو سليمان بالأمور العقلية والأحداث العقلية، فجسدها في صورة امرأتين، إحداهن عزيزة، والآخرة لئيمة، وإثبات اللؤم للدنيا استعارة تخييلية، والمرأة العزيزة لا تقبل أبدًا أن تدخل وتقتحم وتتطفل، وإذا دخلت عليها اللئيمة فارقت، وتركت لها كل مطرح، أراد أبو سليمان بهذه الاستعارة المكنية أن يُبَيِّن أن حب الدنيا يُخرج الآخرة من القلب، وتأبى الآخرة أن يكون لها شريك في القلب، وحرام على قلب فيه حب الدنيا أن تدخله الآخرة؛ لعِزة الآخرة، وكما أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب أو صور: كذلك معرفة الله واليوم الآخر والإيمان به، تلك أمورٌ لا تدخل قلبًا فيه دنيا شمطاء شوهاء حدباء.

٢) تشبيه الدنيا بعروس محلاة:

كتب الحسن [ت:١١٠هـ][(٣)]. إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ كتابًا ذكر فيه صفات الدنيا، نقتبس منها ما يناسب المقام، ونُرجئ الباقي إلى مقامه، قال له:

«أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ ظَعْنٍ، لَيْسَتْ بِدَارِ إِقَامَةٍ، إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْهَا آدَمُ؛ عُقُوبَةً فَاحْذَرْهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ الزَّادَ مِنْهَا تَرْكُهَا، وَالْغِنَى فِيهَا فَقْرُهَا». وقال:

---

(١) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد / سير أعلام النبلاء / ط: الرسالة ج١٠/ ص١٦٨/

(٢) حلية الأولياء/ ج٩ / ص٢٦٠.

(٣) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧/

«وَاحْذَرْ هَذِهِ الدَّارَ الْغَرَّارَةَ الَّتِي قَدْ زُيِّنَتْ بِخُدَعِهَا، وَتَحَلَّتْ بِآمَالِهَا، وَتَشَوَّقَتْ لِخُطَّابِهَا، وَفُتِنَتْ بِغُرُورِهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالْعَرُوسِ الْمُحَلَّاةِ، الْعُيُونُ إِلَيْهَا نَاظِرَةٌ، وَالْقُلُوبُ إِلَيْهَا وَالِهَةٌ، وَالنُّفُوسُ لَهَا عَاشِقَةٌ، وَهِيَ لِأَزْوَاجِهَا كُلِّهِمْ قَاتِلَةٌ»[١].

هنا حدد المصطلحات التي لا يعرفها كثير من الناس، فجعل الترك منها زادًا، والغنى فيها فقرًا، وهذا كلام غير معهود، ولا يعقله إلا العالمون.

وشبه الدنيا بالعروس المحلاة، وصوَّر المعقولات في صورة محسوسات، فزينتها خِدَع، وحِلِيُّها آمال، ففتن بهذا خُطابها وأزواجها فقط. وقوله: «**زينت، وتحلت**»: ترشيح للتشبيه، ثم أسدل الستار على هذا الفرحة الغامرة والنشوة الهائجة بقوله: «**وَهِيَ لِأَزْوَاجِهَا كُلِّهِمْ قَاتِلَةٌ**».

ثم ترك للقارئ أن يتذوق مرارة الغدر بعد فرحة وعهد، وموعد ووعد.

ويصف مصير أحد الخطَّاب، فيقول: «**فَذَهَبَ بِكَمَدِهِ، فَلَمْ يُدْرِكْ مِنْهَا مَا طَلَبَ، وَلَمْ يُرَوِّحْ نَفْسَهُ مِنَ التَّعَبِ، خَرَجَ بِغَيْرِ زَادٍ، وَقَدِمَ عَلَى غَيْرِ مِهَادٍ**».

ثم يزيد الحسن (رحمه الله) في توضيح ذلك الخداع والغرور، فيقول: «**وَالنَّافِعُ مِنْهَا غَدًا ضَارًّا، قَدْ وُصِلَ الرَّجَاءُ فِيهَا بِالْبَلَاءِ، وَجُعِلَ الْبَقَاءُ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ، فَسُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، لَا يَرْجِعُ مِنْهَا مَا وَلَّى، فَأَدْبَرَ، وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ، فَيُسْتَنْظَرُ، أَمَانِيهَا كَاذِبَةٌ، وَآمَالُهَا بَاطِلَةٌ، وَصَفْوُهَا كَدَرٌ، وَعَيْشُهَا نَكِدٌ**».

وجاء أيضًا في هذا المعنى قول أبي حازم: [ت:١٣٩هـ][٢].: «**ما في الدنيا**

(١) حلية الأولياء/ ج٦/ ٣١٢.

(٢) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ أَبُو حَازِمٍ [ت:١٣٩هـ] الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي /ج١٥/ ص١٩٩/ ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى/ ن: دار إحياء التراث – بيروت/ عام النشر: ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

شيء يسرك إلا وقد أُلزق به شيء يسوءك»[١].

أي: إلا اتبعه شيء يسوءك، استعار الإلزاق للإتباع، على سبيل الاستعارة التبعية؛ لبيان سرعة الإتباع وعدم تأخر المُحزِن فيها، وعدم مكث المسر فيها، وإظهار أن النكد ملصق بالسرور مخبوء خلفه، خبئته الدنيا خِداعًا وغدرًا، فما مُلأ بيتٌ فرحًا إلا ملأ عَبْرة.

وقريب من معنى هذه الكناية ما أورده أبو العباس المبرد [ت:٢٨٦هـ][٢]. «يروي عن جعفر بن محمد أنه قال: مات أخ لبعض ملوك اليمن، فعزاه بعض العرب قائلًا:

«مع كل جَرْعة شَرْقة، وفي كل أكلة غُصص، لا تنال نعمة إلا بِفِراق أخرى، ولا يستقبل معمَّر يومًا من عُمره إلا بِهَدم آخر من أجله، ولا تَحدث له زيادة في أَكْلة إلا بنفاد ما قبلها من رِزق، ولا يَحيَا له أثرٌ إلا مَات له أثر»[٣].

ومن هذا المعنى أيضًا قول قطري [ت:٧٩هـ].[٤]. في خطبته المشهورة: **«ولم يلق من سرائها بطنًا إلا منحته من ضرّائها ظهرًا»**[٥].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي/ ج٢/ ص١٦٤ / ت: محمود فاخوري - د. محمد رواس قلعه جي / ن: دار المعرفة بيروت، ط ٢.

(٢) المبرد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر / سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ٥٧٧

(٣) التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا]/ ص٧٦.

(٤) قطري بن الفجاءة أبو نعامة التميمي المازني/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٥٢.

(٥) البيان والتبيين/ ج٢/ ص٨٧، ٨٦

جعل للسراء بطنًا وللضراء ظهرًا على سبيل الاستعارة المكنية، وإنما ذكر البطن للسراء؛ لأن المعطي يعطي وهو مقبل بصدره، وذكر للضراء ظهرًا؛ لأن المانع يمنع وهو مدبر مدير لظهره، فلفظ: «الظهر» فيه معنى المانع. والتعبير كناية عن عدم ثبات الدنيا على حال واحدة، وأنها سريعة التغير والتبدل، فما يرى العبد منها خيرًا إلا كان بعده شر.

نعود لكلام الحسن البصري، ونقول:

قوله: «**وَابْنُ آدَمَ مِنْهَا عَلَى خطَرٍ، إِنْ عَقَلَ فَهُوَ مِنَ النَّعْمَاءِ عَلَى حَظَرٍ، وَمِنَ الْبَلَاءِ عَلَى حَذَرٍ**»: فيه استعارة تبعية في قوله: «**على خطر**» و: «**على حذر**»؛ **فقد شَبَّهَ** مطلق ملابسة بمطلق استعلاء، ثم استعير لفظ «على» الدال على الاستعلاء؛ ليدل على الاستعارة، وهي استعارة تبعية حرفية وقعت في الحرف: «على».

وقد بلغت هذه العروس في اللؤم مبلغًا، وفي الغدر عنان السماء؛ إنها تستنكح البعل، وقد وطنت في موضع آخر منه بديلًا كما قال أبوبكر العابد(١). [البحر السريع]:

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا عَلَى نَفْسِهَا ... إِنَّ لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ خَلِيلْ
مَا أَقْتَلَ الدُّنْيَا لِخُطَّابِهَا ... تَقْتُلُهُمْ قِدْمًا قَبِيلًا قَبِيلْ
تَسْتَنْكِحُ الْبَعْلَ وَقَدْ وَطَّنَتْ ... فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْهُ بَدِيلْ
إِنِّي لَمُغْتَرٌّ وَإِنَّ الْبِلَى ... يَعْمَلُ فِي جِسْمِي قَلِيلًا قَلِيلْ
تَزَوَّدُوا لِلْمَوْتِ دَارًا فَقَدْ ... نَادَى مُنَادِيهِ الرَّحِيلَ الرَّحِيلْ

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (ص١١٤).

٣) تشبيه انفتاح الدنيا وزهرتها بعروس تعرضت لزوجها:

سَمِعَ ابْنَ عُيَيْنَةَ أَبا حَازِمٍ [ت:١٣٩هـ][١]. يَقُولُ: «تَرَاءَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا، فَوَثَبُوا عَلَيْهَا»[٢].

شبه انفتاح الدنيا وزهرتها بعروس تعرضت لزوجها، وتراءت لعاشقها؛ فنزا عليها ووثب كما ينزو الفحل، وخاضوا فيها كما تخوض الأنعام، وتمتعوا كما تتمتع البهائم، وعلا بهم الشبق، والاستعارة هنا مكنية. وقوله: **«فوثبوا عليها»**: ترشيح للاستعارة، ومن هذا القبيل ما جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة [ت:٢٧٦هـ][٣]. **«وقال آخر: إن الدنيا قد استودقت، وأنعظ الناس»**[٤].

٤) [أم الدفر] كناية عن الدنيا:

قَالَ الْحَسَنِ البصري [ت: ١١٠ هـ][٥].: «مَا مَالَ إِلَى أُمِّ دَفْرٍ - يَعْنِي الدُّنْيَا - أَحَدٌ قَطُّ إِلَّا نَسِيَ الْعَهْدَ، أَصْحَابَ نَبِيٍّ، فَمَا سِوَاهُمْ»[٦].

معنى الدفر الداهية، وقوله: «أم الدفر» كناية عن الدنيا، وهي كناية عن موصوف، والكناية تُبرز الدنيا في صورة محسة (أم الدواهي)، وهذا أدعى لتأكيدها ورسوخها في النفس.

---

(١) الوافي بالوفيات / ج١٥/ ص١٩٩.
(٢) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٢٣٣.
(٣) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠
(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري/ ج:٢ / ص:٢٥٦/ /ن: دار الكتب العلمية - بيروت/ تاريخ النشر: ١٤١٨ هـ.
(٥) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.
(٦) الزهد لهناد لأبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي / ص٣٢٠/ ت: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي/ ن: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت/ ط: ١.

٥) استعارة السحارة للدنيا:

إن الناس سُحروا فرأوا الدنيا عروسًا محلاة، ولو صفا ذهن الإنسان، وفَطِن لبه، واستمسك بحبل ربه: لرآها عجوزًا شمطاءَ، عمشاء حدباء، وهذا السحر بلغ منتهاه حتى اختال قلوب العلماء وعبث بها، ولم يسلم من سحرها العلماء، مَنْ مَالَ إليها نسي العهد وإن كانوا علماء أو أصحاب نبي:

يَقُولُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ [ت:١٣٠][١]..:«اتَّقُوا السَّحَّارَةَ، اتَّقُوا السَّحَّارَةَ - مَرَّتَيْنِ -؛ فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ»، يَعْنِي الدُّنْيَا[٢].

استعار السحارة للدنيا (استعارة تصريحية)، والسَّحّارة: شيءٌ يلعَبُ به الصبيان إذا مُدَّ خَرَجَ على لونٍ، وإذا مُدَّ من جانبٍ آخَرَ خرج على لون آخر مخالف[٣]. وهذا السحر هو الضلال المبين، فتُرِيهم الدنيا الضلال هدى، والباطل حقًا، والجبن حذرًا، والتمييع حكمة، والمداهنة تقية. والغرض: بيان خداع الدنيا ومكرها وقوة لؤمها. وإشقاء من يرغب فيها، وتعذيب من يطيعها، وإهلاك من يتبعها، وخاينة من ينقاد لها أعلى درجات الغدر.

وكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ [ت:١٠٨هـ].[٤]. يَقُولُ: «الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ، وَمُنْزِلُ بِلْغَةٍ، رَغِبَتْ عَنْهَا السُّعَدَاءُ، وَأُسْرِعَتْ مِنْ أَيْدِي الْأَشْقِيَاءِ، فَأَشْقَى النَّاسِ بِهَا أَرْغَبُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٥/ ص٣٦٤ .

(٢) حلية الأولياء/ ج٦ / ص.٢٨٧.

(٣) كتاب العين/ أبو عبد الرحمن الخليل الفراهيدي (ج٣/ ص١٣٥) / ت: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي/ ن: دار ومكتبة الهلال.

(٤) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر :أبو محمد الطيب الهِجراني الحضرمي الشافعي/ ج٢/ ص٣٣/ / عُني به: بو جمعة مكري / خالد زواري/ ن: دار المنهاج - جدة/ ط: ١.

النَّاسِ فِيهَا، وَأَسْعَدُ النَّاسِ فِيهَا أَزْهَدُ النَّاسِ بِهَا، هِيَ الْمُعَذِّبَةُ لِمَنْ أَطَاعَهَا، الْمُهْلِكَةُ لِمَنِ اتَّبَعَهَا، الْخَائِنَةُ لِمَنِ انْقَادَ لَهَا، عِلْمُهَا جَهْلٌ، وَغِنَاؤُهَا فَقْرٌ، وَزِيَادَتُهَا نُقْصَانٌ، وَأَيَّامُهَا دُوَلٌ»[1].

٦) تشبيه الدنيا بالنذلة:

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ [ت:٩٤هـ][2]**.: «إِنَّ الدُّنْيَا نَذْلَةٌ، وَهِيَ إِلَى كُلِّ نَذْلٍ أَمْيَلُ وَأَنْذَلُ مِنْهَا: مَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَطَلَبَهَا بِغَيْرِ وَجْهِهَا، وَوَضَعَهَا فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا»**[3].

قال - تعالى -: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النور:٢٦).

تميل الخبيثة إلى الخبيث، ويميل الخبيث إلى الخبيثة. شَبَّهَ ابن المسيب الدنيا بامرأة نذلة، وطالبُها (زوجُها) أنذلُ منها، وأنذل منها من يأخذها بغير مهر ولا ولي (شرع)، إنما يأخذها بغير وجه حقٍ، ويضَعها في غير سبيلها.

٧) تشبيه حال المستغني بالدنيا بحال من يطفئ النار بالتبن:

يراها المسكين المحترق ماءً، فيستغيث بها، فما تزيده إلا احتراقًا وتفحمًا، وهذا لون آخر من ألوان المكر، جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة [ت:٢٧٦هـ][4]. قال بكر بن عبد الله: **المستغني عن الدنيا بالدنيا كالمطفىء النار بالتّبن**[5].

---

(١) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٢١٣.

(٢) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٢٦٤.

(٣) حلية الأولياء/ ج٢/ ص١٧٠.

(٤) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠

(٥) عيون الأخبار / ج٢/ ص٣٥٦

وهذا تشبيه مركب، شَبَّهَ فيه حالَ المستغني بالدنيا بحالِ مَن يُطفئ النار بالتبن، فلا تزداد إلا لهبًا ونشوبًا، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: الهيئة الحاصلة من الهلاك والدمار والخراب في كل، ولا خير في النار ولا جدوى من التبن في إخمادها، ولا يفعل ذلك إلا مخبول أو مسحورٌ سحَرَه التبن، وغرر به، فرأى الهشيم الذي تذروه الرياح ملاذًا وملجأً. فالأمل في التبن أن يكون ماءً، أو يُخمدُ نارًا: حماقةٌ، وانتظارُ السرور في الدنيا انتظارٌ يطول.

٨) استعارة المرضع للدنيا:

أورد ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ][(١)].: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: **يَا مَعْشَرَ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، لَكُمْ فِي الظَّاهِرِ اسْمُ الْغِنَى، وَلِأَهْلِ التَّقَلُّلِ نَفْسُ هَذَا الْمَعْنَى، حُرِمْتُمُ التَّفَكُّهَ بِمَا حَوَتْهُ أَيْدِيكُمْ؛ لِفَادِحِ التَّعَبِ، وَعُوِّضْتُمْ فِيهِ خَوْفَ نُزُولِ الْفَجَائِعِ بِهِ، وَارْتِقَابَ وُصُولِ الْآفَاتِ إِلَيْهِ، خُدِعْتُمْ، وَمَالَتِ الْمَقَادِيرُ عَنْ حَظِّكُمْ، وَأَبَتِ الدُّنْيَا أَنْ تُسَوِّغَكُمْ حَلَاوَةَ مَا اسْتَدَرَّ لَكُمْ مِنْ ضَرْعِهَا، حَتَّى وَكَّلَتْكُمْ بِطَلَبِ سِوَاهُ؛ لِتُمَتِّعَكُمْ مِمَّا حَصَلَ مِنْهَا لَكُمْ، وَتَصُدَّكُمْ عَنِ التَّمَتُّعِ بِهِ بِإِشْغَالِكُمْ بِمُسْتَأْنَفٍ تُجْهِدُونَ فِيهِ أَنْفُسَكُمْ؛ مِمَّا يَعِزُّ مَطْلَبُهُ عَلَيْكُمْ، وَتَبْذُلُونَ فِيهِ رَاحِلَتَكُمْ، فَإِنْ وَصَلْتُمْ إِلَيْهِ لَحِقَ بِالْأَوَّلِ مِنَ الْمُدَّخَرِ، وَأَنْشَأَتْ لَكُمْ وَطَرًا فِي غَيْرِهِ آخَرُ: كَذَلِكَ أَنْتُمْ، وَهِيَ مَا صَحِبْتُمُوهَا بِالرَّغْبَةِ مِنْكُمْ فِيهَا**»[(٢)].

قوله: «**وَأَبَتِ الدُّنْيَا أَنْ تُسَوِّغَكُمْ حَلَاوَةَ مَا اسْتَدَرَّ لَكُمْ مِنْ ضَرْعِهَا، حَتَّى وَكَّلَتْكُمْ بِطَلَبِ سِوَاهُ؛ لِتُمَتِّعَكُمْ مِمَّا حَصَلَ مِنْهَا لَكُمْ**»: صوَّر فيه الدنيا في صورة مرضع، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم مِن لوازمه، وهو «**ضرعها**» على

---

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد[ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات /ج٢/ ص٢٢٨/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر – بيروت/ ط:١.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١١١/ الأثر: ٢٤٢.

سبيل الاستعارة المكنية، والضرعُ يكون في ذوات الخف والظلف، وهذا الفعل هو أعلى درجات المكر والخسة والنذالة؛ لأنه من المعروف أن أعلى درجات الشفقة والحنين تكون من المرضع والرضيع تحتها، فلا تمنع منه ضرعها، ولا تنقص من حاجته شيئًا. أما الدنيا فلا تعطي، بل تُوكل إلى طلب سواه، ثم لا تُعطي أيضًا، وتُوكل إلى طلب سواه في حلقة لا تنتهي من المكر والخداع والغدر، وحبل أمانٍ لا نهاية له، وعدم التمكين من الضرع يُسكب على الظئر حسرات ممزوجة بمشوِقات، فتشغله بمستأنف يجهد نفسه فيه، ثم تنشأ له وطرًا في غيره، فلا وصول فيها، ولا حطَّ لرحال، إنما هو داخل مُدخل كذب، وخارج مخرج كذب، ويظل المسكين فيها يحترق، تتسلمه الحوادث والتوقعات والمطامع حتى يخرج منها بلا مصة ولا قطرة ذليلًا منكسرًا يائسًا.

وقريب من هذا القول الصورة البيانية السابقة: «**وَنَاقِضَةٌ لِلْمُبْرَم، وَمُرْتَجِعَةٌ لِلْعَطِيَّةِ، وَكُلُّ مَنْ فِيهَا يَجْرِي عَلَى مَا لَا يَدْرِي، وَكُلُّ مُسْتَقِرٍّ فِيهَا غَيْرُ رَاضٍ بِهَا، وَذَلِكَ شَهِيدٌ عَلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارٍ**». والمعنى يتطور في صدور العلماء، ويتبلور في صدور أهل الرقائق، وإن كان المعنى واحدًا، ولكن إخراجه له قوالب متعددة، وكل قالب يشفع للآخر، ويشهد معه على نفس المعنى، أو كخيوط من نسيج واحد، تصبغ بألوان عدة، أو شجرة تنمو وتكبر، وينبسق لها فروع كلما جاء عليها لسان متكلم.

٩) [محادثة الدنيا] استعارة تخييلية:

جاء في الخبر: «**لَمَّا كَبِرَ مُعَاوِيَةُ** ﷺ[١]. [ت:٦٠هـ] **خَرَجَتْ لَهُ قُرْحَةٌ فِي**

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص١٦٢.

ظَهْرِهِ، فَكَانَ إِذَا لَبِسَ دِثَارًا ثَقِيلًا - وَالشَّامُ أَرْضٌ بَارِدَةٌ - أَثْقَلَهُ ذَلِكَ، وَغَمَّهُ؛ فَقَالَ: «اصْنَعُوا لِي دِثَارًا خَفِيفًا دَفِيئًا مِنْ هَذِهِ السِّخَالِ، فَصُنِعَ لَهُ، فَلَمَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِ تَسَارَّ إِلَيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ غَمَّهُ، فَقَالَ: جَافُوهُ عَنِّي، ثُمَّ لَبِسَهُ، ثُمَّ غَمَّهُ، فَأَلْقَاهُ، فَفَعَلَ ذَلِكَ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: قَبَّحَكِ اللَّهُ مِنْ دَارٍ، مَلَكْتُكِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عِشْرِينَ خَلِيفَةً، وَعِشْرِينَ أَمِيرًا، ثُمَّ صَيَّرْتِنِي إِلَى مَا أَرَى، قَبَّحَكِ اللَّهُ مِنْ دَارٍ».(١)

كان من دأب الشعراء انطاق الربع والجماد، وكان من دأب السلف محادثة الدنيا وكأنها شاخصة أمامهم في صورة امرأة قبيحة غادرة، ناشزة، لا تصون عشرة، ولا وفاء لها لقديم صحبة.

وفي قوله: «قَبَّحَكِ اللَّهُ مِنْ دَارٍ، مَلَكْتُكِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...»: يخاطبها معاوية ﷺ وهو ينقم منها، ويوبخها على ما رأى منها، يظهر هذا جليًا من خلال النص، فالدنيا شاخصة أمامه على سبيل الاستعارة المكنية، لازمُها محادثةُ معاوية ﷺ لها.

١٠) استعارة المرأة الساخرة للدنيا:

قال ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ](٢). حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، قَالَ حدثني أَبُو مُحَمَّدٍ الْعِجْلِيُّ(٣).: «دَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: سَخِرَتْ بِيَ الدُّنْيَا حَتَّى

---

(١) المحتضرين لابن أبي الدنيا/ ص٢١٠ / ٣٠١. /ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم - بيروت - لبنان/ ط: ١.

(٢) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ [المتوفي:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨.

(٣) لم أقف على ترجمته، وبعد بحث وتفتيش وجدت في كتاب (الإشراف في منازل الأشراف) لابن أبي الدنيا/ الحديث رقم ١٤٥/ ص١٧١ رواه ابن أبي الدنيا عن أبي محمد العجلي، وعلق عليه المحقق قائلًا لم أقف على ترجمته./ المحقق: د نجم عبد الرحمن خلف/ ن: مكتبة الرشد - الرياض - السعودية/ ط: ١.

ذَهَبَتْ أَيَّامِي»[(١)].

صوَّر الدنيا امرأة تسخر على سبيل الاستعارة المكنية، والمكنية أقرب؛ لإمتاع النفس، وبث الحياة فيما لا حياة فيه، وتَصُب هذه الاستعارة في نفس المصب الذي سبق من كون الدنيا تُمني، وحبل آمانيها لا ينتهي، ولا تأتي منها أمنية، إنما ينتهي عمر الإنسان، وتذهب أيامه، وتأمل الناس بضرعها، فلا يلتقمه أحد حتى يذهبوا، وتخدع الغافل، فيظن أن تبنها ماء، فيطفئ به نارًا لا تخمد.

١١) تشبيه قلة الرخاء بالغيبة، وكثرة البلاء بالمزنة:

ذكر قطري [ت:٧٩].[(٢)]. الدنيا، فوصفها بقوله:

«وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجلة، وحليت بالآمال، وتَزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرّارة ضرارة، خوّانة غدّارة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، أكّالة غوّالة، بدّالة نقالة»[(٣)].

ثم قال في القاطن فيها: «**وَلَم تُطِلّه غَبية رَخَاء إلا هَطَلَت عَليه مُزنة بَلاَء، وَحَرى إِذا أَضْحت له مُنتصرة أَن تُمسي له خَاذِلة مُتنكرة، وإِن جَانِب مِنها اعْذَوذب واحْلَولى، أَمرَّ عليه مِنها جَانب وَأَوْبى**».

أوبى: أي صار كثير الوباء. وفي قوله: «**وَلَم تُطِلّه غَبية رَخَاء**»: تشبيه بليغ، أضاف فيه المشبه به إلى المشبه، شَبَّهَ الرخاء في الدنيا بالغبية، وهي المَطْرَةُ ليست

(١) المحتضرين لابن أبي الدنيا/ ص٢٤١.

(٢) قطري بن الفجاءة أبو نعامة التميمي المازني/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٥١.

(٣) البيان التبيين / ج:٢ ص٨٦/ ٨٧

بالكثيرة[1]. وناسب الغبية في القلة كلمة «**تطله**»، والطل أخف المطر وأضعفه، والغرض من التشبيه: بيان قلة الرخاء في الدنيا، وقلة التمتع بها.

ثم قابل هذا بتشبيه آخر، فقال: «**إلا هطلت عليه مزنة بلاء**»، **شَبَّهَ فيه كثرة بلاء** الدنيا بالمطر الهطال، أي: الكثير المتتابع، والهطول أشد من الطل والغبية. ووجه الشبه: هو الكثرة وقوة التأثير والإحداث، وهكذا وصَف قطري الدنيا: تبدأ بداية مطمعة، وتنتهي بمفجع، وقريب من هذا المعنى قول كثير عزة [البحر الطويل]:

لقد أطمعتني بالوصال تبسمًا ... فلما سألنا أعرضت وتولت

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامة ... فلما رجوها أقشعت وتجلت[2].

وبَين وصف قطري وكثير عزة تشابه واختلاف: التشابه في الابتداء؛ فكلاهما مطمع، أما الاختلاف: فهو أن الغمامة عند كثير أقشعت وتجلت، وسلِمَ القوم وإن لم يغنموا. وأما عند قطري فلم يسلموا، بل أمطرت وأهطلت عليهم بلاء متتابعًا لا ينقطع، فعند كثير عزة الانتهاء مؤيس، وعند قطري الانتهاء مؤلم ومفجع، وغمامة قطري أمطرت مطرًا يسيرًا، وأما غمامة كثير عزة فلم تمطر، إنما أبرقت فقط، فحدث لمن أبرقت لهم رجاء وأمل، أما عند قطري فقد أمطروا واطمأنوا ورضوا وظنوا أنهم قادرون عليها، وألم هؤلاء أشد من ألم كثير عزة؛ لأن المنع بعد العطاء شديد، والحرمان بعد التمتع صعب على النفس، والسلب

---

(١) المنتخب من غريب كلام لعلي بن الحسن الهُنائي الأزدي، أبو الحسن الملقب بـ «كراع النمل» العرب/ ص٤٣٣/ /ت: محمد بن أحمد العمري/ ن: جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)/ ط: ١.

(٢) أسرار البلاغة فى علم البيان/ ص١١٠/ ت:شاكر، والبيت الأول ذكره المحقق في الحاشية، ونسبه إلى مطبوعة ريتر (التي لم أصل إليها).

بعد التملك يورث في القلب حسرات.

وهذه الحالة الشعورية التي يعيشها أهل الدنيا في كلام قطري هي حالة أهل الأحقاف الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأحقاف: ٢٤).

وحول هذا أنشد سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَامِرِيُّ قَوْلَهُ: [البحر الطويل]:

لَقَدْ نَغَّصَ الدُّنْيَا عَلَى حُبِّ أَهْلِهَا ... لَهَا أَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهَا الْمَصَائِبُ مَا ارْتَضَى ... مَحَبَّتَهَا فِي حَالَةٍ ذُو تَجَارِبِ
أَلَـمْ تَرَهَا تَغْذُو بَنِيهَا بِدَرِّهَا ... وَتَصْرَعُهُمْ آفَاتُهَا بِالْعَجَائِبِ
وَمَا الْخَيْرُ فِيهَا حِينَ يُسْعِفُ أَهْلَهُ ... وَلَا الشَّرُّ إِلَّا كَالْبُرُوقِ الْكَوَاذِبِ
يَـزُولَانِ عَمَّنْ كَانَ فِيهَا بِنِعْمَةٍ ... [illegible](1)

ثم عدَّد قطري الاستعارات؛ لبيان مكْرِها، فقال: «**وحري إذا أضحت له منتصرة أن تُمسي له خَاذِلة مُتنكِرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمرّ عليه منها جانب وأوبى**».

استعار الانتصار لانفتاح الدنيا على الناس (استعارة تبعية)، واستعار الخذلان لانقباض الدنيا (استعارة تبعية).

وقوله: «**ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أَصْبَحَ منها على قَوادم خَوف، غرّارة غرور ما فيها، فانية فان من عليها**».

في قوله: «**جناح أمن، قَوَادم خَوف**»: صوَّر الأمن والخوف في صورة طائر، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه، وهو: «**جناح**» على سبيل الاستعارة

(١) الزهد لابن أبي الدنيا / ص١٣١/ الأثر: ٢٩٥

المكنية، وذكر «في» مع الأمن؛ لأنه محل السكينة، وفيها يسكن قلب الإنسان، وذكر «على» مع الخوف؛ للدلالة على صعوبة المركب، وهول النفس، وخوف السقوط.

ثم أتى بصُور ضحايا لها من الذين انتظروا غيبة الرخاء، وأخذوا من عذب مائها رشفة، وأمسوا منها في جناح أمن، فقال: «**كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي اختيال فيها قد خدعته. وكم من ذي أبهّة فيها قد صيرته حقيرا. وذي نخوة قد ردته ذليلا، وكم من ذي تاج قد كبّته لليدين والفم. سلطانها دُول، وعَيشُها رَنَق، وعذْبها أُجَاج، وحُلوها صَبر، وغِذاؤها سِمام، وأسبابها رِمام، وقِطَافها سَلَع، حيُّها بعرض مَوت، وصَحِيحُها بعَرَض سُقم، ومنيعها بعرض اهتضام، مليكها مَسْلُوب، وعَزِيزها مَغلوب، وسليمُها مَنكُوب، وجامعُها مخْرُوب**».

تفيد «كم» الخبرية كثرة المذلوليين لها والمخدوعين بها. وقولُه: «**وكم من ذي تاج قد كبّته لليدين والفم**»: كناية عن بطشها وفتكها. وقد جاءت التشبيهات الفاضحة لنعيم الدنيا تترة، فنعيمها ماء أجاج، وصب مر، وسمام، وسلع.

الخلاصة:

تضافرت تشبيهات أهل الرقائق واستعاراتهم على وصف الدنيا بامرأة لئيمة غادرة، تتحلى لمحبيها، تعطيهم القليل، وتأخذ الكثير، وتسخر منهم أو تقتلهم. واستعاروا لها من بيئتهم السحارة (لعبة يتم خداع الصبيان بها). وشبهوا حال الراكن إليها المستغني بها بحال من يطفئ النار بالتبن، وهذا الفعل لا يفعله عندهم في زمانهم إلا من بلغ في الحمق مبلغًا. وقد جاءت الصور البيانية في هذا المبحث؛ لتُزيل الزيف والبريق الذي على الدنيا، ولتنزع القفاز؛ ليرى المخاطَب مخالب الدنيا، ولا ينزلق انزلاق الأحمق أو الصبي.



المبحث الثالث: التصوير البياني في مقام قبح الدنيا ومرارتها:

المحتوى:

١ - تشبيه الدنيا بالجيفة على سبيل الاستعارة المكنية قرينتها «أدنسهم».

٢- واستعارة الخنزيرة للدنيا.

٣- وتشبيه حال من يتحاشى حلال الدنيا وحرامها بحال من يتقذر جيفة.

٤- وتشبيه الدنيا بالمزبلة.

٥- واستعمال (عمران الحشوش) لملذات الدنيا.

٦- واستعارة العجوز العمشاء الشمطاء للدنيا.

٧- وإسناد فضح الدنيا إلى الموت.

٨- والصور البيانية في مرارة الدنيا.





أورد الإمام أحمد في مسنده: عن قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ: إِنِّي لَفِي رَكْبٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ مَرَّ بِسَخْلَةٍ مَنْبُوذَةٍ، فَقَالَ: «**أَتَرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا؟**»، «**فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا**»(١).

شبه ﷺ هوان الدنيا على الله بهوان السخلة على الناس، والتشبيه تمثيلي، يهدِف إلى بيان مقدار قيمة الدنيا عند الله عز وجل، ولو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء.

بهذا التعبير المشاهد، والبيان المعاين سلَّ النبي ﷺ الدنيا من قلوبهم، وثبت صورة السخلة المنبوذة في أذهانهم، وجعلها نصب أعينهم، وجمع لهم الدنيا بحذافيرها وعلوها وشرقها وغربها وبهرجتها في هذا الجسد الصغير المطروح على الطريق، ثم بين أنها أهون عند الله من هذه السخلة.

ومازال هذا البيان العالي بعد النبي ﷺ تنتشر خيوطه، وتتضافر، وتتآلف، وتُخْرِج صورًا بيانية متصلة بهذه البكرة، ومازالت البكرة تنسج صورًا بيانية من البيان النبوي وإن اختلف السياق والتراكيب والمقام، فقد أقرت الألسنة بأنها تعقد وتنسج من هذه الخيوط النبوية.

١- تشبيه الدنيا بالجيفة على سبيل الاستعارة المكنية، وقرينتها «أدنسهم»:

قال أبو بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ [ت:١٣هـ].(٢).

---

(١) مسند أحمد (٢٩/ ٥٤٢ ط الرسالة).

(٢) أبو بكر الصديق ﷺ (ت:١٣هـ). سير أعلام النبلاء ج٢/ ص٣٩٦.

قِيلَ لَهُ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَلَا تَسْتَعْمِلُ أَهْلَ بَدْرٍ؟، قَالَ: «إِنِّي أَرَى مَكَانَهُمْ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُدَنِّسَهُمْ بِالدُّنْيَا»(١).

ففي قوله: «أَكْرَهُ أَنْ أُدَنِّسَهُمْ بِالدُّنْيَا»: شَبَّهَ الدنيا بالجيفة على سبيل الاستعارة المكنية، وقرينتها «أدنسهم»، والاستعارة تؤكد قذارة الدنيا، وتبرزها في صورة محسوسة، فلم يستعملهم الصديق رضي الله عنه على الأمصار والقرى؛ لأن انفتاحها عليهم مدعاة للتنافس والتناحر والتهالك، كما أهلكت من قبلهم، وأغرت الصالحين؛ فسقطوا في بئرها، وزلُّوا في وحلها بعد طُهر وصيانة.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه [ت: ٤٠] (٢).: «الدُّنْيَا جِيفَةٌ، فَمَنْ أَرَادَهَا فَلْيَصْبِرْ عَلَى مُخَالَطَةِ الْكِلَابِ»(٣).

شبهها الإمام علي رضي الله عنه بالجيفة، والتشبيه منزعه حديث النبي ﷺ عند رؤيته للسخلة المنبوذة، وغرض التشبيه: كشف اللثام عن الدنيا، وإظهار قبحها، وبيان كنهها، وبث كرهها في قلوب المخاطبين.

وفي قوله: «مَنْ أَرَادَهَا فَلْيَصْبِرْ عَلَى مُخَالَطَةِ الْكِلَابِ»: قطع الطريق على كل محب لها؛ لأن القوم عندهم أنفة وإباء ورفعة ترفض الدنية، وتكره المذلة، وتسعى للشرف، ولهذه الصورة جوانب أخرى مفهومة غير منطوقة، يتجول فيها الخيال، ويتصورها الذهن، في هذه الجوانب تتناحر الكلاب، وتتقاتل، وتتدافع بالأيدي والأنياب، وفيها تظهر قذارة المنظر، وقد تلطخت أفواههم ورءوسهم

(١) حلية الأولياء/ ج١/ ص٣٧.

(٢) الوفيات لابن قنفذ/ ابن قنفذ القسنطيني / ص٢٨ / ت: عادل نويهض/ ن: دار الآفاق الجديدة، بيروت/ ط: ٤.

(٣) حلية الأولياء/ ج٨/ ص٢٣٨.

بالدماء، وتخضبت بها أيديهم وأشعارهم، وفيها تظهر المبالغة في الانكباب، وفيها تشم رائحة النتن، ويتضح فساد المناخ والهواء، وفيها يظهر تحاشي كل الحيوانات، وترفعهم عن المشاركة، فالساحة خالية للكلاب، لا تشغل بال أحد غيرهم، ولا يلتفت لها إلا هم.

٢- استعارة الخنزيرة للدنيا:

قال يَزِيدُ بْنِ مَيْسَرَةَ [ت:١١١ - ١٢٠ هـ].[١]: **«كَانَ أَشْيَاخُنَا يُسَمُّونَ الدُّنْيَا خِنْزِيرَةً، وَلَوْ وَجَدُوا لَهَا اسْمًا شَرًّا مِنْهُ سَمُّوهَا بِهِ، وَكَانُوا إِذَا أَقْبَلَتْ إِلَى أَحَدِهِمْ دُنْيَا قَالُوا: إِلَيْكِ إِلَيْكِ يَا خِنْزِيرَةُ، لَا حَاجَةَ لَنَا بِكِ، إِنَّا نَعْرِفُ إِلَهَنَا»**[٢].

في قوله: «يَا خِنْزِيرَةُ»: استعار الخنزيرة للدنيا استعارة أصلية تصريحية، غرضها بيان الشأن والتقبيح.

والخنزير من أقذر الحيوانات، وأقبحها منظرًا، قال الجاحظ في وصفه :»وأمَّا ضرره وإفساده فَمَا ظنُّك بشيءٍ يُتَمَنَّى له الأسَد؛ وذلك أن الخنازير إذا كانت بقرب ضِيَاع قومٍ هلَكتْ تلك الضِّياع، وفسَدتْ تلك الغلاّت، وربَّما طلب الخنزير بعضَ العروقِ المدفونَةِ في الأرض، فيخرِّب مائَةَ جريبٍ ونابه، ليس يغلبه مِعْول، فإذا اشتدَّ عليهم البلاءُ تمنَّوا أن يصير في جَنْبتهم أسد، ولربَّما صار في ضياعهم الأسد، فلا يَهيجونَه، ولا يؤذونَه، ولو ذهب إنسانٌ ليحفر له زُبيةً منعوه أشدَّ المنع إذ كان ربَّمَا حَمَى جانبَهم من الخنازير فقط، فما ظنّك بإفسادها؟، وما ظنّك ببهيمةٍ يُتَمَنَّى أن يكون بدلَها أسد؟»[٣].

---

(١) يزيد بْن مَيْسرة بْن حَلْبَس الدمشقيُّ/ تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٣٤٠.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١٥٢.

(٣) الحيوان للجاحظ/ ج٤/ ص٤٩/ ت: عبدالسلام هارون/ ن: دار الجيل / ط:٢.

وقد تتعدد صفات الخنزير، وكلها سوء، فهو قبيح مفسد مهلك، نجس في كل شيء حتى في جلده - وإن دبغ - وعظمه وشعره.

وكان الأشياخ إذا أقبلت عليهم الدنيا قالوا: «**إِلَيْكِ إِلَيْكِ يَا خِنْزِيرَةُ**»: خطابهم إياها كأنها اقتحمت عليهم جلستهم ومكانهم، فهم يردونها بقولهم: «**إِلَيْكِ إِلَيْكِ**» باليد والرجل، وقولتهم: «**لا حاجة لنا بك**»: كلمة قالوها بعد معرفة واستبصار، ورؤية كاشفة، وبصيرة واصفة.

وقد جاءت صورة بيانية لمالك بن دينار (رحمه الله) [ت: ١٣٠].[1]. تصف ضيق فكر محبي الباطل، وغياب عقولهم، وانشغالها عمّا ينفعها، واهتمامها بكل حقير وضئيل وفسيل، شأنهم شأن ذوات الأربع، **يَقُولُ**: «**يَا هَؤُلَاءِ: إِنَّ الْكَلْبَ إِذَا طُرِحَ إِلَيْهِ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ لَمْ يَعْرِفْهُمَا، وَإِذَا طُرِحَ إِلَيْهِ الْعَظْمُ أَكَبَّ عَلَيْهِ، كَذَلِكَ سُفَهَاؤُكُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ**»[2].

شبه حال من يترك الحق وينكب على الباطل؛ لجهله - بحال الكلب؛ يترك الذهب، وينكب على العظم.

تتحد هذه الصورة (وهي تشبيه تمثيلي) مع صورة علي بن أبي طالب ﷺ من حيث إن الذي يتعامل مع الجيفة ويترك الآخرة هو نفسه الذي لا يعرف الحق عند ابن دينار، وأي معرفة للإنسان إذا جهل الآخرة؟، ومن حيث إن الدنيا هي الباطل الذي أراده ابن دينار، ولا باطل في حياتنا الدنيا إلا الدنيا، كل ما فيها ملعون إلا ذكر الله، ووجه الشبه بين السفهاء والكلب: هو عدم معرفة المنفعة الكبرى،

---

(١) سير أعلام النبلاء / ج٥/ ص٣٦٤

(٢) حلية الأولياء/ ج٢ / ص٣٦٠.

والانشغال بما هو دون ذلك (العظم)، وعدم رؤية أي شيء غير العظم، غاب وعيهم، وانحطت همتهم، وسفُلت أمانيهم.

٣- تشبيه حال من يتحاشى حلال الدنيا وحرامها بحال من يتقذر جيفة:

قال الفضيل بن عياض (رحمه الله) (١٠٥ - ١٨٧ هـ)[١].: «**لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا عُرِضَتْ عَلَيَّ حَلَالًا لَا أُحَاسَبُ بِهَا فِي الْآخِرَةِ لَكُنْتُ أَتَقَذَّرُهَا كَمَا يَتَقَذَّرُ أَحَدُكُمُ الْجِيفَةَ إِذَا مَرَّ بِهَا أَنْ تُصِيبَ ثَوْبَهُ**»[٢].

شبه حاله وهو يتحاشى حلال الدنيا وحرامها - بحال من يتقذر جيفة، ويخشى أن تصيب ثوبه عند المرور بها. والتشبيه تمثيلي. ووجه الشبه: الابتعاد والاجتناب مخافةَ الضرر. والغرض يظهر من سياق النص، وهو: التحذير من الدنيا لا سيما من حلالها الذي قد يُفضي بالعبد إلى البطر، أو الكبر، أو الطمع في الحرام.

وإصابة الجيف الثوب أو طرفه هو أخف درجات الإصابة، وأشد الدرجات أن تصيب البدن، أو أن يتناول الإنسان منها، ويشارك فيها الكلاب. وذكَر القاضي إصابةَ الثوب؛ للدلالة على أقصى درجات الحذر، والإهانة للدنيا.

٤- تشبيه الدنيا بالمزبلة:

قد شُغِل الصفوة بمحاربة الدنيا وبالتربص والحيطة؛ مخافةَ أن تفتنهم، أو تجذبهم إليها، فكانوا يَحذرونها، ويُحذِرون منها، ويَكرهونها، ويُكرهون الناس

---

(١) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣/ ن: دار العلم للملايين/ ط: الخامسة عشر - ٢٠٠٢ م

(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص٨٩.

إياها، فعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: مَرَّ عُمَرُ ﷺ [ت:٢٣هـ][١]. عَلَى مَزْبَلَةٍ؛ فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا، فَكَأَنَّهُ شَقَّ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَتَأَذَّوْا بِهَا، فَقَالَ لَهُمْ: **«هَذِهِ دُنْيَاكُمُ الَّتِي تَحْرِصُونَ عَلَيْهَا»**[٢].

وفي قوله: **«هَذِهِ دُنْيَاكُمْ»**: تشبيه. ووجه الشبه: القبح، ونُطق عمر ﷺ بهذا التشبيه في هذا المكان له أهمية؛ لأنه آراهم رؤية لا يشكون معها، ولا يرتابون؛ حيث إن «الأُنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر: ليس له سببٌ سوى زَوَال الشكّ والرَّيْب»[٣]. ومع هذه الأهمية أيضًا له «ضرب من التأثير زائد على القول والنطق»[٤].

والقلب إذا شغل بشيء أسقط عليه كل شيء مقارب له، أو ما هو منه بسبيل، فكان أحدهم (أهل الرقائق) يرى البخار أو الحمام أو التنور، فيتذكر النار، ويرى أحدهم الغلمان المرفهة، فيتذكر شباب أهل الجنة، فها هو عمر ﷺ يحبس الناس عندها حتى شق عليهم، وتأذوا منها، فاغتنم الفرصةَ والمشهدُ قائمٌ، والأمرُ معاينٌ، فأطلق الصورة البيانية وهي تحمل غرائر توبيخ وإيقاظ: **«هَذِهِ دُنْيَاكُمُ الَّتِي تَحْرِصُونَ عَلَيْهَا»**. وضَرَب على هذا الوتر، وطرق أبواب قلوبهم.

ومن طرق ذلك الباب مسروق ﷺ [ت:٦٣هـ][٥]. قال إِبْرَاهِيمُ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ

(١) عمر بن الخطاب/ الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الزهد لأحمد/ ص٩٧/ الأثر:٦١٦

(٣) أسرار البلاغة/ ص١٢٥/ ت: شاكر.

(٤) أسرار البلاغة/ ص١٢٧/ ت: شاكر.

(٥) مسروق بن الأجدع بن مالك الوادعي الهمداني/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٦٨.

الْمُنْتَشِرِ: كَانَ مَسْرُوقٌ يَرْكَبُ كُلَّ جُمُعَةٍ بَغْلَةً لَهُ، وَيَحْمِلُنِي خَلفَهُ، ثُمَّ يَأْتِي كُنَاسَةً بِالْجِيزَةِ، قَدِيمَةٍ، فَيَجْعَلُ عَلَيْهَا بَغْلَتَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: «الدُّنْيَا تَحْتَنَا»(١).

وقال بشير بن كعب (٢). لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدّنيا، فيجيء، فيقف بهم على السّوق، وهي يومئذ مزبلة، فيقول: انظروا إلى عسلهم وسمنهم، وإلى دجاجهم وبطّهم، صار إلى ما ترون(٣).

٥- استعمال (عمران الحشوش) لملذات الدنيا:

لَقِيَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ [ت: ١٣٠هـ](٤). جَارِيَةً كَانَتْ فِي جِوَارِهِ، ثُمَّ بِيعَتْ، فَقَالَ لَهَا: «فُلَانَةٌ؟»، قَالَتْ: نَعَمْ يَا أَبَا يَحْيَى، قَالَ: أَنْتِ؟، وَكَيْفَ الْمَوضِعُ الَّذِي أَنْتِ فِيهِ؟»، قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ، مَا أَحْسَنَ حَالَهُمْ، وَأَخْصَبَ بُيُوتَهُمْ، قَالَ: «لَهُمْ فَضْلُ مَعْرُوفٍ عَلَى أَحَدٍ؟»، قَالَتْ: يَا أَبَا يَحْيَى، مَنَازِلُهُمْ خَصِبَةٌ، وَطَعَامُهُمْ كَثِيرٌ وَاسِعٌ، قَالَ: يَقُولُ أَبُو يَحْيَى: «كَيْفَ» أَنَا أَسْأَلُهَا عَنْ خَيْرِ الْقَوْمِ وَتَفَضُّلِهِمْ، وَهِيَ تُخْبِرُنِي بِعِمْرَانَ الْحُشُوشِ؟(٥)».(٦).

---

(١) الزهد لأحمد/ ص٢٨٣/ الأثر:٢٠٣٩.

(٢) بشير بن كَعْب بن أبي أَيُّوب التَّابِعِيّ / وَتُوفِّي رَحمَه الله تَعَالَى قبل التسعين لِلْهِجْرَةِ / الوافي بالوفيات / ج١٠/ ١٠٧.

(٣) عيون الأخبار / ج٢/ ص٣٥٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤

(٥) «قَالَ الأزهري: كَنَّى عَنِ الأدبار بالمَحاشّ كَمَا يُكْنى بالحُشُوش عَنْ مَوَاضِعِ الغائطِ. والحَشّ والحُشّ: المَخْرَج لأنهم كَانُوا يقضُون حوائجَهم فِي الْبَسَاتِينِ، وَالْجَمْعُ حُشُوش»لسان العرب (٦/ ٢٨٦) / ن: دار صادر - بيروت/ ط: ٣ .

(٦) الجوع لابن أبي الدنيا/ ص٨٠/ الأثر:١٠٦/ ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم، بيروت لبنان/ ط: ١.

ففي قوله: «**بِعِمْرَانَ الْحُشُوشِ**»: وصف مالك بن دينار (رحمه الله) المنازل الخصبة والطعام الكثير بعمران الحشوش؛ باعتبار ما سيؤول إليه، فقوله: «**عمران الحشوش**»: مجاز مرسل؛ باعتبار ما سيكون. والمجاز ينبئ بالغفلة التي عليها أهل الدنيا، وأنهم يسيرون إلى ما مآله: الحشوش.

وإضافة عمران إلى الحشوش من باب المجاراة لأهل الدنيا، وإلا فالقائل لا يعتقد بأن ذلك عمرانٌ، أي: إن كان أهل الدنيا يسمون المتاع الزائل والسعي المنقطع عمرانًا: فهو عمران؛ (مجاراةً لهم)، ولكنه للحشوش.

٦- استعارة العجوز العمشاء الشمطاء للدنيا:

كانت تتراءى لأهل الرقائق في منامهم، فتنطق بها ألسنتهم في صورة بيانية (استعارة)، رآها **الْعَلَاءُ بْنِ زِيَادٍ الْعَدَوِيِّ** [ت:٩٤][١]. فقال: «**رَأَيْتُ عَجُوزًا عَمْشَاءَ مُتَعَلِّقَةً بِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكِ، قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، لَا يُعِيذُكَ مِنْ شَرِّي حَتَّى تَتْرُكَ الدِّرْهَمَ، قَالَ: فَقُلْتُ: وَمَنْ أَنْتِ؟، قَالَتْ: أَنَا الدُّنْيَا**». **قَالَ هِشَامٌ**: «**فَشَدَّتْ بَعْضَ مَا فِي يَدَيْهِ**»[٢].

قال **إِبْرَاهِيمُ بْنِ سَعِيدٍ: إِنَّ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَيَّاشٍ**[ت:١٩٣هـ][٣]. **قَالَ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ عَجُوزًا شَمْطَاءَ مُشَوَّهَةً تُصَفِّقُ بِيَدَيْهَا، وَخَلْفَهَا خَلْقٌ يَتْبَعُونَهَا، وَيُصَفِّقُونَ، وَيَرْقُصُونَ، فَلَمَّا كَانَتْ بِحِذَائِي أَقْبَلَتْ عَلَيَّ، فَقَالَتْ: لَوْ ظَفَرْتُ بِكَ صَنَعْتُ بِكَ مَا**

---

(١) العلاء بن زياد بن مطر بن شريح العدوي/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٢٠٦.

(٢) المنامات لابن أبي الدنيا/ ص٦٤/ الأثر:١٠٣/ ت: عبد القادر أحمد عطا/ ن: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت/ ط: ١.

(٣) أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٤٩٥.

صَنَعْتُ بِهَؤُلَاءِ، قَالَ: ثُمَّ بَكَى أَبو بَكْرٍ، وَقَالَ: رَأَيْتُ هَذَا قَبْلَ أَنْ أَقْدُمَ إِلَى بَغْدَادَ»(١).

والاستعارة في النصين تصريحية، غرضها بيان قبح الدنيا، وتنفير الناس منها، فما هي إلا شمطاء شيبت رأسها، حدباء بدا عظم ظهرها، ونشزت حراقفها من الهزال.

وفي نص ابن عياش مزيد أحداث وشخوص؛ حيث إنها تصفق بيدها، وقد توفر لها من السذج من يتبعونها، ويصفقون، ويرقصون، وتقف مخاطبة لابن عياش متلهفة مشتاقة للظفر به، فما كان منه إلا أن بكى في وسط هذا الصخب العالي والتصفيق المرتفع.

ومنزع هذه الصورة البيانية ما جاء في حديث الإسراء والمعراج: «عَجُوز عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ؟»، قَالَ: سِرْ يَا مُحَمَّدُ، فَسَارَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسِيرَ ... ثُمَّ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: أَمَّا الْعَجُوزُ الَّتِي رَأَيْتَ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ فَلَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِ تِلْكَ الْعَجُوزِ»(٢).

٧- إسناد فضح الدنيا إلى الموت:

قال إِبْرَاهِيمُ بْنُ عِيسَى الْيَشْكُرِيُّ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ[ت: ١١٠ هـ].(٣). يَقُولُ: «إِنَّ الْمَوْتَ فَضَحَ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَتْرُكْ لِذِي لُبٍّ فَرَحًا»(٤).

في قوله: «إِنَّ الْمَوْتَ فَضَحَ الدُّنْيَا»: صوَّر الدنيا بالعجوز، أو المرأة المفضوحة،

(١) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص٣٣/ الأثر: ٣٠.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي/ ج٢/ ص٣٦١/ ت: د. عبد المعطي قلعجي/ ن: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث/ ط: ١.

(٣) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧/

(٤) الزهد لابن حنبل / ص٢٠٩/ الأثر: ١٤٤٨.

وذكر الإفضاح على سبيل الاستعارة المكنية، وإن كان الحسن (رحمه الله) يريد بالفضح الإبانة، فلا استعارة في هذا، ولكن الأول أولى؛ لِتَقَوِّيْهِ بما جرى وكثُر على ألسنة أهل الرقائق، فَصَدَّ الموت عنها كل خاطب عاقل، ولم يترك له فرحًا بهذه الزائلة الغادرة المؤملة.

٨- الصور البيانية في مرارة الدنيا:

حدث ابْنُ طَاوُسٍ[٥]. عَنْ أبيه قَالَ: «حُلْوُ الدُّنْيَا مُرُّ الآخِرَةِ، وَمُرُّ الدُّنْيَا حُلْوُ الْآخِرَةِ»[٦].

في قوله: «**حُلْوُ الدُّنْيَا**»: أراد بالحلو هنا المعاصي الجالبة لمُرِّ الآخرة، هذه المعاصي إذا نظرنا إلى الحسية منها كالتلذذ بما حرم الله من مطعومات: كان قول القائل: «**حلو الدنيا**» كناية عن نعيم الدنيا، فلا مانع من إرادة المعنى الأصلي، وإذا نظرنا إلى المعاصي العقلية كالرياء وحب الجاه وغيره: كان قول القائل: «**حلو الدنيا**» استعارة لهذا النوع من المعاصي؛ لوجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. وقد أتى قوله: «**حلو الدنيا**» نكرة تفيد العموم، عمَّت كل معصية جالبة للمُرّ في الآخرة، سواءٌ كانت حسية أو عقلية.

وهكذا يقال: استعار «مر» للعذاب الأخروي، أو: «**المر**» كناية عن عذاب الآخرة؛ فمن عذابها الزقوم والضريع. واستعار مر (الدنيا) للطاعات والقربات التي يسميها الشارع مكاره؛ لأن النفس تأتيها مكرهة. واستعار حلو (الآخرة) لنعيم الجنة، أو: حلو كناية عن نعيم الدنيا.

---

(٥) طاووس بن كيسان الفارسي[ت:١٠٦هـ] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٥/ ص٣٨.
(٦) حلية الأولياء/ ج٤/ ص١٢.

ثم ترك القائل للسامع المقارنة والاختيار بين هاتين الصورتين، فحلو الدنيا منقطع زائل منغص ومعكر ومعاقب عليه صاحبه. وأما حلو الآخرة فدائم لا مقطوع ولا ممنوع، لا لغو فيه، ولا تأثيم، ومُر الدنيا محتمل، والصبر عليه ممكن، وقد حُفت الجنة بالمكاره، ومُر الآخرة شديد، لا طاقة للجلد ولا للجوف به، يتمنى العبد الموت بدلًا منه، فلا يُعطاه. لكن هذه المذاقات لا يعرفها كثير من الناس؛ لأنهم في سكرة المُر، فإذا صح لهم الإبصار، واستقام لهم المذاق، وعقلت عقولهم: عرفوا.

- هذا العلقم والمُر قد انتشر في كل أجزاء الدنيا وعناصرها كما قال الْحَسَنُ [ت: ١١٠هـ].[١].: «**خَبَاثُ كُلِّ عِيدَانِكَ قَدْ مَصَصْنَاهُ، فَوَجَدْنَاهُ مُرًا**»[٢].

- وجاء في الزهد لابن المبارك: قال الحسن: «**خَبَاثُ كُلُّ عِيدَانِكَ مَضَضْنَا، فَوَجَدْنَا عَاقِبَتَهُ مُرًّا**»[٣].

- وجاء في اللسان لابن منظور: «وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أنه قَالَ يُخاطِبُ الدُّنْيَا: خَباثِ كلَّ عِيدانِكِ مَضَضْنا [مَضِضْنا]، فوَجَدْنا عاقبتَهُ مُرًّا، يَعْنِي الدُّنْيَا. وخَباثِ بِوَزْنِ قَطامِ: مَعْدُولٌ مِنَ الخُبْثِ، وَحَرْفُ النِّدَاءِ مَحْذُوفٌ، أَي: يَا خَباثِ. والمَضُّ: مثلُ المَصِّ؛ يُرِيدُ: إِنَّا جَرَّبْناكِ وخَبَرْناكِ، فوَجَدْنا عاقِبَتَكِ مُرَّةً»[٤].

ناداها الحسن (رحمه الله) وكأنها شجرة شاخصة أمام عينيه، والاستعارة مكنية، والمناداة والمحادثة لازم الاستعارة. ويحتمل الأمر أن يكون (عيدان)

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧/

(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص١٦٧.

(٣) ص١٩١/ رقم الأثر: ٥٣٩.

(٤) لسان العرب / لابن منظور / ج٢/ ص١٤٤ .

استعارة لعناصر الدنيا وملاذاتها، و: «مصصناه» ترشيحًا للاستعارة، وهو يعني التجربة والمكاشفة.

• روى ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ][1]. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: **وَبِالسُّلُوِّ عَنْ غَوَائِلِ الدُّنْيَا وُجِدَ طَعْمُ لَذَّتِهَا، وَإِنَّهَا لَأَمَرُّ مِنَ الْعَلْقَمِ إِذَا عَجَنَهَا الْحَكِيمُ، وَأَقَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسَمَّى بِقَلِيلٍ، وَقَدْ أَغْنَتِ الْوَاصِفَ لِعُيُوبِهَا بِظَاهِرِ أَفْعَالِهَا، وَمَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ أَكْثَرُ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ الْوَاعِظُ، نَسْتَوْهِبُ اللَّهَ رُشْدًا إِلَى الصَّوَابِ**»[2].

شبه حال مرارة العذاب المترتب على الركون إلى الدنيا والتمتع بملذاتها - بحال العلقم الذي عجنه الحكيم حتى استحكم مُره. والتشبيه تمثيلي. والغرض من الصورة البيانية: بيان المقدار. وسبب تأثير التشبيه: نقل النفس من المعقول إلى المحسوس المتذوق.

***

الخلاصة:

ترددت الصورة البيانية في هذا المبحث بين التشبيه والاستعارة والكناية، وجاءت في مجملها مُؤَسَّسَةً على تشبيه الدنيا في قبحها بالجيفة، والخنزيرة والمزبلة والحشوش، وهي مواضع الغائط، والعجوز الشمطاء مشوهة الخَلْق، وشهواتها بالمرارة، وطاعاتها بالحلاوة، وثَبُت في المبحث المنازع التي انتزع منه أهل الرقائق صورهم، وهي أقوال النبي ﷺ. والصورُ في مجملها مُؤَسَّسةٌ على اختيار مشبه به يتناسب مع قدر الدنيا وحقارة شأنها.

---

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/[ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات /ج٢/ ص٢٢٨/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر - بيروت/ ط:١..

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١٢٠/ الأثر:٢٦٨.

المبحث الرابع:
التصوير البياني في مقام قصر الدنيا:

المحتوى:

١- تشبيه قصر الحياة الدنيا بمقدار جمعة من جمع يوم القيامة.

٢- وتشبيه مدة الدنيا بوقت إرجاع الطرف.

٣- وتشبيه مدة الدنيا بيوم صامه العبد ثم أفطر.

٤- وتشبيه مدة الدنيا بمدة نومة.

٥- وتشبيه الدنيا بمنزل نزل فيه العبد ثم ارتحل.

٦- وتشبيه الدنيا بنفجة أرنب.

٧- و: (أَلْزِقُوهَا بِأَكْبَادِكُمْ) استعارة تمثيلية.

٨- و: (ما بين الشفة إلى اللهاة) كناية عن قصر المسافة.

٩- وتشبيه الدنيا بماء الغدير الذي شرب ماؤه الصافي وبقي ماؤه الكدر.

١٠- وتشبيه الدنيا بصبابة الإناء وبالمرعى الوبيل.



قال - تعالى - عن الدنيا: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء:٧٧) قوله - تعالى -: «مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ» أي: منفعتها والاستمتاع بملذاتها، وسماه قليلًا؛ لأنه لا بقاء له، فجميع ما يستمتع به وينتفع به في الدنيا قليل في نفسه، سريع الزوال. وحول هذا المعنى الذي في الآية دندن أهل الرقائق في وصف القلة وتكييفها، وقد تخيَّلها كلٌ على حسب عقله، ومنازعه، وتجاربه، ورصيده من العلم، وطبيعة نفسه، وخلجات صدره.

فجاء تصوير قصرها بأنها جمعة من جمع الأخرة، أو كالوقت الذي يرجع فيه الطرف، أو كنهار صائم، أو كنومة نائم، أو كأحلام نائم، أو كظل زائل، أو منزل نازله عنه راحل، أو مقيل يتجاوزه القائلون، أو طريق مسافر، وكم عسى أن يكون وقته؟، أو كنفجة أرنب، أو كمُدة الطعام في البطن حتى يُهضم، وأقل من كل شيء قليل، ولو ألصقوها بأكبادهم فإنهم تاركوها أو تاركتهم، ولَخّص أحدهم قِصرها بالمسافة التي بين الشفة واللهاة.

وأما تصوير قلتها فجاء بأنها كالثغب الذي شُرب صفوه، وبقي كدره، وصبابة الإناء، وخسيس عيش، كالمرعى الوبيل، فلا ينبغي أن تُوزن بالآخرة أبدًا.

وهذا هو البيان:

١- تشبيه قصر الحياة الدنيا بمقدار جمعة من جمع يوم القيامة:

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ [ت:٩٥هـ].(١): إِنَّمَا الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمَعِ الْآخِرَةِ(٢).

قوله: «إنما»: ترى أئمة النحو يقولون: إنما تأتي إثباتًا لما يذكر بعدها ونفيًا

(١) سعيد بن جبير بن هشام الوالبي مولاهم/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٣٤٢.
(٢) الزهد لابن أبي الدنيا ص ١٧٢.

لما سواه، ويذكرون لذلك وجهًا لطيفًا يُسند إلى علي بن عيسى الربعي، وكان من أكابر أئمة النحو ببغداد، وهو أن كلمة (إن) لما كانت لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه، ثم اتصلت بها (ما) المؤكدة، لا النافية على ما يظنه من لا وقوف له بعلم النحو، وضاعف تأكيدها: ناسب أن يضمن معنى القصر؛ لأن قصر الصفة على الموصوف وبالعكس ليس إلا تأكيدًا للحكم على تأكيد(1).

شبه ابن جبير قصر الحياة الدنيا بأنه كمقدار جمعة واحدة من جمع يوم القيامة، اجتمع الناس فيها، ثم انفضوا، ومستبعد أن يكون المقصود بالجمعة هنا الأسبوع، وإلا فقد طال وقتها، وامتدت مدتها، والجمعة مقدارها ساعة، من بدايتها إلى نهايتها، وهذا ما يظهر ويسطع يوم القيامة، قال – تعالى –: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ (الروم:٥٥).

والصورة البيانية ناطقة بأن الدنيا لا تعدل شيئًا، ولا تستوي هي والآخرة؛ حيث إن الدنيا جمعة، والآخرة جُمع لا نهاية لها.

٢- تشبيه مدة الدنيا بوقت إرجاع الطرف:

روى ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ](2).: أنه قيل لبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: صِفْ لَنَا الدُّنْيَا وَمُدَّةَ الْبَقَاءِ، فَقَالَ: «الدُّنْيَا وَقْتُكَ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْكَ فِيهِ طَرْفُكَ؛ لِأَنَّ مَا مَضَى عَنْكَ فَقَدْ فَاتَكَ إِدْرَاكُهُ، وَمَا لَمْ يَأْتِ فَلَا عِلْمَ لَكَ بِهِ، يَوْمٌ مُقْبِلٌ تَنْعَاهُ لَيْلَتُهُ، وَتَطْوِيهِ سَاعَتُهُ، وَأَحْدَاثُهُ تَتَنَاضَلُ فِي الْإِنْسَانِ بِالتَّغْيِيرِ وَالنُّقْصَانِ، وَالدَّهْرُ مُوَكَّلٌ بِتَشْتِيتِ الْجَمَاعَاتِ، وَانْخِرَامِ الشَّمْلِ، وَتَنَقُّلِ الدُّوَلِ، وَالْأَمَلُ طَوِيلٌ، وَالْعُمْرُ قَصِيرٌ، وَإِلَى

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي / ص٢٩١/ ن: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان/ ط:٢

(٢) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ [ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨.

اللَّهِ الْأُمُورُ تَصِيرَ»[1].

في قوله: «**الدُّنْيَا وَقْتُكَ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْكَ فِيهِ طَرْفَكُ**»: شَبَّهَ مدتها بوقت إرجاع الطرف، وفسر بعد ذلك دعواه، وبرهن عليها بقوله: «**لِأَنَّ مَا مَضَى عَنْكَ فَقَدْ فَاتَكَ إِدْرَاكُهُ، وَمَا لَمْ يَأْتِ فَلَا عِلْمَ لَكَ بِهِ**». ومن براعة الصورة البيانية هنا قوله: «**يَوْمٌ مُقْبِلٌ تَنْعَاهُ لَيْلَتُهُ**».

فالعجب من هذا المقبل الميت قبل إقباله ومجيئه يقام له النعي، والتعبير دليل على سرعة الفناء، فاليوم مولود مفقود قبل أن يولد، وإسناد النعي إلى اليوم مجاز عقلي علاقته الزمانية.

ومما يصب في هذا المعني ما ذكره ابْنُ الْمُبَارَكِ منسوبًا لأَبِي ذَرٍّ، أَوْ أَبِي الدَّرْدَاءِ [ت:٣٢ هـ].[2]. قَالَ: «**تَلِدُونَ لِلْمَوْتِ، وَتُعَمِّرُونَ لِلْخَرَابِ، وَتَحْرِصُونَ عَلَى مَا يَفْنَى، وَتَذَرُونَ مَا يَبْقَى، أَلَا حَبَّذَا الْمَكْرُوهَاتُ الثَّلَاثُ: الْمَرَضُ، وَالْمَوْتُ، وَالْفَقْرُ**»[3].

قوله: «**تلدون للموت**» أي: ما مآله الموت، وتعمرون للخراب، أي: ما مآله الخراب، وهنا نفي المدة التي بين الولادة والموت، فالقوم يلدون أمواتًا وإن عاشوا وعمروا ومكثوا في الدنيا، وهنا استعارة تبعية في حرف اللام: «**للموت، للخراب**»، ولام العلة موضوعة؛ لترتب ما بعدها على ما قبلها، وقد استعملت هنا في غير ما وضعت له؛ لأن ما بعدها ليس مترتبًا على ما قبلها، فهم لم يلدوا للموت؛ إنما للحياة، ولم يبنوا للخراب؛ إنما للخلود، فيقال في الاستعارة على

(١) حلية الأولياء/ ج١٠ / ص١٥٠.
(٢) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٢ص٢١٤.
(٣) الزهد لابن المبارك ص٨٨/ أثر: ٢٦٢.

رأي الجمهور: شبه مطلق ترتب علة واقعية انتهى إليها البناء والعمران بمطلق علة رجائية غائية، فسرى التشبيه من هذين الكليين إلى جزئياتهما، ثم استعيرت اللام الموضوعة لجزئ من جزئيات المشبه به - وهو الولادة والعمران للحياة - لجزئ من جزئيات المشبه، وهو الولادة والعمران؛ للموت والخراب.

نعود إلى قول الحكيم: «**تطويه ساعته**»: يُطوى اليوم كالسجل، وإثبات الطي استعارة تخيلية، وهي قرينة المكنية، وذَكر الساعة؛ لبيان عجلة الزوال، فالأمر لا ينتظر حتى يكتمل اليوم، ويطوي هو نفسه، بل ساعته هي التي تطويه، وفي طي الساعة حسرة مميتة وألم موجع، وغيظ على هذه الساعة التي تتطاول على اليوم تطاوُلَ الصغار على الكبار، والفروع على الأصول، وتأكله أكل المفترس لجثة أبيه، والطي هنا يصور لنا ثوبًا أمره عجيب، فهو ينشر من طرف، ومن الطرف الآخر يطوى، فمتى تراه العين وتتحقق من رؤيته إذا كان هذا كنهه؟.

وأما قوله: «**وَأَحْدَاثُهُ تَتَنَاضَلَ فِي الْإِنْسَانِ بِالتَّغْيِيرِ وَالنُّقْصَانِ**»: فقد سبق الكلامُ عنه في مبحث بطش الدنيا.

٣- تشبيه مدة الدنيا بيوم صامه العبد ثم أفطر:

قال عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ، قَالَ: «قُلْتُ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ [ت: ١٦٢هـ]. [١]. : أَوْصِنِي، قَالَ: أَقْلِلْ مَعْرِفَةَ النَّاسِ، قُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ: ارْضَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا، مَعَ سَلَامَةِ الدِّينِ، كَمَا رَضِيَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِالدُّنْيَا مَعَ فَسَادِ الدِّينِ، قُلْتُ: زِدْنِي، قَالَ: اجْعَلِ الدُّنْيَا كَيَوْمٍ صُمْتَهُ، ثُمَّ أَفْطِرْ عَلَى الْمَوْتِ»[٢].

---

(١) داود الطائي أبو سليمان بن نصير / سير أعلام النبلاء / ج٧/ ٤٢٢/ ط:الرسالة.
(٢) حلية الأولياء / ج٧/ ص٣٤٣.

قوله: «الدُّنْيَا كَيَوْمِ صُمْتَهُ»: ما دام العمر في الدنيا كيوم ينبغي للعاقل الصوم؛ ابتغاءً للأجر، وينبغي له الإمساك عن الشهوات واجتناب الموبقات والبعد عن المعاصي والآثام، والقناعة أنها كيوم؛ لأن إبليس والنفس والهوى يؤملون، فيظن الإنسان أنه مخلد، والموت هنا طعام الصائمين الصابرين دل عليه لفظ «أفطر»، وهو ترشيح للتشبيه، وهذا الطعام ما ذكر في ضيق إلا وسعه، كانوا يحرصون عليه كما نحرص نحن على الحياة؛ لأن ما بعده للمتقين خير من الدنيا وما فيها.

وفي الصورة أيضًا جاء الموت محبوبًا مرغوبًا كالفطر، ووجب على المؤمن أن يفطر ويفرح؛ لأن ما بعده هو لقاء ربه.

٤- تشبيه مدة الدنيا بمدة نومة:

قال الحسن [ت: ١١٠هـ][(١)]: «مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِلاَّ كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ مَا يُحِبُّ، ثُمَّ انْتَبَهَ»[(٢)].

في قوله: «مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً»: شَبَّهَ مدة الدنيا بمدة نومه، ووجه الشبه: شدة القصر وخروج العبد صفر اليدين، وكم عساه أن ينام النائم؟.

وقوله: «ما يحب» يقابله في المشبه شهوات الدنيا وملذاتها وبُلهنية العيش. وقوله: «انتبه» دلت بمعناها أنه لم يخرج من حلمه بشيء، ولم يمسك بشيء من محبوباته، وكذلك ينتبه العبد في قبره، فلا يجد من ماله وأملاكه شيئًا، إلا الكفن، وما الكفن؟!!.

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ج٤/ ص٥٨٧/ ط: الرسالة.

(٢) حلية الأولياء/ ج٦ ص٢٧٠.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُيَيْنَةَ [ت:١٩٩هـ].(١).: قِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: أَيُّ شَيْءٍ أَشْبَهُ بِالدُّنْيَا؟، قَالَ: «أَحْلَامُ النَّائِمِ»(٢).

وقَالَ ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ].(٣).: كَتَبَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ إِلَى أَخٍ لَهُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا حُلْمٌ، وَالْآخِرَةَ يَقَظَةٌ، وَالْمُتَوَسِّطُ بَيْنَهُمَا الْمَوْتُ، وَنَحْنُ فِي أَضْغَاثٍ، وَالسَّلَامُ»(٤).

شبه الدنيا بالحلم والآخرة باليقظة تشبيهًا مفردًا، ثم بعدما أرسى تشبيهاته انتقل إلى طور أعلى، فوصف الدنيا في آخر كلامه بأنها أضغاث، وهذه زيادة على المعنى الأول، فالأضغاث شيء مختلط، ليس له معالم واضحة، ولا يُؤول.

وأعجبني هذا الحكيم الذي طابقت عدد كلماته غرضه، قد استعجل في التعريف، ولخص، وأنهى، كأنه ما قال شيئًا، وقد قال كل شيء؛ لأن الغرض: أنّا نحن في أضغاث أحلام، والسلام، ولو استيقظ الإنسان لأدرك ذلك؛ فإن الأيام يشبه بعضها بعضًا، كأنها يوم واحد، والأحداث تتكرار، حتى يستطيع المرء أن يلخص أي مرحلة من مراحل حياته في سطور قليلة، ولو ترك الاختصار وفاض في التفاصيل فإنه لن يزيد أيضًا على تلك السطور إلا بتكرار ما في السطور.

٥- تشبيه الدنيا بمنزل نزل فيه العبد ثم ارتحل:

قال مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ [ت:١١٤هـ].(٥).: «يَا جَابِرُ أَنْزِلِ الدُّنْيَا كَمَنْزِلٍ نَزَلْتَ بِهِ،

---

(١) إبراهيم بن عيينة، أبو إسحاق/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٤٧٥.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص٣١/ الأثر: ٢٢.

(٣) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ [ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات/ ج٢/ ص٢٢٨.

(٤) الزهد لابن أبي الدنيا ص١٧٣.

(٥) أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٤٠٩.

وَارْتَحَلْتَ مِنْهُ، أَوْ كَمَالٍ أَصَبْتَهُ فِي مَنَامِكَ، فَاسْتَيْقَظْتَ وَلَيْسَ مَعَكَ مِنْهُ شَيْءٌ، إِنَّمَا هِيَ مَعَ أَهْلِ اللُّبِّ وَالْعَالِمِينَ بِاللهِ - تَعَالَى - كَفَيْءِ الظِّلَالِ، فَاحْفَظْ مَا اسْتَرْعَاكَ اللهُ - تَعَالَى - مِنْ دِينِهِ وَحِكْمَتِهِ»[(١)].

في قوله: «**كَمَنْزِلٍ نَزَلْتَ بِهِ وَارْتَحَلْتَ**»: شَبَّهَ الدنيا بمنزل نزل فيه العبد، ثم ارتحل. ووصفُ الدنيا بالمنزل يشعر المرء أنها خرجت من فحوى كلام النبي ﷺ: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[(٢)].

فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم؛ فقد وصف النبي ﷺ مدة الدنيا بوقت القيلولة.

قال ابْنُ مَسْعُودٍ [ت:٣٢][(٣)]: «**مَا أَصْبَحَ أَحَدٌ الْيَوْمَ إِلاَّ وَهُوَ ضَيْفٌ، وَمَالُهُ عَارِيَةٌ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ، وَالْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ**»[(٤)].

ثم قال ابن علي: «**أَوْ كَمَالٍ أَصَبْتَهُ فِي مَنَامِكَ، فَاسْتَيْقَظْتَ وَلَيْسَ مَعَكَ مِنْهُ شَيْءٌ**»: شَبَّهَ الدنيا بمال في يد نائم استيقظ فلم يجد شيئًا، والتشبيه مركب، وجسّم هنا حقيقة الغرور، وبين ماهية السراب، وَوَضَّح أن الدنيا سمادير.

قوله: «**فَاسْتَيْقَظْتَ**» جاءت الفاء؛ لبيان سرعة الاستيقاظ، وقلة المدة التي

---

(١) حلية الأولياء/ ج٣/ ص١٨٧.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي/ حديث رقم ٢٧٥/ ن: دار هجر - مصر/ ت: محمد بن عبد المحسن التركي/ ط: ١.

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٤) كتاب الزهد الكبير / أبو بكر البيهقي/ ص٢٢٣.

أمسك فيها المال، إن كان أمسك في هذه الأضغاث والسمادير.

- قال محمد بْنُ عَاصِم، حَدَّثَنَا أَبُو هُرْمُزَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قِيلَ لِنُوحٍ (عليه السلام): يَا أَطْوَلَ النَّبِيِّينَ عُمُرًا، وَيَا أَفْضَلَهُمْ شُكْرًا، كَيْفَ وَجَدْتَ الدُّنْيَا وَالْعَيْش فِيهَا؟، قَالَ: كَرَجُلٍ دَخَلَ بَيْتًا لَهُ بَابَانِ، فَأَقَامَ فِي الْبَيْتِ هُنَيْهَةً، ثُمَّ خَرَجَ»[١].

وما زالت بلاغة وصف النبي ﷺ تنهمر على ألسنة أهل الرقائق التي أذعنت للسانه، ودخلت تحت سلطانه، فيقول ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: كَانَ صِلَةُ بْنُ أَشْيَمَ [ت:٦٢هـ].[٢]. يَخْرُجُ إِلَى الْجَبَّانَةِ، فَيَتَعَبَّدُ فِيهَا، فَكَانَ يَمُرُّ عَلَيْهِ شُبَّانٌ يَلْهَوْنَ وَيَلْعَبُونَ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي عَنْ قَوْمٍ أَرَادُوا سَفَرًا، فَحَادَوْا النَّهَارَ عَنِ الطَّرِيقِ، وَبَاتُوا بِاللَّيْلِ مَتَى يَقْطَعُونَ سَفَرَهُمْ؟، قَالَ: فَكَانَ كَذَلِكَ يَمُرُّ بِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، قَالَ: فَمَرَّ بِهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ لَهُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، فَقَالَ شَابٌّ مِنْهُمْ: يَا قَوْمُ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَعْنِي بِهَذَا غَيْرَنَا، نَحْنُ بِالنَّهَارِ نَلْهُو، وَبِاللَّيْلِ نَنَامُ، ثُمَّ اتَّبَعَ صِلَةَ، فَلَمْ يَزَلْ يَخْتَلِفُ مَعَهُ إِلَى الْجَبَّانَةِ وَيَتَعَبَّدُ مَعَهُ حَتَّى مَاتَ»[٣].

في قوله: «قَوْمٍ أَرَادُوا سَفَرًا، فَحَادَوْا النَّهَارَ عَنِ الطَّرِيقِ، وَبَاتُوا بِاللَّيْلِ، مَتَى يَقْطَعُونَ سَفَرَهُمْ؟»: شَبَّهَ حالهم بحال قوم مسافرين نوام بالليل، حادين عن الطريق بالنهار، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وفي الصورة البيانية تعريض بالقوم غرضه النصح والارشاد، والصورة دليل

(١) العمروالشيب لابن أبي الدنيا ص ٥٤/ الأثر:١٩ /ت: د. نجم عبد الله خلف/ ن: مكتبة الرشد - الرياض/ ط: ١.

(٢) صلة بن أشيم أبو الصهباء العدوي/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٥٠٠.

(٣) الزهد لأحمد ص ١٧٠.

وبرهان على كلامه، فالشباب هم المسافرون الذين حادوا عن الطريق، والسفر له وقته، والمصلحة لا تنتظر، والغايات قد تفوت، فمتى الرجوع؟.

٦- تشبيه الدنيا بنفجة أرنب:

قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ قَبِيصَةَ بْنَ جَابِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ [ت:٢٣هـ] (١). يَقُولُ: «مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَنَفْجَةِ أَرْنَبٍ»(٢).

شبه الدنيا بنفجة أرنب، وقيد المشبه به بالأرنب دون غيره؛ لسرعة نفجته وخفته. والنفجة هي الوثبة التي يثبها الأرنب إذا ذعر من مجثمه، جاء في اللسان: «نَفَجَ الأَرنَبُ إِذا ثارَ؛ ونَفَجَت، وَهُوَ أَوْحَى عَدْوِها. وأَنْفَجَها الصائدُ: أَثارها مِنْ مَجْثَمِها؛ وَفِي حَدِيثِ قَيْلَةَ: فانْتَفَجَتْ مِنْهُ الأَرنبُ، أَي: وَثَبَتْ. ونَفَجْتُه أَنا: أَثَرْتُه، فثارَ مِنْ جُحْرِه»(٣).

وهذه النفجة هي مدة الدنيا ودليل خفتها، فما أن تراها صاعدة إلا وتتفاجأ أنها في الأسفل، كأنها لم تصعد، فالأمر أسرع من أن تمسك بالأرنب: «**الدنيا**»، بل أصعب من أن تتمكن من رؤيتها، وتتحقق منها، فهي أضغاث أحلام، ونومة نائم، وأرنب وثب من الأرض، ثم سرعان ما عاد إليها في طرفة عين كلمح البصر، قال – تعالى –: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٥).

كان هناك شيء ظاهر على الأرض، ثم ذهب، وهبوط الأرنب وعودته أمر

---

(١) عمر بن الخطاب/ الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الزهد لابن المبارك ٤١٧ص/ الأثر:١١٨٢.

(٣) لسان العرب/ ج٢/ ص٣٨١.

اضطراريٌّ؛ لأن جاذبية الأرض تجذبه، ولو استطاع التحليق أو الخلود في الهواء لفعل، ولكن قدر الله مقدور، كذلك العبد لا محالة مقبور.

جاءت الدنيا هنا في هذا التشبيه متحركة، وليست بأي حركة، بل حركة نفجة أرنب، والتصوير بالحركة له قدره ورتبته التي لا يصعده إليها إلا النوابغ.

وقد جاءت هذه الصورة في حديث النبي ﷺ وهو يصف الفتن: «**يَا ابْنَ حَوَالَةَ، كَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةٍ تَثُورُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ كَأَنَّهَا صَيَاصِي بَقَرٍ؟**»، **قَالَ: قُلْتُ: أَصْنَعُ مَاذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ»، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةٍ كَأَنَّ الْأُولَى فِيهَا نَفْجَةُ أَرْنَبٍ؟»**[1].

٧- (أَلْزِقُوهَا بِأَكْبَادِكُمْ) استعارة تمثيلية:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ [ت:٥١ - ٦٠هـ][2]. **أَنَّهُ ذَكَرَ الدُّنْيَا، فَقَالَ لجلاسه: أَلْزِقُوهَا بِأَكْبَادِكُمْ؛ فَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَى الْآخِرَةِ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَلَا دِرْهَمٍ، وَلَتَتْرُكُنَّهَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَفِي بَطْنِهَا كَمَا تَرَكَهَا مَنْ قَبْلَكُمْ، تَشَاجَرُوا عَلَيْهَا تَشَاجُرَكُمُ الْآنَ، وَتَخَادَعُوا عَلَيْهَا تَخَادُعَكُمْ، وَلَتَهْلِكُ دِينَكُمْ وَدُنْيَاكُمْ**»[3].

يخاطب أبو مسعود الأنصاري ﷺ جلاسه، ويظهرَ بين الكلمات غضبه وتوبيخه لهم، فيقول: «**أَلْزِقُوهَا بِأَكْبَادِكُمْ، وَلَتَتْرُكُنَّهَا، وَلَتَهْلِكُ دِينَكُمْ وَدُنْيَاكُمْ**». ومرجع الضمير في قوله: «**أَلْزِقُوهَا**» عائد على الدنيا؛ لقوله: «**فَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَى الْآخِرَةِ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَلَا دِرْهَمٍ، وَلَتَتْرُكُنَّهَا**»: أراد أن يقول: تمسكوا بها؛ فإنها

---

(١) مسند أحمد / ج٣٣:ص٤٦٤/ ط: الرسالة.

(٢) أَبُو مَسْعُود الْأَنْصَارِيّ. مات سَنَةَ أَرْبَعِينَ./ تاريخ الإسلام للذهبي / ج٢/ ص٥٥٩.

(٣) الزهد لأحمد / ص ١٥٤.

تاركتكم، فعدل عن ذلك، وقال: ألزقوها بأكبادكم؛ فإنها تاركتكم.

شبه حال من يتعلق بالدنيا ويحنو عليها ويركن إليها - بحال من ألزقها بكبده؛ تمسكًا بها، وحنوًا إليها، وتعلقًا بمتاعها، والجامع هو هيئة الحرص والحب والركون التام في كل، ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

ولما رأى أبو مسعود شدة تمسكهم بالدنيا والمبالغة في أخذها وعدم الاكتفاء؛ بجعلها في الأيدي والجيوب: جعلهم في صورة من يريد أن يلصقها بكبده، فقال لهم: وإن أحدثتم المستحيل فإنها تارككم وتاركوها. وخص الكبد دون غيره؛ لأن الإنسان إذا أحب شيئًا جعله ككبده الذي به حياته، فيقال عن الأولاد: فلذة كبد، فأحبوها حب الأولاد، وعضوا عليها بالنواجذ، وأرادوا إلصاقها بالكبد، وكأن الكبد غير قابل لها، وهم يحاولون إلصاقها، ويتفانون في الإمساك بها: **«أَلْزِقُوهَا بِأَكْبَادِكُمْ؛ فَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَى الْآخِرَةِ مِنْهَا بِدِينَارٍ وَلَا دِرْهَمٍ»**. وهذا القول شبيه بحديث النبي ﷺ: عن أُبيّ بن كعب ؓ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إن مطعم بن آدَمَ ضُرِبَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا بِمَا خَرَجَ مِنِ بن آدَمَ، وَإِنْ قَزَّحَهُ، وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرْ مَا يَصِيرُ إليه»**[1]. كلمة: **«الزقوها بأكبادكم»** هي صنو: **«وإن قزحه وملحه»**، فالأمر محتوم، وقضاء الله مفعول.

٨- (ما بين الشفة إلى اللهاة) كناية عن قصر المسافة:

لذاذات الدنيا منقطعة، زائلة، قصيرة، منغصة، والإفراط فيها مضر وإن كانت حلالًا، والصبر عن الشيء المنقطع الزائل القصير المنغص أسهل ما يكون إذا صح النظر، واستبصر العقل.

---

(١) صحيح ابن حبان (٢/ ٤٧٦) / ت: شعيب الأرنؤوط / ن: مؤسسة الرسالة، بيروت / ط:١.

وهذه صورة بيانية تقرب ذلك المعنى، قال الثوري [ت:١٦١هـ].[١]: «**صَابِرُوا الْأَغْنِيَاءَ فِي الطَّعَامِ مَا بَيْنَ الشَّفَةِ وَاللهَاةِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا جَازَ ذَلِكَ لَمْ يُعْرَفْ لَيِّنُهُ مِنْ خَشِنِهِ**»[٢].

قوله: (ما بين الشفة إلى اللهاة): كناية عن قصر المسافة، مسافة الصبر، أو كناية عن اليسير من الصبر، والطعام رأس في متاع الدنيا، وهذه المقولة يتجول فيها الخيال، ويتأمل وهو يرى الدنيا تتجسد وتتشخص في هذه المسافة التي هي أقل من فِتر، وهذه المسافة هي مسافة التمتع التي يتجاوزها الطعامُ في وقت قصير كنفجة أرنب، ولو ركن الطعام ولم يتجاوزها: فإن المدة تَطُول، لكن بلا تمتُّع؛ لأن ركون الطعام يذهب بملحه وقزحه ونكهته، فيحصل عكس المقصود، ويحدث التقزز بدل التلذذ.

٩- تشبيه الدنيا بماء الغدير الذي شرب ماؤه الصافي، وبقي ماؤه الكدر:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ [ت:٣٢].[٣]. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ كُلَّهَا قَلِيلاً، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا قَلِيلٌ مِنْ قَلِيلٍ، وَمَثَلُ مَا بَقِيَ مِنْهَا مِثْلُ الثَّغْبِ[٤]. شُرِبَ صَفْوُهُ، وَبَقِيَ كَدَرُهُ، فَقُلْتُ لِعَاصِمٍ: وَمَا الثَّغْبُ؟، قَالَ: الْغَدِيرُ يَكُونُ فِيهِ الْمَاءُ الرَّقِيقُ الصَّافِي إِذَا مَرَّ بِهِ الدُّعْمُوصُ[٥]»[٦].

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٢) حلية الأولياء/ ج٧/ ص٧.

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ج١/ ص٤٦١.

(٤) الثغب:مَا بَقِيَ مِنَ الْمَاءِ فِي بطنِ الْوَادِي، وَقِيلَ: الثَّغَبُ الغَدِيرُ يَكُونُ فِي ظِلِّ جَبَل لاَ تُصِيبُه الشَّمْسُ، فيَبْرُد ماؤُه. لسان العرب (١/ ٢٣٩).

(٥) دُعموص: دودة سَوْدَاء تكون فِي المَاء الآجن/ جمهرة اللغة/ ج٢ ص١١٩٦/ ت: رمزي منير بعلبكي / ن: دار العلم للملايين/ ط:١ .

(٦) الزهد لأبي داود ص١٣٧/ الأثر:١٢٩/ ت: أبو تميم ياسر بن ابراهيم بن محمد، أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم / ن: دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان/ ط: ١.



في قوله: «**مِثْلُ الثَّغْب**»: شَبَّهَ قلة ما بقي من الدنيا بماء الغدير الذي شرب ماؤه الصافي، وبقي ماؤه الكدر القليل، في شدة القلة والبغض والكراهة.

وأراد ابن مسعود بالصفو الذي شُرب عهدَ النبي ﷺ؛ فقد كان ﷺ أمانة لأصحابه، فلما ذهب أتى أصحابه ما يوعدون من الفتن والبلاء، ومال الناس على الدنيا، ورضوا أن يشاركوا الدعاميص.

وأبى الأحرار وأنفوا أن يشربوا من هذا الكدر والطين، وتجافت جنوبهم وأجسادهم أن تشارك الدعاميص في الثغب الذي عكروه، وكدروه، فزهدوا فيما فيه منقصة وعار.

وعلى هذه المعنى خاطب علي ﷺ [ت: ٤٠]. [١]. ابن عوف، وهو يغبطه على إدراك الصفو من الماء وسبق الكدر والرنق، قال أَسَدُ بْنُ مُوسَى، حدثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا، يَقُولُ: «**يَوْمَ مَاتَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: اذْهَبِ ابْن عَوْفٍ؛ فَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَهَا، وَسَبَقْتَ رَنْقَهَا**»[٢].

رنق: **الرَّنْق: تُرَابٌ فِي الْمَاءِ مِنَ الْقَذى**[٣].

استعار الماء للدنيا، وحذف المشبه به، وذكر لازمًا من لوازمه، وهو: (**الصفو، والرنق**) على سبيل الاستعارة المكنية. أراد بالصفو ما أدركه من زمن مع النبي ﷺ، والرنق الفتن التي أتت بعد زمن النبي ﷺ.

---

(١) الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.

(٢) حلية الأولياء ج١/ ص١٠٠.

(٣) لسان العرب/ ج١٠/ ص١٢٦.

١٠- تشبيه الدنيا بصبابة الإناء وبالمرعى الوبيل:

وقريب من هذه الصورة البيانية ما أورده مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ الْقَوْمُ بِالْحُسَيْنِ [ت:٦١هـ].(١). وَأَيْقَنَ أَنَّهُمْ قَاتِلُوهُ قَامَ فِي أَصْحَابِهِ خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**قَدْ نَزَلَ مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ، وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا، وَانْشَمَرَتْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ إِلَّا خَسِيسَ عَيْشٍ، كَالْمَرْعَى الْوَبِيلِ، أَلَا تَرَوْنَ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَالْبَاطِلُ لَا يُتَنَاهَى عَنْهُ؛ لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللهِ، وَإِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا جُرْمًا**»(٢).

جَمعَ لما بقي من الدنيا تشبيهين: صبابة إناء، ومرعى وبيل.

في قوله: «كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ»: شَبَّهَ الدنيا بصبابة الإناء، ووجه الشبه: القلة، والصورة قريبة من الثغب الذي شرب ماؤه الصافي، وبقي به الماء الكدر، كلاهما مشترك في القلة: ما بقي في الغدير، وما بقي في الإناء، وكلاهما تعافهما النفس، وتشمئز، وتتقزز من الاقتراب منهما، ولا تقنع بما فيهما، ولا تبالي النفس الحرة بفواتهما وعدم الظفر بهما.

وقد مهَّد الحسين ﷺ لهذه الصورة البيانية بقوله عن الدنيا: «**تَغَيَّرَتْ، وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا، وَانْشَمَرَتْ**»؛ حيث يعتقد بعضُ الناسِ أن نعيم الدنيا سرمدي، وأن الخير فيها ممتد غير منقطع، فبيَّن القائل أنها تنكرت، وأدبرت، وتغيرت، ولم يبق منها إلا كصبابة الإناء.

---

(١) الحسين الشهيد أبو عبد الله بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ر / سير أعلام النبلاء ج٣/ ٣١٨/ ط: الرسالة.

(٢) حلية الأولياء/ ج٢/ ص٣٩.

قوله: «خَسِيسَ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَبِيلِ»: أي: الوخيم الثقيل الذي لا يُسْتَمرَأ. هذا التشبيه صورة بيانية مستقلة وحدها، ومكملة لصورة صبابة الإناء، وبها يكتمل التقسيم؛ فالدنيا صبابة إناء، لا تشرب، وخسيس عيش لا يؤكل، فلا أكل ولا شرب، فعلام البقاء والجبن.

وهناك تعريض يَشرُف من بين السطور بمَن يقبل بالمرعى الوبيل: صاحب الحوافر والأرجل الأربع صديق الدعموص في الحقل، محب الدنيا، وهذه صورة منفرة يثير بها الحسين ﷺ همم الرجال، ويبين أنه ما بقي من الدنيا إلا هذا، فهل أنتم متبعون؟، ويبين أن الدنيا صارت إلى ما صارت إليه؛ بسبب أن الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه؛ فليرغب المؤمن إلى ربه، فباطن الأرض خير من ظاهرها؛ لأن ظاهرها دعاميص وذوات أربع؛ فليرجع العبد إلى ربه، وليزن أمره، وليعقل واقعه ومآله، فلله در القائل:

إِنِّي وَزَنْتُ الَّذِي يَبْقَى لِيَعْدِلَهُ ... مَا لَيْسَ يَبْقَى فَلا وَاللَّهِ مَا اتَّزَنَا[1].

* * *

الخلاصة:

دارت الصور البيانية في هذا المبحث على تشبيه الدنيا بجمعة من جمع الآخرة، وبوقت إرجاع الطرف، وبنهار صائم، وبنومة نائم، كل ذلك تشبيه زمني يتوافق مع سرعة انقضاء الدنيا، والواقع يثبت ذلك، فقد تتغير الدنيا في

---

(١) القائل محمد بن عيينة أخو سفيان بن عيينة. أخبار الشيوخ وأخلاقهم/ : أحمد بن محمد بن الحجاج، أبو بكر المَرُّوْذِيُّ / ص١٧٧/ ت: عامر حسن صبري/ ن: دار البشائر الإسلامية، بيروت/ ط:١.

لحظة واحدة، ويتركها العبد في غمضة عين. ثم تأتي الصور المادية المحسوسة بتشبيهها في قلتها وحقارتها بصبابة الإناء وبالثغب، والمرعى الوبيل؛ لبيان حقارتها ووضاعتها، وضرورة الزهد فيها، فهي فضلة من الفضلات، والركون إليها سفه ودناءة.

المبحث الخامس:
التصوير البياني في مقام ترك الدنيا والزهد فيها

المحتوى:

١- تشبيه حال من تعلق بالدنيا بحال أسير.

٢- وتشبيه الدنيا بالمطية.

٣- واستعارة الشاة للدنيا.

٤- واستعارة الإهانة للإعراض عن الدنيا.

٥- وتشبيه استحالة استقامة النار والماء في الإناء باستحالة استقامة حب الآخرة والدنيا في قلب المؤمن.

٦- وتشبيه الدنيا بعجوز هتماء.

٧- واستعارة المرأة المخطوبة للدنيا.

٨- وتشبيه حال الدنيا ومن يتعلق بها بحال امرأة خسيسة ينشغل بها كل خسيس.

٩- وتشبيه الدنيا والآخرة بضرتين.

١٠- وتشبيه الدنيا والآخرة بإناءين.

١١- وتشبيه حال من يريد الجمع بين الدنيا والآخرة بحال عبد له ربان لا يدري أيهما يرضي.

١٢- وتشبيه الدنيا بالظئر.

١٣- و: «مَا أُبَالِي شَمَمْتُ مِسْكَكُمْ هَذَا أَوْ شَمَمْتُ رَوْثَةً» كناية عن الزهد.



١٤- ومخاطبة الرغيف على سبيل الاستعارة المكنية .

١٥- وتشبيه الدنيا بالفخ.

١٦- واستعارة الصياد للدنيا.

١٧- وتشبيه حال من يُذكّر الناس الدنيا بحال من يضرب عليهم قبة.

١٨- واستعارة الحائط للمانع الذي يمنع الشهوات.

١٩- وتصوير الشهوات ببيت له أبواب.

٢٠- واستعارة المرأة الفاغرة فمها للدنيا.

٢١- ومخاطبة البطن وإنطاقها على سبيل الاستعارة المكنية.

٢٢- وتشبيه البطن بالكلب، والبطون بالجرب.

٢٣- واستعارة الجلجلة لورود الشيء على القلب وتردده.

٢٤- وتشبيه الصيام بالملجأ من الشهوات.

صوَّر أهل الرقائق الدنيا بعدة أشياء: مرة في صورة امرأة، وأخرى في صورة سبع، أو مطية، أو ظئر، أو أمّ، أو عقبة كئود، أو صياد ماكر، أو وحش فاتحًا فاه، فمع تعدد ملذاتها وكثرة أنواعها وفتنها جعلت في هذه القوالب؛ لتقريب وصفها، وبيان العلاج منها، والنجاة من عواقبها، إن كانت كامرأة، أو كسبع، أو كعقبة كئود، أو شباك صياد، فيرى السامع والمنصوح الأمر على طبيعته وحقيقته، ويسهل عليه معالجته والتداوي منه.

١- تشبيه حال من تعلق بالدنيا بحال أسير:

قال أبو بكر بْنِ عَيَّاشٍ [ت:١٩٣هـ].[١]**. قَالَ: «قَالَ لِي رَجُلٌ مَرَّةً وَأَنَا شَابٌّ: خَلِّصْ رَقَبَتَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فِي الدُّنْيَا مِنْ رِقِّ الْآخِرَةِ؛ فَإِنَّ أَسِيرَ الْآخِرَةِ غَيْرُ مَفْكُوكٍ أَبَدًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَمَا نُسِّيتُهَا أَبَدًا»**[٢].

شبه الإنسان بالعبد، وذكر لازمَ المشبه به، وهو (رقبة) على سبيل الاستعارة المكنية، ورشح الاستعارة بقوله: «**رق الآخرة، أسير الاخرة**».

وقوله: «**رقبة**» مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ ذكر الجزء، وأراد الكل.

وأوضحت الصور البيانية أن الدنيا فترة المكاتبة التي إذا انتهت بلا اغتنام واهتمام فإن الرق بعدها يطول، ولا مهلة، ولا فكاك. وقوله: «**وغير مفكوك**» أفاد عدم النجاة، أي: ليس بناج، وكيف ينجو؟، ولا مال يومها، وإن كان ثمة مال فإنه يومها لا ينفع، ويحشر الناس حُفاة عُراة.

---

(١) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٤٩٥.

(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص٣٠٤.

٢- تشبيه الدنيا بالمطية:

جاء عَنْ سُعَيْرٍ، قَالَ: مَرَرْتُ بِعَطَاءٍ السَّلِيمِيِّ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟، قُلْتُ: مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ الْحَسَنِ[١]**. قَالَ: فَمَا قَالَ؟، قُلْتُ: قَالَ: الدُّنْيَا مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى رَبِّهِ، عَلَيْهَا يَرْتَحِلُ الْمُؤْمِنُ إِلَى رَبِّهِ، فَأَصْلِحُوا مَطَايَاكُمْ تُبَلِّغُكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ، قَالَ: فَخَرَّ عَطَاءٌ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ**[٢].

شبه الدنيا بالمطية، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما وسيلةٌ لإدراك غاية، وإضافة المشبه به إلى المؤمن أفاد هوان الدنيا على المؤمن، فما هي عنده إلا مطية تبلغه الآخرة، وغايته أجل وأغلى من الدنيا،

ورشح التشبيه بقوله: «**عَلَيْهَا يَرْتَحِلُ الْمُؤْمِنُ إِلَى رَبِّهِ**»، ومما يظهر لي أن في النص دفائنَ وخبايا لا أعلمها، وعلمها عطاء السليمي، فخرَّ مغشيًا، أما أنا فما زلت ممسكًا بالقلم.

٣- استعارة الشاة للدنيا:

قال عَوْنُ بْنَ عَبْدِ اللهِ[٣].: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُفَرْفِرُ الدُّنْيَا فَرْفَرَةَ هَذَا الْأَعْرَجِ، يَعْنِي أَبَا حَازِمٍ**»[٤].

هذه الاستعارة لم تبعد عن التشبيه الماضي أنها «**مطية**»؛ حيث شبهها عون بالشاة التي تمزق، جاء في اللسان. «**يفرفر: أَي: يَذُمُّهَا ويمزِّقها بِالذَّمِّ وَالْوَقِيعَةِ**

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد [المتوفي: ١١٠ هـ] / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.
(٢) حلية الأولياء / ج٦/ ص٢٢٠.
(٣) عون بن عبد الله بن عتبة الهذلي (ت: ١١٠ هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٥/ ص١٠٥.
(٤) حلية الأولياء / ج٣/ ص٢٢٩.

فِيهَا. وَيُقَالُ: الذِّئْبُ يُفَرْفِرُ الشَّاةَ، أَي: يُمَزِّقُهَا»[1].

قوله: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا يُفَرْفِرُ الدُّنْيَا فَرْفَرَةَ هَذَا الْأَعْرَجِ»: الاستعارة مكنية؛ صوَّر الدنيا بالشاة التي تمزق، وحذف المشبه به، وأبقى لازمه (يفرفر بمعنى يمزق)، وهذا منهج آخر في التعامل مع الدنيا غير الركوب، وهو التمزيق بلا فتور ولا هوان، ومن غير ميل ولا عاطفة نحوها.

وأصل المعنى قائم على التشبيه التمثيلي، والاستعارة المكنية صورة جزئية من الصورة الكلية؛ حيث شَبَّهَ حال أبي حازم وذمه للدنيا - بحال من يمزق شاة، ووجه الشبه: الإهانة وعدم العبء بها.

٤- استعارة الإهانة للإعراض عن الدنيا:

قال الحسن[2].: «أَهِينُوا هَذِهِ الدُّنْيَا»[3].

وهنا استعارة مكنية؛ صوَّر الدنيا في صورة المطية أو الشخص الذي يُهان.

وفي قوله: «أهينوا» حماسة وغيظ، وكأنه منذر جيشًا، والعدو قريب محسوس مشاهد دلَّ على قربه اسْمُ الإشارة: «هذه» الذي يُشار به إلى القريب.

٥- تشبيه استحالة استقامة النار والماء في الإناء - باستحالة استقامة حب الآخرة والدنيا في قلب المؤمن:

قول عيسى بن مريم - عليه السلام -: كَما لَا يَسْتَقِيم النَّار والمَاء فِي إِنَاء

---

(١) لسان العرب / ج:٥/ ص:٥٣/ فصل الفاء.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد [المتوفي: ١١٠ هـ] / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) الزهد لأحمد/ حديث ١٦٢٠/ ص٢٢٩.

كَذَلِك لا يَسْتَقِيم حُب الآخِرَة والدُنيا فِي قَلْب المُؤمن[١].

والتشبيه هنا مركب؛ شَبَّهَ استحالة استقامة النار والماء في الإناء - باستحالة استقامة حب الآخرة والدنيا في قلب المؤمن، ولا يمكن أن ينتقل التشبيه إلى الجزئيات، فنقول: إن الماء هو الآخرة، والنار هي الدنيا؛ لأن الأمر لا يستقيم، والتأويل يَشطن بعيدًا، ولا يسلم من الاعتراض عليه.

٦- تشبيه الدنيا بعجوز هتماء:

أورد ابن أبي الدنيا عَنْ لَيْثٍ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رَأَى الدُّنْيَا فِي صُورَةِ عَجُوزٍ هَتْمَاءَ، عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ، فَقَالَ لَهَا: كَمْ تَزَوَّجْتِ؟، قَالَتْ: لَا أُحْصِيهِمْ، قَالَ: فَكُلُّهُمْ مَاتَ عَنْكِ، أَوْ كُلُّهُمْ طَلَّقَكِ؟، قَالَتْ: بَلْ كُلَّهُمْ قَتَلْتُ، قَالَ: فَقَالَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: بُؤْسًا لِأَزْوَاجِكَ الْبَاقِينَ، كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكِ الْمَاضِينَ؟، كَيْفَ تُهْلِكِينَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، وَلَا يَكُونُونَ مِنْكِ عَلَى حَذَرٍ؟[٢].

في قوله: «رَأَى الدُّنْيَا فِي صُورَةِ عَجُوزٍ هَتْمَاءَ»: شَبَّهَ الدنيا بعجوز هتماء، وغرض التشبيه: تقبيح صورة الدنيا، وإظهار أمرها. وفي قوله: «بُؤْسًا لِأَزْوَاجِكَ»: استعار الأزواج للمتمسكين بالدنيا الحريصين عليها استعارة تصريحية، غرضها بيان مدى علاقة التمسك ومدى الحب والملازمة، والتفاني في مصاحبة الدنيا. وقوله: «كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكِ الْمَاضِينَ؟»: أفاد غفلة القوم مع عدم الاعتبار بما مضى من سنن.

---

(١) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا/ ص٤٤ / الحديث:٧٦.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص٣٢.

٧- استعارة المرأة المخطوبة للدنيا:

قَالَ مُعَاوِيَةُ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ [١].: «إِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تُرِدْ أَبَا بَكْرٍ، وَلَمْ يُرِدْهَا، وَأَرَادَتِ ابْنَ الْخَطَّابِ، وَلَمْ يُرِدْهَا»[٢].

أي: لم تطلب أبا بكر، ولم يطلبها، وطلبت ابن الخطاب، ولم يُردها.

وقول معاوية ﷺ يعود إلى ما نحن بصدده، ولو قلنا: إن معاوية ﷺ استعار المرأة للدنيا، ودل على ذلك كلمةُ: «لم ترد» التي ينصرف الذهن عند سماعها إلى الخِطبة أو الزواج: لكان الأمر مقبولًا؛ لكثرة الأدلة والشواهد التي دلت على أن الدنيا عندهم هي المرأة العجوز، أو المرأة الحاسرة المتزينة. والإرادة في قوله: «لم ترد» المقصودُ بها عدم انفتاح الدنيا على أبي بكر ﷺ كما انفتحت على عمر بن الخطاب ﷺ الذي كثُر في عهده الفتوحات والفيءُ.

٨- تشبيه حال الدنيا ومن يتعلق بها - بحال امرأة خسيسة ينشغل بها كل خسيس:

قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ[٣].: «إِنَّ الدُّنْيَا نَذْلَةٌ، وَهِيَ إِلَى كُلِّ نَذْلٍ أَمْيَلُ، وَأَنْذَلُ مِنْهَا مَنْ أَخَذَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَطَلَبَهَا بِغَيْرِ وَجْهِهَا، وَوَضَعَهَا فِي غَيْرِ سَبِيلِهَا»[٤].

في قوله: «إِنَّ الدُّنْيَا نَذْلَةٌ»: شبه ابن المسيب الدنيا بامرأة نذلة، ورشح التشبيه

---

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي [ت:٦٠هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص١٦٢.

(٢) الزهد لأحمد / ص٩٣.

(٣) سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي [ت:٩٤هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٢٦٤.

(٤) حلية الأولياء / ج٢/ ص١٧٠.

بقوله: «وَهِيَ إِلَى كُلِّ نَذْلٍ أَمْيَلُ». وبيَّن ابن المسيب هنا صفة أزواج الدنيا، وهم السفلة الأخساء، وصدق الله؛ إذ يقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ (النور:٢٦).

ثم بين أن أنذل منها مَن آخذها بغير حق (مهر)، وطلبها بغير وجهها (أتى البيوت من ظهورها)، ووضعها في غير سبيلها (استخدمها في غير ما خلقت له).

٩- تشبيه الدنيا والآخرة بضرتين:

قَالَ وَهْبُ بْنَ مُنَبِّهٍ[١].: «مَثَلُ الدُّنْيَا وَالآْخِرَةِ مَثَلُ ضَرَّتَيْنِ، إِنْ أَرْضَيْتَ إِحْدَاهُمَا أَسْخَطْتَ الْأُخْرَى»[٢].

شبه الدنيا والآخرة بضرتين، والتشبيه يشير ويلمح من غير تصريح إلى ما هو معروف، ولا حاجة لذكره، وهو أن الآخرة هي الأفضل والأبقى والدائمة، والدنيا هي المنقطعة والزائلة والفانية الغرارة الأكالة الغوالة، وإرضاء أحدهما سخط للأخرى، فانظر من تُرضي؟، ومَن تُسخط؟. والغرض إظهار أنه من المحال الجمع بين نعيم الدنيا (الذي حرمه الله) وبين الآخرة، فلا مناص من الاختيار، ونهي النفس عن الهوى.

ومما يصُبُّ في هذه المعنى قول ابن السماك (ت:١٨٣هـ)[٣].: **«مَنْ أَذَاقَتْهُ الدُّنْيَا حَلَاوَتَهَا؛ لِمَيْلِهِ إِلَيْهَا: جَرَّعَتْهُ الْآخِرَةُ مَرَارَتَهَا؛ بِمُجَانَبَتِهِ عَنْهَا»**[٤].

---

(١) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٢) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٥١.

(٣) ابن السماك أبو العباس محمد بن صبيح العجلي(ت:١٨٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٣٠.

(٤) الزهد وصفة الزاهدين / أبو سعيد بن الأعرابي/ ص٧٩/ ت: مجدي فتحي السيد/ ن: دار الصحابة للتراث- طنطا/ ط: ١.

صوَّر الدنيا والآخرة في صورة ضرتين بينهما زوج، إذا أنعمته إحداهن جرعته الآخرة مرارها، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه (أذاقته وجرعته)، ورشح الاستعارة بقوله: «**لميله إليها؛ بمجانبته عنها**»، وأبرزت هذه المقابلةُ صعوبةَ الجمع بين الحلاوتين والنعيمين. وكلام ابن السماك مُسْتَقًى من الحديث القدسي: «**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلَا خَوْفَيْنِ، إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ فِيهِ عِبَادِي**»[١].

١٠- تشبيه الدنيا والآخرة بإناءين:

قال العمري[٢].: «**إنما الدنيا والآخرة إِنَاءان، أَيهما أَكفأَت كَان الغُسل فيه**»[٣].

شبه الدنيا بإناء والآخرة بإناء، أيهما أمال الإنسان إليه كان الغسل منه، والمتروك ذكره في هذا التشبيه ذكر أوصاف الإناءين، وترك ذلك؛ لمعرفة السامع بكلا الإناءين، ورجحان إحدى الكفتين على الآخرة كما سبق في ترك ذكر أفضل الضرتين، والسامع العاقل يربأ بنفسه أن ينزل إلى عكر الدنيا، وترك الإبانة هنا عن وصف الإناءين والإفصاحِ عنه يفتحُ الميدان الفسيح للسامع أن يتخيل ما في الإناءين؛ فالدنيا إناء القلة والتعب والنصب والهم والألم والبعد والفراق، والآخرةُ نعيم لا ينفد، وخلود بلا موت، ولا نصب فيها، ولا شقاء.

---

(١) مسند الشاميين للطبراني (١/ ٢٦٦) ن: الرسالة/ ط:١.

(٢) العمري عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله(ت:١٨٤) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٧٨.

(٣) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ص١٣٤/ الحديث:٣٠٣.

١١- تشبيه حال من يريد الجمع بين الدنيا والآخرة - بحال عبد له ربَّان لا يدري أيهما يُرضي:

حَدَّثَ أَبُو أُسَامَةَ عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ[١]. عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي أَسَدٍ، قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: مَثَلُ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ تَجْتَمِعَ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ كَمَثَلِ عَبْدٍ لَهُ رَبَّانِ لَا يَدْرِي أَيَّهُمَا يُرْضِي»[٢].

شبه حال من يريد أن يجمع بين الدنيا والآخرة - بحال عبد له ربَّان لا يدري أيهما يُرضي. والتشبيه تمثيلي، أتى به؛ لبيان بُعْدِ الجمع وصعوبة حيازتهما جميعًا، وأن الازدياد من إحداهما هو نقصان من الأخرى، وحول هذا دندن مَالِكُ بْنَ دِينَارٍ[٣]. فقال: بِقَدْرِ مَا تَفْرَحُ لِلدُّنْيَا كَذَلِكَ تُخْرِجُ حَلَاوَةَ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِكَ»[٤].

فكلما علا سهم الفرح بالدنيا نزل سهم حلاوة الآخرة في القلب، والمراد عندهم الفرح المذموم بالنصيب الأسوء من الدنيا، وإلا فإن للدنيا حسنة طالما دعا الصالحون ربهم أن يؤتيهم منها.

١٢- تشبيه الدنيا بالظئر:

قال فَرْقَد السَّبَخِيّ (ت:١٣١هـ)[٥].: «اتَّخِذُوا الدُّنْيَا ظِئْرًا، وَالْآخِرَةَ أُمًّا، أَمَا تَرَى الصَّبِيَّ يُلْقَى عَلَى الظِّئْرِ، فَإِذَا تَرَعْرَعَ وَعَرَفَ وَالِدَتَهُ تَرَكَ الظِّئْرَ، وَأَلْقَى نَفْسَهُ

---

(١) مالك بن مغول بن عاصم بن غزية بن خرشة البجلي(ت:١٥٩هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص١٧٥.

(٢) الزهد لهناد / ج٢/ ص٣٥٣.

(٣) مالك بن دينار [المتوفي:١٣٠هـ] سير أعلام النبلاء، ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٤) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١٠٠/ حديث:٢١٣.

(٥) أَبُو يَعْقُوب فرقد بن يَعْقُوب السبخي العابد من أهل أرمينية(ت:١٣١هـ) اللباب في تهذيب الأنساب/ ج٢/ ص٩٩.

عَلَى وَالِدَتِهِ؛ فَإِنَّ الْآخِرَةَ أُمُّكُمْ، يُوشِكُ أَنْ تَجْتَرَّكُمْ»[1].

وهذا أمر بالإنزال والتصور، أي: اجعلوها كالظئر، والظئر هي المرأة المرضعة العاطفة على ولد غيرها، شَبَّهَ الدنيا بالظئر؛ حيث إن كلًا منهما ليس بأصل ولا غاية، إنما هما مرحلة مؤقتة، ووسيلة لإدراك الغاية، والآخرة هي الأم من حيث الأصل والغاية والمستقر، وقوله: «**اجترتهم**» كناية عن الموت.

- أَنْشَدَ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَامِرِيُّ قَوْلَهُ[2]. [البحر الطويل]:

وبئست الظئر الدنيا تَغْذُو بَنِيهَا بِدَرِّهَا ... وَتَصْرَعُهُمْ آفَاتُهَا بِالْعَجَائِبِ
لَقَدْ نَغَّصَ الدُّنْيَا عَلَى حُبِّ أَهْلِهَا ... لَهَا أَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهَا الْمَصَائِبُ مَا ارْتَضَى ... مَحَبَّتَهَا فِي حَالَةٍ ذُو تَجَارِبِ
أَلَمْ تَرَهَا تَغْذُو بَنِيهَا بِدَرِّهَا ... وَتَصْرَعُهُمْ آفَاتُهَا بِالْعَجَائِبِ
وَمَا الْخَيْرُ فِيهَا حِينَ يُسْعِفُ أَهْلَهُ ... وَلَا الشَّرُّ إِلَّا كَالْبُرُوقِ الْكَوَاذِبِ
يَـزُولَانِ عَمَّنْ كَـانَ فِيهَا بِنِعْمَةٍ ... وَبُؤْسٍ كَمَا زَالَتْ صُدُورِ الْكَوَاكِبِ

فمن تمسك بها وأخلد إليها ولم ينفطم عنها فقد زاد سفهه، ولم يبلغ رشده، وعلا بلهه.

- **قال جعفر: سمعت شميطًا [ت:١٤١-١٥٠هـ]**[3]. **يقول في كلامه: «أَبْنَاء دُنيا يَرضَعُونها، لا يَنفطِمُون في رضاعها»**[4].

---

(١) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٤٥.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا / ص١٣١.

(٣) شُمَيْطُ بْنُ عَجْلَانَ الْبَصْرِيُّ الْعَابِد [ت:١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٨٩٢.

(٤) الورع لأبي بكر المروزي / ص٧١/ حديث:٢٣٤/ ت: سمير بن أمين الزهيري/ ن: دار الصميعي/ سنة النشر: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ مكان النشر: الرياض - السعودية.

في قوله: «**أَبْنَاء دُنيا يَرضَعُونها**»: صَّور الدنيا بالمرضع، وحذف المشبه به، وأبقى لازمه: «يرضعونها» على سبيل الاستعارة المكنية، ويظهر من العبارة احتقار شميط واستصغاره للراضعين منها، والرشيد من ترك الظئر (الدنيا)، وذهب إلى أمه؛ لأن الظئر مدبرة، والأم مقبلة وأبدية في نعيمها وإكرامها، كما قال علي ﷺ[١].: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتَانِ: طُولُ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعُ الْهَوَى، فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةُ مُقْبِلَةٌ، وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ**»[٢].

في قوله: «**بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ**»: استعار أمير المؤمنين الأبناء للأتباع، والجامع: هو التلازم والإقرار بالطاعة، كما أن الأبناء يعلنون ولاءهم والتزامهم بطاعة الأم، ويفنون أنفسهم وأعمارهم في رضاها، كذلك الأتباع. وصوَّر الدنيا والآخرة بالأُمِّ على سبيل الاستعارة المكنية التي دل عليها قوله: «**أبناء**».

١٣- «مَا أُبَالِي شَمَمْتُ مِسْكَكُمْ هَذَا، أَوْ شَمَمْتُ رَوْثَةً» كناية عن الزهد:

جاء عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ[٣].: مَا أُبَالِي شَمَمْتُ مِسْكَكُمْ هَذَا، أَوْ شَمَمْتُ رَوْثَةً، أَوْ رَأَيْتُ امْرَأَةً، أَوْ رَأَيْتُ جِدَارًا»[٤].

كناية عن زهده في الدنيا، وعدم تأثره بها، وعدم تأثيرها فيه، فبلغ في الزهد

(١) علي بن أبي طالب [ت: ٤٠] الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.
(٢) الزهد لأحمد ص١٠٧ / حديث: ٦٩٣.
(٣) عامر بن عبد قيس التميمي العنبري البصري/ [توفي في زمن معاوية] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٥.
(٤) الزهد لأحمد / ص ١٧٨.

مبلغًا يستوي المسك فيه بالروث، والمرأة بالجدار، فلا جاذبية لها، ولا شوق إليها، ولا اعتناء بمن أخذها وأكلها، كما قال مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْأَزْرَقِ[(١)].: «**قَالَ بَعْضُ الْعُبَّادِ: عَلَامَةُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا يُبَالِيَ مَنْ أَكَلَهَا**»[(٢)].

استعار هنا الأكل للأخذ؛ لبيان البلوغ في عدم المبالاة، فأكل الدنيا أبلغ من أخذها؛ لأن الأخذ قد يحصل بعده ترك أو غير ذلك، أما الأكل فإنه أفاد هنا عدم استبقاء شيء منها، ووقوع الفعل على الضمير العائد على الدنيا، وهو هنا لا يبالي لو ذهبت كلها، ولا يهتش على فواتها، ووصول العابد إلى هذه الدرجة من عدم المبالاة بها وبمن أكلها لا تتم إلا بعد جهد ومعاناة وترويض لها وصراعٍ والتربُّصِ جولة بعد جولة، وسيأتي هذا الحيث عن هذا.

١٤- مخاطبة الرغيف على سبيل الاستعارة المكنية:

قد كانوا يدفعون الدنيا بالصدر والرحى، فيخاطبونها وكأنها مقاتل يبارزهم، أو عدوٌّ يُباغتهم، حتى انتقل الصراع مع أقل نعيم فيها، فأصبح أحدهم يُصارع رغيفًا، أو يخاف من رغيف أن يكون له الكَرَّةُ عليه:

قال مَالِكُ بْنَ دِينَارٍ[(٣)]. لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ: إِنِّي لَأَشْتَهِي رَغِيفًا لَيِّنًا بِلَبَنٍ رَائِبٍ، فَانْطَلَقَ، فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَجُعِلَ لَهُ عَلَى الرَّغِيفِ، قَالَ: فَجَعَلَ مَالِكٌ يُقَلِّبُهُ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «أَشْتَهِيكَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَغَلَبْتُكَ حَتَّى كَانَ الْيَوْمُ، تُرِيدُ أَنْ

---

(١) محمد ابن معاوية ابن أعين النيسابوري(ت:٢٩) تقريب التهذيب/ ص٥٠٧/ دار الرشيد - سوريا/ ط:١

(٢) الفوائد والزهد والرقائق والمراثي / الخلدي / ص٣٥/ ت: مجدي فتحي السيد/ ن: دار الصحابة للتراث للنشر طنطا - مصر/ ط: ١.

(٣) مالك بن دينار [المتوفي: ١٣٠] سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

تَغْلِبَنِي، إِلَيْكَ عَنِّي، قَالَ: وَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ»(١).

هو في قوله: «**أشتهيك**» يخاطب الرغيف وكأنه شخص أمامه، وللمرء أن يتخيل أقطاب وجه بن دينار وهو يحدث الرغيف، ونبرة صوته في الحديث إلى الرغيف، وأن يتصور نظرات عينيه وحركات يديه وهو يقلب الرغيف، ثم لا تُفارق هذا التخيلَ والصورةَ، بل استمِرَّ في ذلك، واسمع وانظر وهو يقول: «**فغلبتك**»، واسمع وانظر وهو يقول: «**حَتَّى كَانَ الْيَوْمُ تُرِيدُ أَنْ تَغْلِبَنِي**»، وتأمل وهو يقول للرغيف: «**إليك عنِّي**».

واستعارة الغلبة هنا للترك على سبيل الاستعارة التبعية الدالة على أن الترك لم يكن بالهين، ولا بالسهل اللين. أو صوَّر الرغيف بمقاتل، وذكر اللازم: «**فغلبتك**» على سبيل الاستعارة المكنية.

والغلبة الثانية في النص غير الغلبة الأولى؛ فغلبته هو له بالترك أربعين سنة، أما غلبة الرغيف لابن دينار فهو أن ينزل الرغيف في أمعائه، ويُكتَب على ابن دينار في جملة حسابه وأعماله.

١٥- تشبيه الدنيا بالفخ:

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ(٢)**. لِرَاهِبٍ: مَا دَعَاكَ إِلَى التَّخَلِّي وَالانْفِرَادِ؟، قَالَ: بِهِ يَنْجُو الأَكْيَاسُ مِنْ فَخِّ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَدْخَلَ رَأْسَهُ**(٣).

(١) الزهد لابن حنبل/ ص ٢٦١/ حديث:١٨٧٩.

(٢) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد[المتوفي:٢٠٥] / سير أعلام النبلاء / ط: الرسالة ج١٠/ ص١٦٨.

(٣) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا/ ص٤٨/ حديث:١٠٩/ ت : مسعد عبد الحميد محمد السعدنين : مكتبة الفرقان – القاهرة.

في قوله: «**فَخِّ الدُّنْيَا**»: شَبَّهَ الدنيا بمصيدة وفخ، والمشبه به هنا مضاف إلى المشبه، والنجاةُ من الفخ تكون بالخلوة والانفراد والبعد عن أماكن الفخاخ.

ويتجلى هنا موقف سفيان الثوري الناجي من الفخ غير المبالي بالحَب، الجاد في الهروب والفر: لقي أبو جعفر سفيان الثوري(١). في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه، وقال: أتعرفني؟، قال: لا، ولكنك قبضت عليّ قبضة جبّار، قال: **عظني أبا عبد الله، قال: وما عملت فيم علمت، فأعظك فيما جهلت؟، قال: فما يمنعك أن تأتينا؟، قال: إن الله نهى عنكم، فقال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود:١١٣). فمسح أبو جعفر يده به، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحب إلى العلماء، فلَقَطوا إلا ما كان من سفيان؛ فإنه أعيانا فرارًا**(٢).

صوَّر العلماء بالطير الذي يُستدرَج بالحَبِّ، وطُوِي التشبيه، وبقي الحب، وتنوسي التشبيه على سبيل الاستعارة المكنية. وكلمة: «**فلقطوا**» ترشيح وتقوية للاستعارة. وقوله: «**أعيانًا فرارًا**» ترشيح آخر، أو كناية.

والعلماء منظور إليهم، فلو التقط العالم الحب لوقع من بعده سِرب، وهناك من أخذها، فضمها إلى صدره، وحملها فوق رأسه، واعتبرها زوجةً وأُمًّا، فضَلَّ وأضلَّ: قَال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُمَيْطٍ: سَمِعْتُ أَبِي(٣). يَقُولُ: **يَعْمِدُ أَحَدُهُمْ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ**،

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري [المتوفي:١٦١هـ]/ سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي / ج٣/ ص١٠٩/ /ن: دار الكتب العلمية – بيروت/ ط: ١.

(٣) شُمَيْطُ بْنُ عَجْلانَ الْبَصْرِيُّ الْعَابِد [ت:١٤١ – ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٨٩٢.

وَيَطْلُبُ الْعِلْمَ، حَتَّى إِذَا عَلِمَ أَخَذَ الدُّنْيَا، فَضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ، وَحَمَلَهَا فَوْقَ رَأْسِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ ضُعَفَاءُ: امْرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ، وَأَعْرَابِيٌّ جَاهِلٌ، وَأَعْجَمِيٌّ، فَقَالُوا: هَذَا أَعْلَمُ بِاللَّهِ مِنَّا لَوْ لَمْ يَرَ فِي الدُّنْيَا ذَخِيرَةً مَا فَعَلَ هَذَا، فَرَغِبُوا فِي الدُّنْيَا، وَجَمَعُوهَا، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [النحل:٢٥]»[١].

في قوله: «فَضَمَّهَا إِلَى صَدْرِهِ، وَحَمَلَهَا فَوْقَ رَأْسِهِ»: صوَّر حال من يتمسك بالدنيا، ويطلبها حلالًا وحرامًا - بحال من يحمل الشيء ويضمه ويضعه على رأسه (استعارة تمثيلية)، غرضها: بيان حب هؤلاء للدنيا وحفاوتهم بها.

وفي قوله: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} «شَبَّهَ حال أدعياء العلم الذين فُتن بهم ضعفاء القوم وجهالهم، فحملوا أوزارهم وأوزار الضعفاء والجهال - بحال المستكبرين المعرضين أصحاب القلوب المنكرة الذين ذكرهم الله في سورة النحل، والتشبيه تمثيلي.

١٦- استعارة الصياد للدنيا:

قَالَ الْحَسَنُ[٢]: وَإِنَّ أَخَاكَ مَنْ نَصَحَكَ، وَمَنْ نَصَحَكَ خَيْرٌ لَكَ مِمَّنْ يَغُرُّكَ وَيُمَنِّيكَ، النَّجَا النَّجَا، الْوَحَا الْوَحَا، أَنْتُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ عَلَى مَا تُعَرِّجُونَ، فَقَطِّعُوا عَنْكُمْ حِبَالَ الدُّنْيَا، وَغَلِّقُوا عَنْكُمْ أَبْوَابَهَا، كَأَنَّكُمْ رَكْبٌ وُقُوفٌ، إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ أَجَابَ»[٣].

---

(١) الزهد لابن حنبل / ١٧٧ ص/ حديث: ١٢٢٠.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد [المتوفي: ١١٠ هـ] / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) الزهد لأبي حاتم ص٣٧/ حديث:١٣/ ت: منذر سليم محمود الدومي/ ن: دار أطلس للنشر والتوزيع، الرياض - السعودية/ ط: ١.



صوَّر الدنيا بالصياد، ثم حذف المشبه به، وأبقى لازمه (حبال) على سبيل الاستعارة المكنية، فما على المؤمن إلا البعد وتقطيع الحبال للنجاة.

وفي قوله: «**وَغَلِّقُوا عَنْكُمْ أَبْوَابَهَا**»: شبهت الدنيا ببيت، ثم حذف المشبه به، وأبقى لازمه (أبواب) على سبيل الاستعارة المكنية، وزاد الصورة البيانيةَ فائدةً قولُه: (غلقوا) الذي أفاد أن البيت لا خير فيها، ولا نجاة إلا بالغلق.

وقوله: «**كَأَنَّكُمْ رَكْبٌ وُقُوفٌ**»: أي: كونوا فيها كالركب الذي ينتظر الرحيل كما قيل: كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، تهيأ بهذه الهيئة في الدنيا، هيئة المنقطع غير المستمسك بها. **وقوله**: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ أَجَابَ**»: أي: دعي إلى تركها، أو إلى الموت، وقوله: «**أجاب**»: تأكيد الانقطاع عن حبالها، فهو غير مقيد بقيد منها، ولا أسير حبل من حبالها، فغير ممنوع من الإجابة والتلبية.

١٧- تشبيه حال من يُذكّر الناس الدنيا - بحال من يضرب عليهم قبة:

نقل حَمَّادُ بْنِ سَلَمَةَ(١)**. عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْخَطْمِيِّ، قَالَ: كَانَ لِجَدِّي مَوْلًى يُقَالُ لَهُ: زِيَادٌ، يُعَلِّمُ بَنِيهِ، فَنَعَسَ الشَّيْخُ، فَجَعَلَ زِيَادٌ يَذْكُرُ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَالشَّيْخُ يَسْمَعُ، فَقَالَ الشَّيْخُ: يَا زِيَادُ، ضَرَبْتَ عَلَى بَنِيَّ قُبَّةَ الشَّيْطَانِ، اكْشُطُوهَا بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»**(٢).

شبه حال زياد وهو يذكر للأبناء الدنيا، فتعمى قلوبهم – بحال من يضرب قبة على قوم، فيحجب عنهم الضوء، ثم استعير التركيب الدال على المشبه بهَ للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية.

---

(١) حماد بن سلمة بن دينار البصري (ت:١٦٧هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص٤٤٤.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص٣٧/ حديث:٤١.

والقبة قبة شيطان يُعمي بها الشيطان، ويصم الناس عن الآخرة، وداخل القبة تمارس الحيل والأكاذيب والأماني الباطلة والوعود الزائفة، ثم رشح للاستعارة الكشط، وهو النزع، فكان ذكر الله هو نازع الدنيا عن القلب، والطارد لها من القلوب، وبه تطمئن القلوب من اللهفة والتلهف والحرص والحزن والتحسر.

١٨- استعارة الحائط للمانع الذي يمنع الشهوات:

قال مَالِكُ بْنِ دِينَارٍ(١). قَالَ: قَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ الرَّازِيُّ: **إِنْ سَرَّكَ أَنْ تَجِدَ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ، وَتَبْلُغَ ذِرْوَةَ سَنَامِهَا: فَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا حَائِطًا مِنْ حَدِيدٍ**(٢).

في قوله: «**حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ، وَتَبْلُغَ ذِرْوَةَ سَنَامِهَا**»: جعل للعبادة ذروة سنام، وهي وصف في الإبل على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله: «**حَائِطًا مِنْ حَدِيدٍ**»: استعار الحائط للمانع على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وكما أن الحائط يمنع وصول الدخلاء والغرباء كذلك المانع «**ذكر الله، أو التقوى**» يمنع وصول الشهوات إلى القلب. وتقييدُ الحائط بالحديد أفاد هنا زيادة شخوص صورة الحائط ومثولها في الخيال كما يقول أهل البلاغة.

١٩- تصوير الشهوات ببيت له أبواب:

قال عَبْدُ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ(٣).: **اطْلُبُوا الْعِلْمَ، وَأَفْشُوهُ فِي مَعَادِنِهِ؛ فَإِنَّكُمْ بِالْعِلْمِ تَعْرِفُونَ النِّعْمَةَ، وَبِالْمَعْرِفَةِ تَشْكُرُونَهَا، وَبِالشُّكْرِ تَسْتَوْجِبُونَ الْمَزِيدَ فِيهَا، وَلْيَكُنِ الْعَقْدَ مِنْ بَالِكِمْ عَلَى أَنْ تُغْلِقُوا أَبْوَابَ الشَّهْوَةِ بِأَقْفَالِ الزَّهَادَةِ، وَابْذُلُوا الصَّدَاقَةَ،**

(١) مالك بن دينار [المتوفي:١٣٠] سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.
(٢) الزهدلابن أبي الدنيا / ص٨٠/ حديث:١٦٥.
(٣) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي(ت:١٨١) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٧٨.



وَالْمَوَدَّةَ؛ فَإِنَّ الصَّدَاقَةَ مُسْتَغْزَرَةٌ بَعِيدَةٌ، وَإِنَّ الْعَدَاوَةَ مَوْجُودَةٌ عَنِيدَةٌ(١).

في قوله: «أَنْ تُغْلِقُوا أَبْوَابَ الشَّهْوَةِ بِأَقْفَالِ الزَّهَادَةِ»: صوّر الشهوة ببيت له أبواب، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: «**أبواب**» على سبيل الاستعارة المكنية، والغرض: بيان كثرة الشهوات، وبيان علاجها (الزهادة).

في قوله: «**أَقْفَالِ الزَّهَادَةِ**»: شَبَّهَ الزهادة بالأقفال، وأضاف المشبه به إلى المشبه، وجاءت أقفال جمعًا؛ لتناسب جمع الأبواب، فلكل باب قفل، فشهوة الفرج قفلها الصيام، وشهوة البطن قفلها التقوى، وشهوة الطمع قفلها القناعة، وهكذا.

٢٠- استعارة المرأة الفاغرة فمها للدنيا:

قال مَالِكُ بْنَ دِينَارٍ(٢).: يَقُولُونَ: مَالِكٌ زَاهِدٌ، أَيُّ زُهْدٍ عِنْدَ مَالِكٍ وَلَهُ جُبَّةٌ وَكِسَاءٌ، إِنَّمَا الزَّاهِدُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ؛ أَتَتْهُ الدُّنْيَا فَاغِرَةً فَاهَا فَتَرَكَهَا»(٣).

استعار المرأة للدنيا، وألقى عليها شخوصًا؛ حيث جعل لها فاهًا فاغرة على سبيل الاستعارة المكنية.

فأبى عمر ﷺ أن ينال منها شيئًا؛ فقد كان عهد عمر بن عبدالعزيز ﷺ عهد رخاء وإغداق على الجميع حتى الطير والحيوان، ورضي عمر ﷺ بأقل القليل، ولله در طاووس(٤). وهو يصور لنا قدر هذا القليل الذي يبلغ به العبد حد الكفاية، فقال: يكفي من الدنيا ما يكفي العجين من الملح(٥).

(١) أخبار الشيوخ وأخلاقهم / ص ١٩٥/ حديث:٣٦٥.
(٢) مالك بن دينار [المتوفي:١٣٠] سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.
(٣) الزهد الكبير البيهقي / ص:٧٣/ ص:٤٤.
(٤) طاووس بن كيسان الفارسي[ت:١٠٦] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٥/ ص٣٨.
(٥) البيان والتبيين/ ج:٣/ ص١٩٤.

التشبيه هنا مؤكد حذفت أداته، والتقدير: يكفي من الدنيا كالذي يكفي العجين من الملح، فشبه مقدار ما يكفي الإنسان من الدنيا بمقدار الملح الذي يكفي العجين. فرضي الله عن عمر وطاووس والراضين بالملح كيفًا وكمًا.

٢١- مخاطبة البطن وإنطاقها على سبيل الاستعارة المكنية:

كان عمر بن الخطاب ﷺ يخاطب بطنه داعيًا إياها إلى الزهادة حاضًا لها على الصبر، قال أَنَس: «تَقَرْقَرَ بَطْنُ عُمَرَ ﷺ[١]**. قَالَ: وَكَانَ يَأْكُلُ الزَّيْتَ عَامَ الرَّمَادَةِ، وَكَانَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهَا السَّمْنَ، قَالَ: فَنَقَرَ بَطْنَهُ بِإِصْبَعِهِ، وَقَالَ: تَقَرْقَرْ؛ إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ عِنْدَنَا غَيْرُهُ، حَتَّى يَحْيَى النَّاسُ»**[٢].

أنزل البطن منزلة العاقل، فحدثه وزجره وأسكته، على سبيل الاستعارة المكنية، والذي من وراء البطن هو النفس، وهي المعنية بالخطاب؛ لأن التشهي منها، ولكن التفت إلى البطن؛ لأن لها مزيد صلة بالطعام، فهي وعاؤه، والمباشرةُ له.

وهذه صورة أخرى: قال سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي خَلَّادٍ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ[٣]**. أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْبَطْنُ هَاتِ هَاتِ، كَفَاكُمْ مَا سَدَّهُ عَنْكُمْ»**[٤].

بدأ كلامه بـ: «**إنما**»؛ لقصر طلب البطن وقولها على قول «**هات هات**»، فلا تأمر بمعروف أبدًا.

وفي الكلام محذوف تقديره: البطن تقول هات هات، استعار للبطن الشخص

(١) عمر بن الخطاب[ت:٢٣هـ]الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.
(٢) الزهد أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل/ ص:٩٦/ حديث:٦٠٨.
(٣) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم الأنصاري(ت: ٣٤هـ) سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٢/ ص٥.
(٤) الجوع لابن أبي الدنيا/ ص:٤٤/ حديث:٢٥.

الذي يتحدث ويطلب، وهذا لسان حالها تقول: «هات هات»، والاستعارة مكنية لازمها مقول القول، فتَشَهِّيها وَتَتوقُها شبيه بقول الآدمي: هات هات، ويكفي لمنع ذلك الصوت القليلُ كما يكفي العجين من الملح.

٢٢- تشبيه البطن بالكلب، والبطون بالجرب:

قال مالك بن دينار[١].: «**إِنَّمَا بَطْنُ أَحَدُكُمْ كَلْبٌ، أَلْقِ إِلَى ذَا الْكَلْبِ كِسْرَةً وَرَأْسَ جَوَافَةٍ يَسْكُتْ عَنْكَ، وَلَا تَجْعَلُوا بُطُونَكُمْ جُرُبًا لِلشَّيْطَانِ؛ يُوعَى فِيهَا إِبْلِيسُ مَا شَاءَ**»[٢].

في قوله: «**إِنَّمَا بَطْنُ أَحَدُكُمْ كَلْبٌ**»: شَبَّهَ البطن بالكلب الذي يعوي وينبح، ورشح التشبيه بقوله: «**كِسْرَةً وَرَأْسَ جُوَافَةٍ**»، والغرض: بيان ما يكفي ويُسكت، وهو أقل القليل، والدعوى؛ لعدم التكلف والاحتشاد؛ لإرضائها، والجوافة ضرب من السمك، وليس من جيده، والأمر إذا زاد على القليل أصبحت البطن جُربًا للشيطان يُوعي فيها إبليس ما شاء، وهنا خيال آخر، وصورة بيانية أخرى: (تشبيه، والأداة مقدرة، أي: كالجرب)، جرب أخرى غير معهودة، هي جرب شيطانية مصنوعة من آدم بطون الآدميين، يُدخل فيها إبليس ما يشاء، ليس لصاحب البطن فعل، إنما هو مستسلم لإبليس، يضع له ما يشاء من حرام أو حلال، أو كثير أو قليل، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ (الإسراء:٢٧).

وتلبية أمر البطن لما تدعو إليه والتمادي في إمدادها والاستجابة لمُهاتاتها،

---

(١) مالك بن دينار [المتوفي: ١٣٠] سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٢) الجوع لابن أبي الدنيا/ ص:٦٤/ حديث:٦٥.

والإذعان لنباحها: هو عذاب لها، وحساب يعاب صاحبها عليه: حدَّث الْحَسَنُ بْنُ دِينَارٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: كَانَ عُمَرُ ﷺ(١). جَالِسًا، فَإِذَا رَجُلٌ يَمْشِي، بَارِزٌ، سَمِينٌ، ضَخْمُ الْجِسْمِ، فَجَاءَ يَمْشِي، فَجَعَلَ يَتَنَفَّسُ تَنَفُّسًا شَدِيدًا، فَرَمَا بِنَفْسِهِ إِلَى جَانِبِ عُمَرَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «**وَيْلَكَ، مَا هَذَا؟، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بَرَكَةُ اللَّهِ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ**»(٢). ليس في وعاء البطن خير إلا ما قلّ، وكان من حلال وأعان على طاعة.

فإذا اختلَّت إحدى هذه الأركان الثلاثة كان عذابًا ووبالًا على صاحبه، والشاهد البلاغي هنا قوله: «**بركة الله**»؛ **فهو** مجاز مرسل علاقته السببية؛ أراد السمنة والضخامة، وذكر ما يعتقده سببًا لذلك، وهو بركة الله. وقد ردَّ عمر ﷺ، وقال: «**عذاب الله**»، وهذا مجاز مرسل باعتبار ما سيكون، أو مجاز مرسل علاقته السببية؛ ذكر السبب، وأراد المسبب.

٢٣- استعارة الجلجلة لورود الشيء على القلب وتردده:

الزهد يحتاج إلى رباطة جأش، وعزيمة قلب، وجهاد نفس، ورجاحة عقل، وقريب من القرقرة الجلجلة، وهي صوت ناتج عن حركة، جاء هذا في قول عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ(٣).: «**إِنَّ أَوَّلَ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْفُقَرَاءُ الْمُؤْمِنونَ، الَّذِينَ يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، وَإِذَا أُمِرُوا سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، وَإِنْ كَانَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ حَاجَةٌ**

---

(١) عمر بن الخطاب[ت:٢٣هـ]الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الزهد للمعافى ص٢٨٥/ حديث:١٨٥/ ن: دار البشائر الإسلامية - بيروت، / ت: الدكتور عامر حسن صبري/ ط:

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي(ت:٦٥هـ)سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٧٣.

لَمْ تُقْضَ حَتَّى يَمُوتَ، وَهِيَ تَجَلْجَلُ فِي صَدْرِهِ»[١].

استعار الجلجلة - وهي الحركة بصوت - لورود الشيء على القلب وتردده، على سبيل الاستعارة التبعية، الاستعارة أبرزت وجلَّت الاشتهاء، وهو من المعقولات في صورة محسة ظاهرة فيها كثرة تردد الشيء وتواليه على القلب والخاطر وجولانه وتحركه بصوت وشدة إلحاح وقوة مطالبة.

والغرض من الاستعارة: بيان قوة الحاجة والعِوز إلى الشيء، ومع ذلك يموت صاحب الجلجلة والحاجة لم تقض، وهو راض زاهد قابض على الحق سامع مطيع لربه.

٢٤- تشبيه الصيام بالملجأ من الشهوات:

حدث الْوَلِيدُ أَبو هِشَامٍ، عَنْ بُدَيْلٍ الْعُقَيْلِيِّ[٢]. قَالَ: «الصِّيَامُ مَعْقِلُ الْعَابِدِينَ»[٣].

شبه الصيام بالملجأ الذي يلجأون إليه إذا ألحت عليهم الشهوات، وترددت عليهم الخواطر، وتمادت بهم الحاجات، فالصوم هو المسكت، الهادم للشهوة، المانع للنفس من الجولان، والخامد لفتوتها وقوتها.

والغرض: بيان وظيفة الصيام وعمله.

* * *

(١) الزهد للمعافى ص ٢١٨/ حديث:٥٦.

(٢) بديل بن ميسرة العقيلي البَصْرِيّ (ت:١٣٠هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ ط:الرسالة/ ج:٤/ ص:٣٣.

(٣) الجوع لابن أبي الدنيا/ ص/ ١٥٦/ حديث:٢٥٨.

الخلاصة:

جاءت الصور البيانية في هذا المبحث داعية إلى ترك الدنيا والزهد فيها؛ حيث استعار لها أهل الرقائق وشبهوها بأشياء يزهد فيها كل عاقل، فجعلوا الدنيا آسرة لمن يريدها، كما شبهوها بالعجوز الهتماء والخسيسة التي تميل إلى كل خسيس، والفخ الذي يقع فيه كل غافل. وأتى أهل الرقائق بصور بيانية تدل على استحالة الجمع بين الدنيا والآخرة، منها:

- استحالة الجمع بين النار والماء.

- واستحالة إرضاء الضرتين.

- واستحالة إرضاء العبد لشركاء فيه.

وصوّر أهل الرقائق البطن بالناطق، وبالكلب الذي ينبح، وجعلوا الصيام هو الملجأ من إلحاح البطن، ومن جلجلة الحاجات في الصدر، وصوَّرُوا الرغيف في صورة مصارع يغلبهم ويغلبونه، وهذا كله شعور وجداني، وصراع نفسي بداخلهم، صبُّوه في صور بيانية منتزعة من بيئتهم ومن حياتهم الاجتماعية التي فيها الأسر، والضرات، والصيد، والفخاخ، والشراكة في العبد.

المبحث السادس:
التصوير البياني في مقام المبادرة وقصر الأمل

المحتوى:

١- استعارة الإماتة للحزن وإسناد الإماتة إلى الليل.
٢- وتشبيه أبناء الأربعين بزرع قد دنا حصاده.
٣- واستعارة الحصاد للموت.
٤- وتصوير العمر ببناء يُهدم.
٥- وتصوير الأيام بالمعاول.
٦- وتصوير الليالي في صورة سباع.
٧- وتشبيه اليوم بالمضمار.
٨- ومعاتبة الليل والنهار على سبيل الاستعارة.
٩- واستعارة آلة الجز لليل.
١٠- وتشبيه الأمس بالحكيم المؤدب واليوم بالضيف.
١١- وإنطاق الليالي والأيام على سبيل الاستعارة.
١٢- واستعارة الاكتساب للزيادة في الأيام.
١٣- وإنطاق الأرض على سبيل الاستعارة.
١٤- وتصوير عمل الليالي والسنون في العبد.
١٥- وتصوير المنايا والهَرَم.
١٦- وتشبيه الليل والنهار بمطيتين.

١٧- وتشبيه الأبدان بالمطايا.

١٨- وتصوير المجتهد في آخر عمره بخَيلٍ في حلبة قد رأت الغاية.

١٩- وتشبيه المقيم في الدنيا بالمسافر.

٢٠- وصور بيانية في سرعة زوال الدنيا.

٢١- وتصوير الشيب بريد الموت.

٢٢- ومخاطبة النفس على سبيل الاستعارة.

٢٣- وتصوير الطاعات بسوق كاسدة البضاعة لا يطلبها أحد.

**ما جاء من صور بيانية في وصف الأمل:

١- تشبيه الأمل بسلطان الشيطان.

٢- وتشبيه الأمل بأرض ينبت بها كل معصية.

٣- وتشبيه (سوف) بجند من جنود إبليس.

٤- والتحذير من (سوف) بصورة بيانية.

٥- وتصوير التسويف بشخص.

٦- وتصوير سرعة إدراك العبد لمن مات قبله.

٧- وتصوير الخير ببيت يجب الإسراع إليه.

المبادرة إلى الله بعمل الآخرة هي طوق النجاة من بطش الدنيا ومن سهام الأيام، والركونُ والعجز مهلكة، والاستسلام خزي، فالأيام والليالي معاوِل تهدم العمر، والشيب بريد الموت، فطوبى لمن غنم أيامه، ولم يلهه الأمل، ولم يُمْنِه الشيطان، وحول هذه المعاني دندن أهل الرقائق، وهذه نماذج من صورهم:

١- استعارة الإماتة للحزن، وإسناد الإماتة إلى الليل:

روى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ[١].(ت:١٥٩ه)، قَالَ: «**كَانَ رَجُلٌ إِذَا رَأَى اللَّيْلَ مُقْبِلًا بَكَى، وَقَالَ: هَذَا يُمِيتُنِي**»[٢].

في قوله: «**هذا يميتني**»: استعار الإماتة للحزن، أي: هذا يحزنني، استعارة تصريحية تبعية، أفادت بلوغ الحزن منتهاه حتى إن صاحبه يشعر بالموت مع كل ليلة تأتيه، ويرى الموت قبل أن يموت، ويستشعر قرب الأجل بحضور الليل. وإسنادُ الفعل (يميت بمعنى يحزن) إلى الليل مجاز عقلي، علاقته السببية؛ حيث إن الليل سبب في تذكيره بقرب الأجل ونهاية العمر.

والأرجح تصوير الليل بشخص يُميته، والاستعارة مكنية لازمها: «**يميتني**»، ويُقَوِّي هذا ما ذكره في بدء العبارة من اسم الإشارة: «**هذا**» الذي أفاد شخوص الليل أمامه.

٢- تشبيه أبناء الأربعين بزرع قد دنا حصاده:

روى بَكَّارُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ وَهْبٍ(ت:١١٣هـ) [٣]. قَالَ: قَرَأْتُ فِي بَعْضِ

(١) مالك بن مغول بن عاصم بن غزية بن خرشة البجلي(ت:١٥٩هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص١٧٥.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص١٨٨/ حديث:٤٨٤.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

الْكُتُبِ: أَنَّ مُنَادِيًا يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ: «**يَا أَبْنَاءَ الْأَرْبَعِينَ، أَنْتُمْ زَرْعٌ قَدْ دَنَا حَصَادُهُ. يَا أَبْنَاءَ الْخَمْسِينَ، مَاذَا قَدَّمْتُمْ؟، وَمَاذَا أَخَّرْتُمْ؟. يَا أَبْنَاءَ السِّتِّينَ، لَا عُذْرَ لَكُمْ، لَيْتَ الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا، وَإِذَا خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا، فَقَدْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ، فَخُذُوا حِذْرَكُمْ**»(١).

في قوله: «**أَنْتُمْ زَرْعٌ قَدْ دَنَا حَصَادُهُ**» شَبَّهَ أبناء الأربعين بزرع قد دنا حصاده، والحصاد ترشيح للتشبيه، وقوله: «**قد دنا حصاده**»: تقييد للمشبه به، لا يستقيم التشبيه إلا به، وأفادت «**قد**» هنا التحقيق، كما أفاد الفعل الماضي: «**دنا**» تحقق الوقوع؛ كي لا يشك القوم أنهم غير ذلك، والغرض: بيان أمر المشبه.

٣- استعارة الحصاد للموت:

حَدَّثَ دَاوُدُ بْنُ الْمُحَبَّرِ، عَنْ صَالِحٍ الْمُرِّيِّ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ، عَنْ أَبِي الْجَلْدِ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَرَّ بِمَشْيَخَةٍ، فَقَالَ: **مَعَاشِرَ الشُّيُوخِ: أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الزَّرْعَ إِذَا ابْيَضَّ وَيَبِسَ وَاشْتَدَّ فَقَدْ دَنَا حَصَادُهُ؟، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاسْتَعِدُّوا؛ فَقَدْ دَنَا حَصَادُكُمْ. ثُمَّ مَرَّ بِشَبَابٍ، فَقَالَ: مَعَاشِرَ الشَّبَابِ: أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّ الزَّرْعِ رُبَّمَا حَصَدَهُ قَصِيلًا؟، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاسْتَعِدُّوا؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تُحْصَدُونَ**»(٢).

في قوله: «**دَنَا حَصَادُكُمْ**»: استعارة أصلية؛ حيث استعار الحصاد للموت، والجامع: أن كلًا منهما نهاية لشيء. وقوله: «**لَا تَدْرُونَ مَتَى تُحْصَدُونَ**» أي: تموتون، والاستعارة تبعية؛ حيث استعار الحصاد للموت، واشتق من الحصاد: «تحصدون» بمعنى تموتون.

---

(١) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٣٣.

(٢) العمر والشيب لابن أبي الدنيا ص٥٥

وقوله: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الزَّرْعَ إِذَا ابْيَضَّ وَيَبِسَ وَاشْتَدَّ فَقَدْ دَنَا حَصَادُهُ»: أتى بما لا يُنكر، ولا يُدفع، ثم ألحق به ما يُنكره القوم بأفعالهم، ويدفعونه بغفلتهم.

وقوله: «مَعَاشِرَ الشَّبَابِ: أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّ الزَّرْعِ رُبَّمَا حَصَدَهُ قَصِيلًا؟، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَاسْتَعِدُّوا؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَى تُحْصَدُونَ»: السؤال هنا تقريري؛ حيث حملهم على الإقرار بالجلي الواضح الذي لا شبهة فيه، ولا مُنكِر له، وألزمهم بشبيهه ونظيره في الوجود حتى يقطع السبيل على المجادل والمعاند، فيُذعن، ويقبل.

٤- تصوير العمر ببناء يُهدم:

قال الحسن البصري [ت: ١١٠ هـ][(١)].: «يَا ابْنَ آدَمَ، طَأِ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ؛ فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ قَبْرُكَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمُرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ»[(٢)].

ابتداء الكلام بالنداء؛ للتنبيه، وقوله: «طَأِ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ؛ فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ قَبْرُكَ»: عبارة تحمِل في طيها فعل أمرٍ، غرضه التهديد والتوعد.

وقوله: «وَإِنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمُرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ»: صوَّر العمر ببناء يهدم، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: «هدم» على سبيل الاستعارة المكنية، والغرض: بيان حال الخطر الذي عليه الغافل الساهي عن آخرته، إنه خطر قديم منذ أن سقط من بطن أمه، ووراء هذه المعاني سؤال: هل العبد يهدم عمره أو ينقصه؟، أم أن الأمر لا إرادي بالنسبة له؟، والجواب أن البصري (رحمه الله) يخاطب العاصي المفرط المتكاسل غير المغتنم لأيامه،

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد [ت: ١١٠ هـ] / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٢) الزهد لابن المبارك/ ص:٢٩٢/ حديث:٨٥٢.

الذي صار بتفريطه فيها كأنه يهدمها ويفنيها على حد قول الله – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ (الانفطار:٦). فالمراد هنا ليس جنس الإنسان، إنما العاصي الذي تملكه الغرور، ويؤيد هذا الوعيد ما ذكره في المقدمة.

٥- تصوير الأيام بالمعاول:

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ(ت:١٨١)[١].: **مَا أَسْرَعَ هَذِهِ الْأَيَّامَ فِي هَدْمِ عُمُرِنَا، وَأَسْرَعَ هَذَا الْعَامَ فِي هَدْمِ شَهْرِهِ، وَأَسْرَعَ هَذَا الشَّهْرَ فِي هَدْمِ يَوْمِهِ»**[٢].

في قوله: «**مَا أَسْرَعَ هَذِهِ الْأَيَّامَ فِي هَدْمِ عُمُرِنَا**»: صوَّر الأيام بالمعاول أو القائمين بالمعاول، وأثبت لها الهدم على سبيل الاستعارة المكنية، والصورة محسة مشاهدة؛ لبيان حقيقة ما غاب عن عقول الناس، وبَعُد عن إدراكهم.

والعامُ في قوله: «**وَأَسْرَعَ هَذَا الْعَامَ فِي هَدْمِ شَهْرِهِ، وَأَسْرَعَ هَذَا الشَّهْرَ فِي هَدْمِ يَوْمِهِ**»: يهدم أجزاءه ويتلف نفسه، وهذا التلف الذاتي أشد التلف وأسرعه.

٦- تصوير الليالي في صورة سباع:

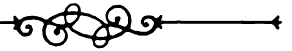
جاء عَنْ مُحْرِزِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: **دَخَلَ أَرْطَاةُ بْنُ سُهَيَّةَ الْمُرِّيُّ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَقَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثُونَ وَمِائَةُ سَنَةٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَا بَقِيَ مِنْ شِعْرِكَ؟، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَشْرَبُ، وَلَا أَطْرَبُ، وَلَا أَغْضَبُ، وَلَا يَجِيءُ الشِّعْرُ إِلَّا عَلَى مِثْلِ هَذَا الْحَالِ، إِنِّي أَقُولُ** (البحر الوافر):

رَأَيْتُ الْمَرْءَ تَأْكُلُهُ اللَّيَالِي   كَأَكْلِ الْأَرْضِ سَاقِطَةَ الْحَدِيدِ

---

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي(ت:١٨١) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٧٨.

(٢) العمر والشيب لابن أبي الدنيا ص٥٦.



وَمَـا تُبْقِي الْمَنِيَّةُ حِينَ تَأْتِي ... عَلَى نَفْسِ ابْـنِ آدَمَ مِـنْ مَزِيدِ
وَأَعْـلَـمُ أَنَّـهَـا سَـتَـكُـرُّ حَتَّى ... تُـوَفِّـيَ نَـذْرَهَـا بِـأَبِـي الْـوَلِـيدِ

فَارْتَاعَ عَبْدُ الْمَلِكِ، وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا الْوَلِيدِ، وَكَانَ أَرْطَأَةُ أَيْضًا يُكَنَّى أَبَا الْوَلِيدِ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنِّي لَمْ أَعْنِكَ، إِنَّمَا عَنَيْتُ نَفْسِي. فَقَالَ: وَأَنَا أَيْضًا سَتَكُرُّ عَلَيَّ الْمَنِيَّةُ»(١).

في قوله: «الْمَرْءَ تَأْكُلُهُ اللَّيَالِي»: صوَّر الليالي في صورة سباع، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: «تأكل» على سبيل الاستعارة المكنية، ثم شَبَّهَ إنقاص الليالي لعمر المرء بإنقاص الأرض لساقطة الحديد تشبيهًا مركبًا، ووجه الشبه: أن كلًا منهما ينقص صاحبه رويدًا رويدًا تدريجيًا، وهذا أمر لا يشعر به كثير من الناس، فيفرحون بمرور أعمارهم، وهم غافلون، والمنية في البيت الأخير مقاتل يكر له نذْرٌ ساعٍ في الوفاء به، استعارة مكنية، لازمها (ستكرُّ).

٧- تشبيه اليوم بالمضمار:

عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ(ت: ١١٠هـ)(٢). أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ، وَغَدًا السِّبَاقُ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ، وَالْغَايَةُ النَّارُ»(٣).

في قوله: «الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ»: وقع المشبه به خبرًا للمشبه، والمراد بالمضمار هنا زمن تضمير الخيل، والتضمير هُوَ أَن يُظاهِرَ عَلَيْهَا بالعَلفِ حَتَّى تَسْمَنَ، ثُمَّ لَا تُعْلف إِلَّا قُوتًا، شَبَّهَ يوم العبد في الدنيا الذي هو فرصة إعداد وتحصيل بالمضمار، وهو

(١) العمر والشيب لابن أبي الدنيا ص٦٤.

(٢) عون بن عبد الله بن عتبة الهذلي (ت: ١١٠هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٥/ ص١٠٥.

(٣) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص١١٦/ حديث: ١٦٤/ ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم - لبنان / بيروت/ ط: ٢.

زمن تضمير الخيل، ووجه الشبه: أن كلًا منهما فترة إعداد وتحصيل لإدراك غاية.

وجاء في اللسان لابن منظور: «**وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ: أَنه خَطَبَ، فَقَالَ: اليَومَ المِضمارُ، وَغَدًا السِّباقُ، والسابقُ مَنْ سَبَقَ إِلى الْجَنَّةِ؛ قَالَ شِمْرٌ: أَراد أَن الْيَوْمَ العملُ فِي الدُّنْيَا؛ للاسْتِباق إِلى الْجَنَّةِ، كَالْفَرَسِ يُضَمَّرُ قَبْلَ أَن يُسابَقَ عَلَيْهِ؛ وَيُرْوَى هَذَا الْكَلَامُ لِعَلِيٍّ، كَرَّمَ اللَّهُ وجهه**»(١).

وقوله: «**والسبقة الجنة**»: تشبيه مقلوب، أراد (الجنة السبقة) أي: الجائزة، وهي ما يتراهن عليه المتسابقون. والملاحظ أن الصورة البيانية تقرب الغيبيات في صورة مشاهدة محسة، وقدم المشبه به على المشبه؛ للتأكيد.

وقوله: «**والغاية النار**»: نهاية السباق، وهي غير كل النهايات التي يعرفها الناس، هذه الغاية خسران مبين، فالخاسر فيها ليس محرومًا من الجنة فحسب، وإنما مكردس في النار، والغرض التقريب، وحثُّ السامع على التضمير (العمل) والسباق؛ فالأمر أعجل ما يكون؛ فَالْوَحَا الْوَحَا، والبِدارَ البِدارَ، ثُمَّ النَّجَا النَّجَا.

٨- معاتبة الليل والنهار على سبيل الاستعارة:

قال مُعَاذٌ أَبُو عَوْنٍ الضَّرِيرُ: كُنْتُ أَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الْجَبَّانِ، فَكَانَ رِيَاحٌ الْقَيْسِيُّ(٢). يَمُرُّ بِي بَعْدَ الْمَغْرِبِ إِذَا خَلَتِ الطَّرِيقُ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يَنْشِجُ بِالْبُكَاءِ، وَيَقُولُ: **إِلَى كَمْ يَا لَيْلُ وَيَا نَهَارُ تَحُطَّانِ مِنْ أَجْلِي وَأَنَا غَافِلٌ عَمَّا يُرَادُ بِي؟، إِنَّا لِلَّهِ، إِنَّا لِلَّهِ، قَالَ: وَهُوَ كَذَلِكَ حَتَّى يَغِيبَ عَنِّي وَجْهُهُ**»(٣).

(١) لسان العرب ج٤/ ٤٩٢ص.

(٢) رياح بن عمرو القيسي / سمع من مالك بن دينار[المتوفي: ١٣٠] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص١٧٤.

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا/ ص١٩١.

مخاطبة الليل والنهار بعتاب مظلوم غافل أصابه النقص في عمره، وإنزال الليل والنهار منزلة العاقل الذي يُعاتَب: استعارة مكنية دلت عليها المناداة، وإسناد الفعل تحط إلى الليل والنهار إسناد مجازي علاقته الزمانية.

٩- استعارة آلة الجز لليل:

قال مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْأَصْبَهَانِيُّ: سَمِعْتُ بَكْرًا الْعَابِدَ[١]. يَقُولُ: **كَانَ يُقَالُ: جَزٌّ دَهْرِكَ بِيَوْمِكَ**[٢]. والمعنى أن الدهر ينقص بمرور اليوم، والصورة البيانية هنا أوجزت المعنى، وألقت عليه شخوصًا وأفعالًا؛ فالدهر هو المجذوذ على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «جز»، واليوم آلة تقطيع على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها «جز»، والصورة أفادت بشاعة الأمر وفظاعته، وبيَّنت أن اليوم الذاهب هو قطعة من اللحم والدم والعمر، والصورة أوضحت المخفي المرئي الذي غفل كثير من الناس عنه، وفرحوا بمُضِيِّ أعمارهم، ولم يعقلوا أن مُضِيَّ اليوم إنقاص للعمر، وجَزٌّ له.

والصورة البيانية: أوجزت كثيرًا من الكلام، وجاءت العبارة ثلاث كلمات تحمل غرائرَ معانٍ تحتاج لتفسيرها غرائرُ ألفاظٍ.

١٠- تشبيه الأمس بالحكيم المؤدب واليوم بالضيف:

قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ(١٩٨هـ)[٣].: «**قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْأَيَّامُ ثَلَاثَةٌ: فَأَمْسٌ**

---

(١) بكر بن محمد العابد روى عن سفيان الثوري وعلى بن بكار وعن فضيل بن عياض / الجرح والتعديل لابن أبي حاتم/ ج٢/ ص٣٩٣.

(٢) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١٩٣/ الأثر ٥٠١.

(٣) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (١٩٨هـ) / وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢/ ص٣٩٣.

حَكِيمٌ مُؤَدِّبٌ، أَبْقَى فِيكَ مَوْعِظَةً، وَتَرَكَ فِيكَ عِبْرَةً، وَالْيَوْمُ ضَيْفٌ عِنْدَكَ، طَوِيلُ الْغَيْبَةِ، وَهُوَ عَنْكَ سَرِيعُ الظَّعْنِ، وَغَدٌ لَا تَدْرِي مَنْ صَاحِبُهُ»[١].

في قوله: «**فَأَمْسِ حَكِيمٌ مُؤَدِّبٌ**»: شَبَّهَ الأمس بالحكيم المؤدب، وذكر وجه الشبه، وهو «**أَبْقَى فِيكَ مَوْعِظَةً، وَتَرَكَ فِيكَ عِبْرَةً**»، وهذا عين فعل الحكيم، والأيام السالفة من الإنسان محملة بالتجارب، والموعظة التي أبقها الأمس هي: أن العبد ميت لا محالة، فما هي إلا أيام تمر، ثم القبر، والغرض العام من الصورة هو سرعة الزوال.

وفي قوله: «**وَالْيَوْمُ ضَيْفٌ عِنْدَكَ**»: شَبَّهَ اليوم بالضيف؛ لبيان قلة مكوثه وسرعة ظعنه. وقوله: «**طويل الغيبة**»: أي: لا يُرى إلى أن يأتي يوم القيامة، وفي هذا المعنى جاء عَنِ الْحَسَنِ [ت: ١١٠هـ][٢].: «**لَيْسَ يَوْمٌ يَأْتِي مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إِلاَّ يَتَكَلَّمُ؛ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي يَوْمٌ جَدِيدٌ، وَإِنِّي عَلَى مَا يُعْمَلُ فِيَّ شَهِيدٌ، فَإِنِّي لَوْ قَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[٣]. وكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: «**ابْنَ آدَمَ: الْيَوْمُ ضَيْفُكَ، وَالضَّيْفُ مُرْتَحِلٌ بِحَمْدِكَ أَوْ بِذَمِّكَ، وَكَذَلِكَ لَيْلَتُكَ**»[٤].

وقوله: «**وَغَدٌ لَا تَدْرِي مَنْ صَاحِبُهُ**»: كناية عن أن العبد قد يرحل، ولا يكون من أصحاب غدٍ.

---

(١) كلام الليالي والأيام/ لابن أبي الدنيا/ ص٢١/ ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم، بيروت - لبنان/ ط: ١.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد [المتوفي: ١١٠ هـ] / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) كلام الليالي والأيام/ لابن أبي الدنيا/ ص٢٤.

(٤) كلام الليالي والأيام/ لابن أبي الدنيا/ ص٢٥.

والصور أظهرت «**اليوم والأمس والغد**» في صورة أشخاص، لكل منهم صفة تميزه عن غيره؛ باعتبار زمانه، فالغد صاحب لا تدري من صاحبه، فإذا جاء أصبح ضيفًا سريع الظعن، فإذا مضى أصبح حكيمًا مؤدّبًا، وهكذا الأيام تتقلب ويتقلب فيها الناس، والسعيد من وُعِظ بغيره.

١١- إنطاق الليالي والأيام على سبيل الاستعارة:

كثُر إنطاق الليالي والأيام عند أهل الرقائق، وهو من البيان كما قال أبو الحسن الكاتب: ومن الاستعارة ما قدمنا من إنطاق الربع، وكل ما لا ينطق إذا ظهر من حاله ما شاكل النطق[١].

قَالَ مُوسَى الْجُهَنِيِّ(ت:١٤٤هـ)[٢].: «**مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلاَّ تَقُولُ: ابْنَ آدَمَ، أَحْدِثْ فِيَّ خَيْرًا؛ فَإِنِّي لَنْ أَعُودَ إِلَيْكَ أَبَدًا**»[٣]. فقد صوَّر الليلة في صورة ناطق، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه، هو مقول القول، على سبيل الاستعارة المكنية، وقد ظهر من حالها ما يشاكل النطق، وجاءت لهجة المحادثة في الصورة شديدة، والعبارة زاجرة، فهي تنبيه وأمر وتحذير، فالتنبيه: «**ابن آدم**»، والأمر: «**أَحْدِثْ فِيَّ خَيْرًا**»، والتحذير: «**فَإِنِّي لَنْ أَعُودَ إِلَيْكَ أَبَدًا**».

والصورة البيانية نقلت لنا الحس العالي والبراعة في سماع ما لا يُسمع إلا بسباحة الفكر؛ فإن ما همست به الليالي وتحدثت به حالُها أمرٌ لا يصوره إلا أهل

---

(١) البرهان في وجوه البيان (نشر من قبل باسم نقد النثر لقدامة بن جعفر)/ المؤلف: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب / ص١١٦.

(٢) موسى بن عبدالله ويقال ابن عبدالرحمن الجهني أبو سلمة. (ت:١٤٤هـ)تهذيب التهذيب ط الفكر / ج١٠/ ص٣١٦.

(٣) كلام الليالي والأيام/ لابن أبي الدنيا/ ص١٧.

النبوغ مِمَّن لهم باعٌ في كشف القناع عن المستور.

وجاء أيضًا في هذا المعنى عن مُجَاهِد(ت:١٠٤هـ)(١). أنه قال: «**مَا مِنْ يَوْمٍ إِلَّا يَقُولُ: ابْنَ آدَمَ قَدْ دَخَلْتُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، وَلَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا، فَانْظُرْ مَاذَا تَعْمَلُ فِيَّ، فَإِذَا انْقَضَى طَوَاهُ، ثُمَّ يُخْتَمُ عَلَيْهِ، فَلَا يُفَكُّ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَفُضُّ ذَلِكَ الْخَاتَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَقُولُ الْيَوْمُ حِينَ يَنْقَضِي: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَاحَنِي مِنَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَلَا لَيْلَةٌ تَدْخُلُ عَلَى النَّاسِ إِلَّا قَالَتْ كَذَلِكَ**»(٢). وكذلك قال الْحَسَنُ بْنَ صَالِحٍ (ت:١٦٩هـ)(٣).: «**اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ وَوَعِيدٍ، وَيَقُولُ النَّهَارُ: ابْنَ آدَمَ، اغْتَنِمْنِي؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يَوْمَ لَكَ بَعْدِي، وَيَقُولُ لَهُ اللَّيْلُ مِثْلَ ذَلِكَ**»(٤).

١٢- استعارة الاكتساب للزيادة في الأيام:

روى ابن أبي الدنيا[ت:٢٨٢هـ](٥).: وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: **اكْتَسَبَ فُلَانٌ مَالًا، قَالَ: فَهَلِ اكْتَسَبَ أَيَّامًا يَأْكُلُهُ فِيهَا؟، قِيلَ: وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ؟، قَالَ: فَمَا أَرَاهُ اكْتَسَبَ شَيْئًا**»(٦).

---

(١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود (ت:١٠٤هـ)سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٤٤٩.

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا ص١٨٣.

(٣) الحسن بن صالح بن صالح بن حي الهمداني (ت:١٦٩هـ)/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص٣٦١.

(٤) حلية الأولياء/ ج٧/ ص٣٣٠.

(٥) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ [المتوفي:٢٨٢هـ] فوات الوفيات/ ج٢/ ص٢٢٨.

(٦) القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا/ ص٦٢/ ت: مصطفى عبد القادر عطا/ ن: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان/ ط: ١.

في قوله: «فَهَلِ اكْتَسَبَ أَيَّامًا يَأْكُلُهُ فِيهَا»: استعار الاكتساب للزيادة على سبيل الاستعارة التبعية، ويقال في مثل هذا النص: إنه مشاكلة، ويرى بعض أهل العلم أن المشاكلة تُجامع الاستعارة والمجاز إن لوحظت علاقتهما(١).

قال صاحب الصبغ البديعي: فالحق الذي أرسله عن يقين واطمئنان: أن المشاكلة من المجاز، فمنها ما يندرج تحت المجاز المرسل، ومنها ما ينطوي تحت المجاز بالاستعارة(٢).

وقال ابن عاشور: وَإِنَّمَا قَصْدُ الْمُشَاكَلَةِ بَاعِثٌ عَلَى الِاسْتِعَارَةِ، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا الْعُلَمَاءُ الْمُشَاكَلَةَ؛ لِخَفَاءِ وَجْهِ التَّشْبِيهِ، فَأَغْفَلُوا أَنْ يُسَمُّوهَا اسْتِعَارَةً، وَسَمُّوهَا الْمُشَاكَلَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ الْإِتْيَانُ بِالِاسْتِعَارَةِ لِدَاعِي مُشَاكَلَةِ لَفْظٍ لِلَفْظٍ وَقَعَ مَعَهُ(٣).

---

(١) تقرير الأنبابي على شرح التفتازاني وجاء فيه:» وقيل إنها تجامع المجاز المرسل والاستعارة إن لوحظت علاقتهما وإلا فهي واسطة قاله بعض المشايخ».ج٤/ ص٣٦٤/ ن: مطبعة السعادة- مصر/ سنة ١٣٣٠هـ.

(٢) الصبغ البديعي لأحمد موسى / ن: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر / ط:١.

(٣) فَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ الْمَقْصُودُ مُشَاكَلَتَهُ مَذْكُورًا فَهِيَ الْمُشَاكَلَةُ، وَلَنَا أَنْ نَصِفَهَا بِالْمُشَاكَلَةِ التَّحْقِيقِيَّةِ كَقَوْلِ ابْنِ الرَّقْعَمَقِ:قَالُوا اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ... قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

اسْتَعَارَ الطَّبْخَ لِلْخِيَاطَةِ لِمُشَاكَلَةِ قَوْلِهِ نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ، وَإِنْ كَانَ اللَّفْظُ غَيْرَ مَذْكُورٍ بَلْ مَعْلُومًا مِنَ السِّيَاقِ سُمِّيَتْ مُشَاكَلَةً تَقْدِيرِيَّةً كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ: مَنْ مُبْلِغٌ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلَّهَا... أَنِّي بَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ

اسْتَعَارَ الْبِنَاءَ لِلِاصْطِفَاءِ وَالِاخْتِيَارِ لِأَنَّهُ شَاكَلَ بِهِ بِنَاءَ الْمَنْزِلِ الْمُقَدَّرِ فِي الْكَلَامِ الْمَعْلُومِ/ التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي /ج١/ ص٧٤٤/ /ن : الدار التونسية للنشر – تونس/ سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

١٣- إنطاق الأرض على سبيل الاستعارة:

قال مُحَمَّدُ بْنِ أَبِي بَكْرٍ[1]. قَالَ: «**تَشَاحَّ رَجُلَانِ فِي أَرْضٍ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الْأَرْضُ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَلَكَنِي قَبْلَكُمَا مِائَةُ أَعْوَرَ سِوَى الْأَصِحَّاءِ**»[2].

نُطق الأرض أمر تخيله صانع الصورة البيانية، وقناعة فكر نسبها إلى الأرض، فجعلها عاقلًا تتحدث وتقول على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «**قالت**».

وقوله: «على رسلكما» طلب التمهل أتى بعده تفسير وتعليل: «**فَوَاللَّهِ لَقَدْ مَلَكَنِي قَبْلَكُمَا مِائَةُ أَعْوَرَ سِوَى الْأَصِحَّاءِ**»، وهذا معتقد المُجَرِّب الناظر إلى الواقع، والغرض العام: التقليل من شأن الدنيا، وبيان هوانها؛ فقد ملكها مائة أعور، وهذا أدعى إلى تركها، وأبين لسرعة زوالها، وقِصَرِ الأجل فيها، فالأرض لم تخلد لأحد من قبل.

١٤- تصوير عمل الليالي والسنون في العبد:

قال الْخَلِيلُ بْنَ أَحْمَدَ(ت:١٧٠هـ)[3].: **قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ أَخْطَأَتْهُ سِهَامُ الْمَنَايَا قَيَّدَتْهُ اللَّيَالِي وَالسِّنُونَ**»[4].

في قوله: «**سِهَامُ الْمَنَايَا**»: شَبَّهَ المنايا بالسهام، وأضاف المشبه به إلى المشبه.

وقوله: «**قَيَّدَتْهُ اللَّيَالِي وَالسِّنُونَ**»: إسناد التقييد إلى الليالى والسنون مجاز

(١) محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ.

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص٢٠٦.

(٣) الخليل بن أَحْمَدَ الأزدي الفراهيدي ويُقال الباهلي، النحوي(ت:١٧٠هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص٤٣٠.

(٤) العمر والشيب لابن أبي الدنيا / ص٦٣/ حديث:٤٧.

عقلي، علاقته الزمانية، وأحد طرفيه مجاز (قيدته)، أراد: قتلته وأصابته، فاستعار التقييد للقتل، ثم اشتق «قيدته» على سبيل الاستعارة التبعية. ومن تقيد لا يستطيع أن يخطو خطوة بعد أن انتهى لياليه وسنونه.

والصورة الكلية المفهومة من النص: أن الدنيا معركة الإنسان، وهو فيها إما مقتول، وإما أسير مقيد. وقد تحوَّل في الصورة المعقولُ إلى محسوس، وبيَّنتِ الصورُ مدى العراك والقتال الواقع، وجاءت مُنبهة للعقول مُوقظة للقلوب.

وفي هذا المعنى: قال جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ: كُنْتُ أَسْمَعُ مُسْعِرًا يَتَمَثَّلُ بِهَذَا الْبَيْتِ[1]. [البحر الكامل]:

لَـنْ يَلْبَثَ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ... لَـيْـلٌ يَـكِـرُّ عَـلَـيْـهِـمْ وَنَـهَـارُ

١٥- تصوير المنايا والهَرَم:

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ[ت:٣٢][2].: «هَذَا الْمَرْءُ وَهَذِهِ الْحُتُوفُ حَوْلَهُ شَوَارِعُ إِلَيْهِ، وَالْهَرَمُ وَرَاءَ الْحُتُوفِ، وَالْأَمَلُ وَرَاءَ الْهَرَمِ، فَهُوَ يَأْمُلُ، وَهَذِهِ الْحُتُوفُ شَوَارِعُ إِلَيْهِ، فَأَيُّهَا أُمِرَ بِهِ أَخَذَهُ، فَإِنْ أَخْطَأَتْهُ الْحُتُوفُ قَتَلَهُ الْهَرَمُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَمَلِ»[3].

قوله: «هَذَا الْمَرْءُ وَهَذِهِ الْحُتُوفُ»: يشير إلى أرض المعركة، ويصفها لمن يُحدثه. وفي قوله: «**الْحُتُوفُ حَوْلَهُ شَوَارِعُ إِلَيْهِ**»: شَبَّهَ المنايا بالسيوف المشرعة، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازمه: «شروع» على سبيل الاستعارة المكنية، وجاءت كلمة: {حتوف} بصيغة جمع الكثرة؛ لبيان كثرة المقاتلين والمتربصين.

(١) كلام الليالي والأيام/ لابن أبي الدنيا/ ص٢٩.

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٣) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص٣٣/ حديث: ١٤.

وفي قوله: «**وَالْهَرَمُ وَرَاءَ الْحُتُوفِ**»: صوَّر الهرم شخصًا قائمًا خلف الحتوف متربصًا على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «وراء»، ثم بدأ ابن مسعود يصف أحداث المعركة بعد أن ذكر أبطالها ورجالها، فقال: «**فَهُوَ يَأْمُلُ، وَهَذِهِ الْحُتُوفُ شَوَارِعُ إِلَيْهِ، فَأَيُّهَا أُمِرَ بِهِ أَخَذَهُ، فَإِنْ أَخْطَأَتْهُ الْحُتُوفُ قَتَلَهُ الْهَرَمُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَمَلِ**».

وأفاد جمع الحتوف أن النجاة أمر صعب؛ فإن أخطاته الحتوف قتله الهرم.

وفي قوله: «**قَتَلَهُ الْهَرَمُ**»: إسناد القتل إلى الهرم من قبيل المجاز العقلي، علاقته السببية؛ حيث إن الهرم سبب من أسباب الموت. وقوله: «**وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَمَلِ**»: أفاد شخوص الأمل وحسرة المرء وعينه تتطلع إلى الأمل، وهو يقتل بلا هوادة.

والصورة البيانية تزخر بالمعاني والأشخاص والأحداث؛ مما يجعل لها مزية. والصورة البيانية مقتبسة من حديث قاله النبي ﷺ ورواه ابن مسعود ﷺ: قال: «**خَطَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، وَقَالَ: «هَذَا الإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا**»[1].

فصلوات الله وسلامه على من جعلت البلاغة تحت طرف لسانه، فـ: «لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل

---

(١) صحيح البخاري (٨/ ٨٩)/ ن: دار طوق النجاة -بيروت/ ط:١.

مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه: مِن كلامه ﷺ»[1].

١٦- تشبيه الليل والنهار بمطيتين:

١- قَالَ الْحَسَنُ[ت:١١٠هـ][2].: «ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ بَيْنَ مَطِيَّتَيْنِ يُوضِعَانِكَ، اللَّيْلَ إِلَى النَّهَارِ، وَالنَّهَارَ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى يُسْلِمَانِكَ إِلَى الْآخِرَةِ، فَمَنْ أَعْظَمُ مِنْكَ يَا ابْنَ آدَمَ خَطَرًا»[3].

٢- وجاء أيضًا عن الْحَسَن أنه قال: «ابْنَ آدَمَ أَصْبَحْتَ بَيْنَ مَطِيَّتَيْنِ لَا يَعْرُجَانِ بِكَ خَطَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ حَتَّى تَقْدُمَ الْآخِرَةَ، فَإِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، فَمَنْ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْكَ؟»[4].

٣- وحدث ابن أبي الدنيا[ت:٢٨٢هـ][5]. عن إِبْرَاهِيمَ بْن عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ شَيْخٍ، مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيَّتَيْهِ سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، وَأَنْشَدَنِي مَحْمُودُ بْنُ الْحَسَنِ قَوْلَهُ[6]. (البحر الكامل):

يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمُعَلِّـ ـلُ نَفْسَهُ وَالشَّيْبُ شَامِلْ
اعْلَمْ بِأَنَّكَ نَائِمٌ فَوْقَ الْفِرَاشِ وَأَنْتَ رَاحِلْ

---

(١) البيان والتبيين/ ج٢/ ص١٧، ١٨.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد [ت: ١١٠ هـ] / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) الزهد الكبير للبيهقي ص٢٠٤.

(٤) حلية الأولياء/ ج٢/ ص١٥٢.

(٥) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ [ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات/ ج٢/ ص٢٢٨.

(٦) الزهدلابن أبي الدنيا/ ص١٩٣/ الأثر ٥٠٠.

وَالـلَّـيْـلُ يَـطْـوِي لَا يُـفَـتَّـ ـرُ وَالـنَّـهَـارُ بِـكَ الْـمَـنَـازِلْ
يَـتَـعَـاقَـبَـانِ بِـكَ الـرَّدَى لَا يَـغْـفُـلَانِ وَأَنْـتَ غَـافِـلْ

شبه الحسن (رحمه الله) الليل والنهار بمطيتين حالهما أنهما يوضعان ابن آدم حتى يسلماه إلى الآخرة، والإيضاع هو السير السريع، والسير لا ينقطع ولا يتوقف حتى يُسلم العبد إلى الآخرة.

وغرض التشبيه: بيان ما عليه العبد من الخطر، وبث الخوف في القلوب؛ حتى تعمل، ولا يطول بها الأمل، وتدرك أن القافلة تسير بغير إرادتهم، وأنهم محمولون إلى مصيرهم حملًا، وحتمًا سيصلون؛ لذلك ختم الصورة في النص الأول والثاني بقوله: «**فَمَنْ أَعْظَمُ مِنْكَ يَا ابْنَ آدَمَ خَطَرًا؟**».

١٧- تشبيه الأبدان بالمطايا:

قال شميط[١].: «**إِنِّي وَاللهِ مَا رَأَيْتُ أَبْدَانَكُمْ إِلاَّ مَطَايَا إِلَى رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، أَلاَ فَأَنْضُوهَا فِي طَاعَةِ اللهِ يُبَارِكُ اللهُ فِيكُمْ**»[٢].

شبه أبدانهم بالمطايا، وفي التشبيهات السابقة كانت أبدانهم محمولة على الليل والنهار، والتشبيه بليغ، والصورة البيانية تمكنت من عقل الشاعر، واستحكمت حتى أكد قوله بـ: «إن» والقصرِ بالنفي والاستثناء والقسمِ، وكأنه يقسم على حقيقة. ووجه الشبه: أن كلًّا منهما وسيلة إلى الغاية، فشرط دخول الجنة هو عمل الأبدان بعد الإيمان.

(١) شُمَيْطُ بْنُ عَجْلانَ الْبَصْرِيُّ الْعَابِد [ت:١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٨٩٢.

(٢) حلية الأولياء / ج٣/ ص١٣١.

وقوله: «فَأَنْضُوهَا فِي طَاعَةِ اللهِ يُبَارِكُ اللهُ فِيكُمْ»: ترشيحٌ للتشبيه، قصد به إتعاب البدن في الحق، وإسهاره قائمًا لرب الخلق، وإجاعته؛ ابتغاء الأجر.

١٨- تصوير المجتهد في آخر عمره بخَيْلٍ في حلبة قد رأت الغاية:

قال سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ (ت:٦٢هـ)[1]. حَيْثُ كَبُرَ وَرَقَّ، قَالَ لَهُ قَائِلٌ: لَوْ أَقْصَرْتَ عَمَّا تَصْنَعُ، قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ إِذْ أَرْسَلْتُمُ الْخَيْلَ فِي الْحلبَةِ أَلَسْتُمْ تَقُولُونَ لِفُرْسَانِهَا: وَدِّعُوهَا، وَأَرْفِقُوا بِهَا، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْغَايَةَ فَلَا تَسْتَبْقُوا مِنْهَا شَيْئًا؟**»، **قَالُوا: بَلَى، قَالَ:** «**قَدْ رَأَيْتُ الْغَايَةَ**»[2].

هذه استعارة تمثيلية، الخيل فيها هم الناس، والحلبة هي الدنيا، والغاية هي الجنة، وهي السبقة (الجائزة) التي رآها أبو مسلم، ففرَّ إليها، وصورة الفرسان والسباق وإدراك الغاية من المحسوس، والغاية التي يبتغيها «**الجنة**» من الغيب الذي شاهده، فقال: رأيت، وأكد هذا بـ: (قد) الداخلة على الفعل الماضي؛ لتحقيق الرؤية.

والصورة البيانية لخصت وأوضحت، وكانت كبرهان على صدق كلام أبي مسلم، ولو قال لهم: إنما هو آخر عمري، ولا بد أن أزيد فيه من عملي؛ رجاءَ جنة ربي: لَمَا أفاد ما أفادته الصورة البيانية من الإقناع والإيضاح.

١٩- تشبيه المقيم في الدنيا بالمسافر:

جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة[ت:٢٧٦هـ][3].: قيل لرجل من الحكماء: **ما لَكَ تُدمن إمساكَ العصا، ولستَ بكبير ولا مريض؟، فقال: لأذكرَ أني مسافر،**

(١) أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب (ت:٦٢هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٤.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٥٢٨.

(٣) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري [ت:٢٧٦هـ] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠.

قال الشاعر[(١)]. (البحر الطويل):

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَيَّ وَلَا أَنِّـي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ
وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِيَ حَمْلَهَا لِأُعْلِمَهَا أَنَّ المقيم على سَفَر[(٢)].

بادر الحكيم، وأمسك العصا؛ ليذكر نفسه بالرحيل، والتشبيه ضمني؛ شَبَّهَ فيه المقيم في الدنيا بالمسافر، والدنيا طريقٌ الكل فيه سائرون، والمقام إما جنة، وإما نار، والعياذ بالله.

٢٠- صور بيانية في سرعة زوال الدنيا:

حدث الحسن عن ابن مَسْعُودٍ أنه قال: «**تَرَوْنَ بُيُوتَكُمْ هَذِهِ مَحْشُوَّةً مِثْلَ الرُّمَّانَةِ؛ إِذَا أُمْسِيَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَلَاقِعُ، كَذَلِكَ الْآخِرَةُ تَجِيء، فَتَذْهَبَ بِالدُّنْيَا**»[(٣)].

---

(١) بحثت عن اسم الشاعر فلم أجده، ولكن وردت هذه الأبيات في كتاب المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج بن الجوزي(الناشر دار الكتب العلمية / ط:١/ ج:١٦/ ص:١٣٦) قال ابن الجوزي: (أنبأنا محمد بن طاهر قَالَ: أنشدنا أبو علي بن وشاح لنفسه: حملت العصا لا الضعف أوجب حملها... على ولا أني انحنيت من الكبر ولكنني ألزمت نفسي بحملها... لأعلمها أني المقيم على سفر.

قلت: قول الراوي» أنشدنا أبو علي بن وشاح لنفسه» يحمل أمرين: الأول:أن يكون المراد بكلمة»لنفسه» أي :هو قالها من عند نفسه، فيكون الكلام عندئذ مردوداً لأن ابن وشاح توفي سنة ٤٦٣هـ كما ذكر ابن الجوزي وهذه الأبيات ذكرها ابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ) وهذا دليل على أن الأبيات ليس لابن وشاح.

الأمر الثاني: أن يكون المراد بكلمة «لنفسه» أي: أسقطها على نفسه وجعل خطابها لنفسه، فيكون الكلام مقبولًا ويبقى معنا أن صاحب الأبيات غير معروف.

(٢) عيون الأخبار/ ج:٢/ ص: ٣٤٨.

(٣) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص١٢٠/ حديث: ١٧٤.

شبه البيوت بالرمان، ووجه الشبه: هو البريق واللمعان وبهجة الألوان والامتلاء، فإذا هي بلاقع خالية من كل شيء.

وحدث أبو الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود [ت:٣٢هـ][١].: «**مَعَ كُلِّ فَرْحَةٍ تَرْحَةٌ، وَمَا مُلِئَ بَيْتٌ حَبْرَةً إِلَّا مُلِئَ عِبْرَةً**»[٢].

قوله: «**حبرة**»: كناية عن النعيم، وهي الثوب اليمني.

وقوله: «**عبرة**»: مجاز مرسل علاقته المسببية، أي: مُلئ ابتلاءات، وهي سبب العبرة.

٢١- تصوير الشيب بريد الموت:

حَدَّثَ ابْنُ لَهِيعَةَ(ت:١٧٤هـ)[٣]. عَنْ زَافَةَ الْغَافِقِيِّ: **أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ أَيْلَةَ كَانَ يَقُومُ بِأَمْرِهِمْ، فَأَخَذَ الْمِرْآةَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَنَظَرَ إِلَى شَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي لِحْيَتِهِ، فَقَالَ: أَلَا أَرَى بَرِيدَ الْمَوْتِ قَدْ أَسْرَعَ إِلَيَّ، شَأْنُكُمْ إِمْرَتُكُمْ، شَأْنُكُمْ ضَيْعَتُكُمْ، وَابْتَنَى لِنَفْسِهِ خُصًّا، فَلَمْ يَزَلْ يَتَعَبَّدُ فِيهِ حَتَّى مَاتَ**»[٤].

فقد استعار «**بريد الموت**» للشيب استعارة تصريحية، فالشيب هو الرسول المؤذن بالموت، وعلامة من علاماته. فلما جاء الرسولُ الرجلَ بادر هو، وابتنى

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٢) الزهد لأسد الشيباني/ ص١٣٤/ حديث:٩٠١/ ت: أبو إسحاق الحويني الأثري/ ن: مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي، مكتبة الوعي الإسلامي/ ط: ١.

(٣) عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي (ت:١٧٤هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص١١.

(٤) العمر والشيب لابن أبي الدنيا / ص٦٩/ حديث:٦٠.

لنفسه خصًا، وودع الناس قائلًا: «**شَأْنُكُمْ إِمْرَتُكُمْ، شَأْنُكُم ضَيْعَتُكُمْ**».

وروى ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ] (١). عن زَكَرِيَّا بْن عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ، أَنَّ شَيْخًا مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ حَدَّثَهُ قَالَ: **رَأَيْتُ أَعْرَابِيًّا مِنَ الْقَيْسِيِّينَ قَدْ وَطِئَ الْمِائَةَ أَوْ نهاها**(٢). **فَقُلْتُ لَهُ: صِفْ لِيَ الْكِبَرَ، فَقَالَ: كَثُرَ مِنِّي مَا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يَقِلَّ، وَتَرَكْتُ النِّسَاءَ، وَكُنَّ الشِّفَاءَ، وَقَلَّ الْمَطْعَمُ، وَهُوَ الْمَنْعَمُ**(٣).

قوله: «**كَثُرَ مِنِّي مَا كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يَقِلَّ**»: كناية عن صفة (الشيب)، والكناية أفادت عدم محبة الشيب وكراهية انتشاره.

وقوله: «**وَكُنَّ الشِّفَاءَ**»: شَبَّهَ فيه النساء بالشفاء، ووقع المشبه به خبرًا للمشبه، وهو من قبيل التشبيه المؤكد، والتشبيه دال على شغف القائل بالنساء، وبيانِ مكانتهن عنده.

وقال بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ(٤).[البحر الوافر]:

أَلَا فَامْهَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتٍ ... فَإِنَّ الشَّيْبَ تَمْهِيدُ الْحِمَامِ
وَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ فَكُنْ مُجِدًّا ... بِحَطِّ الرَّحْلِ فِي دَارِ الْمُقَامِ

٢٢- مخاطبة النفس على سبيل الاستعارة:

جرت عند أهل الرقائق مخاطبة النفس وإنزالها منزلة الشخص الماثل أمامهم، وأكثر ما يكون حديثهم معها على التوبيخ، أو الحض، أو الإتهام، ففي

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر – بيروت/ ط:١.
(٢) جاء في المصدر:»أو نَاهَاهَا»
(٣) العمر والشيب لابن أبي الدنيا / ص٦٥/ حديث:٥١.
(٤) العمر والشيب لابن أبي الدنيا ص٧٠.

الأثر عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ(ت:١٠٨هـ)(١). قَالَ: **كَانَتِ امْرَأَةٌ مُتَعَبِّدَةٌ، وَكَانَتْ إِذَا أَمْسَتْ قَالَتْ: «يَا نَفْسُ اللَّيْلَةُ لَيْلَتُكِ، لَا لَيْلَةَ لَكِ غَيْرَهَا، فَإِذَا أَصْبَحَتْ قَالَتْ: يَا نَفْسُ، الْيَوْمُ يَوْمُكِ، لَا يَوْمَ لَكِ غَيْرَهُ». فَاجْتَهَدَتْ**(٢).

ومن هذا ما جاء على لسان مالك بن دينار(رحمه الله):

حَدَّثَ حَجَّاجُ بْنُ نُصَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْمُنْذِرُ أَبُو يَحْيَى، قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ[ت:١٣٠] (٣). يَقُولُ لِنَفْسِهِ: **«وَيْحَكِ، بَادِرِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكِ الْأَمْرُ، وَيْحَكِ بَادِرِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكِ الْأَمْرُ، وَيْحَكِ بَادِرِي قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكِ الْأَمْرُ»**، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ سِتِّينَ مَرَّةً(٤).

فقد صوَّر النفس شخصًا ماثلًا أمامه يحدثه ويزجره، ويكرر له الأمر ستين مرة (كما يقول الراوي)، ويستعجله، ويُلقي إليه الكلام على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها المحادثة.

٢٣- تصوير الطاعات بسوق كاسدة البضاعة لا يطلبها أحد:

قال أبو حازم[ت:١٣٩هـ](٥).: **إن بضاعة الآخرة كاسدة، فاستكثروا منها في أوان كَسَادها؛ فإنَّه لَو جَاء يَوم نفاقها لَمْ تَصِل مِنها إِلى قَليل وَلا إِلى كَثير**(٦).

---

(١) بكر بْن عَبْد اللَّهِ المزني، وهو ابن عَمْرو بْن هلال (ت:١٠٨هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال / ج٤/ ص٢١٨/ ت: بشار عواد/ ن: الرسالة/ ط:١ .

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص٧٧/ حديث:٩٣.

(٣) مالك بن دينار [المتوفي:١٣٠] سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٤) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص١٠٥/ حديث:١٤٤.

(٥) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ أَبُو حَازِمٍ [ت:١٣٩هـ] الوافي بالوفيات / ج١٥/ ص١٩٩.

(٦) صفة الصفوة/ ج٢/ ص١٦٤.

فقد صوَّر الطاعات المقربة إلى الآخرة ببضاعة على سبيل الاستعارة التصريحية، وقيد البضاعة بأنها كاسدة، والجملة مؤكدة بـ«**إن**»؛ لتأكيد الصورة البيانية، وأراد بـ(كاسدة) أنها لا مُقبل عليها، ولا تكلف في اغتنامها، فالمساجد خالية، ودخولها بلا درهم ولا دينار، والصيام لا غرم فيه، والذكر كذلك، والكل في حيز المستطاع.

وقوله: «**فاستكثروا منها في أوان كسادها؛ فإنه لو جاء يوم نفاقها لم تصل منها إلى قليل ولا إلى كثير**»: ترشيح للاستعارة، كساها ثوب الحقيقة، وكأن الكلام لا مجاز فيه.

وقوله: «**أوان كسادها**»: كناية عن عمر الإنسان في الدنيا ومهلته فيها.

وقوله: «**يوم نفاقها**»: كناية عن يوم القيامة، وهو يومٌ تُأخذ فيه الأعمال الصالحة، ويُجازَى عليها، قال - تعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٧).

❊❊ ما جاء من صور بيانية في وصف الأمل:

كان أهل الرقائق (رضوان الله عليهم) يَحْذرون الأمل وأهله، وأقل الأمل عندهم إثم وجرم؛ فقد جاء عن مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي تَوْبَةَ، قَالَ: **أَقَامَ مَعْرُوفٌ الصَّلَاةَ، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَقَدَّمْ»، فَقُلْتُ: إِنِّي إِنْ صَلَّيْتُ بِكُمْ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَمْ أُصَلِّ بِكُمْ غَيْرَهَا، فَقَالَ مَعْرُوفٌ: «وَأَنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ أَنْ تُصَلِّيَ صَلَاةً أُخْرَى؟، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ طُولِ الْأَمَلِ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ»**[1].

قوله: «**فَإِنَّهُ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ**»: إسناد المنع إلى طول الأمل مجاز عقلي علاقته

---

(١) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص٨١/ حديث:١٠٢.

السببية؛ حيث إن طول الأمل سبب في ترك العمل، والوقت الذي بين الصلاتين إن أمِل الإنسان عيشَه فهو مصاب بطول الأمل، وهذا الطول يمنع خير العمل، وهذه صور بيانية توضح لنا ماهية الأمل وخطورة طوله.

١- تشبيه الأمل بسلطان الشيطان:

حَدَّثَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ(ت:٢٥٣هـ)[١]. قَالَ: **قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: «الْأَمَلُ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ عَلَى قُلُوبِ الْغَافِلِينَ»**[٢].

فقد شبه الأمل بالسلطان، وهو القوة والقهر التي يتقوى بها الشيطان على قلوب الغافلين، وصدق الحق - سبحانه -؛ إذ يقول: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ (النساء: ١٢٠).

وذكَر الغافلين؛ احتراسًا أن يظن السامع أن للشيطان سلطانا على المؤمنين؛ فقد قال - تعالى -: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل:٩٩).

٢- تشبيه الأمل بأرض ينبت بها كل معصية:

قَالَ سَهْلٌ (ت:٢٨٣هـ)[٣].: «وَالْأَمَلُ أَرْضُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَالْحِرْصُ بِذْرُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَالتَّسْوِيفُ مَاءُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَالنَّدَمُ أَرْضُ كُلِّ طَاعَةٍ، وَالْيَقِينُ بِذْرُ كُلِّ طَاعَةٍ، وَالْعَمَلُ مَاءُ كُلِّ طَاعَةٍ، وَبِقَدْرِ مَا تَهْدِمُ مِنْ دُنْيَاكَ تَبْنِي لِآخِرَتِكَ، وَبِقَدْرِ مَا

(١) الحسين بن عَبْد الرحمن أَبُو عَلِيّ الجرجرائي.(ت:٢٥٣هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ ط: الرسالة / ج٦/ ص٣٨٧.

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص٨٢/ حديث:١٠٣.

(٣) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التستري (ت:٢٨٣هـ) وفيات الأعيان ج٢/ ص٤٣٠.

تُخَالِفُ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ وَشَهْوَتَكَ تُرْضِي مَوْلَاكَ، وَبِقَدْرِ مَا تَعْرِفُ عَدُوَّكَ وَعَدَوَاتِهِ - يَعْنِي إِبْلِيسَ - تَعْرِفُ رَبَّكَ»(١).

فقد تعددت التشبيهات، وكل تشبيه مستقل عن غيره، ولكن ترسم بجملتها صورة بيانية كلية يحلق فيها الخيال، وهو يرى المعقولات أصبحت أرضًا وبذرًا وماءً، يغوص في كل واحدة منها الوجدان؛ لإدراك الشيء المشترك بين المشبه والمشبه به.

فقوله: «وَالْأَمَلُ أَرْضُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ»: شَبَّهَ فيه الأملَ بالأرض الخصبة التي تنبت فيها المعاصي لا شيء غيرها، وهذا القيد لا يقوم التشبيه إلا به، وأفادت كلمة «كل» أن المعاصي جميعها تنمو وتقر وتنبت عند صاحب الأمل، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما حاضن ومنمي.

وقوله: «وَالْحِرْصُ بِذْرُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ»: شَبَّهَ فيه الحرصَ بالبذر، فالحرص على الشهوات وتحصيل الملذات هو البذر الذي ينبت كل معصية، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما سبب لم يترتب عليه.

وقولُه: «وَالتَّسْوِيفُ مَاءُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ»: وجه الشبه فيه أن كلًّا منهما يساعد على النمو، فالتسويف حال وجود المعصية ينميها ويقويها حتى تكبر وتدخل في العوائد التي يصعب على الإنسان أن يقطعها، وتسويف التوبة وعدم الانقطاع عن الشهوات هو الماء الذي يجعل المعصية ترعرع في القلب، وتتمكن.

وقوله: «وَالنَّدَمُ أَرْضُ كُلِّ طَاعَةٍ»: وجه الشبه فيه: أن كلًّا منهما حاضن ومنمي، فإذا جاءت الطاعة على قلب نادم ونفس لوّامة نمت وربت وتمكّنت،

---

(١) حلية الأولياء/ ج١٠/ ص١٩٨.

وإذا جاءت على قلب معجب متباهٍ فسدت وجفت وخارت.

وقوله: «**وَالْيَقِينُ بِذْرُ كُلِّ طَاعَةٍ**»: وجه الشبه فيه: أن كلًّا من اليقين والبذر سبب، فالبذر لا يقوم النبات إلا به، كذلك الطاعة لا تأتي إلا من قلب موقن، ولا - تعالى -: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:١١٨).؛ لأن هؤلاء من يُرجى منهم العمل بالآيات، وعلى المقابل جاء قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة:١٢). قد استشعروا أن العمل الصالح لا يأتي إلا من قوم موقنين، فأكدوا عزمهم على العمل الصالح بقولهم: إنا موقنون.

وقوله: «**وَالْعَمَلُ مَاءُ كُلِّ طَاعَةٍ**»: وجه الشبه فيه: أن كلًّا منهما سبب، فالعمل إن لم يكن موجودًا فلا طاعة، فالطاعة تحيا بالعمل، وهو قوامها ووقودها، والماء أصل لكل حياة، قال - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠). والعمل أصل للحياة الطيبة في الآخرة.

وبعد ما بين سهل (رحمه الله) أمر الأرضين: تكلم عن البناء، فجعل الدنيا والآخرة بُنيانيْنِ، إذا هُدم أحدهم بُني الآخر، فقال: «**وَبِقَدْرِ مَا تَهْدِمُ مِنْ دُنْيَاكَ تَبْنِي لِآخِرَتِكَ**». فقد استعار حال من يبني شيئًا بهدم آخر لحال من يعمل لآخرته بترك الدنيا، والاستعارة تمثيلية.

وهاتان الاستعارتان تدوران في فلك الاستعارة التي مرت بنا، وهي كون الدنيا والآخرة ضرتين، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وعليك أن ترجع إلى المبحث الخامس: (تركها والزهد).

٣- تشبيه (سوف) بجند من جنود إبليس:

حَدَّثَ صَالِحٌ الْمُرِّيُّ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْجَلْدِ(ت: ٧٠هـ)(١). قَالَ: **قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ «أَنَّ سَوْفَ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ»**(٢).

فقد شبه «**سوف**» بجند من جنود إبليس، ووجه الشبه: أنها تعمل أعمال جنود إبليس من الصد عن التوبة والتمادي في الذنب وتطويل الأمل.

وحَدَّثَ يَحْيَى بْنُ آدَمَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْعَيْزَارِ بْنِ حُرَيْثٍ قَالَ: **أَوْصَاهُمْ ثُمَامَةُ بْنُ بِجَادٍ السُّلَمِيُّ(لهُ صُحبةٌ)**(٣). **قَالَ لِقَوْمِهِ: «أَيْ قَوْمِ، أَنْذَرْتُكُمْ: سَوْفَ أَعْمَلُ، سَوْفَ أُصَلِّي، سَوْفَ أَصُومُ»**(٤).

أنذرهم ثمامة بن بجاد بعضَ أفراد «**سوف**»، وهم: سَوْفَ أَعْمَلُ، وسَوْفَ أُصَلِّي، وسَوْفَ أَصُومُ.

وقوله: «**سوف أعمل**»: يشمل كل عمل، ولكن ذكر الصلاة والصيام بعد ذلك من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأهمية الخاص.

---

(١) جيلان بن فروة، ويقال:»ابن أبي فروة» الأسدي الجوني البصري أبو الجلد، مَاتَ أبوالجلد فِي الجارف، قَالَ أَحْمد بن زُهَيْر وَكَانَ طاعون الجارف بِالْبَصْرَةِ سنة سبعين، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم/ أبو سليمان محمد بن عبد الله الربعي (ت ٣٧٩هـ)/ ج١/ ص١٨٩/ ت: د. عبد الله أحمد سليمان الحمد/ ن: دار العاصمة – الرياض/ ط:١.

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص١٤٠/ حديث:٢٠٧.

(٣) ثُمامة بن بجاد وقَالَ شُعبة: رجل من عَبد القيس، لهُ صُحبةٌ. التاريخ الكبير/ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري/ ج٢ص١٧٦/ ط: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن/ طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.

(٤) الزهد لابن المبارك ص٥.

٤- التحذير من (سوف) بصورة بيانية:

وجاء عَنْ شُعْبَةَ بْنِ الْحَجَّاجِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ(ت:١٤١هـ)(١). قَالَ: **قِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فِي مَرَضِهِ: أَوْصِنَا، قَالَ: «أَنْذَرْتُكُمْ سَوْفَ»**(٢).

فقد صوَّر «سوف» في صورة عدو أو جيش يُحذر منه ويُنذر، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه (أنذرتكم). وخروجُ هذه الوصية من فم مطروح على الفراش في مرض موته: يُشعر بأن الرجل قد جُرح من «سوف»، وكلبته، وهزمته، وقد جربها، فلم يجد شيئًا شرًا منها يحذر منه عند وفاته ووداعه.

- ولم يشطن عما نقول قولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ (ت:١٨١هـ)(٣).: «**بَلَغَنِي أَنَّ أَكْثَرَ تَلَاقِعِ**(٤). **أَهْلِ النَّارِ، أُفٍّ لِسَوْفَ، أُفٍّ لِسَوْفَ**»(٥).

قوله: «**أف لسوف**» تحولت سوف من كونها كلمة إلى جند وشخص يُتأفَّفُ منه، وينقمون عليه أفعاله، والاستعارة هنا مكنية.

٥- تصوير التسويف بشخص:

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا، فَقَالَ: **أُولَئِكَ قَوْمٌ أَدَّبَتْهُمُ الْحِكْمَةُ،**

---

(١) أبو إسحاق الشيباني سليمان بن أبي سليمان(ت:١٤١هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٦/ ص١٩٤.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٥.

(٣) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي(ت:١٨١) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٧٨.

(٤) اللَّقَعةُ: الَّذِي يَتَلَقَّعُ بالكلامِ وَلاَ شَيْءَ عِنْدَهُ وراءَ الكلامِ. وامرأة مِلْقَعةٌ: فَحّاشةٌ/ لسان العرب ج:٨/ ص:٣٢٢.

(٥) قصر الأمل لابن أبي الدنيا/ ص١٤٤/ حديث:٢١٧.

وَأَحْكَمَتْهُمُ التَّجَارِبُ، وَلَمْ تَغْرُرْهُمُ السَّلَامَةُ الْمُنْطَوِيَةُ عَلَى الْهَلَكَةِ، وَرَحَلَ عَنْهُمُ التَّسْوِيفُ الَّذِي قَطَعَ النَّاسُ بِهِ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ، فَقَالَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْوَعْدِ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدِيهِمْ بِالْإِنْجَازِ، فَأَحْسَنُوا الْمَقَالَ، وَشَفَعُوهُ بالفعال، كَانَ يُقَالُ: آفَةُ الْمُرُوءَةِ خُلْفُ الْوَعْدِ»[1].

الشاهد قوله: «**وَرَحَلَ عَنْهُمُ التَّسْوِيفُ**»، والتسويف هنا شخص رحل عنهم، والاستعارة مكنية لازمها: «**رحل**»، فجاء في صورة المحسوس الراحل الحي المتحرك، والصورةُ تفيد المبالغة في بُعْدِ القوم عن التسويف حتى كأنه هو الذي بعُد ورحَل.

٦- تصوير سرعة إدراك العبد لمن مات قبله:

قال إِبْرَاهِيمُ بْنَ أَدْهَمَ (ت:١٦٢هـ)[2]: «**إِخْوَانِي، عَلَيْكُمْ بِالْمُبَادَرَةِ وَالْجَدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَسَارِعُوا، وَسَابِقُوا؛ فَإِنَّ نَعْلًا فَقَدَتْ أُخْتَهَا سَرِيعَةَ اللِّحَاقِ بِهَا**»[3].

قوله: «**فَإِنَّ نَعْلًا فَقَدَتْ أُخْتَهَا سَرِيعَةَ اللِّحَاقِ بِهَا**»: استعارة تمثيلية، فقد صوَّر حالَ القاطن في الدنيا الذي فقد إخوانه أو آبائه، وسيصير إلى ما صاروا إليه من الموت - بحال النعل التي فقدت أختها، فهي سريعة اللحاق بها، وهذا هو الغالب على مَن فقد إحدى نعليه أنه يلحق الآخرة بها، ويتركها، والغرض هنا التأكيد على

---

(١) المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها/ ص٥٥ / للخرائطي السامري/ انتقاء: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني/ ت: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدير/ ن: دار الفكر - دمشق سورية/ سنة النشر:١٤٠٦ هـ.

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي (ت:١٦٢هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص٣٩٦.

(٣) الزهد الكبير للبيهقي ص٢٢٤.

سرعة الفناء وقلة العمر، والدعوة إلى العمل واغتنام ما تبقى، لا على غير ذلك.

والاستعارةُ جاءَتْ بَعْدَ وعظٍ وأمرٍ: «**عَلَيْكُمْ بِالْمُبَادَرَةِ، وَالْجَدِّ وَالِاجْتِهَادِ، وَسَارِعُوا، وَسَابِقُوا**»؛ لتعليل الأمر وبيان العلة من الوعظ، فكانت الاستعارة كالحجة والدليل الذي يُقام على السامعين حتى يرعووا وينزجروا، ومِمَّا «اتفق العقلاءُ عليه: أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساهَا أُبَّهةً، وكَسَبَها مَنْقَبةً، ورفَع مِن أقدارِها، وشَبَّ مِن نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعَا القُلوبَ إليها، واستثار لها مِن أقاصي الأفئدة صَبابَةً وكَلَفًا، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبَّة وشَغَفًا»[1]. وإن كان وَعْظًا، كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَايَة، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل»[2].

٧- تصوير الخير ببيت يجب الإسراع إليه:

قال خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ (ت:١٠٣هـ)[3].: «إِذَا فُتِحَ لِأَحَدِكُمْ بَابُ الْخَيْرِ فَلْيُسْرِعْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ»[4].

صوَّر الخير على أنه بيت أو قصر له باب يُفتح ويُغلق، ثم حذف المستعار منه، وأبقى لازمًا من لوازمه.

---

(١) أسرار البلاغة ص١١٥.

(٢) أسرار البلاغة ص١١٦.

(٣) خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي (ت:١٠٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٤٠.

(٤) الزهد لأحمد ص٣١١.

وقوله: «**لَا يَدْرِي مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ**»: ترشيح للاستعارة، والصورة البيانية أظهرت المعقول في صورة محسوس؛ لتأنس النفس، وتنشرح إلى المبادرة والدخول في الباب، ومما هو مفهوم من هذه الصورة أن ولوج الباب فيه نعيم وحسن جزاء، فوجب على العاقل الإسراع.

* * *

الخلاصة:

جاءت الصور البيانية كاشفة عن حرص أهل الرقائق على كل لحظة في أعمارهم، وعن مبادرتهم؛ مخافةَ اقتراب الأجل، وكاشفةً أيضًا عن صواب رؤيتهم، فمرورُ الليل والنهار لم يكن عليهم هيِّنًا ولا سَهْلًا لينًا؛ حيث يظهر في صورهم أن الليل والنهار عندهم سباع ومعاول تهدم في العمر، وآلة تجز أعمارهم، ومطيتانِ يَنقلان العبد إلى مثواه الأخير، فخاطبوا الليل والنهار خطابَ معاتب، وأنطقوا الليل والنهار نُطْقًا يتلاءم مع ما يجدونه في صدورهم، ويعتقدونه، كذلك كانوا يرون أنفسهم زَرْعًا قد دنا حصادُه.

وصوَّر أبو مسلم الخولاني (ت: ٦٢هـ) المجتهد في آخر عمره بخَيْلٍ في حلبة قد رأت الغاية، وأوشكت على الفوز، وصوَّر عون بن عبد الله (ت: ١١٠هـ). يوم العبد في الدنيا بالمضمار (زمن تسمين الخيل). والصورتان منزعهما البيئة؛ حيث إنهما يرون في الخيل معنى المبادرة والإسراع وبذل الجهد؛ لإدراك الغاية.

أما عن طول الأمل فقد شبهوا المقيم في الدنيا بالمسافر، وذمُّوا الأمل، فشبَّهُوه بسلطان الشيطان، وبأرضٍ تُنبت كل معصية، وجاء التسويف وكلمة (سوف) في أكثر من نصٍ في صورة عدو، أو جند من جنود إبليس، أو صورةِ شخص يجب الحذرُ منه، ويجب أن يتنذر الناس منه.

المبحث السابع:
التصوير البياني في مقام تزكية النفس

المحتوى:

** ما جاء من صور بيانية في وصف النفس:

١- تشبيه النفس بنفوس الدواب.

٢- وتشبيه النفس بالبازي، والرضيع، والدابة الحرون.

٣- وتشبيه النفس بشجرة تثمر ثمرًا خبيثًا.

٤- وتشبيه النفس بالأسير.

٥- وتشبيه النفس بالمَلِك، وبالمملوك.

٦- وتصوير النفس في صورة قائم بالصخر يريد الفتك بصاحبه، وبواضِع سم.

٧- وتصوير النفس شابة.

صور بيانية في معالجة النفس.

١- كنايات عن الزهد في المأكل والملبس.

٢- ومحادثة البطن ومعالجة أمرها على سبيل الاستعارة.

٣- وتصوير النفس في صورة شخص يُعاتب ويُذل بالجوع.

٤- وتصوير عمل الفرح المحمود والمذموم في النفس

٥- وتصوير مدح النفس بالذبح.

٦- واستعارة العقر للمدح.

٧- وتشبيه حال إعراض نفس المؤمن عن الخطيئة - بحال فِرار العصفور حينَ يُقذف به.

٨- وإنطاق النفس على سبيل الاستعارة.

٩- وتصوير إصلاح النفس بالرَّم على سبيل الاستعارة .

١٠- وتصوير مخافة النفس من الشهوة.

١١- وتشبيه حال النفس وهي تأمر بالشهوات - بحال العدو الذي يرمي بالسهام.

١٢- وتشبيه الخشية بسوط تُعاقب به النفس.

١٣- وتشبيه المسلم بالمرآة التي تُقوّم صاحبها.

١٤- وتشبيه فيه توبيخ للنفس.

١٥- وتشبيه النفس بالمطية.

١٦- وتصوير الدنيا بامرأة كثيرة التطلع.

** ما جاء من صور بيانية في وصف النفس:

١- تشبيه النفس بنفوس الدواب:

قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ (ت:١١٣هـ)[١].: «النَّفْسُ كَنُفُوسِ الدَّوَابِّ، وَالْإِيمَانُ قَائِدٌ، وَالْعَمَلُ سَائِقٌ، وَالنَّفْسُ حَرُونٌ، فَإِنْ فَتَرَ قَائِدُهَا حَرَنَتْ عَلَى سَائِقِهَا، وَإِنْ فَتَرَ سَائِقُهَا ضَلَّتْ عَلَى الطَّرِيقِ»[٢].

جاء التشبيه كاشِفًا عن المخبوءات مُصوِّرًا للمعقولات، فأخرج النفس أمام السامع ماثلة، وأعادها إلى طريق العلم الأول طريق الحواس والطباع، «ومعلومٌ أن العلم الأوّل أتى النفسَ أوّلًا من طريق الحواسّ والطباع، ثم من جهة النظر والرَّويَّة، فهو إذَنْ أمسُّ بها رَحِمًا، وأقوى لديها ذِمَمًا، وأقدم لها صُحْبة، وآكدُ عندها حُرمة»[٣].

والتشبيهاتُ هنا متعددةٌ، فالنفس كنفوس الدواب (تشبيه مرسل)، والإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حرون. ثم فسر وهب بن منبه بعد هذا التميهد أحوال النفس والإيمان والعمل مع بعضهم البعض، ومزَج بين المعاني، وأجْرَى فيها أحداثًا وأفعالًا.

وقوله: «النَّفْسُ كَنُفُوسِ الدَّوَابِّ»: أي: من جهة الانقياد وصعوبة الترويض والوصف، أبرز أنها ليست كأيِّ دابَّة، بل هي دابة حرون.

---

(١) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٢) مجموعة أجزاء حديثية - أدب النفوس / أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي / ص٢٦٤ ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان/ ن: دار الخراز، السعودية، دار ابن حزم، بيروت - لبنان/ ط:١.

(٣) أسرار البلاغة ص ١٢٢.

وقوله: «وَالْإِيمَانُ قَائِدٌ»:؛ لأنه هو الباعثُ والحاثُّ على العمل والمحرِّك لأعضاء الجسد، إذا وقَر في القلب كان كالقائد الذي يأمر، فيُطاع.

قوله: «وَالْعَمَلُ سَائِقٌ»: شَبَّهَ فيه العملَ بالسائق؛ لأنه آخِذٌ بها إلى طريق النجاة إلى رب البريات، المُسرِع بالنفس وصاحبها إلى الجنة، ولعل الصورة مقتبسة من حديث النبي ﷺ: «**وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نسبه**»[1].

وقوله: «**فَإِنْ فَتَرَ قَائِدُهَا حَرَنَتْ عَلَى سَائِقِهَا، وَإِنْ فَتَرَ سَائِقُهَا ضَلَّتْ عَلَى الطَّرِيقِ**»: استعارة تمثلية قرينتها حالية تُفهم من السياق. **وقوله: «فتر قائدها»** أي: إذا نقُص الإيمان أو عُدم. وقوله: «**وحرنت**»: أي: توقفت ولم تتحرك، فالعمل لا يكفي؛ لأنه سائق يحتاج إلى آمر يأمره، ويدفعه، ويرشده.

قوله: «**وَإِنْ فَتَرَ سَائِقُهَا ضَلَّتْ عَلَى الطَّرِيقِ**»: أي: عُدِم العمل، فأصبحت النفس عالمة غير عاملة، فهي - لا محالة - شاردة عن الطريق ضالة، ولا يُغني عنها علمُها من الله شيئًا، فالإيمان اعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، والاستعارة عادت بالنفس إلى الفطرة، وجاءتها من أقرب طريق، وهو طريق الحواسِّ، بعيدًا عن المذاهب الكلامية، والتشدق والتفلسف.

٢- تشبيه النفس بالبازي، والرضيع، والدابة الحرون:

جاء في كتاب رياضة النفس للحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠هـ)[2].: «**قال له قائل: صِف لنا من رِيَاضة النّفس شيئًا: قال: إنَّ النَّفْس إِذَا اعتَادَت اللّذة والشهْوَة، والعَمَل**

(١) صحيح ابن حبان (١/ ٢٨٥).

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم / لسان الميزان للعسقلاني/ ج٧/ ص٣٨٦ / ت أبي غدة / ن: دار البشائر الإسلامية/ ط: ١.

بالهَوَى، أَقْبل على فَطْمها عن العادة في كل شيء، فكُلما اشتَدَ عَلَيها فَطْم شيء، فَأَقبل ذَلَك الشيء حَتى تَفْطِمَها عنه، حَتى يَصِير قَلْبُك حُرًا، يَألف مَعَ الله - عَز وَجَل - بِبره ولُطْفِه، فَقَد رَأَيتَ البَازِي كَيفَ يُلقى فِي البَيت، وتُخَاط عَيْناه، حَتى يَنقَطِع عَن الطَيرَان، ويُربَى باللحْم، ويُرفَق به، حَتَى يَأْنس بصَاحِبه، ويَأْلَفه إلْفًا، إذَا دَعَاه فَسَمِعَ صَوتَه أَجَابَه. فَكَذلك النَّفس؛ إنّما تُجيبُ رَبَها - عَز وَجَلّ - فِيمَا أَمَرها بَعد فِطَامِها عَن عَادَات الأُمُور التِي اشتَهَت، وَلَذت، فإذا فَطَمَها أَلْزَمها الدعاء، وَثَنَاء الرَّب - عَز وَجَل - ومَدائِحَه ونَجْواه، حَتَى تَأْنَس بِذَلك، وَتَأْلَف الذِّكْر، حَتَى يَنكَشِف الغِطَاء بَعْدَ ذَلِك، فَيَألف رَبَه عَزَ وَجَل. وكذلك تَجِد الصَّبي قَدْ أَلِفَ ثَدي أمِّه، حَتَى لَا يَكَاد يَصْبر عنه سَاعةً، فإذَا فَطَمَتْه اشتَدَ عَلَى الصَّبي، وبَكَى وقَلِق، فإذَا دَام الفَطْم نَسِيه، وأَقبَل عَلَى الطّعَام والشَّرَاب، فكُلما وَجَدَ حَلَاوة الأَطْعِمَة والأَشْرِبَة هَجَرَ الثَّدي، وعَافَ ذِكرَ اللَّبن. وَكَذلك تَجِد الدَّابة تُؤْخَذ مِن الدَّواب السَائِمة؛ لتُؤدب وتُعوَّد الرُكوب، فَفِي الابتَدَاء تَنفر عَن اللجَام والسَّرج، فتُشْكَل حتى تُسْرج، وتُلْجَم حَتَى تَعْتَاد، وتُعَلَّم السَّير حَتَى تَصِير أُذنها إلى العَنَان، وقَلْبها إلى إشَارَات الرَاكِب بذلك العَنَان، فإذا بَلَغ بِهَا القَنْطرة وثَبت وَثْبَة لا تَدَعها تَجُور، فتعتَاد ذَلك، فَلَيس فِي كُل مَكَان يُوجَد قَنْطَرة، فيُعوِدها الوَثْب وسَيرها في جَلبَة الصَنَّاعيين، مثل الحَدَّادِين والنَّجَّارين، فإذَا نَفَرَت مِن تِلْك الأَصْوَات أو تَرَكت سَيْرها، أَدَبَها؛ حتى لا تَنْفر، ولا تَتَحَير، حَتَى تَصير أَدِيبة سُيُورة. فَكَذَلِك الآدَمِي، يُؤَدَب كَمَا تُؤَدَب هَذِه الطُّيور والدَّواب، بالفَطْم عن عَادَاتِها، وَكُل شَيء تَجِد النَّفس لذَته فِي وَقْت تَفرح بِذَلِك الشَّيء، فَإِذَا فَرِحَت بِهِ فَقَد تَدَنس بِذَلِك الفَرح، فيَصِير غِشاءً عليه، حِجابًا له من ذلك الفَرح؛ فكان أَهْل الصِدق في هذه الطريق يَلْزمُون هذا البَاب الذي وَصَفْتُ»[1].

(١) رياضة النفس للحكيم الترمذي/ ص٧٥/ ٧٦/ / قدم له وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين/ ن: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/ ط: ٢.

ذكر الترمذي ثلاث صور بيانية، كل واحدة منها تشبيه تمثيلي مستقل، يجمعهم مع النفس صفات مشتركة وأحوال متشابهة، وغرض واحد، وهو كيفية الترويض والتربية والمنع.

وقوله: «**فقد رأيت البازي كيف يلقى ...**»: شَبَّهَ النفس حال تزكيتها وضبط أمرها - بالبازي الذي يروض ويربي. ووجه الشبه: الترويض شيئًا فشيئًا بوسائل متعددة تمنع من ممارسات العادات، والإقبال على النافع غير المعتاد. وقد أكثر هنا مِن العبارات التفصيلية؛ لتأكيد ضرورة التدرُّج مع النفس حتى تألف الذكر، فكل عبارة في هذه الصورة هي درجٌ من درجات السلم، وأولُ السلمِ: «**يلقى في البيت (البازي)**»، والدرجُ الأخيرُ: «**حتى يألف**»، وكلُّ درج يُشابِهه شيء في النفس، وهذا تفصيل:

وقوله: «**فقد رأيت البازي كيف يلقى في البيت**»: يُشابِهُه في النفس: «اختيار البيئة».

وقوله: «**وتخاط عيناه**»: يشابهه في النفس: «البعد عن عادات الأمور».

وقوله: «**حتى ينقطع عن الطيران**»: يشابهه في النفس: «الخلوة والعزلة وعدم المخالطة».

وقوله: «**ويربى باللحم**»: يشابهه في النفس: «التزكية بالذكر والدعاء».

وحصولُ الأُنْس شيءٌ يطول ويحتاج إلى صبر قال سفيان - رحمه الله -:[ت:١٦١هـ][١].: «**مَا عَالَجْتُ شَيْئًا قَطُّ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي، مَرَّةً عَلَيَّ، وَمَرَّةً لِي**»[٢].

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.
(٢) حلية الأولياء / ج٧/ ص٥.



قال عبد القاهر: «إنّ التشبيه كلَّمَا كان أوغل في كونه عقليًّا محضًا: كانت الحاجة إلى الجملة أكثر»، وقال: «وهي وإن كان قد دخل بعضُها في بَعْض حتى كأنها جملةٌ واحدةٌ؛ فإن ذلك لا يمنعُ من أن تكون صُوَرُ الجمل معنا حاصلةً تُشير إليها واحدةً واحدةً، ثم إنّ الشَّبَه مُنْتَزعٌ من مجموعها، من غير أن يمكن فَصْلُ بعضها عن بعض، وإفرادُ شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أيِّ موضع كان، أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه، ولا ينبغي أن تعدَّ الجُمل في هذا النحو بعَدِّ التشبيهات التي يُضَمّ بعضها إلى بعض، والأغْراض الكثيرة التي كل واحدٍ منها منفردٌ بنفسه، بل بعدِّ جُمَلٍ تُنسَق ثانيةٌ منها على أوّلِهِ، وثالثةٌ على ثانية، وهكذا»[1].

- صورة الصبي:

قال الحكيم الترمذي (ت:٣٢٠هـ)[2].: «**وكذلك تَجِد الصَّبي قد أَلِف ثَدي أمِه؛ حتى لا يكاد يصْبِر عنه سَاعةً، فإذا فَطَمَته اشتدَّ على الصَّبي، وبَكَى، وقَلِق، فإذا دام الفَطْم نَسيه، وأقبَل على الطّعَام والشَّراب، فكلما وجد حَلاوة الأطْعِمَة والأشْرِبَة هَجَرَ الثدي، وعَافَ ذِكرَ اللبن**».

فقد شبَّه حال المؤمن بعد مفارقته المعصية وإدراكه قبحها فكرهها - بحال الصبي الذي عرف الأطعمة والأشربة، فعاف ما كان يألف من لبنَ أمه. فالأطعمة والأشربة مختلفة المذاق والنكهة والرائحة. أمّا لبن الأم فهو على طعم واحد لا سكر فيه ولا نكهة، فيعافه الطفل بعد معرفة الأطعمة والأشربة، كذلك المؤمن أو

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٨/ ١٠٩.

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم / لسان الميزان للعسقلاني ج٧/ ص٣٨٦.

أشد؛ يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار.

- صورة الدابة:

قوله: **«وكذلك تجد الدابة تُؤخذ من الدواب السائمة؛ لتُؤدب وتُعوّد الركوب، ففي الابتداء تَنفر عن اللجام والسرج»**: يشابهه في النفس النفور من الطاعات والفرائض، قال - تعالى -: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (البقرة:٤٥).

فقد شبه هيئة النفس وهي تعوّد الخير بالزجر والصبر - بهيئة الدابة التي تعوّد السير والركوب بالسرج واللجم. ووراء التشبيه: بيانٌ لخطر النفس، وأنها إذا تُركت دون رياضة أرْدَت صاحبها، وضرَّت غيرها، وهلكت، وأهلكت، فإذا رُوِّضت على الطاعات والإيمان والتحكم والضبط صارت مأنوسة منقادة سهلة القيادة والإذعان.

قوله: **«فتُشكل حتى تُسرج، وتُلجم حتى تَعتاد»**: أي: تقيد بالشِكال في قوائمها، وهو تقييد إحدى اليدين مع إحدى الرجلين في قيد، وهذا المقطع يُشبه مقطع خياطة عين البازي.

٣- تشبيه النفس بشجرة تثمر ثمرًا خبيثًا:

قال الحكيم الترمذي (ت: ٣٢٠هـ)[1].: **«كلما أعطيت النفس منيتها قويت، وصارت كالشّجرة تُثمر الحَنظل والدِّفْلَى والمُر والصَبر والسُموم القَاتلة، فإن أرَدت ألا تَنمو، فالتدبير فيما عَقِل العبد، وفَهمَه، أن تَحبسَ عَنها المَاء والسِّرْقِين والتُراب الذي يُلقى في أصْلها، حتى تَيْبس، فَتصِير جذعًا لا يُثمر ولا يرجع عليك**

---

(١) محمد بن علي بن الحسن بن بشر الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم / لسان الميزان للعسقلاني/ ج٧/ ص٣٨٦.

بالضَّرر؛ ثم لا يزال جذعًا يَعْترض بين عينيك، يَشغلك عَمَّا سواه من الأشْجَار، فتُشعل فيه نارًا، حتى يَذْهب شَخصه من بين عينيك، فإذا هو قد ذهب أثره، وذهب ذِكْره. وكذلك النفس: في التَّدبير أن تحبس عن النفس لذاتها وشَهواتها، حتى تذهب ثَمَراتها من هذه السُموم القَاتلَة، التي تميت قلبك في الدنيا، فتصير أعمى من العميان في الدنيا، بَصيرًا في دين الله جل وعلا، فتَقبل على مَزبلة، وهي الدنيا، وإنما هي قَنطرة، تَداولتك أيْدي أسود وأبيض، وهو الليل والنهار، حتى تؤديك إلى الخالق البارئ، المثيب المعاقب، فتَعظم ما صغَّر الله، وتكرم من أهَانَه الله، وتُدنى من أقصاه الله، وتتعلق بمن لا بد أن تفارقه، وتَعمر ما أذن في خرابه؛ فإذا ذهب ثمراتها حبست عنها الفكرة فيها، والحديث عنها، والتذكر لها، حتى تَيبَس، ثم لا تزال تمنية شهواتها قائمة بينك وبين ربك، تفرح بالعطاء، وترضى بما تعطى به، وتَروم ما لم تُعط، وترى نفسها في الأشياء؛ فهي تُحجبك، وتُشغلك»[1].

فقد شبَّه تدبير أمر النفس الأمارة بالسوء بحبس الشهوات عنها واللذاذات المُضِرة، فتكف عن أمر السوء - بتدبير أمر الشجرة التي تثمر الحنظل والدِفلي والمُر بحبس الماء والسرقين والتراب عنها حتى تيبس، والتشبيه تمثيلي.

والحنظل والدفلي والمر والصبر والسموم القاتلة: يقابله عند النفس عواقب الشهوات والملذات.

وقوله: «**الماء والسرقين والتراب**» يشابهه في الصورة: «**اللذات والشهوات**»، وكلٌ منهما سبب في وجود النتيجة أو الثمرة.

---

(١) أدب النفس للحكيم الترمذي ص٦٠/ ٦١/ / ت: الدكتور أحمد عبد الرحيم السَّايح/ ن: الدار المصرية اللبنانية، مصر/ ط:١.

ومِمَّا يُلاحَظ في الصورة: اشتراكُ المشبه والمشبه به في عدة أوصاف. ومرجعُ ذلك إلى الترمذي الذي أطال النظر، وأعمل الفكر؛ فاستخرج ما يمكن استخراجه بدون أن يتكلف، أو يلوي عنق المشبه به حتى يتطابق مع صورة المشبه، ويتوافق مع خياله.

٤- تشبيه النفس بالأسير:

قال المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)[١].: «مثل ذلك كأسِير من بلاد العدو استأسرته، وفرَّقت بينه وبين مَاله وأهْله ووَلَده وأَرْضه ووَطَنه، وقد كان جَاهدك قبل الأسر على أن يكُون هو الآسِر لك، حتى أتاك منْ أعَانك عليه، فشدّه لك كتافًا، وأمْكَنك منه، فلم يَزل بَعدما أمْكَنك منه يُجاذبك إلى الرجُوع إلى بلاده، وَيطْلُب منك غَفْلة؛ ليقْتُلَك، أو يَستأسِرك، فيَرجِع بك معه إلى مَنزله وَوَطَنِه. فلم تَزل تَضْربُه وتَقْهرُه حتى انقَادَ لك مِن الخَوْف، وسَارَع إلى خِدمَتك، وأنتَ مع ذلك مُتخوِّف أنْ يَجِد فُرصَة أو غِرة، فيرجِع، ويَتْركك، ويَرْفض ما في يديه مما استرعَيتَه من عَملك، أكنت له حَامدًا؟، أو في أَمْره مُتزينًا؟، فكذلك نفسك قد كانت حَرِيصة على الركُون من قَبل إلى الدنيا، وإيثَارها عَلَى الآخِرة، فكَانت جَاهِدة أن تستأسِرَك بهواها، فتكُون به لها عامِلًا، ولطَرِيق نَجَاتك إلى الآخرة تَارِكًا. فأبَى الله - عز وجل - إلا أن يُوفقك، ويُسددك، فقوَّى ضَعْفك، ونَوَّر قلبَك، وأعانك عليها حتى رَفَضَتْ كثيرًا مما تَهوى، وتَركَت كَثِيرًا مما تُحِب، وما انقادَت إلى خلف ذلك إلا بالكُره والجَبْر.

ثم وَهَبَ لك زَجْرها ومُعاتبتها، وقَوَّى عقلك على هواها وعِلْمَك على جَهْلِها،

(١) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.



ووفقك لدوام ترك إجابتها حتى أيسْت منك أن تنال محبتها، وانكَسَرت عما كُنت عَودتها، فأجابتْ مُسرِعةً على غير انقلاب من طَبْعِها، ولا تغيير من غَرِيزتها»(١).

والمحاسبي هنا لم يبعد عما قال الآجري والترمذي؛ فكل صورهم تدور في تفصيل التربية وكيفية الترويض، فشبه المحاسبي النفس المنقطعة عن الشهوات - بالأسير الذي فارق ماله وولده ووطنه، فكل منهما مُنِع عما يُحِبُّ، والتشبيه مركب.

- والمعين على النفس هو الله جل في علاه.

- وشبه إلحاح النفس مرة تلو مرة على الملذات - بالأسير الذي لم يزل يجاذب إلى الرجوع إلى بلده، ويطلب الغفلة؛ ليقتل آسِره.

- والتشبيه التمثيلي هنا أبرز الصراع الذي يعيشه المؤمن مع نفسه في صورة شد وجذب وكر وفر وجهاد وتربص ويقظة وعدم غفلة، والصورة أظهرت النفس في صورة عدو لا يريد إلا القتل والتنكيل، وأدخلت النفس في مسلخ المضروب الخادم المقهور المشدود الأكتاف الذي له وطن وولد.

- والغرض: بيان حال المشبه، وبيان صفاته وطباعه، وتقريبها إلى السامع حتى يُبْصر ما هو مخبوء من صراع في مطاوي صدره وحنايا قلبه.

- ويهدف التشبيه إلى التحذير والتهويل من أمر النفس، وإلى بث روح الاستعداد والترقب، وإلى شكر الله - تعالى -؛ فهو المسدد والموفق والمقوي.

---

(١) الرعاية لحقوق الله المحاسبي ص٣٥١ / ٣٥٢/ ت: عبدالقادر أحمد عطا/ دار الكتب العلمية بيروت/ ط:٤.

٥- تشبيه النفس بالمَلِك، وبالمملوك:

عن سلمة الأيهم قال: سمعت عاصمًا الجحدري يقول: كانت أم طلق تقول: النّفس مَلِك إن اتبعتَها، ومَمْلوك إن أتْعَبْتها»[١].

شبه النفس حال اتباعها بالملك الذي يسوق أتباعه إلى الحتوف، ووجه الشبه بين النفس والملك: هو التمكن والتحكم، وشبهها بالمملوك حال حرمانها وتجويعها والتحامل عليها، ووجه الشبه بين النفس والمملوك: هو الإذعان والانصياع والطاعة، فالمشبه واحد، والمشبه به متعدد، والتشبيه مشروط.

فإذا اتبع الإنسان نفسه وهواه صار ذليلًا عندها، وجعلها ملكًا، وأصبح عبدًا لها، وعلى العكس من ذلك؛ إذا أتعب المرء نفسه بالطاعة والانقياد لأمر الله صارت عنده مملوكةً وعبدًا يسمع ويطيع، ويُذعن لأمر مولاه، وصار هو سيدًا مالكًا لها متحكمًا فيها.

٦- تصوير النفس في صورة قائم بالصخر يريد الفتك بصاحبه، وبواضع سم:

قال المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)[٢].: «**فمن عَرِف نَفْسَه زَال عنه العَجَب، وعظّم شكر الرب عز وجل، واشْتَد حذره منها، والثِقة والطُمأنينة إلى المولى عز جل، والمَقْت لها، والحُب للمتفَضِل المُنعِم. أرأيت لو صَحِبك صاحِبان، فأراد أحدهما - وأنتَ نَائِم - أن يَرْضَخ رأسَك بصَخْرَة، فأيْقَظك الآخر، وقد أمسك يده على الصخرة - وهو رافعها -؛ ليرميك بها، فأراك ما همَّ به، وما أراد أن يَغتالَك به. أو**

(١) صفة الصفة/ ج٤/ ص٣٧.

(٢) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

لو صنع سُمًا في طَعامك؛ ليقتلك به، فأراك الآخر بالتّجْربة على بعض البهائم، ما أراد أن يقتلك به من السُّم، حتى عرفت أنك لو أكلتَ ما هَيأَ لك من الطعام كان في ذلك عطبُك، من قتله بذلك السُّم للبهيمة التى جرب عليها، ألم تكن تزداد له مَقْتًا وبغضًا؟، وللذي أنقذك من مَكِيدته حُبًا ومَودة وأنسًا ومِنَّةً؟، وللذي حال بينك وبين ذلك ثقةً وطمأنينةً؟؛ رجاء أن يُنقذك من أمثال ذلك، وخوفًا من الآخر أن يَغتالك بمثل ذلك. فإن ادعَى المريد لك بالسوء أنه هو الذي أَنْقذك منه هل كنت ناسيًا للذي أنْقَذك؟، ومضيفًا نجاتك إلى الذي أراد بك المكيدة بالسوء؟، كلَّا ما كنت فاعلًا أبدًا ذلك ما صَح لك عقلك، فكَمْ مِن بَلِيَّة قد أردتها بك نفسك، فعزم الله - عز وجل - لك على تركها، وأيقظك، وأزال عنك الغفلة، فعصمَك منها، وقد كان فيها العَطَب بالنار أعظم مِن المِيتة بالحَجر والسُّم»[١].

التشبيهُ تمثيلي: شَبَّهَ حالَ النفس تريدُ إيقاع صاحبها في الملذات المهلكات، فيُنجيه الله بحال رجلٍ قائمٍ بالصخرِ على رأس صاحبه يريدُ رضخ رأسه، فينقذه صاحب آخر.

ثم شَبَّهَ النفس وهي تكيد بصاحبها؛ لإيقاعه في الشهوات والهفوات بالذي يصنع الطعام، ويدس فيه سُمًّا؛ ليقتل، وغرضُ التشبيهِ: بيان بشاعة النفس، وخطرها، وبيان رحمة الله وحفظه، فيزداد العبد للنفس مقتًا وبغضًا، ويزدادُ لله الذي أنقذه حبًا وشكرًا، والتشبيه أظهر الخفي من المهاول والمستور من المخاطر.

وختم المحاسبي كلامَه بما يُوجِبُ للتشبيه غرابة، وهو تفضيل المشبه على

---

(١) الرعاية لحقوق الله المحاسبي ص ٣٥٣/ ٣٥٤.

المشبه به، فقال: «**فعزم الله - عز وجل - لك على تركها، وأيقظك، وأزال عنك الغفلة، فعصمك منها، وقد كان فيها العَطَب بالنار أعظم من المِيتة بالحَجر والسُّم**»، فمقتول النفس عطبه في النار أشد من عَطَب المقْتول بالحَجَر والسُّم.

٧- تصوير النفس شابة:

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ[ت:٣٢هـ].(١). قَالَ: «**لاَ يَزَالُ نَفْسُ أَحَدِكُمْ شَابَّةً فِي حُبِّ الشَّيْءِ وَلَوِ الْتَقَتْ تُرْقُوَتَاهُ مِنَ الْكِبَرِ، إِلَّا الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلْآخِرَةِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**»(٢).

قوله: «**لَا يَزَالُ نَفْسُ أَحَدِكُمْ شَابَّةً**»: تشبيه مؤكد حُذفت أداته، والتقدير: كالشابة، شبه النفس وهي حريصةٌ على الدنيا توَّاقَةٌ إلى مَلاذاتها بالشَّابَّة، ووجهُ الشَّبَهِ: قوةُ الحرص والتطلع، والغرضُ: بيانُ حالِ المشبهِ: «**النفس**»، وأنها لا تَشِيخُ إذا شَاخ البدنُ.

** صور بيانية في معالجة النفس:

١- كناياتٌ عن الزهد في المأكل والملبس:

إن من أشد المفاسد على النفس كثرةَ الأكل والنوم والضحك، وكان السلف (رضوان الله عليهم) يحتاطون مِن ذلك، فعَنِ الْحَسَنِ قَالَ[ت:١١٠هـ].(٣).: **وَاللَّهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا مَا طُوِيَ لِأَحَدِهِمْ ثَوْبٌ قَطُّ، وَلَا جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَلَا بَيْنَ**

(١) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.
(٢) كتاب الزهد لابن المبارك ص٨٧.
(٣) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

الْأَرْضِ شَيْئًا قَطُّ، وَلَا أَمَرَ فِي بَيْتِهِ بِصَنْعَةِ طَعَامٍ قَطُّ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَأْكُلُ فَمَا عَدَا أَنْ يُقَارِبَ شِبَعَهُ يُمْسِكُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: وَاللَّهِ لَأَنْ يُنْبِذَ طَعَامًا لِلْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ فَوْقَ شِبَعِهِ»[1].

- قوله: «**أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا**» كناية عن الصحابة رضي الله عنهم.

- وقوله: «**مَا طُوِيَ لِأَحَدِهِمْ ثَوْبٌ قَطُّ**»، «**وَلَا جَعَلَ بَيْنَهُمْ وَلَا بَيْنَ الْأَرْضِ شَيْئًا قَطُّ**»، «**وَلَا أَمَرَ فِي بَيْتِهِ بِصَنْعَةِ طَعَامٍ قَطُّ**»: كناية عن الزهد، ولكل جملة من هذه الجمل فائدة وسر بلاغي، فالجملةُ الأُولى أفادَتْ زهد القوم في الملبس، فلم يكن مع أحدهم إلا ثوب واحد، والجملة الثانية أفادت انتفاء بيوتهم من المتاع والفراش والأثاث، فلا يملكون ولو مفرشًا واحدًا يحول بينهم وبين الأرض، والجملةُ الثالثةُ أفادَتْ الزُّهْد في المأكل وعدم الالتفات إلى نوع الطعام وعدم التَّشَهِّي.

- وقوله: «**إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَأْكُلُ فَمَا عَدَا أَنْ يُقَارِبَ شِبَعَهُ يُمْسِكُ**»: كنايةٌ عن تملك النفس ورباطة الجأش والتغلب عليها.

- وقوله: «**وَاللَّهِ لَأَنْ يُنْبِذَ طَعَامًا لِلْكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ فَوْقَ شَبعه**»: كنايةٌ عن ضَرَرِ الشِّبَعِ وخطورته على النفس والعقل والقلب.

٢- محادثة البطن ومعالجة أمرها على سبيل الاستعارة:

قال أبو جعفر الْمُخَوَّلِيّ[2]: **دَعَانِي مَرَّةً بَعْضُ أَصْحَابِي إِلَى طَعَامٍ، فَكَلَّمَتُ**

---

(١) الزهد لأحمد ص٢١٢.

(٢) أبو جعفر المخولي/ يعرف بكنيته ولا يذكر له اسم ولم يعرف له تاريخ وفاة، ينظر تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي/ ج١٤/ ص٤١٢،/ ن: دار الكتب العلمية - بيروت/ ن: مصطفى عبد القادر عطا/ ط:١.=

بَطْنِي، فَقُلْتُ: كَفَّ عَنِّي كَلْبَكَ مَرَّتِي هَذِهِ، قَالَ: فَفَعَلَتْ، قَالَ: وَدَعَانِي آخَرُ مَرَّةً أُخْرَى، فَدَعَتْنِي نَفْسِي إِلَى إِتْيَانِهِ، فَقُلْتُ: اجْعَلِي هَذِهِ الْمَرَّةَ بِمَنْزِلَةِ الْمَرَّةِ الَّتِي مَضَتْ؛ هَلْ تَجِدِينَ مِنْ لَذَّةِ ذَلِكَ شَيْئًا لَوْ كُنْتِ فَعَلْتِ؟، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُعَلِّلُهَا حَتَّى هَدَأَتْ وَسَكَنَتْ. قَالَ: ثُمَّ دَعَانِي أَخٌ لِي أَيْضًا، فَقَالَتْ: هَذَا أَخُوكَ، ولَهُ عَلَيْكَ حَقَّانِ: حَقُّ الْأُخُوَّةِ، وَحَقُّ الإِجَابَةِ، ائْتِهِ فَهُوَ أَقْرَبُ لَكَ إِلَى اللَّهِ، وَأَدْوَمُ لِأُخُوَّتِهِ. فَقُلْتُ: وَيْحَكِ، دَعِي عَنْكِ التَّأَنِّيَ؛ لِلِاتِّصَالِ بِمَحَبَّتِكِ، فَوَاللَّهِ لَوْ قَدْ وَرَدَتِ الْقِيَامَةَ اغْتَبَطَتْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِقِلَّةِ الطُّعْمِ وَتَرْكِ الشَّهَوَاتِ. قَالَ: فَجَمَحَتْ - وَاللَّهِ - عَلَيَّ، وَأَبَتْ، وَقَالَتْ: إِنْ كَانَ هَذَا دَأْبَكَ فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَتَقْتِلُنِي، انْهَضْ إِلَى أَخِيكَ. قَالَ: فَنَهَضْتُ - وَاللَّهِ - وَكَأَنِّي أُجَرُّ عَلَى وَجْهِي، فَأَتَيْتُ الْقَوْمَ، وَقَدْ فَرَغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ. فَقَالَ صَاحِبُ الطَّعَامِ: اقْعُدْ رَحِمَكَ اللَّهُ، وَنَهَضَ؛ لِيَتَكَلَّفَ لِي، فَقُلْتُ: اقْعُدْ، وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ الْيَوْمَ هَاهُنَا شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ دَعَوْتُ بِخَيْرٍ، وَقُمْتُ. فَقُلْتُ لَهَا لَمَّا خَرَجْتُ: أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُهَيِّئْ لَكِ مَا أَرَدْتِ. قَالَ: فَقَالَتْ: أَجَلْ وَاللَّهِ، إِذَا جَلَسْتَ تُفكِّرُ، يَأْكُلُ الْقَوْمُ وَيَنْصَرِفُونَ. قُلْتُ: وَيْلَكِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ إِلَّا مُفَكِّرًا، خَائِفًا، حَذِرًا مِنْ أَعْدَائِهِ، مِنْكِ وَمِنْ أَعْدَائِكِ؟. مَا يَبْلُغُ الْعَدُوُّ الْكَلْبُ مَا تَبْلُغُ النَّفْسُ مِنْكَ يَا ابْنَ آدَمَ»[(١)].

الصورة الكلية للمحادثة: هي جعل البطن عاقلة، لها لسان تتحدث به، وأذن تسمع بها، فترد، وعقل تحتال به، وتكايد، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

- **قوله: «كَفَّ عَنِّي كَلْبَكَ مَرَّتِي هَذِهِ»:** استعار فيه الكلب لاشتياق البطن، أو لداعي

= وورواية ابن أبي الدنيا (المتوفي في القرن الثالث) عمن عاصروا المخولي أوجبت دخول المخولي في القرون الثلاث.

(١) الجوع لابن أبي الدنيا / ص١٥١.



البطن، على سبيل الاستعارة المكنية التي أفادت قوة الداعي حتى أنه كلب ينبح.

- والصورة البيانية هنا تكشف عما كشفت عنه الصورة السابقة (تشبيه النفس بالأسير) من شدة الصراع بين المؤمن ونفسه وصعوبة الترويض، وركوب الصعاب؛ لتصبير النفس على الحق وإلزامها به؛ لذلك قال لها: «**اجْعَلِي هَذِهِ الْمَرَّةَ بِمَنْزِلَةِ الْمَرَّةِ الَّتِي مَضَتْ؛ هَلْ تَجِدِينَ مِنْ لَذَّةِ ذَلِكَ شَيْئًا لَوْ كُنْتِ فَعَلْتِ؟، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُعَلِّلُهَا حَتَّى هَدَأَتْ وَسَكَنَتْ**».

- **وقوله: «فَقَالَتْ: هَذَا أَخُوكَ، ولَهُ عَلَيْكَ حَقَّانِ: حَقُّ الْأُخُوَّةِ، وَحَقُّ الْإِجَابَةِ، ائْتِهِ فَهُوَ أَقْرَبُ لَكَ إِلَى اللَّهِ وَأَدْوَمُ لِأُخُوَّتِهِ»**: هنا نطقت البطن، ووعظت، وطالبته بالحقوق.

- **وقوله: «قَالَ: فَجَمَحَتْ وَاللَّهِ عَلَيَّ وَأَبَتْ»**: صوَّر فيه البطن بالحصان الذي يجمح ويعتو على أمر صاحبه، ويغلب صاحبه، وذكر لازم الاستعارة «**جمح**» على سبيل الاستعارة المكنية.

- وقوله: «**وَقَالَتْ: إِنْ كَانَ هَذَا دَأْبُكَ فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَتَقْتِلُنِي، انْهَضْ إِلَى أَخِيكَ**»: هنا انتهى الوعظ، وبدأ الزجر والأمر، والكلمات تعبر عن ارتفاع صوتها، وانتفاخ أوداجها، حتى كأننا بصدد الكلام عن حقيقة، وليست صورة بيانية.

- **وقوله: «فَنَهَضْتُ - وَاللَّهِ - وَكَأَنِّي أُجَرُّ عَلَى وَجْهِي فَأَتَيْتُ الْقَوْمَ»: فيه تشبيه** يُبين شدة الصراع والمجاهدة.

- وقد بثَّ هذا الحديث الذي جرى في مكنون نفسه على الملأ شجاعة ومقدرة يمتاز بها أهل الرقائق الذين عرفوا أنفسهم، فلم يضرهم ما قال الناس عنهم، فأخرج لنا الصراع الذي دار في خلده ولم يطلع عليه إلا الله، أخرجه في

صورة تزخر بالكلمات والشد والجذب والجموح والأمر والوعظ، والمكايدة والاحتيال، وكذلك التفشي الذي في قوله: «**أَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَكَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُهَيِّئْ لَكِ مَا أَرَدْتِ**».

محادثة أخرى:

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ أَبِي حَنِيفَةَ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى دَاوُدَ الطَّائِيِّ[ت:١٦٢هـ](١). وعَلَيْهِ ثِيَابٌ شَقَقٌ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**اشْتَهَيْتِ جَوزًا فَأَطْعَمْتُكِ، ثُمَّ اشْتَهَيْتِ جَوزًا وَتَمْرًا، آلَيْتُ أَلَّا تَأْكُلِيهِ أَبَدًا**»، قَالَ: **فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَدَخَلْتُ، فَإِذَا هُوَ وَحْدَهُ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ**»(٢).

وهذه الصورة استعارة مكنية أيضًا؛ جعل النفس عاقلة يُخاطبها، ويَتوعَّدُها، ويُقْسِم عليها.

٣- تصوير النفس في صورة شخص يُعاتب ويذل بالجوع:

قال المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)(٣).: «**فكسَرها بإدمان الصيام، فانكَسَرت قُوى طَبْعها (التي نالتها) من الاغْتِذَاء بالطَعام الذي كانت تَأْلفه بالدَّسم، فانكَسَرت عن نَشاطها، وهي مع ذلك مُولية عنه. فلما رأى أن ذلك لم يُبالغ في تأْديبها: أَمَسَّها الجُوع. فلما أَلَحَ عَلَيها الجُوع ذَلت وخَشَعَت، فأَمكَنت مِن المُعاتَبة، فحَمَل عليها، فلم تَقْبَل، فذكّرها عَذَابَ الله، وسُوء المَصِير لِمَن أَعْرَض عَنْه، وتَعَرَّض لمَقْتِه. فلانتْ لَهُ قَلِيلًا، وسَوّفته، وَوَعَدته التَّرك لِذلك عَن قَلِيل؛ لِتَقْضي بَعْضَ حَوائجَها،**

(١) داود الطائي أبو سليمان بن نصير / سير أعلام النبلاء / ج٧/ ٤٢٢/ ط:الرسالة

(٢) الجوع لابن أبي الدنيا ص١٧٩.

(٣) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.



وتداري بَعَض من نُحِبه، فحَمَل عليها بالوَعِيد كَمَا يَحمِل البَطَل على قَرْنه، وأَلح بالزجر والتذكِير، وعظّم عندها الرب عز وجل، وكرَّر عليها شِدة نِقْمَته وعظيم عُقُوبته»[1].

فقد صوّر النفس في صورة شخص، وحذف المشبه، وأثبت لها عدة أوصاف على سبيل الاستعارة المكنية، فقال: «**وهي مع ذلك مولية عنه**»، و: «**فلما أَلَحَ عَلَيها الجُوع ذَلت وخَشَعَت**»، و: «**فحَمَل عليها فلم تَقْبَل**»، و: «**فذكّرها عَذَابَ الله، فلَانتْ لَهُ قَلِيلًا وسَوّفته**»، و: «**لِتَقْضي بَعْض حَوَائجَها**»، و: «**فحَمَل عليها بالوَعِيد كَمَا يَحمِل البَطَل على قَرْنه**». فقد أفادت هذه الأوصاف أن النفس عنيدة مخادعة مماطلة، فجهادها يحتاج إلى رباطة جأش وعزيمة قوية ومثابرة .

- وقوله: «**فانكَسرت قُوى طبعها**»: كناية عن الخضوع والتذلل.

- وقوله: «**وألح بالزجر والتذكير، وعظم عندها الرب عز وجل، وكرر عليها شدة نقمته وعظيم عقوبته**»: فيه نوع من أنواع العلاج والتأديب. والصورة البيانية أبرزت المعقول، وأوضحت الخفي من أمر النفس، وأخرجتها شاخصة أمام الأعين تُزجر، وتُذكر، ويُلح عليها.

٤- تصوير عمل الفرح المحمود والمذموم في النفس:

قال الحكيم الترمذي (ت:٣٢٠هـ)[2].: «**والأكْياس بَحثوا عن أصل هذه الأمور، ووجَدُوه على ما ذكرنا، فخَلَصُوا إلى الرِّياضة، فقالوا: إنا لَمَّا وَجَدنا**

(١) التوبة للمحاسبي / ص٢٧/ تحقيق عبدالقادر أحمد عطا / دار الفضيلة ط ١.

(٢) محمد بن علي الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم / لسان الميزان للعسقلاني ت أبي غدة / ج٧/ ص٣٨٦.

النَّفس تَأْشَر وتَبْطر، وتَسْتَمر عَلَى الفَرَح، حَتَى تَصِير بحَال مِن امتِلَائِها بالفَرَح بالأَشْياء كَالسَكْرَان الذي لا يَفِيق مِن سُكْرِه، فكُل شَيء نَالتْ مِن الدُنيَا مِن حَالٍ، أَو عَرضٍ، أَو حَال مطلق لَها، أَو غير مطلق: فَرحَت، فذَلك الفرَح سُمٌ يَجْري فِي العُرُوق حَتَى يَشْتَمل عَلَى الجَسَد، يَمْتَلِئ القَلْب مِن حَلَاوَة ذَلِك الفَرَح، وَيصِير أَشِرًا بَطِرًا، لَا يَذْكُر مَوتًا ولا قِيَامَة ولا حِسَابًا، ولَا شَيئًا مِن أَهْوَال القِيامَة، فَذَلِك فَرَح يُمِيت القَلْب، وتَسْتَمِر النَّفس عَلَيه وتَطِيب، وتَقْوَى الشَّهْوَة وتَحْتَد، فَهَذا فَرَح مَذْمُوم، ذَمَّه الله - عَزَ وَجَل - فِي تَنزِيله، فقال: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ (الرعد:٢٦). وقال - تعالى -: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ (القصص:٧٦). ودل على الفَرَح المَحْمُود، ونَدَبَ إِليه، فَقَال - عَزَ وَجَل -: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ (يونس:٥٨). فإذا فَرح العَبْدُ بِمَا فَضله الله - عز وجل - عَلى سَائِر العبيد، فَمَنَّ عَلَيه بالمعْرِفة والعَقْل، فاستَنَار قَلْبه، وطَابت نَفْسه، فتعَاونَا عَلَى الشُكر والحَمْد، فاستَوجَب المَزِيد، فقد قال - عز وجل -: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ (إبراهيم:٧).: ففرحه بذلك يَجلُب عليه المزيد، فهذا الفرح تِريَاق، وذلك الفرح سُم، فمن شَرِب الترياق لم يَضُره السُم، وإِنَّما صَار سُمًا؛ لأنه زِينَة وفَرَح مِن جِنْس النّار وبَاب النّار، وهو حَظُ إبليس، فجاء به الهوى مع العَدو إِلى هذا الآدَمِي بهَذه الأَشْياء الدِنياوية؛ لِيبْتَليه؛ لِيفْرَح بِهَذا، أَوْ يَسْتَعْمِله معرضًا لاهيًا، أو يقبل على ربه - عز وجل - وداره التي مُهدَت له، فقد قال - عز وجل - في تنزيله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ (آل عمران:١٤)، ثم ذكر النساء، والبنين، والقَنَاطِير المُقَنطَرَة مِن الذَّهب وَالفِضَة، والخَيل المُسومة، والأنعام، والحرث. ثم قال - تعالى -: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ

﴿ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ (آل عمران: ١٤)»[١].

- **قوله: «فذلك الفرح سُمٌّ يَجري في العُروق حتى يَشْتَمل على الجَسد، يَمتلئ القَلْب من حَلاوة ذلك الفرح»**: شَبَّهَ فيه حالَ من يفرح فرحًا طاغيًا بغير وجه حق - بحال من يجري السم في جميع بدنه وعروقه، والتشبيه مركب، وغرضه: بيان حال المشبه وخطره ومآل صاحبه: فتصير النفس «**كالسَكران الذي لا يَفيق من سُكره**». ووجه الشبه: عدم الاتزان والرؤية، وحياة التيه والغفلة.

- **والصورة الأخرى**: صورة الفرح المحمود: (الفرح بفضل الله بالعقل والمعرفة):

وقوله: «فمن شَرِب الترياق لم يَضُره السُم»: شَبَّهَ فيه حالَ العبد الذي يفرح بفضل الله عليه من المعرفة وحسن الفعل وطيب النفس وشكر النعمة - بحال من شرب الترياق، وهو الدواء الذي يدفع السم، ووجه الشبه: النفع في كل ودفع الضرر.

أراد: من كان مؤمنًا بالله معتقدًا بما عند الله لم يضره أن يفرح بشيء من الدنيا، أو أن ينال شيئًا منها؛ فقد كان من دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١). أما الفرح بالدنيا بلا إيمان بالآخرة، أو عملٍ للآخرة: فهذا هو الهلاك المحض.

٥- تصوير مدح النفس بالذبح:

حَدَّثَ عُبَيْدُ اللَّهِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِي، عَنْ عُمَرَ ﷺ [ت:٢٣هـ][٢]. قَالَ: «**الْمَدْحُ الذَّبْحُ**»[٣].

---

(١) رياضة النفس للحكيم الترمذي ص٤٢/ ٤٣

(٢) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٣) الزهد لأحمد ص٩٧.

شبه المدح بالذبح، والصورة البيانية طوت كثيرًا من المعاني، والتشبيه بليغ؛ فقد حُذف وجه الشبه؛ ليذهب العقل فيه كل مذهب، فربما كان وجه الشبه الهلاك في كل، أو أن غايتهما واحدة، أو غير ذلك. فالمدح يدنس النفس ويخرجها من الإخلاص إلى العجب، والعُجب أسرع في القلب من المعصية؛ لأن العجب يحبط العمل.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: «**عَلَى الْقَلْبِ ثَلَاثَةُ أَغْطِيَةٍ: الْفَرَحُ وَالْحَزَنُ وَالسُّرُورُ، فَإِذَا فَرِحْتَ بِالْمَوْجُودِ فَأَنْتَ حَرِيصٌ، وَالْحَرِيصُ مَحْرُومٌ، وَإِذَا حَزِنْتَ عَلَى الْمَفْقُودِ فَأَنْتَ سَاخِطٌ، وَالسَّاخِطُ مُعَذَّبٌ، وَإِذَا سُرِرْتَ بِالْمَدْحِ فَأَنْتَ مُعْجَبٌ، وَالْعُجْبُ يُحْبِطُ الْعَمَلَ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ - تَعَالَى -: {لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**[١]».

شبه الفرح والحزن والسرور بالأغطية، ووجه الشبه: الحجب والمنع، فهذه الثلاثة تحجب القلب عن رؤية الحق، وتحول بين القلب وبين الحق والصدق والإنصاف والعدل، كما تحجب الأغطية رؤية ما تحتها ومشاهدته.

٦- استعارة العقر للمدح:

حَدَّثَ أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ [ت:٢٣هـ][٢].: «**عَقَرْتَ الرَّجُلَ عَقَرَكَ اللَّهُ، تُثْنِي عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ فِي دِينِهِ؟**»[٣].

قول عمر ﷺ للمادح: «**عَقَرْتَ الرَّجُلَ**»: استعار فيه العقر للثناء، واشتق من

(١) حلية الأولياء ج٨/ ص٣٤.

(٢) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٣) الأدب لابن أبي شيبة ص١٤٣/ ت: د. محمد رضا القهوجي/ ن: دار البشائر الإسلامية - لبنان/ ط: ١.

العقر عقرت على سبيل الاستعارة التبعية، والجامع: الهلاك والخطر في كلٍ، فالثناء على دين الرجل في وجهه عقر.

أما قول عمر ﷺ: «**عقرك الله**»: فهو تأكيد على الصورة البيانية؛ حيث إن الجزاء من جنس العمل، فلما صار المدح والثناء عقرًا، وتُنوسي التشبيه: جاء الدعاء؛ ليؤكد أن العقوبة بالمِثْل.

والمدح مفسدة للعبد ولو كان صحابيًا، والصورة مُستقاة من حديث النبي ﷺ: قال أبو موسى الأشعري ﷺ: سَمِعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَةِ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «**لَقَدْ أَهْلَكْتَ أَوْ قَطَعْتَ ظَهْرَ الرَّجُلِ**»[(١)].؛ لذلك لا غرابة في قول النبي ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا في وجوههم التراب**»[(٢)].؛ لأن المادح جاءك بالذبح والعقر والقطع.

وقد عَمِل المقداد ﷺ بظاهر ذلك الحديث، فحثا في وجهه التراب، ولعل هذا الرجل كان ممن اتخذ المدح عادة وحرفة، فصدق عليه: مدَّاح، وإلا فلا يصدق ذلك على من مدح مرة، أو مرتين، أو شيئا، أو شيئين. وقد بيَّن الصحابي بفعله مراد النبي ﷺ من هذا الحديث، فحمله على ظاهره، فعاقب المداحَ برمي التراب في وجهه، وهو أقعد بالحال، وأعلم بالمقال. وقد تأوله غير ذلك الصحابي تأويلات؛ لأنَّه رأى أن ظاهره جفاء، والنبي ﷺ لا يأمر بالجفاء. فقيل: إن معناه: خيبوهم، ولا تعطوهم شيئًا؛ لأنَّ من أُعطي التراب لم يعط شيئًا[(٣)].

---

(١) الأدب لابن أبي شيبة ص١٤٧.

(٢) صحيح الأدب المفرد/ للإمام البخاري / ص١٣٧ / ت: محمد ناصر الدين الألباني/ ن: دار الصديق للنشر والتوزيع / ط:٤.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم/ لأبي العباس القرطبي/ ج٦، ص٦٢٨-٦٢٩ / ت: محيي الدين ديب ميستو/ ن: دار ابن كثير، دمشق - بيروت/ ط:١.

٧- تشبيه حال إعراض نفس المؤمن عن الخطيئة - بحال فرار العصفور حين يقذف به:

أَخْبَرَ رِشْدِينُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ: أَنَّهُ بَلَغَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ (ت:٦٥هـ)(١). أَنَّهُ قَالَ: «**لَنَفْسُ الْمُؤْمِنِ أَشَدُّ ارْتِكَاضًا مِنَ الْخَطِيئَةِ مِنَ الْعُصْفُورِ حِينَ يُقْذَفُ بِهِ**»(٢).

فقد صوَّر الخطيئة في صورة سبع تَركُض منه نفس المؤمن على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقال أيضًا في قوله: «**أَشَدُّ ارْتِكَاضًا مِنَ الْخَطِيئَةِ مِنَ الْعُصْفُورِ حِينَ يُقْذَفُ بِهِ**»: إنه تشبيه يفضل فيه المشبه على المشبه به(٣). كقولهم: أشجع من الأسد، وأمضى من السيف(٤). فهناك شيء مشترك بين طرفي التشبيه، يزيد فيه أحد الطرفين على الآخر.

- **وقوله: «مِنَ الْعُصْفُورِ حِينَ يُقْذَفُ بِهِ»**: هذه الصورة قائمة على التشبيه التمثيلي المركب؛ حيث شَبَّهَ حال إعراض نفس المؤمن وبعدها عن الوقوع في

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٧٣.

(٢) الزهد لابن المبارك ص ٢٤.

(٣) « وأشار الطيبى إلى أن من أدوات التشبيه أفعل التفضيل، مثل: زيد أفضل من عمرو، وفيه بعد وإن كان يشهد له ما سيأتى من كلام ابن الشجرى». عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح/ بهاء الدين السبكي ج٢/ ص٧٤/ ت: الدكتور عبد الحميد هنداوي/ ن: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان/ ط: ١.

(٤) يراجع المسكوت عنه في التراث البلاغي لمحمد محمد أبو موسى / ص٧٤ / ن:مكتبة وهبة / ط:١.



الخطيئة - بحال فرار العصفور حين يقذف به، وذلك في شدة الفرار والفزع مِمَّا يُخيف ويُهلك.

- أراد ابن عمرو ﷺ بهذا البيان إبراز ضعف النفس المؤمنة وتوحش الخطيئة، فالمؤمن يفر فرار الضعيف (العصفور) الذي يخاف أن يستشرف الفتن، أو يطالع المعاصي، ويعلم أنها أهلكت كثيرًا من القرون قبله، ومثل هذه المخاطر لا يناسبها إلا الفرار وإظهار الضعف، لعل الله يرحم.

٨- إنطاق النفس على سبيل الاستعارة:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ (ت:٩٢هـ)[١].: «**مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ، آكُلُ ثِمَارَهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأُعَانِقُ أَبْكَارَهَا، ثُمَّ مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ، آكُلُ مِنْ زَقُّومِهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ صَدِيدِهَا، وَأُعَالِجُ سَلَاسِلَهَا وَأَغْلَالَهَا؛ فَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَيْ نَفْسِي، أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدِينَ؟، قَالَتْ: أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا؛ فَأَعْمَلَ صَالِحًا قَالَ: قُلْتُ: فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَةِ فَاعْمَلِي**»[٢].

وقوله: «**قَالَتْ: أُرِيدُ أَنْ أُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا؛ فَأَعْمَلَ صَالِحًا، قَالَ: قُلْتُ: فَأَنْتِ فِي الْأُمْنِيَةِ فَاعْمَلِي**»: فيه مخاطبة النفس ورد النفس استعارة مكنية؛ حيث أنزلها منزلة المخاطَب والمخاطِب.

وقوله: «**مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الْجَنَّةِ، آكُلُ ثِمَارَهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا، وَأُعَانِقُ أَبْكَارَهَا**»: فيه أن معايشة المستقبل نوعٌ من أنواع المعالجة عند أهل الرقائق،

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمي / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٥/ ص٦٠.

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص٢٦/ ت: المسعتصم بالله أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض/ ن: دار الكتب العلمية، بيروت/ ط: ١.

واستحضار المصير في الذهن له عمل شديد في النفس عند أهل المعرفة الذين عقلوا مثواهم، والسياقُ يبين لنا معنى قوله: «مثلت»، أي: تخيلت نفسي، وليس معناها التشبيه؛ لأنه ليس ثمة شخص غيره.

مثال آخر:

حَدَّثَ الْفَيْضُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: قَالَ حُذَيْفَةُ: وَضَعَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ[ت: ١٣٠][١]. **رَغِيفًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَتْ لَهُ نَفْسُهُ: لَوْ كَانَ مَعَهُ شَيْءٌ آخَرَ؟، قَالَ: «أَنْتَ هَاهُنَا»، فَمَرَّ بِهِ أَعْرَابِيٌّ مِسْكِينٌ، فَقَالَ: «يَا أَعْرَابِيُّ، خُذْ هَذَا»، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ رَضِيَتْ بِالْخَبْزِ، لَمْ تُرِدْ مَعَهُ غَيْرَهُ**[٢].

في قوله: «**أَنْتَ هَاهُنَا**»: علا حِسُّ أهل الرقائق، فأصبحوا يميزون أقوال النفس وأفعالها، ويخاطبونها، ويستشعرونها، ويعلمون ما يصدر منها عمن غيرها، وأوْهَمنا قول النفس: «**لَوْ كَانَ مَعَهُ شَيْءٌ آخَرَ**»: أنها حالَّة بالمكان، وكأنها شيء مستقل منفصل، وليست هي التي بين جنبيه، وإنطاقها في هذا النص أيضًا من قبيل الاستعارة المكنية، وعدم رضاها بالخبز، ورضاها به في الليلة القابلة: زاد الصورة مثولًا وشخوصًا.

٩- تصوير إصلاح النفس بالرَّم على سبيل الاستعارة:

حدث إبراهيم بن سلمة الشعبي قال: سمعت ابن السماك(ت:١٨٣هـ)[٣]. يقول: «**مَن امتَطى الصَبر قَويَ على العِبَادة، ومن أَجمع اليَأْس استغنى عن النّاس،**

(١) مالك بن دينار / سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٢) الجوع لابن أبي الدنيا ص٨٤

(٣) ابن السماك أبو العباس محمد بن صبيح العجلي/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٣٠.

ومَن أهمّته نفسه لم يُولِ مَرمَتها غيره، ومَن أَحَبّ الخير وُفِقَ له، ومن كَرِه الشّر جَنِبه، ومَن رَضِي الدنيا من الآخرة حظًا فقد أخْطأ حَظ نفسه»[(١)].

في قوله: «ومَن أهمّته نفسه لم يُولِ مَرمَتها غيره»: تصوير إصلاح النفس بالرّم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وهذا أنسب من قولنا: شَبَّهَ النفس بالحائط؛ لأن موضع الاهتمام هنا الفعل، فالتجاوز فيه هو المقصد الأساس. وإصلاح النفس يكون من الإنسان نفسه، فإن أبت هي فلا يصلحها واعظ ولا عالم، قال – تعالى –: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

١٠- تصوير مخافة النفس من الشهوة:

قال المحاسبي (ت: ٢٤٣هـ)[(٢)].: «فأبصرت ما لا صبر لها عليه، فسَخَت بتَرك ما يُحب طَبْعها؛ خَوفًا أنْ يُورِثَها الركُون إلى ذلك ما لا صبر لها عليه. فكان مِثله في ذلك كَالذي وَقَعَ الداء في رجله، فاسودّت، وتآكلتْ، فخَشِي إن لم يقْطَعها أن يَدُب (الداء) منها إلى جميع بدنه، فبَذَل بَعض ماله لمن يقطعها بشهوة وسرور؛ لقطعها، بعد ما كان يَعز عليه أنْ تَنْقَطِع شَظية من ظُفر من أظْفَارها، ولكن لما رأى السبب الذي لا يَأْمَن أن يُؤديه إلى عَطب بدنه: سَخت بذلك نَفسه؛ خَوفًا مما هو أعظم منه، فكذلك الذي نظر إلى آخرته، ورأى أسْبَاب هلاكه فيها في قلبه وجوارحه، ففَارق ذلك بسخَاء نفس ومَحَبَة، ولو كان لا يقدر عليه إلا ببذله ما يملك لفعل، كما بَذَل ما يملك لمن قَطَع رجله وحَسمها بالنار، فاحتَمَل حُرقة ذلك؛ لخَوف العَاقِبة، وكذلك يحتمل المُؤدِب لنفسه الحَرارات؛ مَخَافة سُوء

---

(١) صفة الصفوة ج٣/ ص١٧٥

(٢) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

عَاقِبَةِ الأَبَد، وشَتَّان ما بين العاقِبَتين، وشَتَّان بين ما يرث القاطع لرجله من الراحة، وبين ما يرثه الخائف من الله - تعالى - من الراحة في جِواره»[1].

جاء التشبيه المركب على لسان المحاسبي مبرزًا أحداثا خفيت في مكمن الصدر، جعلها بتصويره محسة مشاهدة، فورود الشهوة على النفس، ورفض النفس لها ومخافة النفس ربها بالغيب: جاءت كل هذه المعاني في صورة رجل دبَّ الداء في رجله، فاسودت، وتآكلت، فخشي - إن لم يقطعها - أن يدب (الداء) منها إلى جميع بدنه، فبذل بعض ما له لمن يقطعها بشهوة وسرور لقطعها، بعد ما كان يعز عليه أن تنقطع شظية من ظفر من أظفارها، ولكن لما رأى السبب الذي لا يأمن أن يؤديه إلى عطب بدنه: سخت بذلك نفسه؛ خوفًا مما هو أعظم منه.

فأصبحت الشهوة هي الرِجل التي تعز على صاحبها أن يبترها، أو أن يتصور نفسه بغيرها، ودبيب الداء في البدن كله يقابله دخول النار **(عاقبة المعصية)**، وصاحب الداء فر من أقوى الضررين إلى ما هو أخف، وصاحب الشهوة فر من أقوى الألمين إلى ما هو أخف.

وقوله: **«وكذلك يحتمل المؤدَب لنَفْسِه الحَرارات؛ مخافة سوء عاقبة الأَبَد»**: الحرارت: استعارة تصريحية للشهوات، استدعاها السياق، فحسُن موقعها، وزاد في حسنها أنه عُرف عند الناس أن الشهوات لها لهيب في القلب، ثم فضل المحاسبي المشبه على المشبه به، بعدما وصل إلى غايته، وأوضحَ مقصوده من الصورة، فقال: **«وشتان ما بين العاقبتين، وشتان بين ما يرث القاطع لرجله من الراحة، وبين ما يرثه الخائف من الله - تعالى - من الراحة في جواره»**.

---

(١) التوبة للمحاسبي/ ص٣٢.

١١- تشبيه حال النفس وهي تأمر بالشهوات - بحال العدو الذي يرمي بالسهام:

قال الحكيم الترمذي (ت:٣٢٠هـ) [١]:» قال - سبحانه وتعالى -: (وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) (الحج:٧٨). أي: امتنع من شر النفس وحربها وعداوتها بالله تعالى، فكأن النّفس عدوك، يرميك بسهم الشهوة، وإعانة الهوى لها، وهي مظلمة، لا تستعين بالله عليك، وأنتَ تَرْمِيها بسِهم المَعْرفة والعَقل، وتَسْتَعين بالله - تعالى - عليها، فأنت المَنْصُور؛ لأنك بالله تجاهدها، وهي تجاهدك لا بالله، فدَلك ربك على الاعتصَام منها به، ثم وعدك النصر، وشجعك على المجاهدة، فقال: (هُوَ مَوْلَاكُمْ): أي: يَلي نُصرتكم، ثم قال: (فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ): ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ومتابعتها، فإذا تركتَ الاعتصام به خَذَلك، وخُذْلانه أنْ يَمْنَع النصرة، فإذا منع النصرة، فجاهدت النفس: رَمَتك بسِهام الشَّهوة والهوى، فرَميتها بسِهَام المَعْرفة والعَقْل، لم تغْلبها«[٢].

وقوله: «فكأن النفس عدوك، يرْميك بسِهم الشَّهوة»: شَبَّهَ فيه حال النفس وهي تأمر صاحبها بالشهوات واقتحام المحرمات، والهوى يقويها فيجاهدها صاحبها بالعلم والمعرفة - بحال العدو الذي يرمي بالسهام، والتشبيه تمثيلي.

والهوى جاء ماثلًا أمام العين، يعطي المدد، ويعاون النفس في حربها، وجاءت المعرفة والعقل على أنها سهام، وهذه الصورة تصور لنا الصراع المكنون في

---

(١) محمد بن علي الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم / لسان الميزان للعسقلاني ت أبي غدة / ج٧/ ص٣٨٦.

(٢) أدب النفس للحكيم الترمذي ص٦٠/ ٦١.

هيئة حرب ورمي، ومعركة دائرة، وهي تحلق حول صورة الأسير الذي يجاذب، ويتربص، ويتحيَّن الفرص، والتشبيه يفيد العناية بإبراز حقيقة النفس، وإظهارِ حيلها، وتصويرِ صراعها.

١٢- تشبيه الخشية بسوط تُعاقب به النفس:

أورد المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)[١]. في كتاب الوصايا: «**قلت: فكيف أعاقب نفسي على ما جَنَت؟، قال: تفرق بينها وبين محَابِها، وَتأخُذ سَوط الخَشية لها بدوام الرِّعاية لها في سعيها، وتَضَاعف عليها أوْرَادها، وتزيد في كَدِها، وتنقص من غذائها، وتَقْطَعها من مَلاذها، وتُجرعها غَيظَ التَّهديد؛ زجرًا لها حتى يَغلب سلطان رِعَايتك سُلطان كبرها، فعند ذلك - يا فَتَى - تُذل في نَفْسِها، وتَخْضع بعد كِبرها، وتَسْقط عن كلبها وشرها، وتمر على الاستقامة إلى خالقها، ومن الله التَّوفيق**»[٢].

شبه الخشية بالسوط، وأضاف المشبه به إلى المشبه، وهو تشبيه معقول بمحسوس، وقوله: «**بدوام الرعاية لها في سَعيها، وتَزيد في كَدِها، وتَنْقص من غِذائها، فعند ذلك - يا فَتَى - تَذل في نَفْسها، وتَخْضع بعد كِبرها**»: يرجع بنا إلى قول وهب بن منبه في أول المبحث مِن أن النفس كنفوس الدواب.

وقوله: «**وتُجرعها غَيظَ التَّهديد**»: صوَّر غيظ التهديد بشراب، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه (تجرعها) على سبيل الاستعارة المكنية، والاستعارة حاملة على تغليظ التهديد لها، والشد عليها.

---

(١) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٢) الوصايا للمحاسبي ص٢٣١/ ت: عبد القادر أحمد عطا/ ن: دار الكتب العلمية/ ط:١.

١٣- تشبيه المسلم بالمرآة التي تُقوّم صاحبها:

حَدَّثَ الْمُبَارَكُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ بِلَالِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّ الْمُسْلِمَ مِرْآةُ أَخِيهِ، فَهَلْ تَسْتَرِيبُ مِنْ أَمْرِي شَيْئًا»(١).

شبه المسلم بالمرآة، ووجه الشبه: الإظهار في كل، وهذا سبيل من سبل إصلاح النفس، لا تستطيعه هي؛ لأن العُجب قد أغشى بصرها، فلا ترى لها عيبًا، قال عمر بن الخطاب ﷺ: **أحبّ الناس إليّ من أهدى إليّ عيوبي**(٢).

استعار الإهداء للإخبار على سبيل الاستعارة التصريحية، والغرض: بيان أهمية الإخبار بالعيوب، فهو من الهداية التي لا ينبغي لعاقل أن يرُدَّها، والإخبار يترتب عليه تصحيح المسار في الدنيا والآخرة، ويترتب عليه السعادة الأبدية، فلِمَ لا يكون الإخبار إهداءً؟.

١٤- تشبيه فيه توبيخ للنفس:

حَدَّثَ سُفْيَانُ، عَنْ نُسَيْرِ بْنِ ذُعْلُوقٍ قَالَ: «كَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ مِنْ دُمُوعِهِ، فَيَقُولُ: «أَدْرَكْنَا قَوْمًا كُنَّا فِي جُنُوبِهِمْ لُصُوصًا»(٣).

هذا توبيخ لاذع للنفس، وسوء ظن بها، لا ينجو العبد إلا بمثله، والربيع بن خثيم هو من هو؟، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين. والتقدير: كنا في جنوبهم كاللصوص، فهو تشبيه مؤكد، والعبارة كناية عن رفعة القوم السابقين وورعهم، وبلوغهم ذروة العبادة، وهل هي لصوصية من ناحية العبادة؟، أم من

---

(١) الزهد لأحمد / ص ٣١٢.

(٢) عيون الأخبار / ج٢/ ص١٧.

(٣) الزهد لأحمد ص ٢٧٣.

ناحية الخشية؟، أم من ناحية تحري الحلال والحرام؟، أم من ناحية إتقان العمل؟، أم كل ذلك وغيره؟. والغرض العام من الصورة البيانية بيان تشويه المشبه وتحقيره، ولعل منزع هذه الصورة هو حديث النبي ﷺ الذي رواه **أبو قتادة** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: «إِنَّ أَسْوَأَ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ صَلَاتَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْرِقُهَا؟، قَالَ: «لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا»**[١].

١٥- تشبيه النفس بالمطية:

قال مُحَمَّدُ بْنُ الْمُبَارَكِ: **«لَيْسَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ أَنْ تَجْعَلَهَا – يَعْنِي النَّفْسَ – مَطِيَّةً لِهَوَى غَيْرِكَ، وَطَرِيقًا لِطَلَبِ دُنْيَا مَخْلُوقٍ غَيْرِكَ»**[٢].

والتقدير: ليس من المعرفة بالله أن تجعلها كالمطية لهوى غيرك، أو كالطريق لطلب دنيا مخلوق غيرك، فالتشبيه بليغ، ولمَّا كان (جعل النفس وسيلة لهوى الغير) من عدم المعرفة ناسب المقامَ كلمةُ: «**مطية**»؛ لأنها تتلاءم مع عدم المعرفة.

وليس التشبيه الثاني موكدًا للأول، إنما الأمر مبني على المغايرة، فهو أراد أن يقول: لا تكن أداةً لوصول غيرك، ولا مُوصِّلًا غيرك لغايته، إنما أقبل على نفسك ونجاتها؛ فكل نفس بما كسبت رهينة.

١٦- تصوير الدنيا امرأة كثيرة التطلع:

حَدَّثَ الْحُسَيْنُ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ، عَنِ الْحَسَنِ[ت: ١١٠هـ][٣]. أَنَّهُ قَالَ: **«حَادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ بِذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ**

(١) مسند أحمد (١٨/ ٩٠ ط الرسالة).

(٢) حلية الأولياء / ج٩/ ص٢٩٨

(٣) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج ٤/ ص٥٨٧.

الدُّثُورِ، وَاقْدَعُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ؛ فَإِنَّهَا طُلَعَةٌ، وَإِنَّمَا تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ، وَإِنَّكُمْ إِنْ تُطِيعُوهَا فِي كُلِّ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ لَا تُبْقِي لَكُمْ شَيْئًا»[1].

وقوله: «**وَاقْدَعُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ**»: استعار القدع الذي يكون للفرس - وهو الضرب على الأنف - للمنع على سبيل الاستعارة التبعيَّة.

وقوله: «**فَإِنَّهَا طُلَعَةٌ**»[2]. استعار المرأة للنفس، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه (طلعة) على سبيل الاستعارة المكنية، فالنفس كثيرةُ التطلع إلى الشيء، كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها، ونُسب مِثل هذا المعنى للحجاج: جاء في لسان العرب»، وَفِي حَدِيثِ الحَجَّاج: **اقْدَعُوا هَذِهِ الأَنفُسَ؛ فَإِنَّهَا أَسْأَلُ شيءٍ إِذا أُعْطِيَتْ، وأَمْنَعُ شيءٍ إِذا سُئِلَتْ، أَي: كُفُّوها عَمَّا تَتَطَلَّعُ إِليه مِنَ الشَّهَوَاتِ. وقَدَعْتُ فَرَسي أَقْدَعُه قَدْعًا: كَبَحْتُه وكَفَفْتُه. وَهُوَ فَرَسٌ قَدُوعٌ يَحْتَاجُ إِلى القَدْعِ؛ لِيَكُفَّ بَعْضَ جَرْيِهِ»**[3].

قوله: «**فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية**»: قوله: «**شر غاية**»: كناية عن النار.

قوله: «**وحادثوها بالذِّكر؛ فإنها سريعة الدّثور**»: جاء في لسان العرب: «وَفِي حَدِيثِ الْحَسَنِ: حادِثُوا هَذِهِ القُلوبَ بِذِكْرِ اللَّهِ؛ فإِنها سريعةُ الدُّثور. مَعْنَاهُ: اجْلُوها بالمَواعظ، واغسِلُوا الدَّرَنَ عَنْهَا، وشَوِّقُوها حَتَّى تَنفُوا عَنْهَا الطَّبَع والصَّدَأَ الَّذِي

---

(١) الزهد لابن المبارك ص٩١

(٢) وامرأَة طُلَعةٌ: تُكثِرُ التَّطَلُّعَ. ويقال: امرأَة طُلَعةٌ قُبَعةٌ، تَطلُع تَنْظرُ سَاعَةً ثُمَّ تَختَبئُ. وَنَفْسٌ طُلَعةٌ: شَهِيَّةٌ مُتَطَلِّعةٌ./ لسان العرب (٨/ ٢٣٧).

(٣) لسان العرب ج٨/ ص٢٦٠.

تَراكَبَ عَلَيْهَا مِنَ الذُّنُوبِ، وتَعاهَدُوهَا بِذَلِكَ، كَمَا يُحادَثُ السيفُ بالصِّقالِ»[1].

استعار الحديدَ للنفس، وحذفَ المستعار منه، وأبقى لازمه: «**حادثوا**» على سبيل الاستعارة المكنية. وقوله: «**سريعة الدثور**»: ترشيح للاستعارة، يُقال: دثر السيف، أي: علاه الصدأ.

* * *

الخلاصة:

- جاءت الصور البيانية في هذا المبحث محذرة من أمر النفس، ومبينة كيفية ترويضها وكسرها ومعاملتها؛ فالنفس كنفوس الدواب، وكالبازي، والرضيع، والدابة الحرون، والأسير الذي يجاذب صاحبه، والملك الذي يُذل تابعه، والرجل القائم بالصخر يريد الفتك بصاحبه، وواضع سم ينتظر غفلة صاحبه.

- وقد كثُر عند أهل الرقائق محادثة النفس وتوبيخها ومعاتبتها.

- وقد وصف أهل الرقائق عدة أشياء تفسد النفس وتهلكها؛ فوصفوا المدح بالذبح، والشهوات بالسهام، ويظهر أثر البيئة في كل ما مر من صور بيانية.

(١) لسان العرب ج٢/ ص١٣٤.

المبحث الثامن:
التصوير البياني في مقام القناعة والرضا

المحتوى:

١- تصوير القناعة بشجرة الراحة ثمرتها.

٢- وتصوير الفقر والغنى بشخصين يجولان في طلب القناعة.

٣- وتصوير القناعة بلحاف يقي صاحبه.

٤- وتشبيه ضراوة اللحم بضراوة الخمر.

٥- وتشبيه هيئة المسرفين عند الأكل بهيئة الأبقار.

٦- وتشبيه الأَكَلة بالآجرة.

٧- وتشبيه البطون بالآلهة، مع ذم من جعلها كذلك.

٨- وتشبيه البطن ببحر ووادٍ.

٩- وتشبيه العين الذي لا يشبع بالخيشوم لا يتوقف عن الاستنشاق.

١٠- وتشبيه الجمَّاع بالمجنون.

١١- وتصوير الإياس بالسيف والطمع مذبوحه.

١٢- واستعارة الشحذ للإنطاق.

١٣- وتشبيه الطمع بالفقر.

١٤- وتشبيه غير القانعين بالأموات.

١٥- وتشبيه الحاجة بالموت الأكبر.

١٦- وتصوير ما يجده الرجل في صدره حال الإنعام عليه - بحال

من كسر له ضلع.

١٧- وتصوير الدرهم والدينار بالبعر.

١٨- وتصوير الفقير بالمريض في تشَهِّيه ما يضره.

١٩- وتصوير رحمة الله برحمة الأم.

٢٠- ومجاز في علاقة الدرهم والدينار بالهلاك.

٢١- وتشبيه المستكثر من الدنيا بالبهيمة التي ترتع فيما فيه هلاكها.

٢٢- وصورة بيانية في الرضا.

٢٣- وتشبيه الارتباط الحاصل بين الروح والفرح واليقين والرضا بالظرفية.

٢٤- وتشبيه الرضا بالغصن والمعرفة شجرته.

٢٥- وذكر النار وإرادة المال الحرام (مجاز مرسل علاقته المسببية).

١- تصوير القناعة بشجرة الراحة ثمرتها:

جاء في العقد الفريد[1].: «**قالوا: ثَمرة القَنَاعَة الرَّاحَة، وَثَمَرة الحِرْص التَّعَب**»[2].

فقد شبه القناعة بشجرة، ثم حذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، وصوَّر الحرص كذلك، وهي من استعارة المحسوس للمعقول. فقد أراد القائل الكشف عن ملازمة الراحة للقناعة، فاستدعى لها ملازمة الثمرة للشجرة. والعلاقة بين الشجرة والثمرة أمر مُسلَّم لا جدال فيه، فإذا قلنا: إن ثمرة شجر البرتقال البرتقال فقد قلنا ما لا جدال فيه، كذلك العلاقة بين القناعة والراحة؛ هي علاقة لا جدال فيها، فهي أمر حتمي واقعي، فالراحة نتاج القناعة، والقناعة منبع الراحة، وكذا يقال في قوله: «**ثمرة الحرص التعب**». وقد ساعدت المقابلة على الجمع بين صورتين متضادتين، إحداهما لها بهاء، ويشعر المرء نحوها بالسكون والدعة، والأخرى لها قبح يزعج كل ناظر لها.

٢- تصوير الفقر والغنى بشخصين يجولان في طلب القناعة:

جاء في عيون الأخبار[3].: وقال بعضهم: الغنى والفقر يَجُولاَن في طَلَب القَنَاعة، فإذا وجَداها قَطَنَاها»[4].

---

(١) ابن عبد ربه أحمد بن محمد بن عبد ربه المرواني (ت: ٣٢٨هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٥/ ص٢٨٣.

(٢) العقد الفريدج٣/ ص١٥٦

(٣) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري[ت:٢٧٦هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠.

(٤) عيون الأخبار/ ج:٣/ ص:٢٠٨

أراد أن غاية الإنسان - غنيًا كان أو فقيرًا - الوصولُ إلى القناعة، أو الراحة والدعة، فيقنع الإنسان وهو غني، ويقنع وهو فقير، فبيت القناعة يسكنه الغني القنوعُ، ويسكنه الفقير الموقن الموفق؛ لذلك قال: «**فإذا وجداها قَطَنَاها**»، فهو بيت يسع شتى الناس، ويشملهم سواءٌ كانوا أغنياء أم فقراء.

ويقال في الصورة البيانية: صوَّر الفقر والغنى بشخصين يَجُولَان على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها (يجولان)، واختار الجولان - وهو بمعنى التطوف والإدارة -؛ لبيان أن السعي على القناعة مكرور. واختار صيغة المضارع؛ لبيان أن السعي متجدد حادث.

وبدأ بالغنى قبل الفقر؛ لأن نهمة الحرص عنده أشد، فهو بالجَولان مقدم على غيره. وأيضًا بدأ به؛ لأنه مظنة جلب القناعة.

واستعار البيت أو المكان للقناعة على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «**قطن**»، فالقناعة هي مقام الراحة والسكينة الذي ينبغي لكل عاقل أن يجول ويطوف؛ حتى يأتيه.

٣- تصوير القناعة بلحاف يقي صاحبه:

جاء في عيون الأخبار[١].: «**وكان يقال: أنت أخُو العِزّ ما التَحَفْت القَنَاعة، ويقال: اليَأْس حُرّ، والرّجَاء عَبْدٌ**»[٢].

فقد صوَّر القناعة لحافًا على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمُها (التحفت)،

---

(١) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري[ت:٢٧٦هـ] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠.

(٢) عيون الأخبار / ج:/ ٣ص:٢٠٧.

والقناعة لحاف ليس كباقي الألحفة؛ إنما هو لحاف له أبهة وهيبة وبهاء، يكسو صاحبه عِزًّا، ويُآخي بينه وبين العز نفسه على فرض أن العز شخص له نسب وصهر. وقوله: «**أخو العز**»: كناية عن ملازمة العز للإنسان، والعز يَقِي صاحبه من ذل السؤال والمهانة أمام الرجال.

قال ابن أبي الدنيا: أَنْشَدَ الْحُسَيْنُ[1]. (البحر الكامل):

وَإِذَا ادَّخَـرْتَ صَنِيعَةً تَبْغِي بِهَا   شُكْرًا فَعِنْدَ ذَوِي الْمَكَارِمِ فَادَّخِرْ
وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَكُنْ لِعِرْضِكَ صَائِنًا   وَعَلَى الْخَصَاصَةِ بِالْقَنَاعَةِ فَاسْتَتِرْ

- وقوله: «**ويقال: اليأس حرّ، والرّجاء عبد**»: أراد أن اليائس مما في أيدي الناس كالحر، والراجي لما في أيدي الناس كالعبد، فاليائسُ ليس لأحد عنده من نعمة تجزى، فهو كالحر الطليق غير المطالب بشيء، وغير الطالب شيئًا مستغنيًا عزيزًا بقناعته، والراجي ما في أيدي الناس ينتظر حاجته منهم، وهو ذليل بانتظاره، وذليل بتزلُّفه؛ لذلك قالوا: الطمع يُكسب صاحبه الذل، ويستعبد صاحبه، وفي هذا قال الشاعر: (البحر الطويل):

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَأْخُذْ مِنَ النَّاسِ عِصْمَةً   تُشَدُّ بِهَا مِنْ رَاحَتَيْكَ الأَصَابِعُ
شَرِبْتَ بَرِيقَ الْمَاءِ حَيْثُ وَجَدْتَهُ   عَلَى كَدَرٍ وَاسْتَعْبَدَتْكَ الْمَطَامِعُ[2].

وقوله: «**وَاسْتَعْبَدَتْكَ الْمَطَامِعُ**»: المطامع هنا جيوش آسرة على سبيل

---

(١) قضاء الحوائج لابن أبي الدنيا ص٨٠/ ت: مجدي السيد إبراهيم/ ن: مكتبة القرآن - القاهرة.

(٢) القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص٧٦. ووردت الأبيات منسوبة لابن هرمة في كتاب الحماسة للبحتري / ص٣٣٩/ ت: محمَّد إبراهيم حُوَّر - أحمد محمد عبيد / ن: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي / عام النشر: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

الاستعارة المكنية التي لازمها: «**استعبدتك**». وجاءت بصيغة الجمع؛ لبيان أن كل المطامع آسرة، وبيان أن العبد إن لم يتدرع بالقناعة ويتحصن بالعز وقع - لا محالةَ - تحت أَسْر هذا الجَمْعِ، والجامع بين المستعار والمستعار له: أن كلًّا منهما له سطوة وقيود، وكل منهما مصدر ذل ومهانة.

٤- تشبيه ضراوة اللحم بضراوة الخمر:

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ [ت:٢٣هـ][١].: «**إِيَّاكُمْ وَاللَّحْمَ؛ فَإِنَّ لَهُ ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الْخَمْرِ، وَعَلَيْكُمْ بِالزَّيْتِ؛ فَإِنْ آذَاكُمْ حَرُّهُ، فَأَسْخِنُوهُ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَأَنَّهُ سَمْنٌ**»[٢].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِأَهْلِهِ: **اتَّقُوا هَذِهِ الْأَوْضَامَ؛ فَإِنَّ لَهَا ضَرَاوَةً كَضَرَاوَةِ الْخَمْرِ. الْأَوْضَامُ: الْمَوَائِدُ الَّتِي يُبَاعُ عَلَيْهَا اللَّحْمُ**[٣].

فقد تكرر الأمر في النص الأول، وغرضه النصح والإرشاد. وقد شَبَّهَ ضراوة اللحم بضراوة الخمر من حيث الاعتياد والإسراف. قال صاحب اللسان: «وإنما نَهاهُمْ عَنْهَا؛ لأنه كَرِهَ لَهُمْ إِدْمانَ أَكل اللُّحُومَ، وجعلَ لَهَا ضراوةً كَضَرَاوَةِ الْخَمْرِ، أَي: عَادَةً كَعَادَتِهَا؛ لأَن مَنِ اعْتَادَ أَكل اللُّحُومَ أَسرف فِي النَّفَقَةِ، فَجَعَلَ الْعَادَةَ فِي أَكل اللُّحُوم كَالْعَادَةِ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ؛ لِمَا فِي الدَّوَام عَلَيْهَا مِنْ سَرَفِ النَّفَقَةِ وَالْفَسَادِ. يُقَالُ: أَضرى فُلَانٌ فِي الصَّيْدِ وَفِي أَكل اللَّحْمِ إِذا اعْتَادَهُ ضَرَاوَةً»[٤].

---

(١) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الزهد للمعافي ص٣٢٥

(٣) الزهد لأبي داود ص٦٧.

(٤) لسان العرب ج٤ ص١٣٦.

٥- تشبيه هيئة المسرفين عند الأكل بهيئة الأبقار:

حدث ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ نَشِيطٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ (ت: ٨٦هـ)[١]. صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، قَالَ أَبُو تَوْبَةَ: فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكُمَا، فَنَزَعَ وِسَادَةً كَانَ مُتَكِئًا عَلَيْهَا، فَأَلْقَاهَا إِلَيْهِمَا، فَقَالَا: لَا نُرِيدُهَا؛ إِنَّمَا جِئْنَا لِنَسْمَعَ مِنْكَ شَيْئًا نَنْتَفِعُ بِهِ؟، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ مَنْ لَمْ يُكْرِمْ ضَيْفَهُ فَلَيْسَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، قَالَ: طُوبَى لِعَبْدٍ أَمْسَى مُعَلِّقًا بِرَسَنِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَفْطَرَ عَلَى كِسْرَةٍ وَمَاءٍ بَارِدٍ، وَيْلٌ لِلَّوَّاثِينَ الَّذِينَ يَلُوثُونَ مِثْلَ الْبَقَرِ، ارْفَعْ يَا غُلَامُ، ضَعْ يَا غُلَامُ فِي ذَلِكَ، لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى**[٢].

وقوله: «**الَّذِينَ يَلُوثُونَ**[٣]. **مِثْلَ الْبَقَرِ**»: شَبَّهَ فيه هيئتهم عند الأكل بهيئة الأبقار، فهُم يدورون الطعام بنهمة بهائم وشهوة أبقار، ووجهُ الشبه: كثرة الأكل، وإدخال طعام بعد طعام؛ حيث إن لوث الأبقار لا يتوقف، وهؤلاء كذلك كما قال صاحب القول: «**ارفع ياغلام، ضع ياغلام**»، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد:١٢).

وجاء عن ابْنِ عُمَرَ [ت:٧١ - ٨٠ هـ].[٤]. أنه قَالَ: «**لاَ تَشُمُّوا الطَّعَامَ كَمَا تَشُمُّهُ السِّبَاعُ**»[٥].

---

(١) عبد الله بن الحارث الزبيدي / قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر / ج١/ ص٤٨٢.

(٢) الزهد لأبي داود ص ٣٣٥.

(٣) قَالَ الحَرْبِي: أَظُنُّه الَّذِينَ يُدارُ عَلَيْهِمْ بألوانِ الطَّعَامِ، مِنَ اللَّوْثِ، وَهُوَ إِدَارَةُ العِمامة. المصدر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير/ج٤/ ص٢٧٥ / ن: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م/ ت: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرَشِيُّ الْعَدَوِيُّ، [ت:٧١ - ٨٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشارج٢/ ص٨٤٣.

(٥) الزهد للمعافي ص٣٢٩.

نهى ابن عمر ﷺ عن التشبُّه بهذه الهيئة؛ لأن المؤمن أعز من أن يقدس طعامًا، وأرفع من أن يظهر له رغبة شديدة؛ لأن هذا من شيم أهل الدنيا.

٦- تشبيه الأكْلة بالآجرة:

قَالَ هِشَامٌ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ[ت: ١١٠هـ]. (١). يَقُولُ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا مَا طُوِيَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ثَوْبٌ قَطُّ، وَلَا أَمَرَ فِي أَهْلِهِ بِصَنْعَةِ طَعَامٍ قَطُّ، وَلَا جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ شَيْئًا قَطُّ، وَإِن كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَقُولُ: لَوَدِدْتُ أَنِّي أَكَلْتُ أَكْلَةً، فَتَصِيرُ فِي جَوْفِي مِثْلَ الْآجُرَّةِ(٢). وَكَانَ يَقُولُ: بَلَغَنَا أَنَّ الْآجُرَّةَ تَبْقَى فِي الْمَاءِ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ»(٣).

تمنَّى طعامًا يشبه الطوبة في صلابتها وفي كونه لا يهضم، فيمنع التشهي، ويقطع السبيل أمام داعي الأكل، ووجه الشبه الذي تمناه هو انعدام التفتت والهضم. وقوله: «**بَلَغَنَا أَنَّ الْآجُرَّةَ تَبْقَى فِي الْمَاءِ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ**»: أفاد عِظَمَ خطر البطن وتشهِّيها حتى تمنوا لها ما يُسْكِتُها ثلاثمائة سنة.

٧- تشبيه البطون بالآلهة، مع ذم من جعلها كذلك.

قَالَ يَحْيَى بْنُ الْعَلَاءِ: بَلَغَنِي عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ (ت:٦٢هـ)(٤). أَنَّهُ قَالَ: **«إِنِّي لَأَجِدُ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى أَنَّهُ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَلَفٌ مِنْ بَعْدِ خَلَفٍ،**

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٢) والطُّوبَةُ: الآجُرَّة، شَامِيَّةٌ أَو رُومِيَّةٌ. قَالَ ثَعْلَبٌ، قَالَ أَبو عَمْرٍو: لَوْ أَمْكَنْتُ مِنْ نَفْسِي مَا تَركُوا لِي طُوبَةً، يَعْنِي آجُرَّةً. لسان العرب / ج١/ ص٥٦٢.

(٣) الزهد لأحمد ص ٢١٠.

(٤) أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب (ت:٦٢هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٤.

بُطُونُهُمْ آلِهَتُهُمْ، وَلِبَاسُهُمْ دِينُهُمْ»[(١)].

قوله: «بُطُونُهُمْ آلِهَتُهُمْ» تشبيه، والمعني أصبحت بطونهم كآلهتهم؛ يطيعونها إطاعة العبد لربه، والغرض: بيان مدى اهتمامهم وحرصهم على تلبية رغبة بطونهم، والصورة أبرزت قبح هؤلاء الخلف؛ فالإنسان يحركه قلبه أو عقله. أمَّا هؤلاء فمُحَرِكهم تحت صدورهم، لا يرونه إلا بطأطأة الرأس، وإغماض بعض الجفن.

وقوله: «وَلِبَاسُهُمْ دِينُهُمْ»: أي: اتخذوا دينهم لباسًا يسترون به قبحهم، وهم يتزينون بالدين؛ لتحصيل دنياهم، فإذا حصَّلُوها خلعوه كما يُخلع الثوب، فشبه الدين عند القوم باللباس، ووجه الشبه: أن كلا منهما يستر القبيح.

٨- تشبيه البطن ببحر وواد:

قَالَ أَبُو سِنَانٍ الْقَسْمَلِيُّ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ (ت:١١٣هـ)[(٢)]. وَأَقْبَلَ عَلَى عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، فَقَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يَا عَطَاءُ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَحْمِلُ عِلْمَكَ إِلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ وَأَبْنَاءِ الدُّنْيَا، يَا عَطَاءُ تَأْتِي مَنْ يُغْلِقُ عَنْكَ بَابَهُ، وَيُظْهِرُ لَكَ فَقْرَهُ، وَيُوَارِي عَنْكَ غِنَاهُ، وَتَدَعُ مَنْ يَفْتَحُ لَكَ بَابَهُ، وَيُظْهِرُ لَكَ غِنَاهُ، وَيَقُولُ: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[غافر:٦٠]. وَيْحَكَ يَا عَطَاءُ، ارْضَ لَكَ بِدُونٍ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ الْحِكْمَةِ، وَلَا تَرْضَ بِالدُّونِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَعَ الدُّنْيَا، وَيْحَكَ يَا عَطَاءُ، إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ، وَيْحَكَ يَا عَطَاءُ، إِنَّمَا بَطْنُكَ بَحْرٌ مِنَ الْبُحُورِ، وَوَادٍ مِنَ الْأَوْدِيَةِ، لَا يَمْلَؤُهُ شَيْءٌ إِلَّا التُّرَابُ»[(٣)].

---

(١) الجوع لابن أبي الدنيا ص١٣٨.

(٢) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٣) الزهد لأحمد ص٢٠٦.

وقوله: «إِنَّمَا بَطْنُكَ بَحْرٌ مِنَ الْبُحُورِ»: شَبَّهَ فيه البطنَ بالبحر والوادي، والتشبيه مؤكد بحذف الأداة، ووجه الشبه عدم الامتلاء، وقد مر معنا في المبحث الخامس قول عبادة بن الصامت: «إِنَّمَا الْبَطْنُ هَاتِ هَاتِ، كَفَاكُمْ مَا سَدَّهُ عَنْكُمْ»[١].

٩- تشبيه العين الذي لا يشبع بالخيشوم لا يتوقفُ عن الاستنشاق:

جاء في الرسائل الأدبية للجاحظ [ت:٢٤١-٢٥٠ هـ].[٢].: «إنّ العين لا تشبع في الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق»[٣].

شبه عدم قناعة العين بما عندها، ورغبتها في المزيد - بعدم شبع الخيشوم من الاستنشاق، فالأمر عند الخيشوم طبع وجبِلة، وكذلك عند العين إلا من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، والتشبيه مركب تمثيلي، ووجه الشبه: الاستمرارية ومداومة العمل، والعين لا تكف عن التطلع إلا إذا ملأها التراب، والخيشوم لا يتوقف عن الاستنشاق إلا إذا سُلِبَت منه الحياة.

١٠- تشبيه الجمَّاع بالمجنون:

حَدَّثَ فُرَاتُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ [ت:٣٢هـ].[٤]. كَانَ يَقُولُ: وَيْلٌ لِكُلِّ جَمَّاعٍ فَاغِرٍ فَاهُ كَأَنَّهُ مَجْنُونٌ، يَرَى مَا عِنْدَ النَّاسِ، وَلَا يَرَى مَا عِنْدَهُ، لَوْ يَسْتَطِيعُ لَوَصَلَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ، وَيْلَهُ مِنْ حِسَابٍ غَلِيظٍ وَعَذَابٍ شَدِيدٍ»[٥].

---

(١) الجوع لابن أبي الدنيا/ ص:٤٤/ حديث:٢٥.

(٢) أبو عثمان الجاحظ. [ت:٢٤١ - ٢٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشار/ ج٥/ ص١١٩٣.

(٣) الرسائل الأدبية الجاحظ / ص٩٩ / ن: دار ومكتبة الهلال، بيروت، / ط:٢.

(٤) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

(٥) الزهد لأحمد ص١١٨.

وقوله: «**فَاغِرٍ فَاهُ**»: كناية عن شدة الانتباه لما عند الناس والتطلع. وقد شبَّه غير القانع بالمجنون، ووجه الشبه التخبط والحيرة، وتشتُّت الفكر والسعي الدؤوب، والتعب الطويل مع شدة الحرص.

١١- تصوير الإياس بالسيف والطمع مذبوحه:

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ (ت:٢٤٥هـ).[١]. يَقُولُ: «**مَنْ ذَبَحَ حنجرة الطَّمَعِ بِسَيْفِ الْإِيَاسِ، وَرَدَمَ خِنْدَقِ الْحِرْصِ: ظَفَرَ بِكِيمِيَاءِ الْحِزْمَةِ، وَمَنِ اسْتَقَى بِحَبْلِ الزُّهْدِ عَلَى دَلْو الْعزُوفِ اسْتقَى مِنْ جُبِّ الْحِكْمَةِ، وَمَنْ سَلَكَ أَوْدِيَةَ الْكَمَدِ جنى حَيَاةِ الْأَبَدِ، وَمَنْ حَصَدَ عُشْبَ الذُّنُوبِ بِمِنْجَلِ الْوَرَعِ أَضَاءَ لَهُ رَوْضَةَ الِاسْتِقَامَةِ، وَمَنْ قَطَعَ لِسَانَهُ بِشَفْرَةِ الصَّمْتِ وَجَدَ طَعْمَ عُذُوبَةِ الرَّاحَةِ، وَمَنْ تَدَرَّعَ بِدِرْعِ الصِّدْقِ قَوِيَ عَلَى مُجَاهَدَةِ عَسْكَرِ الْبَاطِلِ، وَاعْتَدَلَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ، وَحَسُنَ فِي الْآخِرَةِ مَثْوَاهُ، وَمَنْ فَرِحَ بِمَدْحَةِ الْجَاهِلِ الشَّيْطَانُ ثَوَّبَهُ الْحَمَاقَةَ**»[٢].

والصور جاءت ممتعة متناسقة مُرَتَّبًا بعضها على بعض مُزيلة بالنتائج. والذي سّوغ كون الحكمة جُبًا هو تشبيه الزهد بالحبل، والعزوف بالدلو، فالحكمة جب؛ لأنها تدور في هذا الفلك من الصور، ولو انفكت منه لأصبح التشبيه رديئًا، ليس له قيمة. والذي سّوغ كون الورع منجلًا هو تشبيه الذنوب بالعشب، فهناك تناسب والتئام بين طرفي كل تشبيه داخل صورته الأم التي لا يستطيع أن يسبح خارجها، وهذا تفصيل لما جاء في النص: «**مَنْ ذَبَحَ حنجرة الطَّمَعِ بِسَيْفِ الْإِيَاسِ**». فقد صوَّر الطمع بالإنسان الذي له حنجرة على سبيل الاستعارة المكنية، وشبه

---

(١) ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١١/ ص٥٣٢.

(٢) حلية الأولياء / ج٩/ ص٣٨٠، وبهذا المصدر تحريف في بعض الكلمات صوبتُها من كتاب صفة الصفوة، والمدهش لابن الجوزي.

الإياس بالسيف، والتشبيه بليغ.

وقوله: «وَرَدَمَ خِنْدَق الْحِرْصِ»: شَبَّهَ فيه الحرصَ بالخندق، والغرض: بيان قبح المشبه، فالحرص فخ وخندق لا يأمن من جاوره، وقوله: «ردم» ترشيح للتشبيه.

وقوله: «ظَفَرَ بِكِيمِيَاءِ الْحِزْمَةِ»: شَبَّهَ فيه الحزمَ بالكمياء، وهو إكسير يعمل على تحويل بعض المعادن إلى ذهب، وهو عند الناس أعز من الذهب، والغرض: بيان علو منزلة الحزم.

وقوله: «وَمَنِ اسْتَقَى بِحَبْلِ الزُّهْدِ عَلَى دَلْو الْعزُوفِ(١). اسْتَقَى مِنْ جُبِّ الْحِكْمَةِ»: شَبَّهَ فيه الزهدَ بالحبل، ووجه الشبه أن كلًّا منهما يجلب على صاحبه الخيرَ، وشبه العزوف بالدلو، وشبه الحكمة بالجب، والصور غاية في الإبداع، العزوفُ فيها أصبح آلةً للغرف.

وقوله: «وَمَنْ سَلَكَ أَوْدِيَةَ الْكَمَدِ جنى حَيَاةِ الْأَبَدِ»: شَبَّهَ فيه الكمدَ بالأودية، وذكر الأودية بصيغة الجمع؛ لأن الكمد أشكال وأنواع. وقولُه: «جنى»: استعارة تصريحية، والتقدير: حصل على حياة الأبد، وحياةُ الأبد كنايةٌ عن الجنة.

وقوله: «وَمَنْ حَصَدَ عُشْبَ الذُّنُوبِ بِمِنْجَلِ الْوَرَعِ أَضَاءَ لَهُ رَوْضَةَ الِاسْتِقَامَةِ»: شَبَّهَ فيه الذنوب بالعشب المفسد الذي يغطي ويمنع ضوء الروضة، وشبه الورع بالمنجل، وشبه الاستقامة بالروضة.

وقوله: «وَمَنْ قَطَعَ لِسَانَهُ بِشَفْرَةِ الصَّمْتِ وَجَدَ طَعْمَ عُذُوبَةِ الرَّاحَةِ»: استعار

---

(١) وعَزَفَت نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ تَعْزِفُ وتَعْزُف عَزْفًا وعُزُوفًا: تركته بَعْدَ إعْجابها وزَهِدَتْ فِيهِ وانْصرفت عَنْهُ. لسان العرب/ ج٩/ ص٢٤٥.

القطع للإسكات على سبيل الاستعارة التبعية، وشبه الصمت بالشفرة، ووجه الشبه: قطع الأمر وإنهاؤه، وصوَّر الراحة طعامًا له عذوبة على سبيل الاستعارة المكنية.

وقوله: «**وَمَنْ تَدَرَّعَ بِدِرْعِ الصِّدْقِ قَوِيَ عَلَى مُجَاهَدَةِ عَسْكَرِ الْبَاطِلِ، وَاعْتَدَلَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ، وَحَسُنَ فِي الْآخِرَةِ مَثْوَاهُ**»: شَبَّهَ فيه الصدقَ بالدرع، ووجه الشبه الوقاية في كل، وشبه الباطل بالعسكر.

وقوله: «**وَمَنْ فَرِحَ بِمَدْحَةِ الْجَاهِلِ الشَّيْطَانُ ثَوَّبَهُ الْحَمَاقَةَ**»: صوَّر فيه الحماقةَ ثوبًا، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: (ثوبه)، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

١٢- استعارة الشحذ للإنطاق:

وقد رُوى أن ابن السماك (ت:١٨٣هـ)[١]. قال لجاريةٍ له: ما لي إذا أَتَيت بغداد تَفتَحَت لي الحِكْمة؟، قالت له جَاريتُه: يَشْحذ لِسَانك الطَمَع. وصَدقت؛ إن العَبْد يُكثر الكَلام بالخير عند الغني ما لم يَتَكَلم به عند الفقير، يُهيجه الطَمع على ذلك، أو تَعظِيمه للدنيا، وكذلك يُظْهر الخشوع وغَيره من الطَّاعات[٢].

قوله: «**شحذ لسانك**»: أي: أنطق لسانك، استعار الشحذ -وهو الحد والسن للسيف، أو السكين- للنطق على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والغرض بيان عمل الطمع في لسان العبد، فعمله كعمل الحجر في السيف.

---

(١) ابن السماك أبو العباس محمد بن صبيح العجلي/ سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٣٠.

(٢) الرعاية لحقوق الله / المحاسبي ص٣٠٦.

ويقال صوّر اللسان بالسيف، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه على سبيل الاستعارة المكنية، ولعل منزع هذه الصورة حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول فيه: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»[1].

- ولكن إعمال الاستعارة في الشحذ أولى من إعمالها في اللسان؛ لأن سياق الكلام يدور على عمل الطمع وفعله.

وقوله: «**يهيجه الطمع**»: استعارة؛ حيث صوَّر الطمع إنسانًا يُحرك ويثير، وحذف المستعار منه، ودل عليه بلازمه: «**يهيج**»، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

١٣- تشبيه الطمع بالفقر:

قال عمر ﷺ فِي خُطْبَتِهِ: «**تَعْلَمَنَّ أَنَّ الطَّمَعَ فَقْرٌ، وَأَنَّ الْإِيَاسَ غِنًى، وَأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَيِسَ مِنْ شَيْءٍ اسْتَغْنَى عَنْهُ**»[2].

فقد شبه الطمع بالفقر، وأكد ذلك التشبيه بإنَّ، ووجه الشبه: عدم الاطمئنان والشعور بالنقص وعدم الاكتفاء. والإياس غنى في عدم التطلع والتلهف والانتظار. ولله در أبي الطيب؛ إذ يقول: [البحر الطويل]:

ومَنْ ينفق الساعات في جمع مالهِ مخافةَ فقرٍ فالذي فَعَلَ الفقرُ[3].

حَدَّثَ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ أَنَّ حُمَيْدًا الْأَعْرَجَ حَدَّثَهُ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ:

---

(١) مسند أحمد (٣٦/ ٣٨٧ ط الرسالة).

(٢) الزهد لأحمد ص٩٧.

(٣) الأمثال السائرة من شعر المتنبي/ للصاحب بن عباد ص٣١/ ت: الشيخ محمد حسن آل ياسين/ ن: مكتبة النهضة، بغداد/ ط: ١.

قَالَ سَعْدٌ(ت:٥٥هـ)[١]. لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ أَنْ تَلْقَى بَعْدِي أَحَدًا هُوَ أَنْصَحُ لَكَ مِنِّي، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُصَلِّيَ فَأَحْسِنِ الْوُضُوءَ، وَصَلِّ صَلَاةً تَرَى أَنَّكَ لَا تُصَلِّي بَعْدَهَا أَبَدًا، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ؛ فَإِنَّهُ حَاضِرُ الْفَقْرِ، وَعَلَيْكَ بِالْإِيَاسِ فَإِنَّهُ الْغِنَى، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ»[٢]

قوله: «**حاضر الفقر**»: حاضر اسم فاعل يحضر، أي: سريع الإتيان بالفقر، والمجاز هنا عقلي علاقته السببية؛ حيث إن الطمع سبب قوي في جلب الفقر، بل إن الطمع هو الفقر نفسه كما قال عمر ﷺ فِي خُطْبَتِهِ.

١٤- تشبيه غير القانعين بالأموات:

وقد روى أحمد بن الحواري عن أبي سليمان [ت:٢٠٥هـ].[٣]. أنه قال: سمعت أختي تقول: **الفقراء كُلُهم أمْوَات إلا من أحْياه الله – تعالى – بعِز القَنَاعة والرِضَا بِفَقْره**[٤].

فقد شبَّهت أختُه غيرَ القانعين بالأموات، والتشبيه بليغ، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما لا مكانة له، ولا يُؤبه له.

قوله: «**إلا من أحْياه**»: أي: أغناه الله، استعار الإحياء للغنى، ثم اشتق من الإحياء «أحياه» على سبيل الاستعارة التبعية، والاستعارةُ أظهرت قوة عمل القناعة والرضا في صون صاحبها وحفظه. وسؤال الناس والتزلف لهم موت

(١) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب الزهري / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٩٢.
(٢) الزهد لأحمد ص ١٤٩.
(٣) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد[المتوفي:٢٠٥] / سير أعلام النبلاء / ط: الرسالة ج١٠/ ص١٦٨.
(٤) صفة الصفوة/ ج٤/ ص٣٠٠.

كما قال الشاعر[١]. (البحر السريع):

لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البِلَى ... وإنَّما الموتُ سؤالُ الرجالْ
كِلاهُما موتٌ، ولكنَّ ذا ... أشَدُّ مِنْ ذاكَ عَلى كُلِّ حالْ

«أراد أن في السؤال كراهةً ومرارةً مثل ما في الموت، وأن نفس الحرّ تنفِرُ عنه كما تنفر نفوسُ الحيوان جملةً من الموت، وتطلبُ الحياةَ ما أمكن في الخلاص منه»[٢].

١٥- تشبيه الحاجة بالموت الأكبر:

عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ: «**مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَأْثِرْ نَدِمَ، وَالْحَاجَةُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ، وَالْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ**»[٣].

شَبَّهَ الحاجة بالموت الأكبر تشبيهًا بليغًا، وتقيد المشبه به بالوصف «الأكبر»؛ حيث جعَل الموت درجاتٍ، الأكبرُ منه هو الحاجةُ إلى الناس، ووجهُ الشبه: خمول الذكر وضياع المكانة.

١٦- تصويرُ ما يجده الرجل في صدره حالَ الإنعام عليه - بحال مَن كسر له ضلع:

عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ: قال مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ [ت:١٣١-١٤٠هـ].[٤]:

(١) الحيوان للجاحظ / ج٣/ ص١٣١.

(٢) أسرار البلاغة ص٨٠.

(٣) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص١٢٢/ ت: محمد عبد القادر عطا/ ن: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان ط:١.

(٤) منصور بن المعتمر السُّلميُّ، الإِمَام العلم، أَبُو عَتَّاب الكُوفي [ت:١٣١ - ١٤٠ هـ]/ تاريخ الإسلام للذهبي / ت:بشار/ ج٣/ ص٧١٤.

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَسْقِينِي الشَّرْبَةَ مِنَ الْمَاءِ فَكَأَنَّمَا يَكْسِرُ بِهَا ضلعًا من أضلاعي»[1].

أي: أن جود الناس عليه وتفضلهم يجد له ألمًا وتوجعًا ككسر ضلع من أضلاعه، فقد شَبَّهَ ما يجده في صدره حالَ الإنعام عليه بشربة ماء بحال من يُكسر له ضلع، والتشبيهُ مركب، والصورة أوضحت صعوبة الوجد، وقد قيل قديمًا: صنائع المعروف آسرة.

١٧- تصوير الدرهم والدينار بالبعر:

وعن عمرو بن دينار (ت:١٢٦هـ)[2]. **قال: ما رأيت أحدًا أهون عليه الدِينار والدرهم من ابن شهاب، وما كانت عنده إلا مثل الَبْعر**[3].

قوله: «**ما رأيت أحدًا أهون عليه الدِينار والدرهم**»: كناية عن زهده وإعراضه عن الدنيا.

وقوله: «**وما كانت عنده إلا مثل الَبْعر**»: شَبَّهَ فيه الدراهمَ بالبعر، والغرض: بيان مقدار الدراهم عندهم، وزهدهم فيها، ووجه الشبه: أن كلًّا من المشبه والمشبه به لا قيمةَ له، ولا ينظر له، وهُمَا في الهوان سواءٌ عند أهل القناعة.

١٨- تصوير الفقير بالمريض في تشهيه ما يضره:

ورد في هذا المعنى أثران: الأول لسلمان الفارسي ﷺ. والثاني لهَانِئِ بْنِ كُلْثُومٍ (رحمه الله):

---

(١) اصطناع المعروف لابن أبي الدنيا ص١١٧/ ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم/ ط: ١.

(٢) عمرو بن دينار اليمني الصنعاني المكي(ت:١٢٦هـ) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ج٢/ ص٨٤.

(٣) صفة الصفوة/ ج٢/ ص١٣٨.

١- عَنْ سَلْمَانَ الْخَيْرِ[المتوفى:٣٦هـ].(١). ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ مَرِيضٍ مَعَهُ طَبِيبُهُ الَّذِي يَعْلَمُ دَاءَهُ وَدَوَاءَهُ، فَإِذَا اشْتَهَى مَا يَضُرُّهُ مَنَعَهُ وَقَالَ: لَا تَقْرَبْهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَصَبْتَهُ أَهْلَكَكَ، وَلَا يَزَالُ يَمْنَعُهُ حَتَّى يَبْرَأَ مِنْ وَجَعِهِ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَشْتَهِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مِمَّا فُضِّلَ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْعَيْشِ، فَيَمْنَعُهُ اللهُ إِيَّاهُ، وَيَحْجِزُهُ عَنْهُ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ، فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(٢).

٢- عَنْ أُسَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَثْعَمِيِّ، عَنْ هَانِئِ بْنِ كُلْثُوم[ت:٩١-١٠٠هـ].(٣). قَالَ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الْفَقِيرِ كَمَثَلِ الْمَرِيضِ عِنْدَ الطَّبِيبِ الْعَالِمِ بِدَائِهِ تَطَلَّعُ نَفْسُهُ إِلَى أَشْيَاءَ يَشْتَهِيهَا، لَوْ أَصَابَهَا أَهْلَكَتْهُ، كَذَلِكَ يَحْمِي اللهُ - تَعَالَى - الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا(٤).

التشبيه تمثيلي؛ شَبَّهَ حالَ الفقير الذي يتطلَّع إلى الغنى والمال، فيحميه الله - بحال المريض وهو يشتهي أشياء لو أصابها أهلكته، فيمنعه الطبيب.

وقد قال - تعالى - في هذا المعنى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الشورى:٢٧).

---

(١) سلمان الفارسي، أَبُو عبد الله الرامَهُرْمُزِيّ، [المتوفى: ٣٦ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشار ج٢/ ص٢٨٦.
(٢) حلية الأولياء/ ج١/ ص٢٠٦.
(٣) هَانِئُ بْنُ كُلْثُومَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنَانِيُّ، [ت:٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشار / ج٢/ ص١١٨١.
(٤) حلية الأولياء / ج٦/ ص١١٩.

١٩- تصوير رحمة الله برحمة الأم:

قال الفضيل (١٠٥-١٨٧هـ).[١].: **أصل الزهد الرضا عن الله، وقال: ألا تَرَاه كيف يَزْوِيها عنه، ويُمَرمرها عليه بالعُري مَرَّة، وبالجُوع مَرَة، وبالحَاجَة مَرَة، كما تَصْنَع الوَالِدة الشَفِيقَة بوَلَدها: تَسْقِيه مَرَة صبرًا، ومَرَّة حُضَضًا، وإنما تريد بذلك ما هو خيرٌ له**[٢].

التشبيه مركب؛ شَبَّهَ ابتلاء الله لعباده الصالحين في الدنيا وإرادته الخير والثواب لهم - بمعالجة الأم الشفيقة لولدها، وبعِصارة الشجر المر وأبوال الإبل.

والغرض: تقريب ما بعُد عن فهم العبد حتى يفهم عن الله، ويحسن الظن بربه، فلا يسيء الظن إلا من جهل جهلًا يشبه جهل الطفل الذي يظن أن أمه تريد به شرًّا، أو تبتغي تنكيده وتنغيصه.

٢٠- مجاز في علاقة الدرهم والدينار بالهلاك:

قال وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ مَنْصُورَ بْنَ زَاذَانَ يُحَدِّثُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُوسَى[ت:٤٤هـ].[٣]. أَنَّهُ قَالَ: **إِنَّ هَذَا الدِّرْهَمَ وَالدِّينَارَ أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنِّي مَا أَرَاهُمَا إِلَّا مُهْلِكَيْكُمْ**»[٤].

قوله: «أَهْلَكَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»: فيه إسناد الإهلاك إلى الدرهم والدينار، وهذا

---

(١) الفضيل بن عياض (١٠٥ - ١٨٧هـ) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣.

(٢) عيون الأخبار/ ج:٢ ص:٣٨٧.

(٣) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس [ت:٤٤هـ] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٢/ ص٣٩٨.

(٤) الزهد لأحمد ص١٦٢.

مجاز عقلي علاقته السببية، فالدرهم مدعاة للشح والبخل والإسراف والحرص والتبذير والطغيان، وكلُّ ذلك يوجب الهلاك، والغرض: تحذير الناس وتخوفيهم من الدرهم والدينار؛ حيث إنهما الهلاك، وهما قنطرة مُوَصِّلةٌ إلى الآثام.

٢١- تشبيه المستكثر من الدنيا بالبهيمة التي ترتع فيما فيه هلاكُهَا:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ ﷺ [ت:٢٣هـ].[١]. إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ مَنْ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَإِنَّ أَشْقَى الرُّعَاةِ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْتَعَ فَيَرْتَعَ عُمَّالُكَ، فَيَكُونُ مِثْلُكَ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِثْلَ الْبَهِيمَةِ؛ نَظَرَتْ إِلَى خَضِرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَرَعَتْ فِيهَا؛ تَبْتَغِي بِذَلِكَ السِّمَنَ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي سِمَنِهَا، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ**»[٢].

قوله: «**وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْتَعَ فَيَرْتَعَ عُمَّالُكَ**»: أصلُ الرَّتْع للبَهائم، ويُستعارُ للإنسانِ إذا أُريدَ بِهِ الأكْلُ الكثير[٣]. وَاسْتُعِيرَ فِي كَلَامِهِمْ لِلْأَكْلِ الْكَثِيرِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الرِّيَاضِ وَالْأَرْيَافِ لِلَّعِبِ وَالسَّبْقِ تَقْوَى شَهْوَةُ الْأَكْلِ فِيهِمْ، فَيَأْكُلُونَ أَكْلًا ذَرِيعًا، فَلِذَلِكَ شَبَّهَ أَكْلَهُمْ بِأَكْلِ الْأَنْعَامِ»[٤]. والاستعارة تصريحية تبعية.

قوله: «**فَيَكُونُ مِثْلُكَ عِنْدَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِثْلَ الْبَهِيمَةِ؛ نَظَرَتْ إِلَى خَضِرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَرَعَتْ فِيهَا؛ تَبْتَغِي بِذَلِكَ السِّمَنَ، وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي سِمَنِهَا**»: شَبَّهَ فيه هيئةَ المستكثر من الدنيا والمستزيد منها بالبهيمة التي أعجبتها خضرة الأرض،

---

(١) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الحلية / ج١/ ص٥٠.

(٣) تاج العروس (٢١/ ٥٩) / أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي/ ت: المحقق: مجموعة من المحققين/ ن: دار الهداية.

(٤) التحرير والتنوير ج١٢/ ص٢٢٨.

فأكلت حتى لقيت حتفها، ووجه الشبه: الجهل بما فيه الهلاك والحتف، والتشبيه مركب، وقد جاء في هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»(١).

٢٢- صورة بيانية في الرضا:

قال ابن السني الْقَنَاعَةُ: الرِّضَا بِالْقَسْمِ يُقَالُ: **قَنِعَ الرَّجُلُ قَنَاعَةً: إِذَا رَضِيَ**(٢).

جاء عَنْ أَبِي حَيَّانَ التَّيْمِيِّ، قَالَ: **دَخَلُوا عَلَى سُوَيْدِ بْنِ مَثْعَبَةَ(٣). وَكَانَ مِنْ أَفَاضِلِ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ، وَأَهْلُهُ يَقُولُ لَهُ: نَفْسِي فِدَاؤُكَ، أَمَا نُطْعِمُكَ؟، أَمَا نَسْقِيكَ؟، قَالَ: فَأَجَابَه بِصَوْتٍ لَهُ ضَعِيفٍ: «دَبِرَتِ الْحَرَاقِفُ، وَطَالَتِ الضَّجْعَةُ، وَاللَّهِ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ اللَّهَ نَقَصَنِي مِنْهُ قَدْرَ قُلَامَةٍ**»(٤).

وجاء في لسان العرب: «**وَفِي حَدِيثِ سُوَيْدٍ: تَرَانِي إِذَا دَبِرَتْ حَرْقَفَتي(٥). وَمَا لِي ضَجْعةٌ إِلَّا عَلَى وجْهي، مَا يَسُرُّني أَنّي نَقَصْتُ مِنْهُ قُلامةَ ظُفرٍ**»(٦).

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٨) ت :محمد فؤاد/ ن: دار إحياء التراث العربي – بيروت/ ط:١

(٢) القناعة لابن السني/ ص٤٠ /ت: عبد الله بن يوسف الجديع/ ن: مكتبة الرشد – الرياض/ ط: ١.

(٣) سُوَيد بن مثعبة الحَنْظَلي، قال العجلي: كوفي تابعي ثقة/ الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة / لشمس الدين السَّخاوي/ ج٥/ ص١٨٦.

(٤) الرضا لابن أبي الدنيا/ ص٩٨/ ت: ضياء الحسن السلفي/ ن: الدار السلفية – بومباي/ ط: ١.

(٥) قال الجوهري: الحَرْقَفَةُ عَظْمُ الحَجَبَةِ وَهِيَ رأس الوَرِكِ. لسان العرب ج٩/ ص٤٦.

(٦) لسان العرب ج٩/ ص٤٦.

قوله: «دَبِرَتِ الْحَرَاقِفُ، وَطَالَتِ الضَّجْعَةُ»: كنايةٌ عن طول مرض المريض، وملازمته الفراشَ، وقوله: «دبرت» أي: تقرحت.

وقوله: «وَاللَّهِ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ اللَّهَ نَقَصَنِي مِنْهُ قَدْرَ قُلَامَةٍ»: **تشبيه مؤكد حذفت** أداته، والتقدير: كقدر قلامة، والغرض: بيان الحرص على أجر المصيبة بأكمله والسرور بها.

٢٣- تشبيه الارتباط الحاصل بين الروح والفرح واليقين والرضا بالظرفية:

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ [ت:٣٢].[(١)].: «**إِنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِقِسْطِهِ وَحِلْمِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ**»[(٢)].

فقد شبه الارتباط الحاصل بين الروح والفرح واليقين والرضا - بالظرفية التي هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف، ثم سَرَى التشبيهُ من هذا العامِّ إلى أفراده، فاستعار اللفظ «في» - وهو فرد من أفراد المشبه به - لفرد من أفراد المشبه على سبيل الاستعارة التبعية في الحروف. وهكذا يقال في قوله: «**الْهَمَّ وَالْحُزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ**».

٢٤- تشبيه الرضا بالغصن والمعرفة شجرته:

قال مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ[ت:١٥١-١٦٠هـ].[(٣)].: **قِيلَ لِبَعْضِ الْعُلَمَاءِ: بِمَ يَبْلُغُ**

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٢) الرضا لابن أبي الدنيا/ ص١١١.

(٣) محمد بْن إسحاق بْن يسار المُطَّلبيُّ المَخْرَميُّ مولاهم الْمَدَنِيّ أَبُو بك [ت:١٥١ - ١٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٤/ ص١٣٩.



أَهْلُ الرِّضَا الرِّضَا؟، قَالَ: «بِالْمَعْرِفَةِ، وَإِنَّمَا الرِّضَا غُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِ الْمَعْرِفَةِ»(١).

شبه الرضا بالغصن؛ لبيان أنه شعبة من شعب المعرفة، وصور المعرفة بالشجرة، وحذف المستعار منه على سبيل الاستعارة المكنية، فالمعرفة شجرة لها فروع، والرضا من فروعها، وكذلك الإخلاص واليقين والقناعة إلخ.

٢٥- ذكر النار وإرادة المال الحرام مجاز مرسل علاقته المسببية:

يقول الحسن البصري[ت: ١١٠ هـ].(٢).: **الْحَرِيصُ الْجَاهِلُ، وَالْقَانِعُ الزَّاهِدُ، كُلٌّ مُسْتَوْفٍ أَكْلَهُ، مُسْتَوْفٍ رِزْقَهُ، فَعَلَامَ التَّهَافُتُ فِي النَّارِ؟**(٣).

فقد عدل عن التعبير بـ: {علام التهافت على الدنيا} إلى قوله: {علام التهافت في النار}؛ لبيان العاقبة، فهذا مجاز مرسل علاقته المسببية، فالنار مسببة عن أكل الحرام. وقوله: «التهافت»: يناسب اللفظ المستعمل «النار». وتكمن بلاغة المجاز في إبراز هذه السببية، وفي إظهار فظاعة تلك الصورة صورة من يتهافتون في النار، وبشاعتِها، وأفاد المجاز أن التهافت على الدنيا هو عين التهافت على النار، لا فرق بينهما، فهذه سبب هذه، والنتيجة حتمية، والوقوع محقق لا محالة، فلا غضاضة في استعمال لفظ (النار) بدل لفظ {الدنيا}.

* * *

الخلاصة:

صوَّر أهل الرقائق القناعة بشجرة ثمرتها الراحة، وبلحاف يكسو صاحبه عزًا.

---

(١) الرضا لابن أبي الدنيا ص١١٦.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا/ ص٤١.

وعلى الجانب الآخر صوّروا غير القانع بالمجنون، وبالعجماء التي ترتع فيما فيه هلاكها. وصوروا المسرفين بالأبقار؛ حيث إن المسرفين جعلوا بطونهم آلهتهم. وصوَّروا الافتقار إلى الناس والحاجة بالموت الأكبر، وأشار منصور بن المعتمر إلى أنها ككسر الضلع. وشبهوا الطامعين بالأموات بين الناس. ومما جاء واصفًا لتمام قناعتهم تصويرُ الدينار والدرهم بالبعر. كما قبَّح أهل الرقائق من خلال صورة بيانية طمع الناس وتشهيهم الدنيا، فصوروا الفقير بالمريض في تشهيه ما يضره. وقام أهل الرقائق بتصحيح فهم القانطين من رحمة الله مِن خلال صورة بيانية تصف اختبار الله لعباده لرفع درجاتهم - بالأم التي تسقي ابنها الحضض للعافية والشفاء.



المبحث التاسع:
التصوير البياني في مقام طلب الحلال

المحتوى:

١- تشبيه المال بالترس وبالسلاح.

٢- واستعارة التمندل للإهانة.

٣- ومجاز في علاقة الدراهم بإذهاب الهمّ.

٤- وتصوير في قرب الكفر من الفقر.

٥- وتصوير الفقر في صورة طعام له مذاق أمَرُّ من كل مُرٍّ.

٦- وتشبيه الفقر بالسوط.

٧- وتشبيه جمع المال بالصوم والصلاة.

٨- واستعارة تمثيلية (الذود إلى الذود إبل).

٩- وما جاء من صور بيانية في ذم المال.

أ- تشبيه الدرهم بالعقرب.

ب- وتشبيه الأكلة الحرام بحبة الفخ.

جـ- وتشبيه المال بالداء.

د- وتصوير الشبهات والسحت ترابًا.

ه- وتشبيه الدينار والدرهم بالأزمة.

و- واستعارة الغبار للإثم الناتج من التجارة.

١٠- وصور تُبين أن أكل الحلال أصل في قبول الطاعات.

١١- وتشبيه حال المال الحلال في محو الذنوب بحال الماء الذي يغسل التراب عن الصفا.

١٢- وتشبيه حال من ينفق مالًا حرامًا؛ قربةً إلى الله - بمَن يطهر الثوب النجس بالبول.

١٣- وتشبيه الجائع بالأسير، والشبعان بالصريع.

١٤- وتصوير الطمع جهةً ينبغي أن يُمشى إليها رويدًا.

١٥- وتشبيه المؤمن بالنحلة تأكل طيبًا وتضع طيبًا.

١٦- وتشبيه المانع النفسي (العمل الحلال) بالسترة.

١٧- وحفظ الأجوفين (كناية عن البطن والفرج).

١٨- وكناية عن أكل الحرام واجتناء الوزر.

١- تشبيه المال بالترس وبالسلاح:

قال حسان بن ثابت[١]. ﷺ [من البسيط]:

أصـون عرضي بمالي لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض في المال

أحتال للمال إن أودى فأجمعه   ولست للعرض إن أودى بمحتال

ولمثل هذا الغرض تواترت الصور البيانية لأهل الرقائق في مدح المال، فجاء عن سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ - رحمه الله -[ت:١٦١هـ].[٢].: «كَانَ الْمَالُ فِيمَا مَضَى يُكْرَهُ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ تُرْسُ الْمُؤْمِنِ»[٣]. وقال: «الْمَالُ فِي هَذَا الزَّمَانِ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ»[٤]. وقال: «كُنَّا نَكْرَهُ الْمَالَ لِلْمُؤْمِنِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَنِعْمَ التُّرْسُ: الْمَالُ لِلْمُؤْمِنُ»[٥].

فقد شبه المالَ بالترس، وهو ما يتوقى به في الحرب من درع، أو حديد، أو جلد، ووجه الشبه: الصون والوقاية في كلٍّ، فالترسُ يَقِي الجسد، والمال يقي عرض المؤمن، ويصونه، ويحفظ دينه من النقص، ولسانَه من النفاق.

وشبه المال بالسلاح: والتشبيهُ مغايرٌ عن السابق؛ فللدرع عمل، وللسيف عمل، ووجه الشبه: أن كلًا من المال والسلاح وسيلةُ أمانٍ لصاحبه، فالسيفُ أمان لحامله، كذلك المال للمؤمن؛ أمان يصونه أن يتمندل به أحد.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ﷺ / ص١٩٢ / ن: دار الكتب العلمية بيروت/ ت: عبدأ علي مهنا/ ط: الثانية.

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٣) حلية الأولياء/ ج٦/ ص٣٨١.

(٤) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص٤٢.

(٥) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص ٤٣.

٢- استعارة التمندل للإهانة:

عَنْ عَبْدَةَ الْقُرَشِيِّ، قَالَ: رُئِيَ فِي يَدِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ دَنَانِيرُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «**لَوْلَا هَذِهِ تَمَنْدَلَ بِنَا هَؤُلَاءِ**»(١).

استعار التمندل للإهانة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والغرض: بيان مدى الإهانة التي يبلغها مَن يتزلّفُ إلى الأغنياء والكبراء؛ من أجل المال، ينقلب عن تكريم الله، فيكون منديلًا.

قَالَ هِشَامٌ: سَمِعْتُ الْحَسَنَ يَقُولُ يَحْلِفُ بِاللَّهِ: «**مَا أَعَزَّ أَحَدٌ الدِّرْهَمَ إِلَّا أَذَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**»(٢).

استعار العز للحب، ثم اشتق من العز: «أعز» بمعنى: «أحب» على سبيل الاستعارة التبعية، ولو قال الحسن - رحمه الله -: ما أحب أحد الدرهم إلا أذله الله، ما كان لقوله وقْعٌ في النفس كقوله: «ما أعز أحد»؛ لأن المعاملة بنقيض القصد لها أثر في النفس ومفاجأة، وخيبة في الوجدان، ولفظ: «**أذل**» هو من استدعى لفظ «أعز»؛ ليناسبه ويطابقه، وهكذا ألوان البلاغة يستدعي بعضها بعضًا، أو يُبنى بعضها على بعض إن صح القول.

٣- مجاز في علاقة الدراهم بإذهاب الهمّ:

حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ضِرَارٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين [ت:١٠١-١١٠هـ].(٣). قَالَ: «**نَقْدُ الدَّرَاهِمِ يُذْهِبُ الْهَمَّ**»(٤).

---

(١) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص ٤١.

(٢) الزهد لأحمد ص٢١٩.

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ أَبُو بَكْرٍ الأَنْصَارِيُّ الْبَصْرِيُّ، [ت:١٠١ - ١١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص١٥١.

(٤) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص ٤٣.

بيَّن ابن سيرين (رحمه الله) أن في المال أمانًا ودعةً وسكونًا يُذهب الهم عن صاحبه، وإسناد الإذهاب إلى الدراهم مجاز عقلي علاقته السببية.

٤- تصوير في قرب الكفر من الفقر:

قال مُحَمَّدُ بْنُ الْجَعْدِ بْنِ قَتَّةَ [ت:١٤١ - ١٥٠هـ].[١]. قَالَ: «**نِعْمَ الشَّيْءُ الْفَقْرُ، لَوْلَا أَنَّهُ يَثُورُ فِيهِ قُتَارُ**[٢]. **الْكُفْرِ**»[٣].

الْقُتَارُ رِيحُ الْقِدْرِ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الشِّواءِ وَالْعَظْمِ الْمُحْرَقِ وَرِيحِ اللَّحْمِ الْمَشْوِيِّ[٤].

قوله: «**يَثُورُ فِيهِ قُتَارُ الْكُفْرِ**»: صوَّر فيه الكفر (الجحود) بالطعام الذي له قتار، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه على سبيل الاستعارة المكنية، والغرض العام: بيان قرب الكفر من الفقر، وثوران الجحود في الفقر.

٥- تصوير الفقر في صورة طعام له مذاق أمرّ من كل مُرّ:

عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: «**يَا بُنَيَّ، ذُقْتُ الْمَرَارَ كُلَّهُ، فَلَمْ أَذُقْ شَيْئًا أَمَرَّ مِنَ الْفَقْرِ**»[٥].

فقد صوَّر الفقر في صورة طعام له مذاق أَمَرُّ من كل مُرٍّ، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه (أمَرّ) على سبيل الاستعارة المكنية. وقوله: «فَلَمْ أَذُقْ شَيْئًا

(١) مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ. [وَيُقَالُ: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْجَعْدِ الْبَصْرِيُّ] [ت:١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص٩٥٧.

(٢) الْقُتَارُ عِنْدَ الْعَرَبِ رِيحُ الشِّواءِ إِذا ضُهِّبَ عَلَى الجَمْر/ لسان العرب ج٥/ ص٧١.

(٣) إصلاح المال لابن أبي الدنيا / ص١٢١.

(٤) لسان العرب (٥/ ٧١).

(٥) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص١٢٢.

أَمَرَّ مِنَ الْفَقْرِ»: أكَّد أن الفقر أمَرُّ من الحنظل والصبر والعلقم إذا عجنه الحكيم، واستحكم مره.

٦- تشبيه الفقر بالسوط:

أَبُو مُسْهِرٍ [ت:٢١١ - ٢٢٠هـ].[١].: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، يَقُولُ: «**مَا ضُرِبَ الْعِبَادُ بِسَوْطٍ أَوْجَعَ مِنَ الْفَقْرِ**»[٢].

شَبَّهَ الفقر بالسوط، والتشبيه ضمني، وقد أفاد شدة الفقر وبطشته على العباد، وفي الفقر مذلة تشبه مذلة الضرب بالسوط، وانكسارٌ له ألم في القلب.

وقد جاء الفقر في الصور السابقة في صورة دخان مشموم بالأنف، وفي صورة طعام له مرارة في الفم، وفي صورة سوط له ألم يُستشعر بالجلد، فكلُّ هذه الصور المحسوسة تواتَرَتْ؛ لبيان معنى واحدٍ، وكلُّ صورة هي صنعة صاحبها كما يقول أهل العلم.

٧- تشبيه جمع المال بالصوم والصلاة:

عَنِ ابْنِ الْمُبَارَكِ، عَنْ رَجُلٍ، مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ: اشْتَرَى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ [ت:١٣٠هـ].[٣]. سُوَيْقًا وَتَمْرًا كَأَنَّهُ أَكْثَر، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا يَحْيَى مَا هَذَا؟، قَالَ: «**هَذَا صَوْمٌ وَصَلَاةٌ**»[٤].

---

(١) عبد الأعلى بن مُسْهِر بن عبد الأعلى بن مُسْهِر.الإمام أبو مُسهر[ت:٢١١ - ٢٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي /ج٥/ ص٣٦٣.

(٢) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص١٢٨.

(٣) مالك بن دينار / سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٤) إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص٤٥.

أنكر القوم على ابن دينار (رحمه الله) الاستكثار من التمر والسويق؛ لأنه ينافي الزهد والورع، فأجابهم بصورة بيانية أوجزت الكثير من الكلام، وحملت القوم على الإسكات وعدم الجدال.

قوله: **«هذا صوم وصلاة»**: تلخيص لكل ما قلناه من أول المبحث، والتشبيه هنا بليغٌ محذوف الأداة ووجه الشبه، والتقديرُ: أن ما تنكرونه كالصوم والصلاة من حيث الفرضية: فهو يصون العرض والنفس، وهو سلاح المؤمن وتُرسه؛ لذلك لا تقل أهميته عن أهمية الصوم والصلاة، وبهذه الكلمات المعدودة رفع ابن دينار عن نفسه الخجلَ، ورد إنكار الناس عليه، فهل يخجل العبد من الصوم والصلاة؟. وفي هذه الكلمات القليلة تعريضٌ للقوم الذين ينكرون عليه جمع التمر والسويق؛ حيث إنه لا ينبغي لعاقل عالم بدينه أن يتجاهل فرضية الصوم والصلاة؛ لأنهما من المعلوم من الدين بالضرورة، كذلك جمع المال من حلال شأنُه شأنُ الصوم والصلاة.

٨- استعارة تمثيلية (الذود إلى الذود إبل):

روى ابن أبي الدنيا[ت:٢٨٢هـ].[1]. عَنِ السَّرِيِّ بْنِ تَمِيمٍ، حَدَّثَنَا شَيْخٌ مِنْ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، يُكْنَى أَبَا تَمِيمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ بِسُوقِ عُكَاظٍ بَاعَ حِمْلًا، فَوَزَنَ ثَمَنَهُ، فَنَقَصَ حَبَّتَيْنِ، فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، وَقَالَ: **«الذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إِبِلٌ»**[2].

الذود القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر. والذود إلى الذود إبل: يضرب في اجتماع القليل إلى القليل؛ حتى يصير كثيرًا، فالاستعارة تمثيلية، واللفظ

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد [ت:٢٨٢ هـ]فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر - بيروت/ ط: ١.

(٢) إصلاح المال لابن أبي الدنيا / ص٥٦.

المركب مستعمل في غير ما وضع له؛ لعلاقة المشابهة، والقرينة حالية تُفهم من السياق، فاستعار موردها الذي قيلت فيه[1]. لمضربها الذي تُضرب فيه بلا تغيير ولا تبديل.

٩- ما جاء من صور بيانية في ذم المال:

أ- تشبيه الدرهم بالعقرب:

قال يحيي بن معاذ (رحمه الله)[ت: ٢٥١-٢٦٠هـ].[2].: **إِنَّ الدِّرْهَمَ عَقْرَبٌ، فَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ رُقْيَتَهُ فَلَا تَأْخُذْهُ بِيَدِكَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ**»[3].

شبه الدرهم بالعقرب في الإضرار والهلاك، فكم أفنى من دول، وقتل من بشر، وإن كان يستعان به، فكما يستعان بالسُم للداء، فيؤخذ منه بحذر.

---

(١) جاء في كتاب إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص٥٥: عَنْ عَبْدِ الْمَجِيدِ بْنِ أَبِي عَبْسٍ، قَالَ: دَخَلَ أُحَيْحَةُ بْنُ الْجُلَاحِ حَدِيقَتَهُ الزَّوْرَاءَ، فَهَبَطَ بِهِ نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، وَأَنْزَلْنَ بِهِ حَاجَاتِهِنَّ، فَقَالَ: ادْخُلُوا، فَدَخَلْنَ، فَبَيْنَا هُوَ يَمْشِي فِي حَدِيقَتِهِ إِذْ نَظَرَ إِلَى تَمْرَة فأخذها، ثُمَّ إِلَى أُخْرَى فَأَخَذَهَا، فَجَعَلَ يَلْقُطُ التَّمْرَ كَذَلِكَ، حَتَّى جَمَعَ تَمَرَاتٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: أَلَا تَرَيْنَ إِلَى مَا يَصْنَعُ؟ مَا لَكُنَّ عِنْدَهُ خَيْرٌ بَعْدَ هَذَا، فَارْجِعْنَ. فَسَمِعَ قَوْلَهَا، فَقَالَ:» التَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ، وَالذَّوْدُ إِلَى الذَّوْدِ إِبِلٌ، فَذَهَبَ مَثَلًا، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَلَنْ أَزَالَ عَلَى الزَّوْرَاءِ أَعْمُرُهَا ... إِنَّ الْحَبِيبَ إِلَى الْإِخْوَانِ ذُو مَالِ

اسْتَغْنِ أَوْ مُتْ وَلَا يَغْرُرْكَ ذُو نَشَبٍ ... مِنِ ابْنِ عَمٍّ وَلَا عَمٍّ وَلَا خَالِ

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عَبَّاسٍ:

وَوَلَّيْتَ نَفْسَكَ كَإِصْلَاحِ الَّذِي مَلَكَتْ ... بِذَاكَ مَا عِشْتَ إِنَّ الْمَالَ بِالْمَوَالِي

(٢) يحيى بْن مُعَاذ الرَّازِيّ، أَبُو زكريّا الصُّوفيّ، [ت: ٢٥١ - ٢٦٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي /ج٦/ ص٢٣١.

(٣) حلية الأولياء/ ج١٠/ ص٥٩.

وقوله: «**رقيته، لدغك**»: ترشيح للتشبيه، والتشبيه بليغ، وجملة التشبيه مؤكدة بإنَّ.

وقوله: «**فَإِنَّهُ إِنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ**»: جاء جواب الشرط بصيغة الماضي تأكيدًا على تحقق الوقوع.

وكل هذه المؤكدات جاءت؛ لأن أبناء الدنيا ينكرون أن يكون الدرهم عقربًا.

وسِرُّ جمالِ التشبيهِ: أنه أخرج لنا الصورة المخبوءة للدرهم، وكشف لنا كنهه، وأزال الصورة المعهودة، ورسَّخ في الذهن صورة العقرب، وجعَل في القلب مهابةً وخوفًا من الدرهم، ونزع من الوجدان الحرص على جمع الدراهم، ومَن ذا يطيق الإكثار من جمع العقارب؟. وأجملُ ما جاء من شعر في هذا المعنى قولُ عبد الله بن أكثم.

ب- تشبيه الأكلة الحرام بحبة الفخ:

حَدَّثَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْمَرْوَزِيُّ قَالَ: لَمَّا وَلِيَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ الْقَضَاءَ كَتَبَ إِلَيْهِ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَكْثَمَ مِنْ مَرْوَ، وَكَانَ مِنَ الزُّهَّادِ: [البسيط]:

وَلُقْمَةٍ بِجَرِيشِ الْمِلْحِ تَأْكُلُهُ ... أَلَــذُّ مِــنْ تَــمْرَةٍ تُحْشَى بِزَنْبُورِ
وَأَكْــلَــةٍ قَرَّبَتْ لِلْهُلْكِ صَاحِبَهُ ... كَحَبَةِ الْفَخِّ دَقَّتْ عُنُقَ عُصْفُورِ[1].

قوله: «**تَمْرَةٍ تُحْشَى بِزَنْبُورِ**» هو صنو (الدرهم عقرب)، أو بيئتهما واحدة، فالدرهم العقرب هو الدرهم الحرام، والتمرة المحشوة بزنبور هي التمرة الحرام، وليس كل تمرة، فيلتقي الدرهم مع التمر في الحرمة، وتلتقي العقرب مع الزنبور في اللسع والعاقبة.

وقوله: «**تحشى بذنبور**»: كلام ليس على الحقيقة، إنما يقال فيه: صوَّر ما في التمر من إثم وحرام وعاقبة عذاب - بذنبور تصويرَ معقول بمحسوس،

(١) الزهد الكبير/ ص٩١.

استعارة تصريحية، ورشحها بقوله: «تحشى»، والقرينة: أن الناس لم يعهدوا أن التمر يُحشى بالزنابير، كذلك السياق في ذاته قرينة، والصورة استدعت العقوبة والعاقبة التي لم تأت بعدُ، وجعلتها في جوف التمرة حاضرة مرئية أمام عين **الآكل، ووقوع العقوبة واقع بمجرد الأكل.**

وقوله: «وَأَكْلَةٍ قَرَّبَتْ لِلْهُلْكِ صَاحِبَهُ ... كَحَبَةِ الْفَخِّ دَقَّتْ عُنُقَ عُصْفُورِ»: شَبَّهَ فيه أكلةَ الحرام التي تُقرب للهلاك بحبة فخ تدق عنق ملتقطها، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: توافق البداية والنهاية، فالابتداء مطمع، والانتهاء مؤيس.

ج- تشبيه المال بالداء:

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: كَانَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ: **حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَالْمَالُ فِيهَا دَاءٌ كَبِيرٌ قَالُوا: وَمَا دَاؤُهُ؟، قَالَ: لَا يَسْلَمُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ. قَالُوا: فَإِنْ سَلِمَ؟، قَالَ: يَشْغَلُهُ إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»**[1].

شَبَّهَ المال بالداء، ووجه الشبه: الهلاك في كلٍ، وقيد المشبه به بقوله: «كبير»؛ لبيان قدر الهلاك والضرر. ومما يُبَيِّن أنه لا دواء له قولهم لعيسى - عليه السلام-: **«وَمَا دَاؤُهُ؟، قَالَ: لَا يَسْلَمُ مِنَ الْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ. قَالُوا: فَإِنْ سَلِمَ؟، قَالَ: يَشْغَلُهُ إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».**

والمال الحلال دواء:

قَالَ يُونُسَ بْنَ عُبَيْدٍ [ت:١٣١-١٤٠هـ].[2]. يَقُولُ: **«لَوْ أَعْلَمُ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ مِنْ حَلَالٍ مِنْ تِجَارَةٍ لَاشْتَرَيْتُ بِهِ دَقِيقًا، ثُمَّ عَجَنْتُهُ، ثُمَّ خَبَزْتُهُ، ثُمَّ جَفَّفْتُهُ، ثُمَّ دَقَقْتُهُ**

---

(١) الزهد لابن لأبي الدنيا ص٤٣.

(٢) يونس بن عُبَيْد بن دينار، أَبُو عَبْد الله الْبَصْرِيُّ. أحد أعلام الهدى.[ت:١٣١ - ١٤٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص٧٦٠

أُدَاوِي بِهِ الْمَرْضَى»[1].

عَنْ غَالِبِ الْقَطَّانِ قَالَ: ذُكِرَ الْحَلَالُ عِنْدَ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ، فَقَالَ بَكْرٌ: «**إِنَّ الْحَلَالَ لَوْ وُضِعَ عَلَى جُرْحٍ لَبَرِئَ**»[2].

صوَّر الحلالَ بالدواء أو المرهم الذي يُبرئ الجراحات، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه: «**أُدَاوِي بِهِ الْمَرْضَى**» على سبيل الاستعارة المكنية، والغرض: بيان مكانة الحلال وعمله في الأجساد.

- وقولُ يونس بن عبيد: «**لَوْ أَعْلَمُ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ مِنْ حَلَالٍ**»: دلَّ على نُدْرة الحلال، ويترتب على ندرته كثرة المرضى الذين يتمنى يُونس مداواتهم.

د- تصوير الشبهات والسحت ترابًا:

قال المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)[3].: **فالعَجَب كلُّ العَجَبِ لكلِّ مَفْتُون تَمَرَغ في تَخَاليط الشُبُهَات والسُحْت، وتَكَالب على أوسَاخ الناس، وتَغَمَّض في المَكَاسِب من حَيث مَا ظَفَرَ بِهَا تَنَاوَلها!!**[4].

قوله: «**تَمَرَغ في تَخَاليط**»: استعارة مكنية في المتعلق، أي: متعلق الفعل (**تَخَاليط الشُّبُهَات والسُحْت**)؛ حيث شَبَّهَ الشبهات والسحت بالتراب والوحل، وحذف المشبه به، وأشار إليه بلازمه: «تمرغ».

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا ص١١٧ / ت: أبي عبد الله محمد بن حمد الحمود/ ن: الدار السلفية - الكويت/ ط: ١.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا / ص١١٧ .

(٣) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٤) الوصايا للمحاسبي ص٨٠.

والصورة الكلية للنصِّ الذي تلتقي فيه عباراته الثلاثة، هي أن آكِل الحرام كالحيوان؛ حيث إن قول المحاسبي: «**تمرغ، تكالب، تغمض، ظفر بها تناولها**»: هذه أفعالٌ من الحيوانات التمرغ في التراب والتكالب (التواثب بطمع)، والتغمض فيها، وتناولها عند الظفر.

فيقال: شَبَّهَ آكلَ الحرام بالحيوان على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «تمرغ»، ثم رشح الاستعارة بقوله: «**تكالب، تغمض، ظفر بها: تناولها**»، وهذا الاستعارة يسلك فيها العبارات الثلاث كما تسلك حبات الخرز في العقد، فتلتقي في شيء واحد.

وقوله: «**وتَغَمَّض في المَكَاسِب من حَيث مَا ظَفَرَ بِهَا تَنَاوَلها**»: كنايةٌ عن قَبُول الحرام، وعدم تحرِّي الحلالِ.

وهذا الصورة صنعة المحاسبي، ولعل الصورة تكوَّنت مِن عدة صور قيلت في هذا المعنى، فقد جاء في المبحث الثالث (قبحها ومرارتها) أن عَلِيًّا بْن أَبِي طَالِبٍ ﵁ [ت:٤٠][1]. قال: «**الدُّنْيَا جِيفَةٌ، فَمَنْ أَرَادَهَا فَلْيَصْبِرْ عَلَى مُخَالَطَةِ الْكِلَابِ**»[2].

هـ- تشبيه الدينار والدرهم بالأزمة:

قال جعفر سمعت شميطًا[ت:١٤١-١٥٠هـ].[3]. يقول: **إِنَّ الدِينَار والدَّرَاهِم**

(١) الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.

(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص٢٣٨.

(٣) شُمَيْطُ بْنُ عَجْلانَ الْبَصْرِيُّ الْعَابِدِ [ت:١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٨٩٢.

أَزِمَّةَ[1]. الْمُنافِقِين بِها يَنقَادُون إِلى السَّوْءات[2].

فقد شبه الدينار والدرهم بالأزمة، وهي ما تنقاد به الدابة من حبل وغيره، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يجذب صاحبه.

وقوله: «**إلى السوآت**»: قيد خاصٌّ بالمشبه، فليس كل الأزمة تقودُ إلى السوآت، ومن الناس من رضي بالرذائل؛ من أجل المال، ومنهم من باع عرضه، ومن عق والديه، ومن نبذ دينه وراء ظهره، ومفهومُ النَّصِّ أن المنافقين من الناس إذا أخذتهم هذه الأزمة فليس لهم إلا طريق واحد وجهة واحدة، هي جهة السوآت.

و- استعارة الغبار للإثم الناتج من التجارة:

قَالَ ابن سِيرِينَ[ت:١٠١ - ١١٠هـ].[3].: **مَا تِجَارَتُكَ؟، قُلْتُ: الطَّعَامُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّ غُبَارَهُ كَثِيرٌ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: قُلْتُ لِمَخْلَدٍ: يَعْنِي إِثْمَهُ؟، قَالَ: نَعَمْ»**[4].

استعار الغبار للإثم على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

والغبار: هو ما دقَّ من التراب، وكثير من تِجَارات الأطعمة يَدق فيها الإثم، فلا يعرفه إلا العالم، ولا يتركه إلا الورع، والأغلب يتهاون في الإفصاح عن السلعة، أو الوزن، أو غير ذلك مِمَّا امتلأَتْ به كتب الفقه، ووصفُ المستعار بالكثير؛ لبيان مقدار هذا الغبار.

---

(١) زمم: زَمَّ الشيءَ يَزُمُّه زَمًّا فانْزَمَّ: شَدَّهُ. والزِّمامُ: مَا زُمَّ بِهِ، وَالْجَمْعُ أَزِمَّةٌ. والزِّمامُ: الْحَبَلُ الَّذِي يُجْعَلُ فِي الْبُرَةِ وَالْخَشَبَةِ، وَقَدْ زمَّ الْبَعِيرَ بالزِّمام. لسان العرب ج:١٢/ ص٢٧٢ .

(٢) الورع لأبي بكر المروزي / ص٧١.

(٣) مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْصَارِيُّ الْبَصْرِيُّ، [ت:١٠١ - ١١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص١٥١.

(٤) الزهد لأحمد ص ٢٤٨.

١٠- صور تُبين أن أكل الحلال أصلٌ في قَبُول الطاعات:

قال إِسْحَاقُ: حَدَّثَنِي مُؤَمَّلٌ، قَالَ: سَمِعْتُ وُهَيْبًا[ت:١٥١ - ١٦٠هـ].(١). يَقُولُ: «**لَوْ قُمْتَ قِيَامَ هَذِهِ السَّارِيَةِ مَا نَفَعَكَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَدْخُلُ بَطْنَكَ حَلَالٌ أَمْ حَرَامٌ**»(٢).

التشبيه هنا بليغ، والتقدير: لو قمت قيامًا كقيام هذه السارية، والغرض: بيان مقدار الحال، ووجه الشبه: طُول القيام والاستمرار وعدم الانقطاع. فقيامُ آكل الحرام - وإن طال - لا ينفعه، وكذلك سفره كما قال النبي ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}** [المؤمنون:٥١]. **وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}** [البقرة:١٧٢]. **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟**»(٣).

- قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ[ت:١٦١هـ].(٤).: «**انْظُرْ دِرْهَمَكَ مِنْ أَيْنَ هُوَ؟، وَصَلِّ فِي الصَّفِّ الْأَخِيرِ**»(٥).

قوله: «**انْظُرْ دِرْهَمَكَ مِنْ أَيْنَ هُوَ**»: كنايةٌ عن تحرِّي الحلال والبعد عن الحرام، والأمر واضح ظاهر يستطيع الإنسان أن ينظر، فيرى من أين درهمه،

(١) وُهَيب بْن الورد أَبُو أُمية، [ت:١٥١ - ١٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٤/ ص٢٤٩.
(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص١٥٤.
(٣) صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣).
(٤) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.
(٥) كتاب الزهد الكبير للبيهقي/ ص٣٤٣.

فالحلال بيِّن، والحرام بيِّن.

والأمر في قوله: «**وصل في الصف الآخير**»: كناية عن قَبُول صلاته حين يتحرَّى الحلال سواءٌ أصلى في الصف الأول، أم الأخير. والدينُ حِفْظُ البطن وما وعى، والرأس وما حوى. وشبيه بهذا النص ما جاء عن حُذَيْفَةَ الْمُرْعَشِيُّ[ت:٢٠١-٢١٠هـ].[1]. عندما نظر إِلَى النَّاسِ يَتبَادَرُونَ إِلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ، فَقَالَ: «**يَنْبَغِي أَنْ يَتَبَادَرُوا إِلَى أَكْلِ خُبْزِ الْحَلَالِ، وَلَا يَتَبَادَرُوا إِلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ**»[2].

١١- تشبيه حال المال الحلال في محو الذنوب - بالماء الذي يغسل التراب عن الصفا:

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ[ت: ٣٢هـ].[3]: **إِنَّ كَسْبَ الْمَالِ مِنْ سَبِيلِ الْحَلَالِ قَلِيلٌ، فَمَنْ كَسِبَ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، وَمَنْ كَسِبَ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، فَذَلِكَ الدَّاءُ الْعُضَالُ، وَمَنْ كَسِبَ مَالًا مِنْ حِلِّهِ، فَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَذَلِكَ يَغْسِلُ الذُّنُوبَ كَمَا يَغْسِلُ الْمَاءُ التُّرَابَ عَنِ الصَّفَا**»[4].

قوله: «الداء العضال»: شَبَّهَ فيه كسْبَ المال من غير حله، ووضعه في غير حقه - بالداء العضال، أي: الذي لا دواء له؛ من حيث الخطورة والضرر وعدم الجدوى، فكما أنه لا بُرء في هذا، فلا ثواب في ذاك.

- قوله: «**وَمَنْ كَسِبَ مَالًا مِنْ حِلِّهِ، فَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ: فَذَلِكَ يَغْسِلُ الذُّنُوبَ كَمَا يَغْسِلُ الْمَاءُ التُّرَابَ عَنِ الصَّفَا**»: شَبَّهَ فيه حالَ المال الحلال في محو الذنوب - بالماء

(١) حُذَيْفة بْن قَتَادة المَرْعَشِيّ الزَّاهد، [ت:٢٠١ - ٢١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي ج٥/ ص٤٧.

(٢) كتاب الزهد الكبير، ص٣٤٣.

(٣) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

(٤) الزهد لأحمد ص١١٣.

الذي يغسل التراب عن الصفا، والتشبيه مركب، وتقييد المشبه به بقوله: «**الصفا**»: أفاد قوة عمل المال الحلال في محو الذنوب؛ حيث إنه لا يترك ذنبًا كما أن الماء إذا نزل على الصفا لم يترك عليه ترابًا، والتشبيهُ نقَل النفسَ من المعقول إلى المحسوس.

١٢- تشبيهُ حال من ينفق مالًا حرامًا؛ قربةً إلى الله - بمن يطهر الثوب النجس بالبول:

قال سفيان الثوري - رحمه الله -[ت:١٦١هـ].[١].: **من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء، والذنب لا يكفره إلا الحلال**[٢]. شَبَّهَ فيه حالَ من ينفق مالاً حرامًا؛ قربةً إلى الله؛ ليغفر له ذنوبه بمن يطهر الثوب النجس بالبول، والتشبيه تمثيلي تمتزج فيه الأطراف، وتتماسك الخيوط؛ لتخرج نتيجة مقنعة يقبلها العقل، ووجه الشبه: معالجة الداء بما هو داء.

وأظهرت الصورة ما اعتقده بعضُهُم من فَهْم فاسد، وبينت خطر ما استسهلوه حتى أصبحوا كالأبله الذي يغسل الثوب بالبول.

١٣- تشبيه الجائع بالأسير، والشبعان بالصريع:

قال الأصمعي(ت:٢١٥هـ).[٣].: بلغني أن الحسن قال: **يا ابن آدم، أنتَ أسِيرُ الجُوع، صَريع الشِّبع؛ إن قومًا لَبِسُوا هذه المَطَارف العِتاق والعَمَائم الرِّقاق،**

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٢) إحياء علوم الدين/ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي/ ج٢/ ص٩١/ ن: دار المعرفة - بيروت.

(٣) الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت:٢١٥هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٠/ ص١٨١.



ووسَّعوا دورهم، وضَيّقوا قبورهم، وأَسْمَنوا دَوابهم، وأَهْزَلوا دينهم، يَتِكىء أحدهم على شِمَاله، ويَأْكُل من غَير مَاله، فإذا أدْرَكَته الكَظّة قال: يا جارية، هَاتي هاضُومَك!(١). ويلك!، وهل تَهْضِم إلا دينك؟(٢).

قوله: **«أنت أسير الجوع»**: شَبَّهَ فيه العبد الجائع بالأسير، والتشبيه بليغ. وشَبَّه الشبعان بالصريع الذي لا حركة له، ولا طاقة، ولا عزم، والتشبيه بليغ.

والمُلاحَظُ هنا: أن غرض الحسن (رحمه الله) بيانُ أن الشبع أخطر من الجوع، وأن ضرره أشد، والفرق واضح بين الأسر والقتل، وهذا الغرض هو عمود النص، والكلامُ الآتي يوضح ذلك.

- قوله: **«إن قومًا لَبِسُوا هذه المَطَارف العِتاق والعَمَائم الرِّقاق، ووسَّعوا دورهم، وضَيّقوا قبورهم»**. قوله: (وضيقوا قبورهم): كناية عن ترك العمل.

- وقوله: **«وأهزلوا دينهم»**: استعار الهزال للنقص استعارة تبعية، والمعنى: أنقصوا دينهم.

- وذكر تسمين الدواب والاهتمام بها، وترك الدين أبرز حماقة القوم وجهلهم ومدى تفريطهم في دينهم، وأنهم ذهبوا في الغفلة غورًا بعيدًا.

- وقوله: **«يَتِكىء أحدهم على شِمَاله، ويَأْكُل من غَير مَاله، فإذا أدْرَكَته الكَظّة قال: يا جارية، هَاتي هاضُومَك!(٣). ويلك! وهل تَهْضِم إلا دينك؟»**: استعار فيه الهضمَ للإنقاص على سبيل التبعية، وسوَّغ ذلك الاستعارةَ وقوعُ الهضم في

---

(١) والهَاضُومُ: كلُّ دَواءٍ هَضَمَ طَعَامًا كالجُوارِشْنِ. لسان العرب ج١٢/ ص٦١٣.

(٢) العقد الفريد ج٣/ ص١٥٢/ ١٥٣.

(٣) والهَاضُومُ: كلُّ دَواءٍ هَضَمَ طَعَامًا كالجُوارِشْنِ. لسان العرب ج١٢/ ص٦١٣.

صحبة الهاضوم، وهو من المشاكلة أيضًا.

- وجعل الدين هو المهضوم؛ تنبيهًا للغافل أنه لا يهضم طعامًا، إنما يهضم دينه، والتوبيخ ظاهر في الاستفهام.

١٤- تصوير الطمع جهةً ينبغي أن يُمشى إليها رويدًا:

قَالَ ضَمْرَةُ: قَالَ سُفْيَانُ[ت:١٦١هـ](١).: كَانَ يُقَالُ: **يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، لاَ تَتَعَجَّلُوا مَنْفَعَةَ الْقُرْآنِ، وَإِذَا مَشَيْتُمْ إِلَى الطَّمَعِ فَامْشُوا رُوَيْدًا**(٢).

فقد صوَّر الطمع جهة يُسار إليها على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «امشوا»، ورويدًا ترشيح للاستعارة. والمعنى: إذا سألتم الناس الدنيا فبعزة نفس بلا إسراع وتلهف، وبلا انكباب وتكالب.

١٥- تشبيه المؤمن بالنحلة تأكل طيبًا وتضع طيبًا:

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّنْعَانِيُّ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ(ت:١١٣هـ)(٣). يَقُولُ: «**لَقِيَ رَجُلٌ رَاهِبًا ... فَقَالَ الرَّجُلُ لِلرَّاهِبِ: فَأَوْصِنِي؛ فَإِنِّي أَرَاكَ حَكِيمًا. قَالَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا، وَلَا تُنَازِعْ أَهْلَهَا فِيهَا، وَكُنْ فِيهَا كَالنَّحْلَةِ، إِذَا أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّبًا، وَإِنْ رُفِعَتْ عَلَى عُودٍ لَمْ تَكْسِرْهُ، وَانْصَحْ لِلَّهِ نُصْحَ الْكَلْبِ لِأَهْلِهِ، يُجِيعُونَهُ، وَيَطْرُدُونَهُ، وَيَضْرِبُونَهُ، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يَنْصَحَ لَهُمْ. قَالَ: فَكَانَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ إِذَا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ: وَاسَوْأَتَاهُ إِذَا كَانَ الْكَلْبُ أَنْصَحَ لِأَهْلِهِ مِنْكَ لِلَّهِ**»(٤).

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.
(٢) حلية الأولياء / ج٦/ ص٣٩٢.
(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج ٤/ ص٥٥٧.
(٤) حلية الأولياء / ج٤/ ص٢٧/ وورد في الزهد لهناد ص٢٦٤.

قوله: «وَكُنْ فِيهَا كَالنَّحْلَةِ، إِذَا أَكَلَتْ أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَإِنْ وَضَعَتْ وَضَعَتْ طَيِّبًا»: تشبيه مرسل، ووجه الشبه: العمل الصالح النافع.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، قَالَ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحلَةِ؛ تَأْكُلُ طَيِّبًا، وَتَضَعُ طَيِّبًا»**[1].

قوله: «وَإِنْ رُفِعَتْ عَلَى عُودٍ لَمْ تَكْسِرْهُ»: كناية عن خفة النحل.

١٦- تشبيه المانع النفسي (العمل الحلال) بالسترة:

قال ابن عمر ﷺ[ت:٧١ - ٨٠هـ].[2]: **إِنِّي لُأحِبُ أنْ أَدَعَ بيني وبين الحَرَام سِتَرَة من الحَلال، ولا أُخْرِمها**[3].

يريد أن يقول: إني لأحب أن أجعل بيني وبين الحرام مانعًا يمنعني من الوقوع في الحرام، فشبه هذا المانع النفسي - وهو العمل الحلال - بالسترة التي يستر المرء بها جسده، والجامع الحفظ والصون في كلٍّ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

١٧- حفظ الأجوفين (كناية عن البطن والفرج):

عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ[ت:٣٢هـ].[4]. كَانَ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ

---

(١) كتاب الإيمان لأبي بكر بن أبي شيبة ص٣٧/ ت: محمد ناصر الدين الألباني/ ن: المكتب الإسلامي/ ط: ٢.

(٢) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ [ت: ٧١ - ٨٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشار ج٢/ ص٨٤٣.

(٣) الورع لأبي بكر المروزي ص٥٥.

(٤) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

الْأَجْوَفَانِ هَمَّهُ: خَسِرَ مِيزَانَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١). الأجوفان: كناية عن البطن والفرج(٢).

١٨- كناية عن أكل الحرام واجتناء الوزر:

وعَنْ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى ابْنَ عُمَرَ، وَجَاءَ ابْنٌ لَهُ، فَقَالَ: يَا أَبتِ اكْسُنِي إِزَارًا، قَالَ: يَا بُنَيَّ نَكِّسْ إِزَارَكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي بُطُونِهِمْ، وَعَلَى ظُهُورِهِمْ»(٣).

قوله: «يَا بُنَيَّ نَكِّسْ»: كنايةٌ عن الخشوع والخضوع والتذلل لله عز وجل.

وقوله: «على ظهورهم»: كنايةٌ عن أكل الحرام واجتناء الوزر؛ فإن صاحبه يأتي يوم القيامة حامله على ظهره، قال - تعالى -: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ (الأنعام:٣١).

* * *

الخلاصة:

نظر أهل الرقائق إلى المال من منظور شرعي، فمدحوا منه ما كان محمودًا شرعًا، وذمُّوا ما كان منه مذمومًا شرعًا. أما عن المدح فقد شبهوا المال بالتُّرس والسلاح، والمانع من تمندل الأغنياء بهم، وجعلوا الدراهم سببًا في إذهاب الهمِّ،

---

(١) الزهد لابن المبارك ص٢١٧.

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَكْثَرُ مَا يَلِجُ بِهِ الإِنْسَانُ النَّارَ الأَجْوَفَانِ: الْفَرْجُ وَالْفَمُ، وَأَكْثَرُ مَا يَلِجُ بِهِ الإِنْسَانُ الْجَنَّةَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ./ الزهد لأحمد ٦٦٠ص.

(٣) الزهد لأحمد ص ١٥٨.

وشبَّهُوا جمع المال بالصوم والصلاة من حيث الأهمية والفرضية، وشبهوا حال المال الحلال في محو الذنوب بحال الماء الذي يغسل التراب عن الصفا، وشبهوا المؤمن بالنحلة تأكل طيبًا، وتضع طيبًا، وتِباعًا لهذه النظرة ذموا الفقر، وصوَّرُوا قرب الكفر منه، وشبَّهُوه بطعام أمَرَّ من كل مُرٍّ، وشبهوه بالسوط الموجِع.

أما عن نظرتهم إلى المال المذموم: فقد شبهوا الدرهم بالعقرب، وأكلة الحرام بالفخ، والمال بالداء، والشبهات والسحت بتراب يتمرغ فيه سفلة الناس، وشبهوا الدرهم والدينار بالأزمة التي ينقاد بها المنافقون، ويظهر أثر البيئة في هذه الصور واضِحًا. وبرهنوا على أن المال الحرام لا ينفع في القرابات ومغفرة الذنوب بصورة من يُطَهِّر الثوب النجس بالبول.



المبحث العاشر:
التصوير البياني في مقام التقوى والورع

المحتوى:

** ما جاء في وصف التقوى.

١- تصوير التقوى حصنًا.

٢- وتصوير التقوى سلاحًا.

٣- وتشبيه حال الإيمان بلا تقوى بحال إنسان عريان لا لباس له.

٤- وتشبيه المتقي بالفرس الملجم.

وما جاء في وصف الورع.

١- وتصوير بياني في الورع عن الأكل.

٢- وتصوير بياني في الورع عن المخالطة.

٣- وتصوير بياني في الورع عن الشهوات والصبر على نارها.

٤- وتصوير بياني في الورع عن الهدية حفاظًا على الحق.

٥- وتصوير بياني يُبيِنُ مكانة الورع من الإسلام.

٦- وتشبيه عمل المتورع في الفتن بعبادة النبيين في الرخاء.

٧- وتصوير بياني في الورع عن الهوى.

٨- وتصوير بياني في الورع عن اللغو.

٩- وتصوير بياني في الورع عن الفتوى.



ما جاء في وصف التقوى:

١- تصوير التقوى حصنًا:

كَتَبَ عَامِلٌ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّ مَدِينَتَنَا قَدْ تَصَدَّعَتْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ(ت:١٠١هـ).[١]: «**حَصِّنُوهَا بِالتَّقْوَى، وَطَهِّرُوا طُرُقَهَا مِنَ الظُّلْمِ**»[٢].

فقد صوَّر التقوى بالحائط المنيع الذي يمنع المدينة من أعدائها، وحذف المستعار، وأبقى لازمه: «**حصنوا**» على سبيل الاستعارة المكنية.

وقوله: «**وَطَهِّرُوا طُرُقَهَا مِنَ الظُّلْمِ**»: صوَّر فيه الظلم بالقاذورة على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «**طهروا**».

٢- تصوير التقوى سلاحًا:

قال مُحَمَّدُ بْنُ يَحيَى بْنِ أَبِي حَاتِمٍ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ هَانِئٍ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لِأَبِي حَازِمٍ: إِنَّكَ مُتَشَدِّدٌ، فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ [ت:١٣٩هـ].[٣]: «**وَمَا لِي لَا أَتَشَدَّدُ وَقَدْ تَرَصَّدَنِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَدُوًّا، أَمَّا أَرْبَعَةٌ: فَشَيْطَانٌ يَفْتِنُنِي، وَمُؤْمِنٌ يَحْسُدُنِي، وَكَافِرٌ يَقْتُلُنِي، وَمُنَافِقٌ يُبْغِضُنِي، وَأَمَّا الْعَشَرَةُ فَمِنْهَا: الْجُوعُ، وَالْعَطَشُ، وَالْحَرُّ، وَالْبَرْدُ، وَالْعُرْيُ، وَالْهَرَمُ، وَالْمَرَضُ، وَالْفَقْرُ، وَالْمَوْتُ، وَالنَّارُ، وَلَا أُطِيقُهُنَّ إِلَّا بِسِلَاحٍ تَامٍّ، وَلَا أَجِدُ لَهُنَّ سِلَاحًا أَفْضَلَ مِنَ التَّقْوَى**»[٤].

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي(ت:١٠١هـ) الوافي بالوفيات للصفدي ج٢٢/ ص٣١٢.

(٢) قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص٢٠٨.

(٣) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ أَبُو حَازِمٍ [ت:١٣٩هـ] الوافي بالوفيات / ج١٥/ ص١٩٩.

(٤) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٢٣١.

قوله: «وَلَا أَجِدُ لَهُنَّ سِلَاحًا أَفْضَلَ مِنَ التَّقْوَى»: صوَّر فيه التقوى بالسلاح على سبيل الاستعارة التصريحية، وفَرِغ من كون التقوى سلاحًا، ثم جعلها أفضلَ الأسلحة.

ولما بدأ الكلام بذكر الأعداء ناسبه أن تكون التقوى سلاحًا من باب مراعاة النظير، وأخذ أبو حازم يذكر الأعداء، ومنها المعقول والمحسوس، والأذن تنتظر وتتشوق لسماع هذا التفصيل والحصر.

٣- تشبيه حال الإيمان بلا تقوى بحال إنسان عريان لا لباس له:

عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ(ت:١١٣هـ).[(١)].: **«الْإِيمَانُ عُرْيَانٌ، وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى، وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ، وَمَالُهُ الْعِفَّةُ»**[(٢)].

فقد شبه حال الإيمان الذي لا يقترن بالتقوى والحياء والعفة - بحال إنسان عريان لا لباس له يستره، أو مالَ يُعفه، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يحتاج إلى ما يكمله ويزينه. والتشبيه تمثيلي.

وقد جاء الإيمان في صورة شخص له لباس وزينة ومال، إذا نقص شيء من ذلك اضطربت الصورة، وظهر فيها الخللُ، وأصبحت مشينة، وأظهرت الصورة ما يحدث من خلل معنوى في الإيمان الذي لم يقترن بتوبة في هيئة خلل حسي: (إنسان عريان).

---

(١) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا / ص٤١/ ت: مجدي السيد إبراهيم/ ن: مكتبة القرآن - القاهرة.

٤- تشبيه المتقي بالفرس الملجم:

عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ (ت:١٠١هـ).[١]. يَقُولُ: «**إِنِّي وَجَدْتُ مُتَّقِي اللَّهِ مُلْجَمًا**»[٢].

قوله: «**إِنِّي وَجَدْتُ مُتَّقِي اللَّهِ مُلْجَمًا**»: شَبَّهَ الإنسان المتقي بالفرس الملجم في الخضوع والخشوع والتذلل وطاعة مولاه، وامتثاله للأمر. والمؤمن ملجم لا يقْدُم علي شيء، ولا يتحرك إلا بشرع، ولا يحك جلده إلا بنص أو أثر كما قيل. والصورة البيانية منزعها بيئة العرب التي تغنت بالخيول، وأكثرت من ذكرها.

ما جاء في وصف الورع:

تعريف الورع: الاجتناب عن الشبهات سواءٌ كان تحصيلًا أو غير تحصيل؛ إذ قد يفعل المرء فعلًا؛ تورعًا، وقد يتركه؛ تورعًا أيضًا. ويُستعمل بمعنى التقوى، وهو الكف عن المحرمات القطعية[٣].

والورع أصله جبن وضعف، وقد يستعمل في كل واحد منهما، لكنه جُعِل في عرف الشرع عبارةً عن ترك التسرُّع إلى تناول أعراض الدنيا، وذلك على ثلاثة أضرب:

واجب: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للناس كافة. وندب: وهو الوقوف

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي(ت:١٠١هـ) الوافي بالوفيات للصفدي ج٢٢/ ص٣١٢.

(٢) الورع لابن أبي الدنيا ص٧٩.

(٣) الكليات للكفوي ص٩٤٤/ ت :عدنان درويش - محمد المصري/ ن : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

عن الشبهات، وذلك للأوساط. وفضيلة: وهو الكف عن كثير من المباحات، والاقتصار على أقل الضرورات، وذلك للمتقين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[1].

١- تصوير بياني في الورع عن الأكل:

أ- قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ[ت:٢٠٥].[2]. يَقُولُ: **«رُبَّمَا سَمِعْتُ الرَّجُلَ يَقُولُ: فُؤَادِي يَلْحَسُنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ أَضْعُفَ عَنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ مَا أَكَلْتُ شَيْئًا»**[3].

يصف أبو سليمان معاناته مع نفسه وجهاده لفؤاده وشدة ورعه. **وقوله: «فُؤَادِي يَلْحَسُنِي مِنَ الْجُوعِ»**: فيه صورة بيانية أخرجت الفؤاد من تلافيف الصدر، فجعلته في مسلخ سبع مفترس، له لسان يلعق به، ويلحس به، ومطالبة الفؤاد له جاءت في صورة اللحس، وقد جاء في المثل: «**أَسْرَع مِنْ لَحْسِ الْكَلْبِ أنفه. ولحِسْت الإِناء لَحْسَة ولُحْسَة، ولَحَسَه لَحْسًا: لَعِقَه**»[4].

- فقد صوَّر فؤاده بالحيوان النهم الذي يلحس الشيء؛ يظنه طعامًا من شدة الجوع. وقوله: «**يلحسني**» لازم الاستعارة المكنية، والاستعارة تُظهر حُرقة الجوع في فؤاده.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص٢٢٧/ /ت: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي/ ن: دار السلام - القاهرة/ عام النشر: ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

(٢) أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن أحمد[المتوفي:٢٠٥] / سير أعلام النبلاء / ط: الرسالة ج١٠/ ص١٦٨.

(٣) حلية الأولياء / ج٩/ ص٢٦٤.

(٤) لسان العرب ج٦/ ص٢٠٥.

ب- عَنِ الْحَسَنِ، أَنَّ عُمَرَ [ت:٢٣هـ][1]. أُتِيَ بِشَرْبَةِ عَسَلٍ، فَذَاقَهَا، فَإِذَا مَاءٌ وَعَسَلٌ، فَقَالَ: «**اعْزِلُوا عَنِّي حِسَابَهَا، اعْزِلُوا عَنِّي مُؤْنَتَهَا**»[2].

قوله: «**حِسَابَهَا**»: الصورة فيه مجاز مرسل علاقته المسببية، ذكر المسبب، وأراد السبب العسل، فأصبح المشروب إنما هو حساب، كما أصبح المأكول نارًا في قوله - تعالى -: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ (النساء: ١٠)، وبهذا الورع رأى الحساب في الدنيا حاضرًا مع العسل؛ وهذا لشدة يقينهم. وقوله: «**اعْزِلُوا عَنِّي**»: فيه ورع بلَغ منتهاه.

٢- تصوير بياني في الورع عن المخالطة:

عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ شِمْرٍ، قَالَ: قَالَ سَعِيدٌ[ت:٩٥هـ].[3].: «**إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ بَابًا مِنْ حَدِيدٍ، لَا أُكَلِّمُهُمْ، وَلَا يُكَلِّمُونِي**»[4].

أي: بينه وبين الناس حاجز ومانع نفسي، هذا الحاجز هو الترفع والورع، وقد استعار له الباب على سبيل الاستعارة التصريحية، وقيد المستعار، فجعله من حديد؛ لبيان قوة هذا الحاجز.

---

(١) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الزهد لأحمد ص٩٩.

(٣) سعيد بن جبير بن هشام الوالبي مولاهم[ت:٩٥ هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٣٤٢.

(٤) الزهدلأبي عاصم ص ٣٦/ ت: عبد العلي عبد الحميد حامد/ ن: دار الريان للتراث - القاهرة/ ط:٢.

٣- تصوير بياني في الورع عن الشهوات والصبر على نارها:

قال يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ: حدثنا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: وَجَدْتُ فِي كِتَابِ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ[ت: ١١١ - ١٢٠ هـ](١).: «**مَا أَشَدُّ الشَّهْوَةِ فِي الْجَسَدِ؛ إِنَّهَا مِثْلُ حَرِيقِ النَّارِ، وَكَيْفَ يَنْجُو مِنْهَا الْحَصُورِيُّونَ؟**»(٢).

شبه شدة تأثير الشهوة في الجسد بشدة تأثير الحرق بالنار، ووجه الشبه: شدة الألم في كل، وصعوبة النجاة.

٤- تصوير بياني في الورع عن الهدية حفاظًا على الحق:

قَالَ وَهْب (ت:١١٣هـ)(٣).: «**إِذَا دَخَلَتِ الْهَدِيَّةُ مِنَ الْبَابِ خَرَجَ الْحَقُّ مِنَ الْكُوَّةِ**»(٤).

صوّر الهدية بشخص على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها (دخل)، وشبه الحق بشخص على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها (خرج).

والغرض من هذا التشخيص هو الكناية عن أن الرشوة سبيل إلى الظلم وعدمِ مراعاة الحق، وبيان استحالة الجمع بين الاثنين. والكوة هي النافذة الصغيرة التى تدخل منها الشمس، وخروج الحق من الكوة دون الخروج من الباب: أفاد إباء الحق أن يخرج أو يمر من مكان الهدية، وأفاد أيضًا سرعة خروج الحق الذي لم

---

(١) يزيد بْن مَيْسرة بْن حَلْبَس الدمشقيُّ. [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٣٤٠.

(٢) حلية الأولياء / ج٥/ ص٢٤١.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٤) حلية الأولياء / ج٤/ ص٦٤..

ينتظر حتى يخرج من الباب نفسه، والصورة بينت أن بمقدار ما تدخل الهدية من الباب يخرج الحق من الكوة، فلا سبيل للجمع بينهم، أو للإيمان ببعض والكفر ببعض.

٥- تصوير بياني يُبين مكانة الورع من الإسلام:

عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مَثَلُ الْإِسْلَامِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ، فَأَصْلُهَا الشَّهَادَةُ، وَسَاقُهَا كَذَا - شَيْئًا سَمَّاهُ - وَثَمَرُهَا الْوَرَعُ، وَلَا خَيْرَ فِي شَجَرَةٍ لَا ثَمَرَ لَهَا، وَلَا خَيْرَ فِى إِنْسَانٍ لَا وَرَعَ لَهُ»(١).

شَبَّهَ الإسلام والعمل بأركانه واجتناب نواهيه بالشجرة المثمرة ينتفع بها الناس، ووجه الشبه: النفع والأثر الحسن.

قوله: «وَثَمَرُهَا الْوَرَعُ، وَلَا خَيْرَ فِي شَجَرَةٍ لَا ثَمَرَ لَهَا»: أظهر مكانة الورع من الإسلام، وأنه بمنزلة عالية، فإيمان لا يثمر ولا ينتج عند صاحبه ورعًا هو إيمان ناقص معتل صاحبُه، استحكمت فيه الآفات، وحالت بينه وبين الإثمار.

٦- تشبيه عمل المتورع في الفتن بعبادة النبيين في الرخاء:

قَالَ صَالِحٌ الْمُرِّيُّ[ت:١٧١ - ١٨٠هـ](٢).: كَانَ يُقَالُ «الْمُتَوَرِّعُ فِي الْفِتَنِ كَعِبَادَةِ النَّبِيِّينَ فِي الرَّخَاءِ»(٣).

قوله: «الْمُتَوَرِّعُ فِي الْفِتَنِ، كَعِبَادَةِ النَّبِيِّينَ»: شَبَّهَ فيه عملَ المتورع في الفتن

---

(١) كتاب الزهد الكبير ص٣١١..

(٢) صَالِحٌ الْمُرِّيُّ، هُوَ وَاعِظُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، أَبُو بِشْرٍ صَالِحُ بْنُ بَشِيرِ الْبَصْرِيُّ / تاريخ الإسلام للذهبي ج٤/ ص٦٥٣.

(٣) الورع لابن أبي الدنيا ص٥١.

بعبادة النبيين في الرخاء، ووجه الشبه: عظم العمل والأجر، وما يعيشه المتورع في الفتن من قلة الأعوان وغربة الإسلام شبيه بما عاشه النبيون عليهم السلام، وحيث إن الأجور تتضاعف في زمن الفتن وفي غفلة الناس، قال النبي ﷺ: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(١).

٧- تصوير بياني في الورع عن الهوى:

أ- عَنْ وَهْبٍ(ت:١١٣هـ)(٢). أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْعُبَّادِ قَالَ لِمُعَلِّمِهِ: «**قَدْ قَطَعْتُ الْهَوَى، فَلَسْتُ أَهْوَى مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا. فَقَالَ لَهُ مُعَلِّمُهُ: أَتُفَرِّقُ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالدَّوَابِّ إِذَا رَأَيْتَهُنَّ مَعًا؟، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَتُفَرِّقُ بَيْنَ الدَّنَانِيرِ وَالْحَصَى إِذَا رَأَيْتَهُنَّ مَعًا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَمْ تَقْطَعِ الْهَوَى عَنْكَ، وَلَكِنَّكَ قَدْ أَوْثَقْتَهُ**»(٣).

صوَّر الهوى بالشيء المجسم الذي يُقطع ويُفصل، وحذف المستعار على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «قطعت».

وقوله: «**إنك لَمْ تَقْطَعِ الْهَوَى عَنْكَ، وَلَكِنَّكَ قَدْ أَوْثَقْتَهُ**»: أوثقته أي: أحكمت ربطه، صوّر الهوى بالشيء الذي يُربط ويُوثق، وحذف المستعار، وأشار إليه بلازم من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية.

ب- أورد ابن أبي الدنيا [ت:٢٨٢هـ](٤).: **قيل لبعض الحكماء: أَوْصِنا بأَمْر جَامِع، قال: احفَظُوا وَعُوا أنّه ليس من أَحَد إلا ومعه قَاضِيان باطنان، أحدهما:**

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي /ج٣/ ص١٤٨٣/ ت: محمد ناصر الدين الألباني/ ن: المكتب الإسلامي - بيروت/ ط: ٣.

(٢) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ج٤/ ص٥٥٧.

(٣) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٦٥.

(٤) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد/ [ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات/ ج٢/ ص٢٢٨.

ناصِح، والآخر: غَاشٌّ، فأما النَّاصح فالعَقْل، وأما الغَاش فالهوى، وهما ضِدَّانِ، فأيهما مِلت مَعَه وَهِيَ الآخَرُ[1].

شبه العقل بقاض ناصح، ووجه الشبه: الإرشاد والصدق في التوجيه والرأي. وشبه الهوى بقاض غاشٍّ، ووجه الشبه: الكذب والتدليس وتزيين القبيح وتجميل الباطل.

وقوله: «**فأيهما ملت معه وهي الآخر**»: ترشيح للتشبيه بعد ما أخرج المعانيَ العقليةَ في صورة قاضيين لكل واحد منهم صفة رشحت التشبيهَ، وهذه الصورة تؤكد أن الذي يدور في خلد الإنسان صراع بين الحق والباطل، وداعي الخير، وداعي الشهوات والشر.

٨- تصوير بياني في الورع عن اللغو:

أَخْبَرَ ابْنُ الْمُبَارَكِ قِرَاءَةً، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ قَتَادَةَ[ت:١١١-١٢٠هـ][2]. فِي قَوْلِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: {**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**} [المؤمنون:٣]. قَالَ: «**أَتَاهُمْ وَاللَّهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا وَقَذَهُمْ عَنِ الْبَاطِلِ**»[3].

يقال: وقذه أي: ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت. فقد استعار الوقذ للمنع، والتقدير: أتاهم من الله ما منعهم عن الباطل، والاستعارة تبعية، والغرض بيان عمل أمر الله في القوم حتى أقعدهم عن الباطل.

---

(١) العقل وفضله لابن أبي الدنيا / ص ٦٩/ ن: مكتبة القرآن - مصر.

(٢) قَتَادةُ بْن دِعَامة بن قَتَادةُ بْن عزيز، أَبُو الْخَطَّاب السَّدُوسي الْبَصْرِيّ الأعمى [ت:١١١ - ١٢٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي ج٣/ ص٣٠١.

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك ص٥٥.

٩- تصوير بياني في الورع عن الفتوى:

عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ[ت: ٣٢هـ].[1]. كَتَبَ إِلَى سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ: **أَنْ هَلُمَّ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ سَلْمَانُ: إِنَّ الْأَرْضَ لَا تُقَدِّسُ أَحَدًا: وَإِنَّمَا يُقَدِّسُ الْإِنْسَانَ عَمَلُهُ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ جُعِلْتَ طَبِيبًا فَإِنْ كُنْتَ تُبْرِئُ فَنِعِمَّا لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُتَطَبِّبًا فَاحْذَرْ أَنْ تَقْتُلَ إِنْسَانًا؛ فَيُدْخِلُكَ النَّارَ، وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِذَا قَضَى بَيْنَ اثْنَيْنِ ثُمَّ أَدْبَرَا عَنْهُ: نَظَرَ إِلَيْهِمَا وَقَالَ: مُتَطَبِّبٌ وَاللَّهِ، ارْجِعَا إِلَيَّ، أَعِيدَا عَلَيَّ قَضِيَّتَكُمَا»**[2].

شبه أبو الدرداء ﷺ نفسه - وهو يفتي - بالمتطبب الذي يدعي أنه طبيب، وهو ليس بطبيب، وهذا ورع من صاحب النبي ﷺ، ومخافة منه أن يَضل عن الحق، أو يُضل غيره، وشجاعة منه أن يتراجع أمام سائليه، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يُحذر منه الضرر، وأن كلًّا منهما إذا أخطأ كان أمره شديدًا، وضرره بالغًا، فهذا يقضي على حياة العبد في الدنيا، والآخر يقضي على حياته في الآخرة.

* * *

الخلاصة:

أوضح أهل الرقائق منزلة التقوى من خلال عدة صور بيانية، منها: تصوير التقوى بالحصن الذي يحفظ المدن والبلاد. وتصويرها سلاحًا يُوَاجه به الجوع، والعطش، والحر، والبرد، والعري، والهرم، والمرض، والفقر، والموت، والنار. ولبيان أهمية التقوى شبهوا الإيمان الذي لا تقوى فيه - بالإنسان العريان الذي لا لباس له.

---

(١) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

(٢) الزهد لأحمد ص١٢٧.

وفي الورع عن الأكل صوروا الفؤاد سبعًا يلحس صاحبه عند الجوع.

وفي الورع عن المخالطة صوروا الحاجز النفسي بين المتورع والناس بباب من حديد.

وفي الورع عن الشهوات شبهوا شدة تأثير الشهوة في جسد العبد بشدة تأثير الحرق بالنار.

وفي الورع عن الهدية صوروا الحق شخصًا يخرج من البيت عند دخول الهدية، والغرض من التشخيص هو الكناية عن أن الرشوة سبيل إلى الظلم وعدم مراعاة الحق، وبيان استحالة الجمع بين الاثنين.

وفي بيان مكانة الورع من الإسلام شبهوا الإسلام بشجرةٍ الورعُ ثمرتُها.

وفي أجر المتورع شبهوا عمله في الفتن بعبادة النبيين في الرخاء.

وفي الورع عن اللغو استعاروا الوقذ -وهو الضرب حتى الإشراف على الموت- للمنع عن اللغو والخوض.

ولحمل الناس على الورع عن الفتوى شبهوا الذي يُفتي بغير علم بالمتطبب من حيث إن خطره على الناس شديد، وضرره بالغ.





الفصل الثاني:

التصوير البياني في وصف صفات أهل الرقائق

ويشتمل على سبعةِ مباحثَ، وهي:

المبحث الأول: التصوير البياني في مقام حفظ اللسان.

والمبحث الثاني: التصوير البياني في مقام طلب العلم وفضله.

والمبحث الثالث: التصوير البياني في مقام العمل.

والمبحث الرابع: التصوير البياني في مقام حسن الصحبة.

والمبحث الخامس: التصوير البياني في مقام حسن الخلق.

والمبحث السادس: التصوير البياني في مقام النصيحة.

والمبحث السابع: التصوير البياني في مقام الثبات.



المبحث الأول:
التصوير البياني في مقام حفظ اللسان

المحتوى:

** ما جاء في وصف الأفواه:

١- تشبيه الأفـواه بالحوانيت، والشفاه بالمغاليق، والأسنان بالمخالب.

٢- وتشبيه الأفواه بالطرق.

** وما جاء في وصف اللسان:

١- تصوير اللسان سبعًا.

٢- وتشبيه اللسان بالناب.

٣- واستعارة الناب للسان.

٤- وتشبيه حال اللسان في الإضرار بصاحبه بحال اللئيم الراضع.

٥- وتشبيه اللسان بالأمير.

٦- وتشبيه اللسان بقلم المَلَك.

٧- وتشبيه حال القلوب وبيان اللسان لما فيها - بحال القدور التي تغلي والغَرْف يفصح عما بداخلها.

٨- وجعل اللسان كالقطعة من العقل.

٩- وتشبيه عمل اللسان ونطقه بعمل السهام.

١٠- ومخاطبة اللسان.

**وما جاء في وصف الكلام الطيب:

١- استعارة اللؤلؤ للكلم الطيب.

٢- واستعارة الضوء للوضوح في الكلم الطيب، والظلمة لغيره.

٣- وتشبيه حالة من يختار الكلام الطيب بحالة من ينتقي جيد التمر.

٤- والكلام اللين يغسل (يمحو) الضغائن.

**ما جاء في وصف الكلام القبيح:

١- تشبيه النميمة بحد السيف.

٢- وتشبيه تأثير الكذب في كل صنوف الشر بتأثير الماء في أصول الشجر.

٣- وتشبيه إكثار الْخَاطِب من الْخطْبَة بهدر الْبَعِير فِي شِقشِقته.

٤- واستعارة المضغة لألفاظ الغيبة.

٥- واستعارة الجيفة للغيبة.

٦- وتشبيه ذكر الناس بالداء.

٧- وتشبيه الغيبة بالإدام القذر.

٨- وتشبيه الكذب بلحم عصفور.

**وما جاء في الصمت:

١- تشبيه الصمت بالقمر.

٢- وتصوير الصمت وكتمان الخبر.

٣- وتصوير الحفظ خزنًا واللسان خازنًا والقلب خزانة.

٤- وتصوير اللسان شخصًا أحق بالسجن من غيره.

٥- وتشبيه الصمت بالشفرة.

٦- واستعارة الخطم والزم لتهذيب الكلام وتنقيته.

٧- وتشبيه كف اللسان عن الخوض في الحرام بالدابة التي تخطم وتزم.



وصف بعض البلغاء اللسان، فقال: «اللسان أداةٌ يظهر بها حسن البيان، وظَاهر يُخبر عن الضمير، وشاهد يُنبئك عن غائب، وحاكمٌ يُفصل به الخطاب، وناطقٌ يُرد به الجواب، وشَافع تُدرك به الحاجة، وواصف تُعرف به الحقائق، ومُعَزّ يُنفي به الحزن، ومُؤنس تذهب به الوحشة، وواعظ ينهى عن القبح، ومُزين يدعو إلى الحسن، وزارع يَحرث المودة، وحاصدٌ يَستأصل الضغينة، ومُلْهٍ يُونق الأسماع»[١].

اللسان أول الأشياء التي كان أهل الرقائق يحتاطون منها، ويخافون منها، ويشتد عليهم معالجتها، ولم لا؟!؛ فإن أكثر ما يُكب الناس في النار على مناخيرهم هو حصاد ألسنتهم، فوصفوا الأفواه، ووصفوا اللسان، ووصفوا الكلام القبيح منه والجميل، وتحدثوا عن استطاعة الصمت، وهذا تفصيل لما بثوه وجادت به قريحتهم.

ما جاء في وصف الأفواه:

١- تشبيه الأفواه بالحوانيت، والشفاه بالمغاليق، والأسنان بالمخالب:

قال يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ [ت: ٢٨٥][٢].: «أَفْوَاهُ الرِّجَالِ حَوَانِيتُهَا، وَشِفَاهُهَا مَغَالِيقُهَا، وَأَسْنَانُهَا مَخَالِبُهَا، فَإِذَا فَتَحَ الرَّجُلُ بَابَ حَانُوتِهِ تَبَيَّنَ لَكَ الْعَطَّارُ مِنَ الْبِيطَارِ»[٣].

قوله: «**أَفْوَاهُ الرِّجَالِ حَوَانِيتُهَا**»: شَبَّهَ فيه الأفواهَ بالحوانيت، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يُكِنُّ ما فيه، ويستره، وإذا فُتح عُرف ما بداخله.

---

(١) البيان والتبيين / ج٢/ ص٧٥.

(٢) يحيي بن معاذ الواعظ / وفيات الأعيان ابن خلكان / ج٦/ ١٦٤/ ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر - بيروت/ ط: ١٩٠٠م.

(٣) حلية الأولياء/ ج١٠/ ص٥٩.

وقوله: «**حوانيتها**»: إضافة الضمير إلى الحوانيت أكسبت الصورة مثولًا، فالفم هنا دكان، وكل رجل يحمل دكانه، فإذا فُتح الدكان تبين للسامع البضاعة، فعَرَف العطار من البيطار، وهذه البضاعة تدرك بالأذن، وتختبر بالعقل.

وقوله: «**وَشِفَاهُهَا مَغَالِيقُهَا**»: شَبَّهَ فيه الشفاه بالمغاليق، فالعبد مستورٌ ما بداخله ما لم ترفع الأقفال، وتنفرج الشفاه، فإذا انفرجت ظهر المخبوء، وبان المكنون.

وقوله: «**وَأَسْنَانُهَا مَخَالِبُهَا**»: شَبَّهَ فيه الأسنانَ بالمخالب، وأراد أنها تفعل كفعل المخالب من الأذى وإلحاق الضرر، فالأسنان هي مخرجٌ لبعض الحروف التي منها تُبنى الكلمات، ومن الكلمات ما تهوي بصاحبها في النار سبعين خريفًا، فضرر المخالب مادي يدرك بالبصر، وضرر الأسنان عقلي يدرك بالعقل والشرع. وقد أصاب في التشبيه؛ حيث إن الأسنان أشبه بالمخالب دون باقي مخارج الصوت، ووجه الشبه أن كلًّا منهما بالغ الضرر، شديد الأذى، والصورة البيانيه أنبتت في الفم مخالبًا، وفتحت للخيال ساحةً يرتع بداخلها، وجوًّا يحلق فيه.

٢- تشبيه الأفواه بالطرق:

عَنْ مُسَافِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ(ت:١٣٠هـ)[١]. يَقُولُ: «إِنَّ أَفْوَاهَكُمْ طُرُقٌ مِنْ طُرُقِ اللَّهِ تَعَالَى، فَنَظِّفُوهَا مَا اسْتَطَعْتُمْ». قَالَ: فَمَا أَكَلْتُ الْبَصَلَ مُنْذُ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ[٢].

شبه الأفواه بالطرق، والطرفان حسيَّان، والنظافة التي أرادها نظافة حسية،

(١) يزيد بن أبي مالك هانىء الهمداني، الدمشقي.(ت:١٣٠هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٦/ ص١٥٥.

(٢) فضائل القرآن للقاسم بن سلام / ص١١٨/ ت: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين/ ن: دار ابن كثير (دمشق - بيروت)/ ط: ١.

وشرَّف الطرق بإضافتها إلى الله ﷻ، وهذه الصورة البيانية مع الإضافة أدعى إلى التنظيف، وحاملة عليه، وواجبة له، انظر إلى ذلك في قول مُسافر: «فَمَا أَكَلْتُ الْبَصَلَ مُنْذُ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ».

ما جاء في وصف اللسان:

١- تصوير اللسان سبعًا:

- قَالَ مَنْصُورُ بْنُ حَوْشَبٍ: قِيلَ لِقَيْسِ بْنِ السَّكَنِ[الوفاة: ٥١ - ٦٠هـ].(١).: أَلَّا تَتَكَلَّمُ؟، قَالَ: لِسَانِي سَبُعٌ مِنَ السِّبَاعِ، أَخَافُ أَنْ أَدَعَهُ، فَيَعْقِرَنِي(٢).

شبه لسانه بالسبع، وهو تشبيه مفرد بمفرد، وقد بنى خوفه على التشبيه المعقود، ولولا هذا التشبيه لما قال ما قال، والصورة جعلت اللسان سبعًا كامنًا بين اللحيين مغلقًا عليه بالشفاه، ورشّح التشبيه بقوله: «فَيَعْقِرَنِي»، والغرض بيان خطورة اللسان وفتكه وسوء عاقبته.

- عَنْ زَيْدِ بْنِ الْحُبَابِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَوْشَبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عِمْرَانَ الْجَوْنِيَّ[ت: ١٢١ - ١٣٠هـ].(٣). يَقُولُ: «إِنَّمَا لِسَانُ أَحَدِكُمْ كَلْبٌ، فَإِذَا سَلَّطَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَكَلَهُ»(٤).

---

(١) قيس بن السكن، الأسدي الكوفي. [ت: ٥١ - ٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٥٣٣.

(٢) حلية الأولياء / ج١٠/ ص١٤٠.

(٣) أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ الْبَصْرِيُّ، عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ. [ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٤٥٦.

(٤) الصمت لابن أبي الدنيا ص٦٧/ ت: أبو إسحاق الحويني/ ن: دار الكتاب العربي - بيروت/ ط: ١.

قوله: «إِنَّمَا لِسَانُ أَحَدِكُمْ كَلْبٌ»: صدّر كلامه هذا بـ: «إنما»، و «طريق إنما ناعم الملمس، داني القطوف، خفيض الصوت، يجعل المعنى الغريب مأنوسًا، ويورده موردًا سهلًا مقبولًا»[١]. فأتى بـ: «إنما»؛ لأن هلاك اللسان ينبغي أن لا ينكره أحد. فيقال: شَبَّهَ اللسان بالكلب في الإفساد والأذي، ثم فرَّع على التشبيه بقوله «أكله»، والمعنى المراد أهلكه.

- **قال عباية بن كليب: سمعت ابن السماك(ت:١٨٣هـ)[٢]. يقول: سَبُعُك بين لَحْيَيك، تأكل به كلَّ مَن مرَّ عليك، قد آذيتَ أهلَ الدُّور في دورهم، وأهلَ القبورِ في قبورهم، ما تَرثي لهم، وقد جرى عليهم البِلى وأنت تَنْبُشُهم، إنَّما نرى نبشَهم أخذَ الخِرَق عنهم، إذا ذكرتَ مساوئهم فقد نبشتَهم[٣].**

قوله: «**سبعك بين لحييك**»: استعار فيه السبع للسان استعارة تصريحية أصلية، والقرينة قوله: ببين لحييك. وقوله: «**تأكل به كل من مر**»: ترشيح للاستعارة، أفاد شدة الفتك وعدم الترك.

وقوله: «**هاهنا تنبشهم**»: استعار فيه النبشَ للاغتياب، واشتق من النبش (تنبش) بمعنى تغتاب على سبيل الاستعارة التبعية، والصورة البيانية أضفت على الاغتياب قبحًا وخسةً عندما جعلته نبشًا؛ حيث إن النبش لا يفعله إلا سفلة السفلة، وسرقة أموات لا يتحركون دليل خسة، ومن الدناءة سرقة أكفان أثمانها بخسة.

---

(١) التصوير البياني في شعر المتنبي للوصيف هلال، ن: وهبة/ ط:٢/ ص١٧٣.

(٢) ابن السماك أبو العباس محمد بن صبيح العجلي/ سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٨/ ص٣٣٠.

(٣) صفة الصفوة ج٣/ ص١٧٦.

- قال المحاسبي(ت:٢٤٣هـ)[1].: وَخَفْ - يَا أَخي - من لسَانِك أَشَّد مِنْ خَوْفِك مِنْ السَّبع الضَّارِي الْقَرِيب الْمُتَمَكِن مِنْ أَخْذِك؛ فَإن قَتِيل السَّبع مِنْ أَهْل الإِيمَانِ ثَوَابُه الْجَنَّة، وَقَتِيل اللِّسَانِ عُقُوبَته النَّار إِلَّا أَن يعْفُو الله، فإِيَاك - يَا أَخِي - والغَفْلَة عَن اللِّسَان؛ فَإِنَّهُ سَبْعٌ ضَارٌ، وَأَوْلُ فَرِيسَته صَاحِبُه[2].

قوله: «وَخَفْ - يَا أَخي - من لسَانِك أَشَّد مِنْ خَوْفِك مِنْ السَّبع الضَّارِي ...»: طلب فيه من السامع أن يخاف من اللسان خوفًا يشبه الخوف من الأسد الضاري القريب المتمكن، والتشبيه هنا ينبئُ بخطورة اللسان وضرره على صاحبه.

وقوله: «فَإِنَّهُ سبع ضار، وَأول فريسته صَاحبه»: هكذا أقوال أهل الرقائق تتضافر، وتخرج صورهم من مشكاة واحدة، مع اختلاف المواقف والمواطن والسوابق واللواحق، فالمحاسبي ينسج معهم أيضًا بمغزله؛ حيث شَبَّهَ اللسان بسبع ضار قريب متمكن، ثم فضل المشبه على المشبه به، وجعل هلاك اللسان أشد، يقول: «فَإِن قَتِيل السَّبع من أهل الايمان ثَوَابه الْجنَّة، وقتيل اللِّسَان عُقُوبَته النَّار إِلَّا أَن يعْفُو الله».

٢- تشبيه اللسان بالناب:

قَالَ عُبَيْدُ بْنُ إِسْحَاقَ الضَّبِّيُّ: سَمِعْتُ مُسَيْلِمَةَ بْنَ جَعْفَرٍ يَذْكُرُ عَنِ الصَّبَّاحِ أَوْ أَبِي الصَّبَّاحِ الْيَمَانِيِّ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ (ت:١١٣هـ)[3]. قَالَ:» فِي حِكْمَةِ لُقْمَانَ

---

(١) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٢) آداب النفوس للمحاسبي / ص٤٣/ الحارث بن أسد المحاسبي/ ت: عبد القادر أحمد عطا/ ن: دار الجيل - بيروت - لبنان.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ الْعِلْمُ حَسَنٌ، وَهُوَ مَعَ الْحِلْمِ أَحْسَنُ، وَالصَّمْتُ حَسَنٌ، وَهُوَ مَعَ الْحِكْمَةِ أَحْسَنُ، يَا بُنَيَّ، إِنَّ اللِّسَانَ هُوَ نَابُ الْجَسَدِ، فَاحْذَرْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ لِسَانِكَ مَا يُهْلِكُ جَسَدَكَ، أَوْ يُسْخِطُ عَلَيْكَ رَبَّكَ»[١].

قوله: «**إِنَّ اللِّسَانَ هُوَ نَابُ**»: شَبَّهَ اللسان بالناب، ووجه الشبه: تحقق الهلاك في كلٍّ، وإضافة الناب إلى الجسد أفاد أن هذا الناب مخصص لهلاك الجسد، فهو نابه، وبه يُلقى العبد في النار، ويسخط عليه الواحد القهار.

٣- استعارة الناب للسان:

عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ أَبِي مُوسَى ﷺ [ت: ٤٤هـ][٢]**. فِي مَسِيرٍ لَهُ، فَسَمِعَ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ، فَسَمِعَ فَصَاحَةً، فَقَالَ لِي: يَا أَنَسُ هَلُمَّ، فَلْنَذْكُرْ رَبَّنَا - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَكَادُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَفْرِيَ الْأَدِيمَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: يَا أَنَسُ مَا بَطَّأَ بِالنَّاسِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَمَا ثَبَرَهُمْ عَنْهَا؟، قَالَ: قُلْتُ: الشَّهَوَاتُ وَالشَّيْطَانُ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنْ عُجِّلَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا، وَأُخِّرَتِ الْآخِرَةُ، وَلَوْ عَايَنُوا مَا عَدَلُوا وَلَا مَيَّلُوا**[٣].

قوله: «**يَفْرِيَ الْأَدِيمَ بِلِسَانِهِ**»: قال الأصمعي: أَفْرَى الْجِلْدَ إذا مَزَّقَه وخَرَقَه وأفسده، يُفْرِيه إِفْرَاء[٤]. وقد استعار الناب أو السيف للسان، ثم حذف المشبه به، وأبقى لازمه: «**يفري**»، والصورة البيانية تظهر خطورة عمل اللسان، وشدة فتكه،

---

(١) الحلم لابن أبي الدنيا/ ص٦٣.

(٢) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس ﷺ [ت:٤٤هـ] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٢/ ص٣٩٨.

(٣) الزهد لأحمد / ص١٦٢.

(٤) لسان العرب (١٥/ ١٥٣).

«والاستعارة الصائبة نفثة يبعثها الأديب أو الشاعر فيجمع به العصي من السوانح والبوارح والأسرار والعوازب، ولا تجتمع هذه - وإن لجَّ في طلبها - إلا بذلك الأسلوب»[١].

٤- تشبيه حال اللسان في الإضرار بصاحبه بحال اللئيم الراضع:

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: كَانَ طَاوُسٌ ﷺ [ت:١٠٦][٢]. يَعْتَذِرُ مِنْ طُولِ السُّكُوتِ، وَيَقُولُ: «إِنِّي جَرَّبْتُ لِسَانِي، فَوَجَدْتُهُ لَئِيمًا رَاضِعًا»[٣].

قال صاحب اللسان: ولئيمٌ رَاضِعٌ: يَرْضع الإبل وَالْغَنَمُ مِنْ ضُرُوعِهَا بِغَيْرِ إناء مِنْ لؤمه إذا نَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ؛ لِئَلَّا يَسْمَعَ صَوْتَ الشُّخْب، فَيَطْلُبَ اللَّبَنَ، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي رَضَع اللُّؤْم مِنْ ثَدْي أُمه، يُرِيدُ أَنه وُلد فِي اللؤْم، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يأْكل خُلالته شَرَهًا مِنْ لؤْمه حَتَّى لَا يَفُوتَهُ شَيْءٌ[٤].

وقالَ ابنُ دُرَيدْ: كَانَ هَذَا فِي الحدِيثِ فِي العمالِقَةِ، فَكَثُرَ حتَّى صارَ كُلُّ لئيم رَاضِعًا فعلَ ذَلِك الفِعْلَ أَو لمْ يَفْعَلْ. قالَ: وأَصْلُ الحديثِ أنَّ رَجُلًا مِنَ العَمالِيقِ طَرَقَهُ ضَيفٌ لَيلًا، فَمصَّ ضِرْعَ شَاتِهِ؛ لِئَلَّا يَسْمَعَ الضَّيفُ صَوْتَ الشَّخَبِ[٥].

قوله: »فَوَجَدْتُهُ لَئِيمًا رَاضِعًا»: استعار فيه الإنسانَ للسان، وحذف المستعار، وأبقى لازما من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية. وقول طاووس: «**جربت فوجدته**»: يُوحي بأنه يتكلم عن شيء منفصل عنه، ليس جزءًا من ذاته، هو شيء

---

(١) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم / لأبي موسى ص١٣٤/ ط:٤ .

(٢) طاووس بن كيسان الفارسي[ت:١٠٦] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٥/ ص٣٨.

(٣) الصمت لابن أبي الدنيا ص٨٦.

(٤) لسان العرب / ج٨/ ص١٢٧.

(٥) جمهرة اللغة/ ج٢/ ص٧٤٦.

انفرد من بين الأعضاء باللؤم والخسة، شيء كثير التمرد، كأنه خارج عن سيطرة الجسد، وقد أجاد طاووس ﷺ، وأصاب في استعارته، وبيئةُ العرب قد شهرت بالكرم وذم البخل، فالبخيل عندهم مذموم مكروه لا سيما وإن كان يحوطُ بخلَه بلؤم، وقد كسا طاووس اللسانَ هذه الصفة المكروهة في النفس.

٥- تشبيه اللسان بالأمير:

حَدَّثَ عَبَّادُ بْنُ الْوَلِيدِ الْقُرَشِيُّ، قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ ﷺ [ت: ١١٠هـ][١].: **«اللِّسَانُ أَمِيرُ الْبَدَنِ، فَإِذَا جَنَى عَلَى الْأَعْضَاءِ بِشَيْءٍ جَنَتْ، وَإِنْ عَفَّ عَفَّتْ»**[٢].

شبه الحسن ﷺ سبط النبي ﷺ اللسان بالأمير، والبدن تابع له، ولعل هذا التشبيه مُسْتقى من حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: **«إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»**[٣].

٦- تشبيه اللسان بقلم المَلَك:

عَنْ مُجَمِّعٍ التَّيْمِيِّ، عَنْ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ: زَيْدٌ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ [ت:٤٠][٤]. **قَالَ: «لِسَانُ الْعَبْدِ قَلَمُ الْمَلَكِ، وَرِيقُهُ مِدَادُهُ»**[٥].

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج ٤/ ص٥٨٧.
(٢) الصمت لابن أبي الدنيا/ ص٦٩.
(٣) سنن الترمذي (٤/ ٦٠٥) / ت: بشار عواد معروف/ ن: دار الغرب الإسلامي - بيروت/ سنة النشر: ١٩٩٨ م.
(٤) علي بن أبي طالب ﷺ [ت:٤٠] الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.
(٥) التوبة لابن أبي الدنيا ص١٢٨/ ت وتعليق: مجدي السيد إبراهيم./ ن: مكتبة القرآن، مصر. وجاء في كتاب الصمت لابن أبي الدنيا ص٨١.

لما كان قول اللسان سببًا في الكتابة، وكان هناك ربطٌ بين اللسان وقلم الملك، وكان عمل القلم موقوفًا على اللسان: حق تشبيه اللسان بقلم الملك، والريق بالمداد، ولعل منزع هذا التشبيه قول المولى - عز وجل -: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)} (ق:١٧-١٨). إن سرعة التلقي والتدوين والتسجيل تُخيِّل للإنسان أن اللسان هو القلم الذي يكتب، فلا يوجد لحظة لإمساك القلم، أو الاستعداد والتهيؤ للكتابة، إنما اللسان يكتب مباشرة، وفي هذه السرعة تحوَّل اللسان قلمًا، والريق مدادًا؛ لذلك وجب على المتأمل المتفكر حفظ هذه الصورة واعتقادها؛ حتى يعلم أن الذي يتحرك منه ليس اللسانَ، إنما قلم الملك.

وفي هذا الشأن أورد الجاحظ في كتاب الحيوان: واللسان: يصنَع في جَوبة الفمِ وهوائه الذي في جوفِ الفم وفي خارجه وفي لَهاته وباطنِ أسنانه مثلَ ما يصنع القلمُ في المدادِ واللِّيقة والهواءِ والقرطاسِ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل ودَلالات، فيعرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر؛ لكثرةِ تَردادها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوَّرًا من تلك الألوان؛ لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلُّوا بالضَّحك على السرور، وبالبكاء على الألم، وعلى مثل ذلكَ عرَفوا معانيَ الصوتِ، وضروبَ صورِ الإشارات وصورِ جميع الهيئات[١].

٧- تشبيه حال القلوب وبيان اللسان لما فيها - بحال القدور التي تغلي والغَرْف يفصح عما بداخلها:

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ مُعَاذٍ [توفي:٢٨٥هـ][٢]. يَقُولُ:

(١) الحيوان / ج١/ ص٧٠.

(٢) يحيي بن معاذ الواعظ / وفيات الأعيان / ابن خلكان /ج٦/ ١٦٤/ت: إحسان عباس/ ن: دار صادر - بيروت/ ط: ١٩٠٠م.

«القُلُوبُ كَالْقُدُورِ فِي الصُّدُورِ؛ تَغْلِي بِمَا فِيهَا، وَمَغَارِفُهَا أَلْسِنَتُهَا، فَانْتَظِرِ الرَّجُلَ حَتَّى يَتَكَلَّمَ؛ فَإِنَّ لِسَانَهُ يَغْتَرِفُ لَكَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ بَيْنِ حُلْوٍ وَحَامِضٍ وَعَذْبٍ وَأُجَاجٍ، يخْبِرُكَ عَنْ طَعْمِ قَلْبِهِ، اغْتِرَافُ لِسَانِهِ[1].

قوله: «**القلوب كالقدور** ...»: **شَبَّهَ فيه** حالَ خفقان القلوب التي في الصدور وبيان اللسان لما فيها من الخير والشر - بحال القدور التي تغلي والغَرْف يفصح عما بداخلها، والتشبيه تمثيلي. والقلوب تجول فيها الأسرار والمعتقدات، وتصول الأفكار كما يغلي الماء في القدر، فلا يهدأ المرء إلا ببثها ورشحها. والإخبار شهوة، والصمت صعب، والألسنة والمغارف كل منهما أداة لإخراج المكنون والمحفوظ.

٨- جعل اللسان كالقطعة من العقل:

قال عمرو بن العاص ﷺ [ت ٤٣هـ][2].: **ظَن الرجل قطعة من علمه، ولسانه قطعة من عقله**[3].

- وقوله: «**ظَن الرجل قطعة من علمه**»: الظن والعلم من المعقولات، وقد أدرجت كلمة: «قطعة» بينهما - وهي من المحسوس -؛ لتُبين وتُجلي لنا مدى العلاقة بين ظن الرجل وعلمه، فتحول الظن والعلم إلى شيئين محسوسين، الظن مقطوع، والعلم مُقتطع منه على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «**قطعة**».

ولما كان اللسان ناقلًا لما في العقل، شديد الصلة به، باثًا لما يحوم بداخله،

(١) حلية الأولياء/ ج١٠/ ص٦٣.

(٢) عمرو بن العاص بن وائل السهمي ﷺ / [ت ٤٣هـ] / سير أعلام النبلاء / ط: الرسالة/ ج٣/ ص٥٤.

(٣) التعازي [والمراثي والمواعظ والوصايا] لأبي العباس المبرد / ص٦٥.



مخرجًا ما يهمه: صح تشبيه اللسان بأنه كالقطعة من العقل، والمشبه به: «قطعة» مقيدٌ بقوله: «من العقل».

٩- تشبيه عمل اللسان ونطقه بعمل السهام:

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سِنَانٍ الْهَرَوِيُّ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ الثَّوْرِيَّ[ت: ١٦١هـ][١]. يَقُولُ: لَوْ رَمَيْتُ رَجُلاً بِسَهْمٍ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرْمِيَهُ بِلِسَانِي؛ لِأَنَّ رَمْيَ اللِّسَانِ لَا يَكَادُ يُخْطِئُ[٢].

قوله: «**لِأَنَّ رَمْيَ اللِّسَانِ لَا يَكَادُ يُخْطِئُ**»: شَبَّهَ عمل اللسان ونطقه بعمل السهام في شدة الخطورة وتحقق الضرر، والتشبيه تمثيلي، وسياق الكلام يُبين أن الرمي بالسهم أهون من الرمي باللسان؛ لأن السهم قد يصيب، أما رمي اللسان فلا يخطئ.

وهناك نصال من القول إذا وصلت القلب لم تستخرج، جاء في الرسائل الأدبية: وقال الأوّل: قد تصل النّصال إلى الإخوان، فتستخرج، وأمثال النّصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تستخرج أبدًا[٣].

وقال آخر[٤]:.: (بحر الوافر)

جِـراحـاتُ السِّنانِ لها التِئامٌ ولا يَـلْـتـامُ مـا جـرَحَ اللِّسانُ

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٢) مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها للخرائطي/ ص١٣٧/ دار الآفاق العربية / ط:١.

(٣) الرسائل الأدبية / ص١٠٧.

(٤) اللطائف والظرائف للثعالبي ص١٠٤/ / ن: دار المناهل، بيروت. لم أجد قائل البيت فيما لدي من مصادر.

١٠- مخاطبة اللسان:

- مخاطبة أبي بكر ﷺ (ت:١٣)[١].:

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ ﷺ آخِذًا بِلِسَانِهِ يَقُولُ: «هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ»[٢].

أَخْذُ الصديق ﷺ بلسانه: فيه بيان لخوافي مخاطر اللسان، فأمره ليس بالهين إن كان أبو بكرﷺ يفعل هذا.

وقوله: «**هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ**»: أراد بالموارد المهالك، وأسند الفعل إلى اللسان على سبيل المجاز العقلي، وعلاقته السببية، والمجاز أظهر بيان قوة اللسان وغلبته وبطشه وفتكه، لا سيما أنَّ هذا الفعل مع خير البشر بعد النبيين (عليهم السلام).

- مخاطبة ابن عباس ﷺ (ت:٦٨هـ)[٣].: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ آخِذًا بِلِسَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ: يا لسَان: قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، أَوِ اصْمُتْ تَسْلَمْ قَبْلَ أَنْ تَنْدَمَ»[٤].

المخاطب هو اللسان في صورة عاقل يسمع ويعي ويندم، ثم حذف المستعار منه، وأبقى لازمه على سبيل الاستعارة المكنية، والكلام فيه توبيخ وتقريع، وخيال فيه مُوبِّخ ومُوبَّخ.

(١) أبو بكر الصديق ﷺ (ت:١٣هـ)/ سير أعلام النبلاء ج٢/ ص٣٩٦/ ن: دار الحديث- القاهرة / ط: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

(٢) الزهد لأحمد / ص٩٠.

(٣) عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي(ت:٦٨هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٣٥٩.

(٤) الزهد لأحمد/ ص١٥٤.

ما جاء في وصف الكلام الطيب:

١- استعارة اللؤلؤ للكلم الطيب:

قال الأعمش[ت: ١٤١ - ١٥٠هـ][1].: كان مجاهد كَأَنَّه حَمَّال، فإذا نَطَقَ، خَرَجَ مِنْ فِيه اللُّؤْلُؤ[2].

قوله: «**كأَنَّه حمَّال**» شبه فيه مجاهدًا (رحمه الله) بالحمال، والمشبه ضمير عائد على اسم كان، وفي هذا مزيد تمكين للمشبه، حيث ذكر مرة بالاسم الظاهر، والمرة الثانية ذكر بالضمير العائد على الاسم الظاهر، ووجه الشبه: الهيئة ورثاثة الثياب والتَّجَوُّزُ فِي الْمَلْبَسِ وَالْمَطْعَمِ.

وقوله: «**خرج من فيه اللؤلؤ**»: استعار فيه اللؤلؤَ للكلم الطيب استعارة أصليه تصريحية، والجامع: أن كلًّا منهما فيه النفع، وعالي القدر، ويثلجان الصدر، وتنكسر لهما الجوارح، ويطمئن بهما الوجدان، فهذا له بريق في العين، وهذا يونق الأسماع، ويُشِعُّ في القلب نورًا ساطعًا كضوء النهار.

والغرض من الصورتين: بيان البون الشاسع بين المنظر والمنطق.

٢- استعارة الضوء للوضوح في الكلم الطيب، والظلمة لغيره:

قال أَبو نُعَيْمٍ: حدثنا الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ(ت: ٦٥هـ)[3].

---

(١) سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ الأَعْمَشُ، الإِمَامُ أَبو مُحَمَّدٍ الأَسَدِيُّ مَوْلاهُمْ، الكَاهِلِيُّ الْكُوفِيُّ الْحَافِظُ الْمُقْرِئُ، [ت: ١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٨٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء/ ج٤/ ص٤٥٣.

(٣) الربيع بن خثيم بن عائذ أبو يزيد الثوري (ت: ٦٥هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٢٦٢.

قَالَ: «مِنَ الْحَدِيثِ حَدِيثٌ لَهُ ضَوْءٌ مِثْلُ ضَوْءِ النَّهَارِ تَعْرِفُهُ، وَمِنَ الْحَدِيثِ حَدِيثٌ لَهُ ظُلْمَةٌ، كَظُلْمَةِ اللَّيْلِ مُنْكَرَةٌ»(١).

قوله: «حَدِيثٌ لَهُ ضَوْءٌ»: أراد به أن في الحديث وضوحًا وأريحية وطمأنينة، فالضوء مستعار للوضوح والظهور وللأريحية والطمأنينة، والاستعارة تصريحية أصلية، ثم صوّر المستعار بقوله: «**ضوء مثل ضوء النهار**»: شَبَّهَ ما في الحديث من حق وصدق بضوء النهار، ووجه الشبه: الهداية والوصول إلى الغاية.

وقوله: «حَدِيثٌ لَهُ ظُلِمَةٌ»: أراد أن في الحديث غموضًا وكآبةً، فظلمة مستعار للغموض والكآبة، والاستعارة تصريحية أصليه، ثم شَبَّهَ الظلمة المستعارة بقوله: «كَظُلْمَةِ اللَّيْلِ» في التخبط وعدم الوصول إلى الغاية.

وهذه الصورة مستمدة من الآية الكريمة: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[إبراهيم: ١].

٣- تشبيه حالة من يختار الكلام الطيب بحالة من ينتقي جيد التمر:

عَنْ يَحْيَى بْنِ جَعْدَةَ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﷺ[ت:٢٣هـ](٢).: «لَوْلَا ثَلَاثٌ لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ لَقِيتُ اللهَ: لَوْلَا أَنْ أَضَعَ جَبْهَتِي لِلَّهِ، أَوْ أَجْلِسَ فِي مَجَالِسَ يُنْتَقَى فِيهَا طَيِّبُ الْكَلَامِ كَمَا يُنَقَّى جَيِّدُ التَّمْرِ، أَوْ أَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٣).

قوله: «لَوْلَا أَنْ أَضَعَ جَبْهَتِي لِلَّهِ»: كناية عن الصلاة، ووضع الجبهة أكبر

(١) مساوئ الأخلاق ومذمومها للخرائطي ص٨٢/ / ت: مصطفى بن أبو النصر الشلبي/ ن: مكتبة السوادي للتوزيع، جدة/ ط: ١.

(٢) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٣) حلية الأولياء/ ج١/ ص٥١.

درجات القرب منه (سبحانه وتعالى)؛ لذا كانت محبوبة إلى القلب.

وقوله: «**أَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»: كناية عن الجهاد.

وقوله: «**يُنْتَقَى فِيهَا طَيِّبُ الْكَلَامِ كَمَا يُنَقَّى جَيِّدُ التَّمْرِ**»: **شَبَّهَ** فيه حالةَ مَن يختار الكلام الطيب، ويتلفظ بهي- بحالة من ينتقي جيد التمر، فالكلام الطيب فاكهة عمر ﷺ، والتشبيه تمثيلي منزعه من البيئة التي يعيشونها ﷺ، ويغلب فيها التمر، وتتنوع ألوانه وأحجامه، ويختلف طعمه ومذاقه، وجيد التمر هو أغلاه ثمنًا وأنفسُه عند أهله، وهذا التمر (الكلم الطيب) لولاه لآثر عمر ﷺ الموت على الحياة.

٤- الكلام اللين يغسل (يمحو) الضغائن:

عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ عَائِشَةَ[ت: ٢٢١ - ٢٣٠ هـ][١] **قَالَ: «قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْكَلَامُ اللَّيِّنُ يَغْسِلُ الضَّغَائِنَ الْمُسْتَكِنَّةَ فِي الْجَوَانِحِ**»[٢].

قوله: «**الْكَلَامُ اللَّيِّنُ يَغْسِلُ الضَّغَائِنَ**»: التجوز هنا في كلمة: «يغسل»؛ حيث استعار الغسل للمحو على سبيل الاستعارة التبعية التي أضفت على كلمة: «الضغائن» صفةَ الوسخ، وأخرجتها من ماهيتها إلى شيء آخر. وآثر كلمة: «يغسل» على: «يمحو»؛ لأن المحو قد يترك أثرًا خلفه، أمَّا الغسل ومرور الماء فيُذيب كل أثر. وثمة شيء آخر في الغسل، وهو أنه يُطفئ ويُخلف بعده رطوبة وبرودة على المغسول، لا سيما إذا كانت ضغائن ملتهبة وأحقادًا متأجِّجة.

---

(١) أبو عبد الرحمن القُرَشيّ التَّيْميّ البَصْريُّ الإخباريّ المعروف بابن عائشة / تاريخ الإسلام للذهبي / ج٥/ ص٦٢٧.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا ص١٧٨.

وقوله: «**الْكَلَامُ اللَّيِّنُ يَغْسِلُ**»: نجد هنا تناسقًا واتفاقًا بين كلمة: «اللين» و: «يغسل»، وكأن واديهم واحد وحقلهم واحد، ولو قال: الكلام الطيب أو الكلام الجيد: لَمَا امتزجت مع الكلام كما امتزجت كلمة: «اللين». وكلمة يغسل فيها معنى إزالة الأقذار والأوساخ والشوائب، وأن الضغائن تشبهها.

وقوله: «**الضَّغَائِنَ الْمُسْتَكِنَّةَ فِي الْجَوَانِحِ**»: أبان قوة الكلام اللين ومرونته في النفاذ إلى المستكن في الجوانح، فبالكلام اللين اجتمعت خلف النبي ﷺ الجموع الغفيرةُ، ولولا الكلام اللين لانفضوا من حوله، وهو من هو ﷺ، فليتطلف من هو دونه.

ما جاء في وصف الكلام القبيح:

١- تشبيه النميمة بحد السيف:

عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ (عليهما السلام) لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ؛ فَإِنَّهَا مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ»(١).

شبه النميمة بحد السيف، والتشبيه مجمل، ووجه الشبه: قوة الإيذاء والإفساد، أو أن كلًّا منهما سببٌ لسفك الدماء، ويؤيد هذا الوجه ما جاء في الأثر عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: قَدِمْتُ مِنْ مَكَّةَ، فَلَقِيَنِي الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا زَيْدٍ أَطْرِفْنَا مَا سَمِعْتَ. قَالَ: قُلْتُ: لَا، إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَابِطٍ يَقُولُ: لَا يَسْكُنُ مَكَّةَ سَافِكُ دَمٍ، وَلَا آكِلُ رِبًا، وَلَا مَشَّاءٌ بِنَمِيمٍ». قَالَ: فَعَجِبْتُ مِنْهُ حِينَ عَدَلَ النَّمِيمَةَ بِسَفْكِ الدَّمِ وَأَكْلِ الرِّبَا. قَالَ: فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: وَمَا تَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ، وَهَلْ تُسْفَكُ الدِّمَاءُ وَتُسْتَحَلُّ الْمَحَارِمُ إِلَّا بِالنَّمِيمَةِ»(٢). وبعد عرض هذا الأثر تبيَّن

---

(١) الزهد لهناد / ج:٢/ ص:٥٧٥.

(٢) الزهد لهناد / ج:٢/ ص:٥٧٥.

أن كلمة: «حد السيف» سقطت على أرض مهيأة لها، ووقعت في موقعها.

٢- تشبيه تأثير الكذب في كل صنوف الشر بتأثير الماء في أصول الشجر:

عَنْ مَسْلَمَةَ بْنِ عُلَيٍّ قَالَ: قَالَ يَزِيدُ بْنُ مَيْسَرَةَ [ت: ١١١ - ١٢٠هـ][١].: «**الْكَذِبُ يَسْقِي بَابَ كُلِّ شَرٍّ كَمَا يَسْقِي الْمَاءُ أُصُولَ الشَّجَرِ**»[٢]. في هذا النص استعارتانِ:

- الاستعارة الأولى: «الْكَذِبُ يَسْقِي»؛ فقد استعير الماء للكذب، وحذف المستعار منه، وبقي لازمه: «يسقي» على سبيل الاستعارة المكنية، والغرض: بيان عمل الكذب، وكيف ينمي الشر بكل أنواعه.

- والاستعارة الثانية: «بَابَ كُلِّ شَرٍّ»؛ فقد استعار البيت للشر، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه: «باب» على سبيل الاستعارة المكنية.

والكذب والشر من الأمور العقلية، اسُتعير لكل واحد منهما شيء محسوسٌ، وأطلق بينهما فعلا مضارعًا: «يسقي»؛ ليربط بينهما، ويفيد أن العلاقة بين الشيئين متجددة ومستمرة.

- وقوله: «**كَمَا يَسْقِي الْمَاءُ أُصُولَ الشَّجَرِ**»: شَبَّهَ فيه تأثيرَ الكذب في كل صنوف الشر بتأثير الماء في أصول الشجر، والتشبيه تمثيلي، يُظْهِر عمل الكذب في جلب الشر وتقويته ونموه.

---

(١) يزيد بْن مَيْسرة بْن حَلْبَس الدمشقيُّ. [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٣٤٠.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا ص٢٥٠ .

٣- تشبيه إكثار الْخَاطِب من الْخطْبَة بهدر الْبَعِير فِي شِقشِقته:

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ [ت:٢٣هـ](١).: «إِنَّ شَقَاشِقَ الْكَلاَمِ مِنْ شَقَاشِقِ الشَّيْطَانِ»(٢).

قال أبو عبيدة القاسم بن سلام: شَبَّهَ عمر ﷺ إكثار الْخَاطِب من الْخطْبَة بهدر الْبَعِير فِي شِقشِقته، ثمَّ نَسَبهَا إِلَى الشَّيْطَان؛ وَذَلِكَ لما يدْخل فِيهَا من الْكَذِب وتزوير الْخَاطِب الْبَاطِل عِنْد الْإِكْثَار من الْخطب، وَإِن كَانَ الشَّيْطَان لَا شقشقة لَهُ، إِنَّمَا هَذَا مثل(٣).

ويحتمل الأمر أن نقول: استعار الشقشقة(٤). (اللهاة التي للبعير) للهاة الشيطان على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ويكون المراد أن الكثير من الكلام يخرج من لهاة الشيطان.

---

(١) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا ص١١٢.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد/ ج٤/ ص٥٩٨/ ط:١/ الهيئة العامة لشئون الأميرية.

(٤) جاء في اللسان:الشِّقْشِقةُ: لَهاةُ الْبَعِيرِ وَلاَ تَكُونُ إِلاَّ لِلْعَرَبِيِّ مِنَ الإِبل، وَقِيلَ: هُوَ شَيْءٌ كالرِّئة يُخرِجُهَا الْبَعِيرُ مِنْ فِيهِ إِذا هَاجَ، وَالْجَمْعُ الشَّقاشِقُ، وَمِنْهُ سُمّي الْخُطَبَاءُ شَقاشِقَ، شَبَّهوا المِكْثار بِالْبَعِيرِ الْكَثِيرِ الهَدْرِ. وَفِي حَدِيثِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الخُطَبِ مِنْ شقاشِق الشَّيْطَانِ، فَجَعَلَ لِلشَّيْطَانِ شَقاشِقَ ونسبَ الخطبَ إِلَيْهِ لِما يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْكَذِبِ؛ قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: شَبَّهَ الَّذِي يَتَفَيْهَقُ فِي كَلَامِهِ ويَسْرُده سَرْدًا لَا يُبَالِي مَا قَالَ مِنْ صِدْقٍ أَوْ كَذِبٍ بِالشَّيْطَانِ وإِسْخاطه رَبَّهُ= =وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْخَطِيبِ الجَهِرِ الصَّوْتِ الْمَاهِرِ بِالْكَلَامِ: هُوَ أَهْرَتُ الشِّقْشِقة وهَرِيتُ الشِّدْق؛ وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ مُقْبِلٍ يَذْكُرُ قَوْمًا بالخَطابة:هُرْتُ الشَّقاشِقِ ظَلَّامُون للجُزُرِ./ لسان العرب / ج١٠/ ص١٨٥.



٤- استعارة المضغة لألفاظ الغيبة:

ذكـر صاحب العقد الفريد: **اغـتَـابَ رَجُـل رَجُـلًا عِـنْـدَ قُتَيبة بن مُسْلِم[ت:٢٧٦هـ]**[١]. **فقال له قتيبة: أَمْسِكْ عليك أَيُّهَا الرجل؛ فوالله لَقَدْ تَلَمّظْتَ بِمُضْغَة طالما لَفَظَها الكِرَام**[٢].

في قوله: «**تلمّظت بمضغة**» استعار المضغة لألفاظ الغيبة استعارة أصلية تصريحية، وبيئة هذه الصورة البيانية قول الله – تعالى –: **(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ) (الحجرات:١٢)**.

وقوله: «**تَلَمّظْتَ**» ترشيح للاستعارة، وهو الأَخْذُ باللِّسان مما يَبْقَى في الفَم والأسنان[٣]. من الطعام.

وقوله: «**طالما لفظها الكرام**»: ترشيح للاستعارة أفاد وبيَّن ماهية المضغة وصفة المضغة من أنها منبوذة يتورع عنها الكرام كما تتورع الأسود عن الجيف.

٥- استعارة الجيفة للغيبة:

عَنِ الرَّبِيعِ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ[ت: ١٠١ – ١١٠هـ][٤]. ذَكَرَ الْغِيبَةَ ، فَقَالَ: «**أَلَمْ**

---

(١) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري[ت:٢٧٦هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠.

(٢) العقد الفريد ج٢/ ص١٨٣.

(٣) العين (٨/ ١٦٤).

(٤) مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ أَبُو بَكْرٍ الأَنْصَارِيُّ الْبَصْرِيُّ، [ت: ١٠١ – ١١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص١٥١.

تَرَ إِلَى جِيفَةٍ خَضْرَاءَ مُنْتِنَةٍ؟»[١].

عرَّف ابن سيرين الغيبة، وبيّن أمرها مبتدأ بالاستفهام التقريري، وقد استعار الجيفة للغيبة استعارة تصريحية أصلية، ثم وصف الجيفة بصفتين مُنَفِّرتين زادتا الجيفة قبحًا، وهما: «خضراء، ومنتنة». والصورة منتزعة أيضًا من آية الحجرات.

٦- تشبيه ذكر الناس بالداء:

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ [ت:٢٣هـ][٢].: «عَلَيْكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ شِفَاءٌ، وَإِيَّاكُمْ وَذِكْرَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ دَاءٌ»[٣].

بدأ أمير المؤمنين عمر ﷺ كلامه بأسلوب إنشائي غرضه النصح والإرشاد، ثم حذر من ذكر الناس وأحاديثهم التي لا تخلو من خوض ومغرم.

وقوله: «فَإِنَّهُ شِفَاء»: شَبَّهَ فيه ذِكْرَ المولى - سبحانه وتعالى - بالشفاء. والتشبيه منزعه كتاب الله، وقد جاء في سورة يونس (الآية:٥٧)، وسورة الإسراء (الآية:٨٢)، وسورة فصلت (الآية:٤٤). «وَالشِّفَاءُ حَقِيقَتُهُ زَوَالُ الدَّاءِ، وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي زَوَالِ مَا هُوَ نَقْصٌ وَضَلَالٌ وَعَائِقٌ عَنِ النَّفْعِ مِنَ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ تَشْبِيهًا لَهُ بِبُرْءِ السَّقَمِ»[٤].

وقوله: «فَإِنَّهُ دَاءٌ»: شَبَّهَ فيه عمرُ ﷺ ذكرَ الناس بأنه داء، ووجه الشبه: الضرر في كل، فذكرُ الناس يُوغر الصدور، ويُنبت الأحقاد، ويشعل حسرات من لا

(١) الزهد لهناد / ج:٢/ ص:٥٦٤.

(٢) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٣) الزهد لهناد:ج:٢/ ص:٥٣٧.

(٤) التحرير والتنوير/ ج١٥/ ص١٨٩.



يستطيع على من يستطيع، ثم بعد ذلك لا أجر ولا خير كما قال - تعالى -: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[النساء: ١١٤].

٧- تشبيه الغيبة بالإدام القذر:

سَمِعَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ[ت: ٩١ - ١٠٠هـ][(١)]. **رَجُلاً يَغْتَابُ رَجُلاً، فَقَالَ: «إِيَّاكَ وَالْغِيبَةَ؛ فَإِنَّهَا إِدَامُ كِلَابِ النَّاسِ»**[(٢)].

الغرض من هذا النصح والتحذير تنفير المُغتاب؛ حتى يترفع عن الغيبة، فأول الكلام تحذير بـ: «إياك». ثم جاءت فاء السببية؛ لتُبَيِّن سبب النهي، ثم بعدها: «إن»؛ لتوكيد الصورة البيانية. وقد شبه الغيبة بالإدام، ثم أراد أن يزيد الصورة بيانًا، فذكر أن هذا الإدام قذر لا يتناوله إلا أقذر الناس، فشبَّهَهُم بالكلاب في القذارة، والتشبيهُ في قوله: «**كلاب الناس**» من إضافة المشبه به للمشبه؛ وذلك للتنفير من هذه الصورة القذرة للمغتابين.

وهذه الصورة لم تخرج من فلك الصور السابقة؛ فالجيفة والمضغة التي طالما لفظها الكرام، وإدام الكلاب: من الكلمات التي حقلها واحد، ولهذا كان بعض السلف ﷺ يتورع ويُغلظ ويرى بالوضوء من الغيبة: جاء عَنْ هِشَامٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ، قَالَ: قُلْنَا لِعَبِيدَةَ: مِمَّ يُعَادُ الْوُضُوءُ؟، قَالَ: «مِنَ الْحَدَثِ وأَذَى الْمُسْلِمِ»[(٣)].

---

(١) علي بن الحسين ابن الإمام عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ زين العابدين.[ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٢/ ص١١٤٤.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا ص١٧٣.

(٣) الزهد لأبي عاصم ص ٥٩.

وجاء عن مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَمُرُّ بِمَجْلِسٍ لَهُمْ، فَيَقُولُ: تَوَضَّئُوا؛ فَإِنَّ بَعْضَ مَا تَقُولُونَ شَرٌّ مِنَ الْحَدَثِ»[1].

٨- تشبيه الكذب بلحم عصفور:

حَدَّثَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «قَالَ لُقْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِابْنِهِ: إِيَّاكَ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّهُ شَهِيٌّ كَلَحْمِ الْعُصْفُورِ، عَمَّا قَلِيلٍ يَقْلَاهُ صَاحِبُهُ»[2].

شبه الكذب بلحم عصفور، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما له شهوة، وتميل له بعض النفوس، وتظن فيه الخير والنفع، قال ابن القيم: **وَلَحْمُهُ حَارٌّ يَابِسٌ، عَاقِلٌ لِلطَّبِيعَةِ، يَزِيدُ فِي الْبَاهِ، وَمَرَقُهُ يُلَيِّنُ الطَّبْعَ، وَيَنْفَعُ الْمَفَاصِلَ، وَإِذَا أُكِلَتْ أَدْمِغَتُهَا بِالزَّنْجَبِيلِ وَالْبَصَلِ، هَيَّجَتْ شَهْوَةَ الْجِمَاعِ، وَخَلْطُهَا غَيْرُ مَحْمُودٍ**[3].

وقوله: «**عَمَّا قَلِيلٍ يَقْلَاهُ صَاحِبُهُ**»: الضمير في قوله: «**يقلاه**» يرجع للكذب، وليس للحم العصفور، فالكذب في أوله كلحم عصفور، **وبعد ذلك يقلاه صاحبه**، وقوله: «**عما قليل**»: دلت على سرعة عقوبة الكذب، وسرعة ظهور أثره.

ما جاء في الصمت:

١- تشبيه الصمت بالقمر:

قال: وقال رجل من أهل الشام: كنت في حلقة أبي مسهر[ت:٢١١-٢٢٠هـ][4]**. في مسجد دمشق، فذكرنا الكَلَام وبَرَاعَته، والصَمْت ونَبَالَته، فقال:**

(١) الصمت لابن أبي الدنيا ص٨٩.

(٢) الصمت لابن أبي الدنيا ص٢٥٧.

(٣) زاد المعاد / ج٤/ ص٣٥٠/ ن: الرسالة بيروت/ ط:٢٧.

(٤) عبد الأعلى بن مُسْهِر بن عبد الأعلى بن مُسْهِر. [ت: ٢١١ - ٢٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٥/ ص٣٦٣.



كلا؛ إنَّ النَّجْم ليس كالقَمَر، إنَّك تَصِفُ الصَّمت بالكلام، ولا تَصِف الكَلَام بالصمْت(١).

وقوله: «**إن النجم ليس كالقمر**»: تشبيه منفي، غرض القائل: نفي التسوية بين الكلام والصمت، وترجيح كفة الصمت، وبيان علو منزلته، وبيان البون الشاسع بين الاثنين.

وقوله: «إنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت»: الصمتُ يقوم أحيانًا مقام الكلام، فيفيد الاعتراض، ويفيد القبول، وأحيانًا لا يفيد شيئًا، ويكون عدم الإفادة إفادة وغرضا للمتكلم، أما الكلام فلا يكون أبدًا صمتًا.

٢- تصوير الصمت وكتمان الخبر:

ذكر الجاحظ [ت: ٢٤١ - ٢٥٠هـ](٢). في رسائله عن شهوة الإخبار: «فَعُسرٌ عَلَى الإنْسَان الكِتْمَان؛ لإيثَار هَذِه الشَّهْوَة، والانقِياد لِهَذه الطَّبيعة، وكَانت مُزَاوَلة الجِبَال الرَّاسِيات عَنْ قَوَاعِدها أَسْهَل من مُجَاذَبة الطِبَاع. فاعْتَرَاه الكَرب؛ لكِتْمَان السِّر، وغَشِيه لِذَلك سِقَم وكَمَد يُحِسّ به في سُويدَاء قَلْبِه بمثل دَبِيب النَّمل، وحَكّة الجَرَب، ومِثل لَسْع الدّبر وَوَخز الأَشَافي، عَلَى قَدْر اخْتِلَاف مَقَادِير الحُلُوم والرَّزَانَة والخِفّة. فإذا بَاحَ بِسِرّه فَكَأنَّه أَنْشَط مِنْ عِقَال؛ ولذلك قيل: {الصَّدْر إذا نَفَث بَرأ} مثلًا مَضْروبًا لِهذِه الحَال. وقيل: ولا بدّ من شكوى إذا لم يكن صبر»(٣).

قوله: «سِقَم وكَمَد يُحِسّ به في سُويدَاء قَلْبِه بمثل دَبِيب النَّمل، وحَكّة الجَرَب،

(١) البيان والتبيين / ج: ١ / ص٢٢٠/ ٢٢١.

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ. [ت: ٢٤١ - ٢٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت: بشار/ ج٥/ ص١١٩٣.

(٣) الرسائل الأدبية للجاحظ / ص٩٢.

ومِثل **لَسْع الدّبر وَوَخْز الأَشَافي**»: شَبَّهَ فيه ما يشعر به كاتم الخبر (من سقم وكمد) بأربعة أشياء: دبيب النمل، وحكة الجرب، ولسع الدبر، ووخز الأشافي. فالمشبه به متعدد، والمشبه واحد (الجمع)، ويجمع هذه الأربعةَ أنه لا صبر لمن يعالجهن إلا بوضع يده على موطن الإصابة، كذلك كاتم الخبر وحامله؛ لا صبر له على حمل هذا؛ حتى يُنفِّث عن نفسه، وهذا الشعور يتفاوت من شخص لآخر كما تفاوت المشبهات، فمن الناس من يشعر بمثل دبيب النمل، ومنهم من يشعر بمثل حكة الجرب، وهكذا على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرّزانة والخفّة، وأفاد التشبيه صعوبة الصبر والمعالجة ومشقة ما كانوا يكابدونه، فقد جاء عند الترمذي: وروي عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي، وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه، وكذلك إذا صلى، فبقى في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت، فرمى بها[(١)].

وقَالَ مُوَرِّقٌ الْعِجْلِيُّ: أَمْرٌ أَنَا فِي طَلَبِهِ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ، وَلَسْتُ بِتَارِكٍ طَلَبَهُ أَبَدًا، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْمُعْتَمِرِ؟، قَالَ: «**الصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْنِينِي**»[(٢)].

قوله: «**فإذا باح بسرّه فكأنه أنشط من عقال**»: شَبَّهَ فيه حالةَ المُبِيح بسره بحالة الناشط من العقال، ووجه الشبه: التخلص مما يُثقل ويُشغل.

٣- تصوير الحفظ خزنًا واللسان خازن والقلب خزانة:

قال صاحب اللسان: خزن: خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْنًا واخْتَزَنه: أَحْرَزه وَجَعَلَهُ فِي خِزانة وَاخْتَزَنَهُ لِنَفْسِهِ. والخِزانةُ: اسْمُ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُخْزَن فِيهِ الشَّيْءِ[(٣)].

---

(١) رياضة النفس للحكيم الترمذي ص٤١.

(٢) الزهد لأحمد ص ٢٤٧.

(٣) لسان العرب ج١٣/ ص١٣٩.



استعمل أهل الرقائق كلمة: «خزن» بمشتقاتها في حفظ اللسان، أو في حفظ الكلام على هذا التفصيل:

- استعارة الخزن للحفظ:

عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ﷺ (ت:٦٥هـ)[١].: «**اخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ وَرَقَكَ**»[٢].

قوله: «**اخْزُنْ لِسَانَكَ**»: استعار فيه الخزن للحفظ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وقوله: «**كَمَا تَخْزُنُ وَرَقَكَ**»: شَبَّهَ فيه حالةَ من يخزن لسانه بمن يخزن الدراهم، والتشبيه مركب، أراد الحرص على استعمال اللسان كما يحرص المرء على الدراهم، فلا يخرجها إلا عند الشراء وعند الضرورة، كذلك اللسان؛ ينبغي ألا ينطق إلا عند الحاجة، وإلا ففي نطقِه الغرم والعطب.

- إطلاق اللسان على الكلام:

عَنْ عَطَاءٍ الْوَاسِطِيِّ، قَالَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ [ت: ٩١ - ١٠٠هـ][٣]. قَالَ: **لاَ يَتَّقِي اللَّهَ عَبْدٌ حَتَّى يَخْزِنَ مِنْ لِسَانِهِ**»[٤].

---

(١) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي ﷺ / سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٧٣.

(٢) مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ص١٣٧.

(٣) أَنَسُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ أبو حمزة الأنصاري الْخَزْرَجِيُّ ﷺ / تاريخ الإسلام للذهبي/ للذهبي/ ج٢/ ص١٠٥٧.

(٤) الزهد لأحمد / ص١٧١.

أراد أنس ﷺ أن يقول: لا يتقي الله عبد حتى يخزن من كلامه، فليس كل ما يعلم يُقال، وليس كل ما يقال يقال في كل الأحوال.

وقوله: «**من لسانه**»: فيه أن كلمة لسان لا يتأتّى حملها على الحقيقة؛ لوجود «**من**» التبعيضية، فأقرب طريق وأسهل مسلك أن يقال: أطلق اللسان، وأراد الكلام، واللسان آلة الكلام، فالمجاز مرسل علاقته الآلية.

- اللسان خازن والقلب خزانة:

قال لقمان لابنه: إذا كان خازنُكَ حفيظًا، وخِزانتُكَ أمينةً: سُدت في دنياك وآخِرتِكَ. يعني اللسان والقلب[1].

وفي قوله: «**إذا كان خازنُكَ حفيظا**»: استعار الخازن للسان استعارة تصريحية أصلية.

وفي قوله: «**وخِزانتُكَ أمينةً**»: استعار الخزانة للقلب استعارة تصريحية أصلية، والجامع أن كلًّا منهما وعاء يُوعى فيه.

٤- تصوير اللسان شخصًا أحق بالسجن من غيره:

عَنْ عَنْبِسِ بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ [ت:٣٢][2].: «**وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ شَيْءٌ أَحَقُّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ**»[3].

---

(١) معجم العين / ج٤/ ص٢٠٩.

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٣))) الزهد لوكيع ص ٥٤٨/ / ت: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي/ ن: مكتبة الدار، المدينة المنورة/ ط: ١.

- القسم الذي بدأ به عبد الله ﷺ قسم خبير مُجرب واثق فيما يقول، وبين الكلمات حنقٌ وغيظٌ على اللسان، أوجبا له السجن.

- **وفي قوله: «أَحَقُّ بِطُولِ السِّجْنِ مِنَ اللِّسَانِ»**: صوَّر اللسان في صورة شخص مذنب كثير الآثام أحق بالسجن من غيره، ثم حذف المشبه به، وأبقى لازمه: «**أحق بالسجن**» على سبيل الاستعارة المكنية.

- وقد ألقت الاستعارة والسياق الشخوص على اللسان، فجعلاه في صورة إنسان يعيش على ظهر الأرض كثير الآثام، مثيرا للفتن، مهيجا للمصائب، أولى الناس بالسجن. وكلمة: «سجن» لا يتأتَّى تصورها إلا مع شخوص، لذلك كانت الاستعارة مكنية لازمها «**السجن**».

٥- تشبيه الصمت بالشفرة:

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ (ت:٢٤٥هـ)[١]**. يَقُولُ: «وَمَنْ قَطَعَ لِسَانَهُ بِشَفْرَةِ الصَّمْتِ وَجَدَ طَعْمَ عُذُوبَةِ الرَّاحَةِ»**[٢].

قوله: «**وَمَنْ قَطَعَ لِسَانَهُ بِشَفْرَةِ الصَّمْتِ وَجَدَ طَعْمَ عُذُوبَةِ الرَّاحَةِ**»: مشتمل على شرط وجملة الشرط، وأراد إسكات اللسان، فاستعار القطع للإسكات على سبيل الاستعارة التبعية التي أفادت مبالغة الإسكات، وتعطيل اللسان تعطيلًا دائمًا.

وفي قوله: «**بِشَفْرَةِ الصَّمْتِ**»: شبه الصمت بالشفرة، وأضاف المشبه به إلى المشبه، ووجه الشبه: الإنهاء.

---

(١) ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١١/ ص٥٣٢.

(٢) حلية الأولياء / ج٩/ ص٣٨٠، وبهذا المصدر تحريف في بعض الكلمات صوبتُها من كتاب صفة الصفوة، والمدهش لابن الجوزي.

وقوله: «**وَجَدَ طَعْمَ عُذُوبَةِ الرَّاحَةِ**»: جواب الشرط، وهو نتيجة الصمت، وقد صوَّر الراحة طعامًا له عذوبة على سبيل الاستعارة المكنية.

٦- استعارة الخطم والزم لتهذيب الكلام وتنقيته:

حَدَّثَ الْأَوْزَاعِيُّ، عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ[ت: ٥١ – ٦٠هـ][1]. **نَزَلَ مَنْزِلاً، قَالَ: «إِيتُونَا بِالسُّفْرَةِ نَعْبَثْ بِهَا»، فَأَنْكَرْتُ مِنْهُ، فَقَالَ: «مَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا أَخْطِمُهَا، ثُمَّ أَزِمُّهَا غَيْرَ هَذِهِ، فَلَا تَحْفَظُوهَا عَلَيَّ»**[2].

كان شداد ﷺ شديد اليقظة حذِرًا من لسانه، رقيبًا على فمه، لا يُخرج كلمة إلا بعدما يُهذبها وينقيها ويُخليها.

وفي قوله: «إِلَّا وَأَنَا أَخْطِمُهَا، ثُمَّ أَزِمُّهَا»: استعار الخطم والزم للتهذيب والتنقية على سبيل الاستعارة التبعية، والخطم والزم تقييد للدابة من أن تشرد أو تجمح، كذلك كلمات شداد ﷺ يهذبها؛ حتى لا تؤذي غيره، وتؤذيه.

وجاء في اللسان: **وفي حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ: مَا تكلمتُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا وأَنا أَخْطِمُها، أَي: أربطها وأَشدُّها، يُرِيدُ الِاحْتِرَازَ فِيمَا يَقُولُهُ وَالِاحْتِيَاطَ فِيمَا يَلْفِظُ بِهِ**[3].

---

(١) شداد بن أوس بن ثابت، أبو يعلى، [ت: ٥١ – ٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج٢/ ص٥٠٤.

(٢) الزهد لابن المبارك ص: ٢٨٩.

(٣) لسان العرب / ج١٢/ ص١٨٧.



٧-تشبيه كف اللسان عن الخوض في الحرام بالدابة التي تخطم وتزم:

قال الجاحظ[ت: ٢٤١ - ٢٥٠هـ][(١)].: وإنّما سمّى العقل عقلاً وحجرًا، قال - تعالى -: (هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) (الفجر:٥).؛ لأنه يزمّ اللسان، ويخطمه، ويُشكله، ويربثه، ويقيّد الفضل، ويعقله عن أن يمضي فرطًا في سبيل الجهل والخطأ والمضرّة، كما يعقل البعير، ويحجر على اليتيم[(٢)].

وفي قوله: «**لأنّه يزمّ اللسان ويخطمه، ويُشكله ويربثه**»: شَبَّهَ كف اللسان عن الخوض في الحرام بالدابة التي تخطم وتزم، ثم حذف المشبه به، وأبقى لازمه على سبيل الاستعارة المكنية، والعقل هنا قائد يزم ويخطم، ويُشكل ويَربِث، ويقيد الفضل من القول، فإذا فسد العقل مضى اللسان فرطًا في سبيل الجهل والخطأ والمضرة، وإذا رشد العقل رشد اللسان، ونطق حقًّا، وتكلم صدقًا.

* * *

الخلاصة:

كثرت الصور البيانية عند أهل الرقائق في وصف اللسان وخطورته، وشبهوا الأفواه بالحوانيت والطرق التي ينبغي أن يحتاط المرء منها، ويعتني بتنظيفها. كما صوَّر أهل الرقائق اللسان بعدة صور، كلها توجب الحذر، وتبث الخوف من أمر اللسان، فصوّروه سبعًا، ونابًا، وشبهوا أمره بأمر اللئيم الراضع، وبالأمير، وبقلم الملَك، وشبهوا عمله بعمل السهام، ثمَّ خاطبوه وعاتبوه على سبيل الاستعارة.

---

(١) عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ. [ت: ٢٤١ - ٢٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٥/ ص١١٩٣.

(٢) الرسائل الأدبية ص٨٨/ ٨٩.

ووصف أهل الرقائق الكلم الطيب باللؤلؤ، وجعلوا ما فيه من وضوح وأريحية ضوءَ نهارٍ، وشبهوا حالة من يتخير الكلام الطيب بحال من ينتقي جيد التمر، وأسندوا إلى الكلم الطيب غسل الضغائن وإزالة الأحقاد من الصدور. أما الكلم الخبيث: فشبه أهل الراقائق النميمة منه بحد سيف، وشبهوا تأثير الكذب في صنوف الشر بتأثير الماء في أصول الشجر، وصوروا الغيبة بالمضغة القذرة، وبالجيفة، والداء العضال، والإدام النجس.

وأما الصمت فقد كان ممدوحًا عند أهل الرقائق؛ لما فيه من سلامة، والسلامة لا يعدلها شيء، فالصمت يفوق الكلام، والصمت قمر، والكلام نجم. وأما عن صعوبه الصمت فشبهوا ما يشعر به الصامت كاتِمُ الخبر من كمد وضيق - بدبيب النمل، وحكة الجرب، ولسع الدَّبْر، ووخز الأشافي.

وصوروا اللسان خازنًا، والقلب خزانةً، وشبهوا الصمت بالشفرة التي تقطع ما كان من أمر اللسان، وشبهوا كف اللسان عن الخوض في الحرام - بالدابة التي تخطم وتزم، ولا يخفى في كثير مما سبق من هذه الصور أثرُ البيئة فيها.

المبحث الثاني:
التصوير البياني في مقام طلب العلم وفضله

المحتوى:

ما جاء من صور بيانية في فضل العلم والعلماء:

١- إسناد إماتة الأهواء وغلبة الأعداء إلى العلم.

٢- وكناية عن خلود ذكر العلماء.

٣- وتشبيه العلم بآلة الإسلام.

٤- وتشبيه حال من يعمل بالعلم لإدراك الآخرة - بحال الصانع الذي يعرف أسرار مهنته.

٥- وتشبيه موت العالم بالثلمة.

٦- وتشبيه العلم بالسراج.

٧- وتشبيه العالم بالسراج، ينفع الناس دون أن ينقص منه شيئًا.

٨- وتشبيه حال العالم الذي ينقذ الناس من الجهل بحال رجل يحمل سراجًا في طريق مظلم.

٩- وتشبيه من يعبد ربه على علم، فيفوز بأعظم أجر - بالبنَّاء؛ عملُه يسير، وأجره كبير.

وما جاء في صون العلم والعالم:

١- كناية عن وجوب التواضع في العلم.

٢- وتشبيه حال من يبذل العلم عند من لا يسأله - بحال من ينثر الدر عند من لا يلتقطه.

٣- واستعارة الثوب للعلم استعارة مكنية لازمها «لا تدنس».

٤- وتشبيه عالم السوء بحجر في ساقية لا يشرب الماء، ولا يخلي الماء إلى الشجر.

٥- وتشبيه من يُعلم الناس ولا يعمل - بسراج يضيء للناس ويحرق نفسه.

٦- و»تجوعون من العلم» استعارة تبعية.

٧- واستعارة تمثيلية تُبين حال من يحصل العلم، ولا يعمل به.

٨- وتشبيه حال من يجمع العلم ولا يعمل به - بحال من يجمع آلات الحرب، ولا يحارب.

٩- و»مُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ»: كناية عن الحرص.

١٠- وتشبيه المذاكرة بالإحياء.

١١- واستعارة الدَرْس لنسيان العلم.

١٢- وتشبيه حال من يُحَصِّل العلم بالمساءلة - بحال من يصطاد الوحش.

١٣- وتشبيه العلم بالخزائن المسائل مفاتيحها.

١٤- و»قيدوا» استعارة تبعية بمعنى «احفظوا».

١٥- وتشبيه حال من يحمل علمًا ولا يحدث به - بحال من يكنز المال ولا ينفق منه.

وما جاء في كون العلم شرابًا:

١- تشبيه العلم وحامليه بالينابيع.

٢- وتصوير القلب وعاءً للعلم.

٣- وتشبيه العلم بالغيث.

٤- واستعارة الشراب للعلم استعارة مكنية لازمها «مجة».

٥- واستعارة المج للترك والنسيان.



وصور بيانية أخرى في مقام العلم:

١- تشبيه صون الحلم للعلم بصون اللباس لصاحبه.

٢- وتشبيه طغيان العلم بطغيان المال.

٣- وتشبيه العلم في الصغر بالنقش على الحجر.

٤- وتشبيه الصبر المطلوب في طلب العلم بصبر الحمام.

٥- و«المحابر» مجاز أراد به العلم.

٦- وتشبيه العلم بالطبيب والدرهم بالداء.

٧- وتشبيه العلم بواد وَعْر.

٨- وتشبيه حامل العلم بغير بصيرة بحاطب ليل.

٩- وتشبيه حال المؤمن في طلب العلم - بحال من يَجِّد في طلب ضالته حتى يجدها.

تحدث كثير من أهل الرقائق في كتبهم عن العلم، لا سيما أن من صفاتهم العلم، وشغلهم الشاغل إذ اشتغل الناس بالدرهم والدينار، فأكثر أبو نعيم في كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء من أقوالهم في العلم، وتباعًا له[1]. أكثر ابن الجوزي في صفة الصفوة من أقوال العلماء في العلم، وأفرد ابن المبارك فى كتابه الزهد بابين: الأول: بَابُ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ؛ لِعَرَضٍ فِي الدُّنْيَا. والثاني سماه: بَابُ مَا جَاءَ فِي قَبْضِ الْعِلْمِ. ومن أجل ذلك أفردت مبحثًا للحديث عن العلم.

ما جاء في فضل العلم والعلماء:

١- إسناد إماتة الأهواء وغلبة الأعداء إلى العلم:

قال المحاسبي - رحمه الله - (ت:٢٤٣هـ)[2]. في وصف أصحاب النبي ﷺ و ﷺ وفي وصف التابعين وخواص المؤمنين في سائر الأزمنة والدهور: **أَمَاتَ الْعِلم بِاللَّه لَهُم أهواءهم، وَغلب لَهُم أعداءهم، وَجمع لَهُم شَمْلَهم، وأَحْكَم لَهُم أَمرهم، وَكَانَ التَّوْفِيق لَهُم صباحًا، وخفي اللطف من الله دَائِما والتأييد لَهُم من سَيْدِهم مُرْشدًا**[3].

وفي قوله: «**أَمَاتَ، وَغلب، وَجمع، وأَحْكَم**»: أسند الأفعال إلى غير فاعلها الحقيقي؛ لعلاقة السببية؛ وذلك لبيان أهمية العلم في التغلب على الأهواء، وجمع الشمل، وإحكام الأمر.

---

(١) صفة الصفوة اختصار وتهذيب لما جاء في الحلية .

(٢) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٣) المكاسب والورع والشبهة للمحاسبي / ص٣٢/ / ت: نور سعيد/ ن: دار الفكر اللبناني - بيروت/ ط: ١.

وما يدور عليه النص هنا وصف مناقب العلم وبيان صفاته، وسطوته، والعلمُ عُدَّةُ كل مقاتل، وأداة كل قائد، ولما كان العلم هو المحرك والمُوقظ لصاحبه: أسند المحاسبي إليه الفعل دون صاحبه، فالعلم «يميت، ويغلب، ويجمع، ويُحكم»، وقد أفاد المجاز قوة العلم على دمغ الأهواء وإزهاقها وإنهائها بلا رجعة، ومحوها بلا عودة.

وقوله: «**أَمَاتَ الْعِلم بِاللَّه لَهُم أهواءهم**»: أراد به محو الأهواء بالعلم، وقد استعار الإماتة للمحو، ثم اشتق من الإماتة «أمات» على سبيل الاستعارة التبعية، التي ظهرت قوة عمل العلم في إزالة الأهواء ومحوها.

٢- كناية عن خلود ذكر العلماء:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُنْدُبٍ، عَنْ كُمَيْلِ بْنِ زِيَادٍ، قَالَ: «أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ[ت:٤٠][١]. بِيَدِي، فَأَخْرَجَنِي إِلَى نَاحِيَةِ الْجَبَّانِ، فَلَمَّا أَصْحَرْنَا جَلَسَ، ثُمَّ تَنَفَّسَ، ثُمَّ قَالَ: «يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ ... الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، الْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْعَمَلِ، وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دَيْنٌ يُدَانُ بِهَا، الْعِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَصَنِيعَةُ الْمَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ. مَاتَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ ...»[٢].

قوله: «الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ»: المقام فيه مقام توصية ووعظ وإرشاد، وقد أسند الفعل «يحرس» إلى العلم إسنادًا مجازيًا علاقته السببية، وأبرز

---

(١) علي بن أبي طالب ﷺ [ت:٤٠] الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.

(٢) حلية الأولياء/ ج١/ ص٧٩.

المجاز فضيلة العلم التي بها يفُوق المال، فالعلم يحرس من زلات الدنيا ونيران الآخرة.

وقوله: «**وَمَحَبَّةُ الْعَالِمِ دَيْنٌ يُدَانُ بِهَا**»: محبة الناس للعالم ثروة له عند الناس تبلُغ حد الدين.

وفي قوله: «**الْعِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ**»: أسند الكسب إلى العلم إسنادًا مجازيًا علاقته السببية، وحيث إن المقارنة بين العلم والمال أراد سيدُنا علي ﷺ أن يقول للمخاطب: لا تظن أن الكسب لا يكون إلا في المال، إنما يكون في العلم، وهو الطاعة في الحياة، وجميل الأحدوثة بعد الموت.

وفي قوله: «**مَاتَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ**»: استعار الموت للخمول على سبيل الاستعارة التبعية التي أظهرت المبالغة في خمولهم حتى صاروا أمواتًا، لا حياة لهم.

ولفظ: «**خزّان**» من صيغ المبالغة الدّالة على كثرة جمعهم المال كثرة لم تُغْن عنهم من أن يكونوا أمواتًا وهم أحياء.

وقوله: «**وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ**»: كنايةٌ عن خلود ذكرهم.

٣- تشبيه العلم بآلة الإسلام:

قال مُحَمَّدُ بْنُ عَاصِمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سُفْيَانَ[ت: ٢١١ - ٢٢٠هـ][(١)]. يَقُولُ: «كُلُّ صَاحِبِ صِنَاعَةٍ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ فِي صِنَاعَةٍ إِلَّا بِآلَةٍ، وَآلَةُ الْإِسْلَامِ الْعِلْمُ،

---

(١) صالح بن مهران، أبو سفيان الشيباني، [ت: ٢١١ - ٢٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٥/ ص٣٣١.



وَإِذَا رَأَيْتَ الْعَالِمَ لَا يَتَوَرَّعُ فِي عِلْمِهِ فَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ عَنْهُ، وَكَانَ يَقُولُ: وَضَعُوا مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا عَلَى الدُّنْيَا، فَلَمْ تَنْفَتِحْ فَوَضَعُوا عَلَيْهَا مَفَاتِيحَ الْآخِرَةِ، فَانْفَتَحَتْ»[1].

وفي قوله: «**وَآلَةُ الْإِسْلَامِ الْعِلْمُ**»: خرج التشبيه من الابتذال إلى الغرابة بالقلب، وقد شَبَّهَ الآلة بالعلم تشبيهًا مقلوبًا أفاد المبالغة بجعل الأصل في وجه الشبه فرعًا والفرع أصلًا، والغرض: بيان أهمية المشبه، وإظهار مكانته، وأن لا مجال للعمل في الإسلام إلا بالعلم.

وفي قوله: «**وَضَعُوا مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا عَلَى الدُّنْيَا، فَلَمْ تَنْفَتِحْ**»: استعار المفاتيح للأدوات والوسائل والأسباب على سبيل الاستعارة التصريحية، والاستعارةُ أظهرت حسابات الدنيا وأدواتها في صورة مفاتيح معطلة لا تعمل، وأداوات الدنيا الحرص والطمع والحقد والحسد وهكذا كلها لا تُسمن ولا تغني من جوع، ولا تبني ملكًا، ولا تصنع مجدًا، إنما تسلب عزًا، وتضع مكانة، وتحقر رأيًا، وأراد بمفاتيح الآخرة أدواتها والتي منها العلم الذي نحن بصدده.

٤- تشبيه حال من يعمل بالعلم؛ لإدراك الآخرة - بحال الصانع الذي يعرف أسرار مهنته:

قال المحاسبي (رحمه الله) (ت:٢٤٣هـ)[2]: **وَلَو اجْتمع أهل الدُّنْيَا كلهم وَمَعَهُمْ أداة كل صناعَة، هَل قدرُوا أن يثقبوا إبرة إلا بأداتها الَّتِي هِيَ أداتها؟، وَهَكَذَا جَمِيع الأشياء، هَل رَأَيْت بيطارًا قطّ قدر على صناعته بأداة خياط؟، أَوْ قدر الْخياط على صناعته بأداة البيطار؟، وَهَكَذَا كل عمل لَا يقدر الْحداد على عمله**

(١) حلية الأولياء/ ج١٠/ ص٣٩١.

(٢) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

بأداة النجار، وَلَا النجار بأداة الإسكاف، وَهَكَذَا أعمال الْآخِرَة؛ لَا يقدر عَلَيْهَا إلا بأداتها، وأصلُ أَدَاة أعمال الْآخِرَة الْعلمُ والمعرفةُ وَالِاعْتِبَارُ؛ فَإِنَّهَا من دلالات الأداة[1].

شبه حال من يعمل بالعلم والمعرفة والاعتبار؛ لإدراك أعمال الآخرة - بحال الصانع الماهر الذي يعرف أسرار مهنته، ويتخذ من الأدوات ما يُمَكِّنه من تحقيق ما يريدُ، وذلك في بيان أهمية الأدوات التي يحقق بها صاحبها ما يريد، والتشبيه تمثيلي، يُظهر استحالةَ الوصول إلى الآخرة والقيام بأعمالها إلا بالعلم والمعرفة، ويكشف عن مكانة العلم والمعرفة.

٥- تشبيه موت العالم بالثلمة:

عَنِ الْحَسَنِ[ت: ١١٠هـ][2]**. قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: مَوْتُ الْعَالِمِ ثُلْمَةٌ فِي الْإِسْلَامِ لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»**[3].

شبه موت العالم بالثلمة تشبيهَ معقول بمحسوس، وغرضه بيان مدى أثر فقدان العالم ومدى تأثيره في جدار الإسلام، وبيان ما يلحق الإسلام عند موت العالم، وصوّرته في صورة كسر وخلل في جدار، أو سيف، أو إناء.

وقوله: «لَا يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»: تفريع على التشبيه، أفاد أن تلك الثلمة لا دواء لها، وأن الفراغ الذي يتركه العالم لا يسد وإن امتد الدهر، وتعاقبت الليالي والسنون، فلكل عالم بصمته، وبيانه، وعقله، وفكره، الذي لا

(١) آداب النفوس المحاسبي ص١٣٥.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) الزهد لأحمد / ص٢١٢.

يشبه فيه أحدًا، وإن قلّ علمه ونِتاجه، فربما أصبح القليل قلادة الجيد، ومغمور اليوم مشهور الغد.

٦- تشبيه العلم بالسراج:

قال المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)(١).: فبالعَقْل والعِلْم والتَثَبُّت يُبْصر الضرر والنفع من دواعي القلوب بالخَطَرات، وإلا لَمْ يُؤمن عَلَيه أَن يَقْبل خَطْرة من نَزَغَات الشَّيطان، أو تَسْويل النَّفس يَحسبها (تنبيهًا) من الرحمن جل ثناؤه، أو يَنفي خَطْرة من التنبيه على الخَير يحسبها من تسويل النفس، أو تَزْيين الشَّيطان، فلن يميز بين ذلك ولا يَعْرِفه إلا بالعِلْم والتَثَبت بالعَقْل، ومِثْل ذَلِك كَمن هو في ظُلمة شديدة في الطَّريق؛ مَخُوفَة من الآبَار والزَّلل في المَطَر الوَابِل، فلَن يَنْفَعَه بَصَره بغير سِراج، ولَنْ يَنفعه السِرَاج إِنْ لَم يَكن لَهُ بَصَرٌ صَحِيح، ولَن يَنفعه البَصَر والسِّراج إِنْ لَمْ يَرمِ بَصَره حَيثُ يَضَع قَدَمه ويَتثبت، فإِنْ نَظَر إلى السَّماء، أو التفت وناظره صحيح وسراجه يزهر (ولَمْ يَرْمِ بِطَرَفه إلى الأَرْض): كان كَمَنْ لا بَصَر لَهُ ولا سِرَاج مَعَه، وإِنْ رَمَى بِطَرَفه نَحْو الأرض ولا سِراج مَعَه كَان كَمَنْ لا بَصَر له. فَمَثل البَصَر الصَّحيح كَمَثل العَقْل، ومثل السِّراج كَمثل العِلْم، ومَثَل النَّظَر بالتثبُّت مثل التثبت بالعقل(٢).

وفي قوله: «فَمَثل البَصَر الصَّحيح كَمَثل العَقْل، ومثل السِّراج كَمثل العِلْم، ومَثَل النَّظَر بالتثبت مثل التثبت بالعقل»: شَبَّهَ البصر الصحيح بالعقل، والسراج بالعلم، والتثبت بالنظر بالتثبت بالعقل تشبيهًا مقلوبًا، ثم ربط ومزج بينهم في

---

(١) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٢) الرعاية لحقوق الله المحاسبي/ ص٩٥.

قصة قصيرة أو في مثل طويل، وهدفُ التشبيه: بيانُ العلاقة بين الثلاثة: «العلم والعقل والتثبُّت»، وأنه لا غنى عن أحدهم، فغياب أحدهم خلل وتعطيل للبقية.

وهذا المزج الذي وقع في المثل مزج حسي مشاهد، أراد به بيانَ مزجٍ آخر غير مشاهد، إنه المزج العقلي الذي لا يلمحه إلا القليل من العقلاء ممن اجتمع عندهم: «العلم والعقل والتثبت».

٧- تشبيه العالم بالسراج، ينفع النّاس دون أن ينقص منه شيئًا:

وقال سفيان بن عيينة(ت:١٩٨هـ)[١].: **إِنَّما العالِم مِثْل السِراج: من جَاءَه اقْتَبَسَ مِن عِلْمِه، ولا يَنْقُصُه شيئًا، كما لا يُنْقِص القَابِس مِنْ نُور السِّراج شيئًا**[٢]. شبه حال العالم الذي يستفيد من علمه دون أن ينقص من علمه شيء - بحال السراج المتوهج الذي يستفيد الناس من ضوئه دون إنقاص نور السراج، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: الهداية وانتشار النفع من غير نقص. إنما العلم يكثر ويزيد بالمسألة والمدارسة واللبث.

٨- تشبيه حال العالم الذي ينقذ الناس من الجهل - بحال رجل يحمل سراجًا في طريق مظلم:

عَنْ مُوسَى بْنِ يَسَارٍ عَمِّهِ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ سَلْمَانَ ﷺ [ت: ٣٦هـ][٣]. كَتَبَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ: «... وَإِنَّمَا مَثَلُ الْعَالِمِ كَمَثَلِ رَجُلٍ حَمَلَ سِرَاجًا فِي طَرِيقٍ مُظْلِمٍ،

---

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (١٩٨هـ) / وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢/ ص٣٩٣.

(٢) العقد الفريد ج٢/ ص٨٢.

(٣) سلمان الفارسي، أَبُو عبد الله الرامَهُرْمُزِيّ، [المتوفى: ٣٦ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار ج٢/ ص٢٨٦.

يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ مَرَّ بِهِ، وَكُلٌّ يَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ»[1].

شبه حال العالم الذي يفيد الناس بعلمه، وينقذهم من ظلمات الجهل والليل الحالك - بحال رجل يحمل سراجًا في طريق مظلم، فينتفع الناس بضوء سراجه، ويدعون له بالخير، ووجه الشبه: الهداية والنفع وعموم الفائدة.

٩- تشبيه من يعبد ربه على علم فيفوز بأعظم أجر - بالبنَّاء؛ عملُه يسيرٌ، وأجرُه كبيرٌ:

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللهِ الْقَيْسِيِّ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ[ت:١٣٩هـ][2]. أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلُ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ مَثَلُ الْبَنَّاءِ وَالرَّقَّاصِ، تَجِدُ الْبَنَّاءَ عَلَى الشَّاهِقِ وَالْقَصْرِ مَعَهُ حَدِيدَتُهُ جَالِسًا، وَالرَّقَّاصُ يَحْمِلُ اللَّبِنَ وَالطِّينَ عَلَى عَاتِقِهِ عَلَى خَشَبَةٍ تَحْتَهُ مَهْوَاةٍ، لَوْ زَلَّ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ، ثُمَّ يَتَكَلَّفُ الصُّعُودَ بِهَا عَلَى هَوْلِ مَا تَحْتَهُ حَتَّى يَأْتِيَ بِهَا إِلَى الْبَنَّاءِ، فَلَا يَزِيدُ الْبَنَّاءُ عَلَى أَنْ يَعْدِلَهَا بِحَدِيدَتِهِ وَبِرَأْيِهِ وَبِتَقْدِيرِهِ، فَإِذَا سَلِمَا أَخَذَ الْبَنَّاءُ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الْأُجْرَةِ، وَأَخَذَ الرَّقَّاصُ عُشْرًا، وَإِنْ هَلَكَ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ، فَكَذَا الْعَالِمُ يَأْخُذُ أَضْعَافَ الْأُجْرَةِ بِعِلْمِهِ»[3].

استقى أبو حازم - رحمه الله - التشبيه من بيئته ومن أعراف قومه، فصبَّه في قوالب معروفة لدى الناس، لا تنكر، ولا تستبعد؛ ليبرهن على شيء ربما أنكره منكر، أو استبعده جاهل، وهنا يتجلى فضل العبارات المجازية في إثبات ما لا تستطيع العبارات الحقيقية إثباته، وفي حمل ما لا تحمله العبارات الحقيقية من الإقناع والحجة.

---

(١) مسند الإمام الدارمي / ج٢/ ٢١٣/ ح:٥٦٦.

(٢) سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ أَبُو حَازِمٍ [ت:١٣٩هـ] الوافي بالوفيات / ج١٥/ ص١٩٩.

(٣) حلية الأولياء / ج٣/ ص٢٤٥.

- وقد شبه العالم الذي يعبد ربه على علم، فيفوز بأعظم أجر - بالبنَّاء عملُه يسيرٌ وأجرُه كبيرٌ، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: يُسر العمل وعِظم الأجر. وشبه الجاهل الذي يكد بغير فهم وإجادة نية، فيأخذ من الأجر على قدر نيته - بالرقاص يتكبد المشاقّ، ولا يأخذ إلا قليل أجر، والتشبيه مركب، ووجه الشبه: المخاطرة والتعب وقلة الأجر. وقد أكثر أبو حازم - رحمه الله - في الصورة البيانية من التفصيل والوصف، فقوله: «**يَحْمِلُ اللَّبِنَ وَالطِّينَ عَلَى عَاتِقِهِ عَلَى خَشَبَةٍ تَحْتَهُ مُهْوَاةٍ لَوْ زَلَّ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ، ثُمَّ يَتَكَلَّفُ الصُّعُودَ بِهَا عَلَى هَوْلِ مَا تَحْتَهُ**»: أبان عن شدة تعب الجاهل ومشقة الجهل على صاحبه. وقوله: «**مَعَهُ حَدِيدَتُهُ جَالِسًا، فَلَا يَزِيدُ الْبَنَّاءُ عَلَى أَنْ يَعْدِلَهَا بِحَدِيدَتِهِ وَبِرَأْيِهِ وَبِتَقْدِيرِهِ**»: فيه إفصاح عن الراحة التي يسكنها العالم، والطمأنينة التي تحيط به، والتشبيه نقل النفس من المعقول إلى المحسوس.

ما جاء في صون العلم والعالم:

١- كناية عن وجوب التواضع في العلم:

قَالَ مُحَمَّدَ بْنَ الصَّبَّاحِ: أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ(ت:١٩٨هـ)[1]. قَالَ: «إِذَا تَرَكَ الْعَالِمُ لَا أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ»[2]. وَمَقَاتِلِ الإِنْسَان: الْمَوَاضِع من بدنه الَّتِي إِذا أُصِيبَت قتلت[3].

وقوله: «**إِذَا تَرَكَ الْعَالِمُ لَا أَدْرِي أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ**»: كناية عن وجوب التواضع.

---

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (١٩٨هـ) / وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢/ ص٣٩٣.

(٢) حلية الأولياء/ ج٧/ ص٢٧٤.

(٣) جمهرة اللغة / ج١/ ص٤٠٧.



وقوله: «لا أدري»: هي الدرع الواقي الذي يقي العالم، ويحفظه من الزلل والخوض بغير علم.

وقوله: «**أصيبت مقاتله**»: جاءت «مقاتل» جمعًا؛ لبيان أن الأمر جد خطير، وأن عدم التواضع مزلقة، وخطر يصيب مقاتل عدة.

٢- تشبيه حال من يبذل العلم عند من لا يسأله - بحال من ينثر الدر عند من لا يلتقطه:

عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ[ت: ١١١ - ١٢٠هـ][(١)]. قَالَ: «لاَ تَبْذُلْ عِلْمَكَ لِمَنْ لاَ يَسْأَلُهُ، وَلَا تَنْثُرِ اللُّؤْلُؤَ عِنْدَ مَنْ لَا يَلْتَقِطُهُ، وَلَا تَنْشُرْ بِضَاعَتَكَ عِنْدَ مَنْ يُكْسِدُهَا عَلَيْكَ»[(٢)].

شبه حال الذي يبذل العلم عند من لا يسأله - بحال من ينثر الدر عند من لا يلتقطه، وبحال من ينشر بضاعته عند من يكسدها، والتشبيه ضمني، وقد جاءت الجملة الثانية والثالثة برهانًا وتعليلًا، وقد اشتهر عند أهل العلم إطلاق اللؤلؤ على علومهم، كما هو ملحوظ في تسميتهم كتبَهُم، فالغرض: بيان مكانة العلم ومنزلته، فينبغي أن يُصان ويُعز، فلا يحمل إلا لمن يطلبه ويَعرِف قدره.

٣- استعارة الثوب للعلم استعارة مكنية لازمها « لا تدنس »:

قال يُونُسَ بْنَ عَبْدِ الْأَعْلَى: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ[ت: ٢٠١ - ٢١٠هـ][(٣)]. يَقُولُ:»

---

(١) يزيد بْن مَيْسرة بْن حَلْبَس الدمشقيُّ. [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٣٤٠.

(٢) حلية الأولياء/ ج٥/ ص٢٣٥.

(٣) محمد بْن إدريس بْن العبّاس الشّافعيّ الْمَكِّيّ المطَّلبيّ الفقيه، [ت: ٢٠١ - ٢١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٥/ ص١٤٦.

كَتَبَ حَكِيمٌ إِلَى حَكِيمٍ: يَا أَخِي قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا، فَلَا تُدَنِّسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ، فَتَبْقَى فِي الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْعَى أَهْلُ الْعِلْمِ بِنُورِ عِلْمِهِمْ»[١].

في قوله: «فَلَا تُدَنِّسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ»: صورة بيانية حوَّلت العلم من كونه عقليًا إلى كونه حسيًا يُدنس، ويُرى فيه أثر الوسخ وغير ذلك، والاستعارة مكنية، العلمُ فيها ثوب أو شيء من ذلك، ولازم الاستعارة: «تدنس».

وقوله: «بظلمة الذنوب»: كان من المفترض أن يقول: «لاتدنس علمك بالذنوب»، ولكنه عدل عن ذلك، وأضاف كلمةَ: «**ظلمة**»؛ ليضيف شيئًا آخر فوق صفه الوسخ الذي أفادته كلمةُ: «**تدنس**»، هذا الشيء هو اشتداد السواد وانطفاء سراج العلم، كلها أشياء تزيد الثوب قبحًا وتشوُّهًا. فالصورة البيانية العلم فيها ثوب، والذنوب جسمٌ مُتسخٌ، والظلمة شيء يُدنس، كل هذه الألون جاءت متلائمة في سياق واحد.

٤- تشبيه عالم السوء بحجر في ساقية لا يشرب الماء، ولا يخلي الماء إلى الشجر:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ: سَمِعْتُ وُهَيْبًا[ت: ١٥١ - ١٦٠هـ][٢]. **يَقُولُ:» ضُرِبَ مَثَلٌ لِعُلَمَاءِ السُّوءِ، فَقِيلَ: إِنَّمَا مَثَلُ عَالِمِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْحَجَرِ فِي السَّاقِيَةِ، فَلَا هُوَ يَشْرَبُ الْمَاءَ، وَلَا هُوَ يُخْلِي الْمَاءَ إِلَى الشَّجَرَةِ، فَتَحْيَا بِهِ**»[٣].

شبه عالم السوء الذي لا يعمل بعلمه، ولا يبثه، ولا ينشره - بحجر في ساقية

---

(١) حلية الأولياء/ ج٩/ ص١٤٩.

(٢) وُهَيب بْن الورد أبو أمية، ويقال: أبو عثمان المَكِّيُّ العابد القدوة، [ت: ١٥١ - ١٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٤/ ص٢٤٩.

(٣) حلية الأولياء/ ج٨/ ص١٤٦.

لا يشرب الماء، ولا يخلي الماء إلى الشجر، فيحيا به، والمشبه به مقيد بكونه في ساقية، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: عدم الانتفاع بأبلغ مفيد ونافع.

ومثل هذا يصدق فيه قول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق:٢٥]. والغرض: إيضاح حال المشبه وعظيم ضرره بهذه الصورة المألوفة المرئية، لا سيما أن مثل هذا النوع من الحجارة له بغضٌ فطري في قلوب العباد.

٥- تشبيه من يُعلم الناس ولا يعمل بسراج يضيء للناس ويحرق نفسه:

قد سبق تشبيه العالم بالسراج الذي لا ينقص وإن كُثر الاقتباس منه، والذي معنا الآن تشبيه بالسراج، ولكن من زاوية أخرى، يظهر فيها الذم والمعيبة:

عَنْ أَبِي السَّوَّارِ أَنَّهُمْ أَتَوْا جُنْدُبًا [ت: ٦١ - ٧٠هـ][١]. فِي قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَقَالَ: أَرَى هَدْيًا حَسَنًا وَسَمْتًا حَسَنًا، فَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْأَهْوَاء، ثُمَّ قَالَ: مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ وَلَا يَعْمَلُ كَمِثَالِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»[٢].

في قوله: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ وَلَا يَعْمَلُ كَمِثَالِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ**»: تشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: نفع الغير مع الإضرار بالنفس، فالعالم إذا لم يعمل هلك وإن نصح غيره، ووعظ غيره، وتركُ العمل سبب الإحراق يوم القيامة، ولذا كان من دعائهم: «اللهم إنا نعوذ بك أن نكون جسرًا يعبر الناس عليه إلى الجنة، ثم يُقذف في النار».

(١) جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيُّ الْعَلَقِيُّ، [ت: ٦١ - ٧٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٦٢٤.

(٢) الزهد لأحمد ص١٦٥.

٦- «تجوعون من العلم»: استعارة تبعية:

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ[ت: ٥١ - ٦٠هـ][١]. قَالَ: «مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ، وَنِعْمَةٌ مُلْهِيَةٌ، وَذَلِكَ حِينَ تَشْبَعُونَ مِنَ الْعَمَلِ، وَتَجُوعُونَ مِنَ الْعِلْمِ»[٢].

في قوله: «تَشْبَعُونَ مِنَ الْعَمَلِ»: استعار الشبع للإكثار، ثم اشتق من الشبع تشبعون بمعنى تُكثرون على سبيل الاستعارة التبعية، وكلمةُ: «تشبعون» أفادت المبالغة في الإكثار.

وفي قوله: «وَتَجُوعُونَ مِنَ الْعِلْمِ»: استعار الجوعَ للإقلال، ثم اشتق من الجوع «تجوعون» بمعنى: «تقلون» على سبيل الاستعارة التبعية، والاستعارة أفادت المبالغة في القلة والخطر الذي عليه قليل العلم. وقلة العلم مهلكة حيث يسير العبد بلا هادٍ، وبلا طريق، فيقع في شهوة خفية حَجَبَتها عنه قلة علمه، ويقع في نعمة ملهية فيها السُّمُّ ناقِعًا، يظنها كرامةً له.

٧- استعارة تمثيلية تُبين حال من يحصل العلم ولا يعمل به:

قال إسحاق بن إبراهيم: سمعت الفضيل بن عياض(١٠٥ - ١٨٧هـ)[٣]. يقول: «لَوْ طَلَبْتَ مِنِّي الدَّنَانِيرَ كَانَ أَيْسَرُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ تَطْلُبَ مِنِّي الْحَدِيثَ، فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ حَدَّثْتَنِي بِأَحَادِيثَ فَوَائِدَ لَيْسَتْ عِنْدِي كَانَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَهَبَ لِي عَدَدَهَا دَنَانِيرَ، قَالَ: إِنَّكَ مَفْتُونٌ، أَمَا وَاللهِ لَوْ عَمِلْتَ بِمَا سَمِعْتَ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ يَقُولُ: إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْكَ طَعَامٌ تَأْكُلُهُ، فَتَأْخُذُ اللُّقْمَةَ فَتَرْمِي بِهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ كُلَّمَا أَخَذْتَ

(١) شداد بن أوس بن ثابت، أبو يعلى، [ت: ٥١ - ٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج٢/ ص٥٠٤.

(٢) الزهد للمعافي/ ص ٢٠٠.

(٣) الفضيل بن عياض (١٠٥ - ١٨٧هـ) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣.



لُقْمَةً رَمَيْتَ بِهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ مَتَى تَشْبَعُ؟»[1].

في قوله: «إِذَا كَانَ بَيْنَ يَدَيْكَ طَعَامٌ تَأْكُلُهُ، فَتَأْخُذُ اللُّقْمَةَ، فَتَرْمِي بِهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، كُلَّمَا أَخَذْتَ لُقْمَةً رَمَيْتَ بِهَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، مَتَى تَشْبَعُ»: شَبَّهَ حال من يجمع العلم والأحاديث، ولا يعمل بمقتضاها - بالذي يأخذ اللقمة تلو اللقمة، فيرمي بها خلف ظهره، ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والجامع: عدم الانتفاع بما ينتفع به، مع الكد في جمعه.

والصورة من قبيل قوله - تعالى -: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الجمعة:٥].

أراد سليمان بن مهران - رحمه الله - أن يكشف الغمام عن عين طالب العلم، فأراه حقيقة ما يفعل في صورة تذخر بالعناصر والحركة، هي صورة الطعام الذي يُرْمَى خلف الظهر، ولا يُأكل، ولا يُمضغ، فتستفيد منه الأعضاء، هذا الطعام - وإن كثُرَ - لا يغني من جوع حتى ينزل في الجوف، وتنتفع به الجوارح، كذلك العلوم والمتون والأسانيد - وإن كثُرت - لا تغني عن صاحبها؛ حتى تعمل بها أركانه.

٨- تشبيه حال من يجمع العلم ولا يعمل به - بحال من يجمع آلات الحرب ولا يحارب:

قال حَفصُ بْنُ حُمَيْدٍ: «سَأَلْتُ دَاوُدَ الطَّائِيَّ(ت:١٦٢هـ)[2]. عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَقَالَ دَاوُدُ: أَلَيْسَ الْمُحَارِبُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَلْقَى الْحَرْبَ، أَلَيْسَ يَجْمَعُ لَهُ آلَتَهُ؟، فَإِذَا أَفْنَى

---

(١) حلية الأولياء/ ج٨/ ص٨٧.

(٢) داود الطائي أبو سليمان بن نصير/ سير أعلام النبلاء / ج٧/ ٤٢٢/ ط:الرسالة.

عُمْرَهُ فِي جَمْعِ الْآلَةِ، فَمَتَى يُحَارِبُ؟، إِنَّ الْعِلْمَ آلَةُ الْعَمَلِ، فَإِذَا أَفْنَى عُمْرَهُ فِيهِ، فَمَتَى يَعْمَلُ؟»[١].

وفي قوله: «**أَلَيْسَ الْمُحَارِبُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَلْقَى الْحَرْبَ**»:تشبيه ضمني، شَبَّهَ حال من يجمع العلم ولا يعمل به بحال من يجمع آلات الحرب ولا يحارب، والعمل هو الميدان، ولا فائدة للسلاح إذا كان بيد من لا يقاتل.

والغرض العام: بيان أهمية العمل، والحرص على الاستفادة من العلم؛ حيث إنه لم يُجعل لمباهاة العلماء، أو أن يُماري به المرء السفهاء، إنما غاية الأمر النجاة في الدنيا والآخرة.

٩- «مُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ» كناية عن الحرص:

عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ [ت: ١٨هـ][٢]**. لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: «انظُرُوا، أَصْبَحْنَا؟»، قَالَ: فَقِيلَ: لَمْ نُصْبِحْ. حَتَّى أُتِيَ، فَقِيلَ لَهُ: قَدْ أَصْبَحْتَ. قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لَيْلَةٍ صَبَاحُهَا إِلَى النَّارِ. مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ، مَرْحَبًا، زَائِرٌ مُغِبٌّ حَبِيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ. اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَخَافُكَ، فَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ. إِنِّي لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ الْبَقَاءِ فِيهَا؛ لِكَرْيِ الْأَنْهَارِ، وَلَا لِغَرْسِ الشَّجَرِ، وَلَكِنْ لِظَمَأِ الْهَوَاجِرِ، وَمُكَابَدَةِ السَّاعَاتِ، وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقِ الذِّكْرِ**[٣].

الشاهد هنا قوله: «**وَمُزَاحَمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكَبِ**»، فهو كناية عن الحرص، فلا يزاحم إلا حريص متلهف مشتاق، يرى في القرب رِيًّا، وفي الصف الأول ملاذًا،

(١) حلية الأولياء/ ج٧/ ص٣٤١.

(٢) معاذ بن جبل بن عَمْرِو بْنِ أَوْسٍ ﷺ. [المتوفى: ١٨ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص١٠١.

(٣) المحتضرين لابن أبي الدنيا ص١١٠.

ولا يستحي ويتأخر إلا زاهد في العلم غني عنه، قال الخليل بن أحمد: يرتع الجهل بين الحياء والكبر في العلم(١).

١٠- تشبيه المذاكرة بالإحياء:

قَالَ الْقَعْنَبِيُّ: حدثنا عَابِسٌ، قَالَ: قَالَ عَلْقَمَةُ[ت: ٦١ - ٧٠هـ](٢).: «إِحْيَاءُ الْعِلْمِ الْمُذَاكَرَةُ»(٣).

تقديرُ الكلام (المذاكرة إحياء العلم)، فالمذاكرة مبتدأ؛ لأنه محكوم عليها، و(إحياء) محكوم به، فهو خبر، فيقال: شَبَّهَ المذاكرة بالإحياء، والغرض: بيان حال المشبه، وبيان مدى قوة المذاكرة في إرجاع ميت المسائل والأفكار، والكلام من وادي التشبيه المقلوب، قُلِب التشبيه؛ للمبالغة وبيان أهمية المذاكرة.

وجاء عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى[ت: ٨١ - ٩٠هـ](٤). قَالَ: «إِحْيَاءُ الْحَدِيثِ مُذَاكَرَتُهُ، فَذَاكِرُوهُ، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ، كَمْ مِنْ حَدِيثٍ أَحْيَيْتَهُ فِي صَدْرِي قَدْ كانَ ماتَ»(٥).

وفي قوله: «إِحْيَاءُ الْحَدِيثِ مُذَاكَرَتُهُ»: تشبيه كما سبق. أما قول ابن شداد: **«أَحْيَيْتَهُ»**: فهو استعارة؛ لأن رده تنوسي فيه التشبيه، فاستعار الإحياء للإرجاع والمذاكرة، ثم

---

(١) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٤/ ١٩)/ ن: مؤسسة الأعلمي بيروت / »:١.

(٢) عَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكٍ، أَبُو شِبْلٍ النَّخَعِيُّ الْكُوفِيُّ، [ت: ٦١ - ٧٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٦٨٣.

(٣) حلية الأولياء/ ج٢/ ص١٠٠.

(٤) عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى أَبُو عِيسَى الأَنْصَارِيُّ الْكُوفِيُّ [ت: ٨١ - ٩٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٩٦٦.

(٥) كتاب العلم للنسائي / ص٣٢.

اشتق من الإحياء: «أحييت» بمعنى ذاكرت على سبيل الاستعارة التبعية.

وتقديرُ قولِه: «قَدْ كانَ ماتَ»: «قد كان نُسي»، فاستعار الإماتة للنسيان، ثم اشتق منها: «مات» بمعنى نُسي على سبيل الاستعارة التبعية التي أفادت المبالغة في النسيان حتى وُصف بالإماتة، والقول بالاستعارة التبعية مقدم، وإلا فوصف الحديث بأنه إنسان يحيي ويميت بعيد عن قصد المتكلم، ناءٍ عن الغرض.

١١- استعارة الدَّرْس لنسيان العلم:

عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ[ت: ٦١ - ٧٠هـ][١]. قَالَ: «أَطِيلُوا كَرَّ الْحَدِيثِ لَا يُدْرَسْ»[٢].

في قوله: «يدرس» استعار الدرس للنسيان، واشتق منه يدرس بمعنى «ينسى» على سبيل الاستعارة التبعية، والدرس يكون في الثوب أو الرسم إذا عفا، استعمله علقمة - رحمه الله - في الحديث ومذاكرته، فكسى الحديث صورة محسوسة حوَّلَتْه من ماهيته إلى شيء آخر يرى بالعين، ويتأثر تأثرًا مرئيًا مشاهدًا.

١٢- تشبيه حال من يُحَصِّل العلم بالمساءلة - بحال من يصطاد الوحش:

قال مُغِيرَةُ بْنُ سِقْلَابٍ، حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ[ت: ١٢١ - ١٣٠هـ][٣]. قَالَ: «كَانَ يُصْطَادُ الْعِلْمُ بِالْمُسَاءَلَةِ كَمَا يُصْطَادُ الْوَحْشُ»[٤].

---

(١) عَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ،أَبُو شِبْلٍ النَّخَعِيُّ الْكُوفِيُّ[ت: ٦١ - ٧٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٦٨٣.

(٢) العلم للنسائي/ ص٦٣.

(٣) الزُّهْرِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ/ [ت:١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٤٩٩.

(٤) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٣٦٣.

في النص صورتانِ، في كل واحدة منهما مغزى وغرض لا غنى عنه، وهما:

- في قوله: «**كَمَا يُصْطَادُ الْوَحْشُ**»: شَبَّهَ حال من يُحَصِّل العلم بالمساءلة - بحال من يصطاد الوحش، والطرف الأول مركب، والثاني مفرد (مصدر مؤول تقديره: كاصطياد). وقوله: «الوحش»: قيد للاصطياد، ووجه الشبه: بلوغ الصعاب بقوة الأداء، وثمة شيء آخر بينهما أفاده القيد، وهو الشعور بالظفر والمتعة، وبهجة الصدر عند كلٍّ.

- **وفي قوله**: «**كَانَ يُصْطَادُ**»: استعار الصيد للتحصيل، ثم اشتق منه يصطاد بمعنى: «**يحصل**» على سبيل الاستعارة التبعية التي أظهرت قوة التحصيل، ورباطة الجأش عند التحصيل، كأنه صيد، وأفادت قوة أداة التحصيل «**المساءلة**»، وكأنها أداة صيد. وقوله: «**بالمساءلة**» يلائم المستعار له، فالاستعارة مجردة.

- وإذا نظرنا إلى قوله: «**الوحش**»: علمنا أنه أراد من العلم علمًا دقيقًا شريفًا يأتي برشح الجبين. وإذا نظرنا إلى قوله: «**يصطاد بالمساءلة**»: رأينا جسارة المساءلة في استخراج الدفين من العلم، وفي تقييد الشارد من الأفكار.

١٣- تشبيه العلم بالخزائن المسائل مفاتيحها:

قال ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ [ت: ١٢١ - ١٣٠هـ][(١)]. **قَالَ**: «**الْعِلْمُ خَزَائِنُ، وَتَفْتَحُهَا الْمَسَائِلُ**»[(٢)].

في قوله: «**الْعِلْمُ خَزَائِنُ**»: شَبَّهَ العلم بالخزائن المغلقة، ووجه الشبه: أن كلًّا

(١) أَبو بَكْرٍ الْقُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ الْمَدَنِيُّ. [ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج٣/ ص٤٩٩.

(٢) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٣٦٣.

منهما يحتاج إلى أداة؛ كي يُعطي ما فيه.

وفي قوله: «وَتَفْتَحُهَا الْمَسَائِلُ»: جعل المسائل أداةً للفتح «**مفاتيح**»، وحذف المستعار منه، وأبقي لازمه: «**تفتح**» على سبيل الاستعارة المكنية، وهذا ما يدور عليه رحى النص؛ أن المسائل مفاتيح، وما ذُكر التشبيه في أول النص إلا ليذكر أن المسائل مفاتيح، فالتشبيه هنا تمهيد؛ لسَوق الاستعارة، وقد جاء لتهيئة الأرض للصورة البيانية. ولو قيل: (العلم خزائن) دون ذكر باقي النص لَعَيينا في استخراج وجه الشبه، ولكان الكلام مبتورًا، لا سيما وقد جاء عن أحمد - رحمه الله - أنه قال: «**العلم خزائن، يقسم الله لمن أحب**»[١]. فغرض الكلام هناك يختلف عن الغرض هنا، والخزائن هناك ليست كالخزائن هنا، فالأولى تأتي بالسعى والمساءلة، والثانية عطاء من الله وفتح يعطيه لمن يحب، وكلاهما بمشيئة الله وإرادته. وفي النصين المشبه «العلم»، والمشبه به «خزائن»، ولكن السابق واللاحق بعد كل منهما سلط الضوء على زاوية معينة جعلت التشبيه الأولَ ليس كالثاني وإن اتحدا في المشبه والمشبه به، فهما يختلفان في الغرض والوجه.

١٤- «قيدوا» استعارة تبعية بمعنى «احفظوا»:

عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «كَانَ أَنَسٌ ﷺ [ت: ٩١ - ١٠٠هـ][٢]. **يَقُولُ لِبَنِيهِ: يَا بَنِيَّ قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ**»[٣].

---

(١) صفة الصفوة / ج٢/ ص٢١١.

(٢) أَنَسُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ ﷺ / تاريخ الإسلام للذهبي / للذهبي/ ج٢/ ص١٠٥٧/ ت: بشار عوّاد / ن: دار الغرب الإسلامي/ ط:١.

(٣) العلم لأبي خيثمة زهير بن حرب النسائي ص٤٩. أخرجه الخطيب (التقييد ٩٦، ٩٧) والبيهقي (المدخل ٤١٧، رقم ٧٦١، ٧٦٢) وابن سعد (الطبقات ٧/ ٢٢) والحاكم =

قوله: «قَيِّدُوا» أي: احفظوا العلم من التفلت والنسيان، شَبَّهَ حفظ العلم من التفلت بالقيد بجامع الحفظ والصون، ثم اشتق من القيد بمعني الحفظ، وقيدوا بمعنى احفظوا على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل.

والصورة مقتبسة من حديث النبي ﷺ الذي جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعاهدوا القرآن، فوالذي نفس محمد بِيده لَهُو أَشدُّ تَفلُّتًا من الإبل في عقلها**»[١].

١٥- تشبيه حال من يحمل علمًا ولا يحدث به - بحالِ مَن يكنز المال، ولا ينفق منه:

عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه [ت: ٣٦هـ][٢]. **قَالَ: «عِلْمٌ لاَ يُقَالُ بِهِ كَكَنْزٍ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ»**[٣].

شبه حال العالم الذي يتعلم العلم، ولا يُحَدِّث به؛ لينفع الناس - بحال مَن يكنز المال، ولا ينفق منه، وذلك في عدم الانتفاع بأبلغ مفيد نافع، والتشبيه تمثيلي. والعلم إذا لم يُقَلْ به، فيُحرم صاحبه أجر البث والنشر، ويُعاقب على كتمه.

ما جاء في كون العلم شرابًا:

بداية نُورد ما جاء على لسان النبي ﷺ في هذا المعنى، ثم نذكر ما جادت به قريحة القوم، وما جال في سماء خيالهم:

=(المستدرك ١/ ١٠٦). عَنْ مَرْثَدٍ أَبِي يَزِيدَ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَيِّدُوا النِّعَمَ بِالشُّكْرِ، وَقَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ». حلية الأولياء ج:٥/ ص٣٤٠.

(١) صحيح مسلم (١/ ٥٤٥).

(٢) سلمان الفارسي، أَبُو عبد الله الرامَهُرْمُزِيّ، [المتوفى: ٣٦ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار ج٢/ ص٢٨٦.

(٣) العلم للنسائي / ص١١.

حدث ابْنُ الْمُبَارَكِ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حَمْزَةُ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلى الله عَلَيهِ وسَلمَ - قَالَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ شَرِبْتُ، يَعْنِي اللَّبَنَ، حَتَّى أَنْظُرَ إِلَى الرِّيِّ يَجْرِي فِي ظُفُرِي، أَوْ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ عُمَرَ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَارَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: العِلْمَ[1].

وعَنْ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أَبِي صَالِحِ الْحَنَفِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «قُلْ: رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»، قَالَ: قُلْتُ: اللهُ رَبِّي، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، فَقَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْحَسَنِ، لَقَدْ شَرِبْتَ الْعِلْمَ شُرْبًا، وَنَهِلْتَهُ نَهَلًا»[2].

هذا مِمَّا جاء في كون العلم شرابًا حديثٌ على ﷺ المرفوع إلى النبي ﷺ، والتجوز في قوله: «شربت، نهلت»؛ حيث إن اللفظين لا يتأتَّى استعمالهما في العلم على الحقيقة، إنما استعارهما للحفظ والفهم استعارة تبعية، والشرب والنهل يكونُ فيما هو محسوس، استعارهما للحفظ؛ لبيان قوة الحفظ، وتمكُّن صاحبه، ثم أكَّد الاستعارة بذكر المفعول المطلق الدَّالِّ على التأكيد.

١- تشبيه العلم وحامليه بالينابيع:

قَالَ عُمَرُ ﷺ [ت:٢٣هـ][3].: «كُونُوا أَوْعِيَةَ الْكِتَابِ، وَيَنَابِيعَ الْعِلْمِ، وَسَلُوا اللَّهَ رِزْقَ يَوْمٍ بِيَوْمٍ، وَلَا يَضُرُّكُمْ أَنْ لَا يُكْثِرَ لَكُمْ»[4].

---

(١) الجامع الصحيح المختصر للبخاري / ج٥/ ص١٢/ ن:دار الشعب / ط:١.

(٢) حلية الأولياء/ ج١/ ص٦٥، وجاء في الجامع الكبير للسيوطي / ج١٧/ ص٥٠١/ ن: الأزهر الشريف / ط:٢. ولم أجده في كتب الحديث.

(٣) عمر بن الخطاب ﷺ / الأعلام للزركلي / ج٥/ ص٤٥.

(٤) الزهد لأحمد / ص٩٩.



في قوله: «كُونُوا أَوْعِيَةَ الْكِتَابِ»: شبَّهَهُم بأوعية الكتاب، أي: اجمعوا العلمَ، وحافظوا عليه كحفظ دفتي الكتاب على ما بينهما من علم نافع.

وقوله: «وَيَنَابِيعَ الْعِلْمِ»: فيه أمر المخاطبين بأن يكونوا كالينابيع التي لا تبخل، وإنما تفيض وتغمُر، فالعالم الرباني لا يضِنُّ بعلمه كما لا تضِنُّ العين بمائها، وذلك من حيث كثرة البذل، وعدم الإقتار والبخل، وإنما تُخْرِج لكل أحد كان فقيرًا، أو غنيًا، شريفًا، أو وضيعًا.

– وجاءت: «ينابيع» جمعًا؛ لمناسبة جمع المخاطبين، أو للحضِّ على كثرة بثِّ العلم. وجاء عَنْ مُوسَى بْنِ يَسَارٍ عن عَمِّهِ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ سَلْمَانَ ﷺ [ت: ٣٦هـ][(١)]. كَتَبَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ: «إِنَّ الْعِلْمَ كَالْيَنَابِيعِ يَغْشَاهُنَّ النَّاسُ، فَيَخْتَلِجُهُ هَذَا وَهَذَا، فَيَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ غَيْرَ وَاحِدٍ»[(٢)].

وقول أبي الدرداء هذا خرج من رحم قول عمر ﷺ، فشبه العلم بالينابيع، ووجه الشبه: كثرة النفع وتعدد المنتفعين.

٢- تصوير القلب وعاءً للعلم:

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ(ت:١٩٨هـ)[(٣)].: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ لاَ يَخْرُجُ مِنْ وِعَاءٍ قَطُّ إِلاَّ صَارَ فِي دُونِهِ»[(٤)].

---

(١) سلمان الفارسي، أَبُو عبد الله الرامَهُرْمُزِيّ،[المتوفى: ٣٦ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار ج٢/ ص٢٨٦.

(٢) مسند الإمام الدارمي / ج٢/ ٢١٣/ ح:٥٦٦/ ت: حسين سليم أسد الداراني / ط:١/ ن: دار المغني – السعودية.

(٣) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (١٩٨هـ) / وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢/ ص٣٩٣.

(٤) حلية الأولياء/ ج٧/ ص٢٨١.

وفي قوله: «مِنْ وِعَاءٍ»: استعار الوعاء للقلب استعارة أصلية بجامع الحفظ والصون.

والغرض العام: بيان قوة انتشار العلم وانتقاله بين القلوب، والحث على بث العلم وإخراجه، وبيان أنه لا يسكب في الأرض، ولا يذهب هباءً، إنما يدخل في أوعية أخرى.

٣- تشبيه العلم بالغيث:

أورد المحاسبي(ت:٢٤٣هـ)[١]. في (كتابه: الرعاية لحقوق الله) حِوارًا هو فيه مخاطِب ومخاطَب، قال: قلت: العلم يزيد العبد تواضعًا، فقد زاده كبرًا وجهلًا!، قال: إن العلم كما قال وهب: العلم كالغيث ينزل من السماء حلوًا صافيًا، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فتزداد المرة مرارةً، وتزداد الحلوة حلاوةً، ويكثر ماؤها بالحلاوة، ويكثر ماء المرة بالمرارة[٢].

شبه ابن وهب العلم بالغيث النازل من السماء، وعدَّد المناحي التي يشترك فيها العلم والماء، فوصف المشبه به بعدة جمل، كل واحدة منها يقابلها في المشبه ما هو منها بسبيل، ومن هذه المناحي:

- أن العلم يشبه الماء في كونه حلوًا صافيًا، فطبيعة العلم كطبيعة الماء، وهذا ما يجده العبد في نفسه.

- وأن المتلقين للعلم بصدورهم وقلوبهم، كالأشجار التي تتلقى الماء بعروقها.

---

(١) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٢) الرعاية لحقوق الله/ للمحاسبي/ ص٣٨٥ .

- وأن صاحب الخلق الفاسد والهدف السيء إذا تلقى العلم أصبح منافقًا عليمَ اللسان، كالشجرة المُرَّة التي لا يزيدها الماءُ إلا مرارةً.

- وأن صاحب الشيم الطيبة والمناقب العالية كالشجرة الحلوة التي يزيدُهَا الماءَ بهاءً وأُبَّهَةً وهَيْبَةً.

والغرض العامُّ: تبرئة العلم من كل قبيح، ونضح التهم عنه، وبيان أن العيب والنقص في القلوب التي تتلقي، فهي الوحيدة التي يُشار لها بأصابع الاتهام، لا العلم.

٤- استعارة الشراب للعلم استعارة مكنية لازمها «مجة»:

عَنْ فُضَيْلِ بْنِ غَزْوَانَ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ[ت: ٩١ - ١٠٠هـ][(١)]: **«مَنْ ضَحِكَ ضَحْكَةً مَجَّ مَجَّةً مِنَ الْعِلْمِ»**[(٢)].

قوله: «مَجَّ مَجَّةً مِنَ الْعِلْمِ»: يقال: ومَا بَقِيَ فِي الإِنَاء إِلَّا مَجَّةٌ، أَي: قَدْرُ مَا يُمَجُّ[(٣)]. فقد استعار الشراب للعلم، وحذف المستعار منه، ورمز إليه بلازم من لوازمه: «مجة» على سبيل الاستعارة المكنية، والاستعارةُ أفادت المبالغة في ذهاب العلم، وخروجه وتفلته، وصورت المعاني العقلية بأشياء مدركة بالحواس مرئية، والصورة تبث في صاحبها الخوف من الضحك، وتصور الضحك في صورة داءٍ يطرد العلم، ويُفرغ القلب منه.

---

(١) علي بن الحسين ابن الإمام عَلِيٍّ ﷺ زين العابدين. [ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص١١٤٤.

(٢) الزهد لأحمد / ص١٣٧. وورد في حلية الأولياء/ ج٣/ ص١٣٣.

(٣) لسان العرب / ج٢/ ص٣٦١.

ومن أغراض الاستعارة: تبيين خطورة الضحك لمن يستهين بكثيره وقليله، فإذا وقع الشرط - وهو «الضحك» - وقع الجواب لا محالة، وهو «المج».

٥- استعارة المج للترك والنسيان:

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ[ت: ١٦١ هـ][١]. قَالَ: «كَانَ يُقَالُ: إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ؛ فَإِنَّهَا تُقَسِّي الْقَلْبَ، وَاكْظِمُوا الْعِلْمَ، وَلَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ؛ فَتَمَجَّهُ الْقُلُوبُ»[٢].

قوله: «فَتَمَجَّهُ الْقُلُوبُ»: أي: تنساه وتتركه، فقد استعار المج للترك والنسيان، ثم اشتق من المج «تمجه» على سبيل الاستعارة التبعية، والاستعارة نقلتنا من المعقول إلى المحسوس، وأظهر النصُّ أن المج تقوم به القلوب إذا دخل عليها الضحك، واستثارها، ولا يزال بها حتى المرضِ أو الموتِ.

صور بيانية أخرى في مقام العلم:

١- تشبيه صون الحلم للعلم بصون اللباس لصاحبه:

عَنْ بَكْرِ بْنِ مُضَرَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ[ت: ١٤١ - ١٥٠هـ][٣]. أَنَّ رَجُلاً كَتَبَ إِلَى أَخٍ لَهُ: «إِنَّ الْحِلْمَ لِبَاسُ الْعِلْمِ، فَلَا تَعْرَيَنَّ مِنْهُ»[٤].

قوله: «إِنَّ الْحِلْمَ لِبَاسُ الْعِلْمِ»: أي: أن الحلم كاللباس للعلم، وعلى ذلك فقد شَبَّهَ صون الحلم للعلم بصون اللباس لصاحبه، ووجه الشبه: الحفظ والصون، والتشبيه تمثيلي.

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٢) الزهد لابن المبارك / ص٩١.

(٣) عمرو بن الحارث بن يعقوب، أَبُو أُمَيَّةَ الْمِصْرِيُّ الْفَقِيهُ، [ت: ١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٩٣٧.

(٤) الحلم لابن أبي الدنيا ص٥٧.

وصدر كلامه بـ: «إن»؛ لتأكيد المعنى، والغرض: بيان ضرورة «الحلم» للعلم وأهميته، فالحلم يعمل عمل الثوب، فالثوب يستر السوءات الحسية، والحلم يستر السوءات العقلية، ويمنع طغيان العلم. فعلمٌ بلا حِلْم عُرْي، وفاقد الحلم مكشوف، واضحة سقطاته، كثيرة فلتاتُه.

- **قوله: «فَلَا تَعْرَيَنَّ مِنْهُ»**: أفاد أن الحلم ثوب للمرء، وليس للعلم فقط، فإذا تَعَرَّى من الإنسان علمه، فقد تَعَرَّى كله، وسقط ظلُّه.

٢- تشبيه طغيان العلم بطغيان المال:

حدث رَبَاحُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ وَهْبٍ(ت:١١٣هـ)[١]. قَالَ: «إِنَّ لِلْعِلْمِ طُغْيَانًا كَطُغْيَانِ الْمَالِ»[٢].

أورد صاحبُ اللسان: قال ابْنُ سِيدَهْ: طَغَى يَطْغى طَغْيًا، وطغو يَطْغُو طُغْيانًا: جاوَزَ القَدْرَ، وَارْتَفَعَ، وغَلا فِي الكُفْرِ. وَفِي حَدِيثِ وَهْبٍ: إِنَّ لِلْعِلْم طُغْيانًا كطُغْيانِ المَالِ، أَي: يَحْمِل صاحِبَه عَلَى التَّرَخُّص بِمَا اشْتَبَه مِنْهُ إِلى مَا لَا يَحِلُّ لَهُ، ويَتَرَفَّع بِهِ عَلَى مَنْ دُونَه، وَلَا يُعْطِي حَقَّه بالعَمَلِ بِهِ كَمَا يَفْعَلُ رَبُّ المالِ[٣]. فقد شبه طغيان العلم بطغيان المال، وهذا تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد.

وبعض علماء السوء يَظهر عندهم هذا الطغيان، فيتكبرون به على من دونهم، وينتفخون به على أندادهم، ولا ينفقونه إلا لدنيا، أو درهم، أو دينار.

---

(١) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٢) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٥٥/ وورد في كتاب العلم للنسائي / ص٤٣/ ت: محمد ناصر الدين الألباني/ ن: المكتب الإسلامي - بيروت/ ط: ٢.

(٣) لسان العرب ج١٥/ ص٨،٧.

وقد أراد ابن منبه تبصير السامع الذي ينكر أن للعلم أضرارًا، وينكر أن العلم تحُف به فتن وشهوات وحظوظ نفس، فأكد مقولته بـ: «**إن**»، ثم أكدها بالصورة البيانية: «**كطغيان الماء**».

٣- تشبيه العلم في الصغر بالنقش على الحجر:

أورد ابن الدنيا [ت:٢٨٢هـ](١). قال الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّعْدِيُّ: حَدَّثَنَا الْمُفَضَّلُ بْنُ نُوحٍ الرَّاسِبِيُّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ مَعْمَرٍ قَالَ: الْعِلْمُ فِي صِغَرٍ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ(٢).

والمشبهُ في قوله: «الْعِلْمُ فِي صِغَرٍ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ»: مقيد بكونه في الصغر، والمشبه به: «النقش» مقيد بالجار والمجرور، ووجه الشبه: الثبات وعدم الزوال. والغرض: بيان حال المشبه، والتشبيه ابن بيئته ونتاجها، فهو مأخوذ من البيئة التي يعيشون فيها؛ حيث الكتابة على الصخور والحجارة، وغيرها، فقذف يزيد - رحمه الله - بالفكرة في قلب السامع من أقرب طريق، طريقِ الحواس وطريقِ العلم الأول.

٤- تشبيه الصبر المطلوب في طلب العلم بصبر الحمام:

قيل للشعبي(ت:١٠٥هــ)(٣).: من أين لك كل هذا العلم؟، قال: بِنَفْيِ الاغْتِمَامِ، وَالسَّيْرِ فِي الْبِلَادِ، وَصَبْرٍ كَصَبْرِ الحَمَامِ، وَبُكُوْرٍ كَبُكُوْرِ الغُرَابِ(٤).

---

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد[ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨.

(٢) النفقة على العيال لابن أبي الدنيا / ج:٢/ ص٨٠٠ .

(٣) الشعبي عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار(ت:١٠٥ هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٣١٨.

(٤) سير أعلام النبلاء/ ج٤/ ص٣٠٠.



ففي قوله: «وصبر كصبر الحمام»: شَبَّهَ صبره في طلب العلم بصبر الحمام، وقيد المشبه به بلفظ: «الحمام»، وهو أصبر طائر على الطيران ومسافته، وأعرف طائر بالجبال والوديان وغيرها.

وقوله: «وبكور كبكور الغراب»: صفة التبكير، وهي أبرز ما تكون في الغراب؛ لذلك آثرها الشعبي على غيرها.

٥- «المحابر» مجاز أراد به العلم:

قال مُحَمَّدُ بن سَهْلِ بْنِ عَسْكَرٍ: سَمِعْتُ الْحُمَيْدِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ(ت:١٩٨هـ)[١]. يَقُولُ: «لاَ تَدْخُلُ هَذِهِ الْمَحَابِرُ بَيْتَ رَجُلٍ إِلاَّ أَشْقَى أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ»[٢].

في قوله: «لَا تَدْخُلْ هَذِهِ الْمَحَابِرُ»: ذكر المحابر وأراد العلم على سبيل المجاز المرسل الذي (علاقته الآلية).

وقوله: «إِلَّا أَشْقَى أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ»: أي: أن العلم سبب شقاء الأهل والولد؛ لأنه يأخذ من مال صاحبه، ووقته، وقوته، وفراغه؛ مما يؤثر على حصتهم، وينقص من قسمتهم، وربما يكون سببًا في أخذ رقبة صاحبه، فما تكلم أحد بعلم إلا عُودي من الأكثرية الكاثرة الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم لا يعلمون، كل هذه المحن والشدائد يشقى بها الأهل والأولاد.

---

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (١٩٨هـ) / وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢/ ص٣٩٣.

(٢) حلية الأولياء / ج٧/ ص٢٧٥.

٦- تشبيه العلم بالطبيب والدرهم بالداء:

قال يَحْيَى بْنُ يَمَانٍ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ[ت: ١٦١هـ][(١)]. يَقُولُ: **الْعِلْمُ طَبِيبُ الدِّينِ، وَالدِّرْهَمُ دَاءُ الدِّينِ، فَإِذَا جَذَبَ الطَّبِيبُ الدَّاءَ إِلَى نَفْسِهِ، فَمَتَى يُدَاوِي غَيْرَهُ**[(٢)].

ففي قوله: «الْعِلْمُ طَبِيبُ الدِّينِ»: شَبَّهَ العلم بالطبيب، وقيد المشبه به بلفظ «**الدين**»، ووجه الشبه: النفع والسلامة، فالعلم به يزيد الدين، ويتعافى صاحبه من الجهالة والضلالة، ويسلم من الذنوب والآثام.

وفي قوله: «وَالدِّرْهَمُ دَاءُ الدِّينِ»: شَبَّهَ الدرهم بالداء، وقيد المشبه به بلفظ: «الدين»، ووجه الشبه: الإضرار والنقص والعطب، فحب الدنيا رأس كل خطيئة، والدرهم عقرب، من أحبه لدغه. والغرض العام: بيان أن حب العلم والدرهم لا يجتمعان في القلب، يظهر هذا في آخر قوله.

وقوله: «فَإِذَا جَذَبَ الطَّبِيبُ الدَّاءَ إِلَى نَفْسِهِ فَمَتَى يُدَاوِي غَيْرَهُ»: هذه العبارة تشبيه ضمني؛ حيث مثل حال من يكتسب الدراهم بالعلم ويريد الجمع بينهما والنجاة - بحال الطبيب الذي يجلب الداء إلى نفسه، ويبتغي الشفاء، فكلاهما يريد الجمع بين الضدين والمغنم.

٧- تشبيه العلم بواد وَعْرٍ:

عَنِ ابْنِ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ[ت: ١٢١ - ١٣٠هـ][(٣)]. قَالَ: **«الْعِلْمُ وَادٍ، فَإِنْ هَبَطْتَ وَادِيًا فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ؛ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْهُ؛ فَإِنَّكَ لَا تَقْطَعُ حَتَّى يَقْطَعَ بِكَ»**[(٤)].

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.
(٢) حلية الأولياء/ ج٦/ ص٣٦١.
(٣) الزُّهْرِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَبُو بَكْرٍ الْقُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ[ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام،ت:بشار/ ج٣/ ص٤٩٩.
(٤) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٣٦٢.

فقد شبه العلم بوادٍ، ووقع المشبه به خبرًا للمشبه، وقول الزهري: «**فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ؛ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْهُ؛ فَإِنَّكَ لَا تَقْطَعُ حَتَّى يَقْطَعَ بِكَ**»: يُفسر لنا وجه الشبه بين العلم والوادي؛ فإن الزهري لم يرد كل واد، إنما أراد واديًا صعبًا أمره، لا تثبت فيه قدم متعجلٍ، أو غير متريث، والسير في الوادي لا يناسبه إلا التؤدة؛ لأن الوادي مُنعرج بين جبال، أو ركام، أو تلال، ويكون منفذًا للسيل، ويجتمع فيه أحيانًا الأشجار والحشائش على جنبيه؛ مِمَّا يعيق السير، ويجعل كل شبر شبيهًا بالذي قبله والذي بعده، فتُشوش معالمه، فيحتاج المرء في كل خطوة إلى أن يُمعن النظر، ويدقق الفكر؛ حتى لا يضل، أو تلتبس عليه الأمور.

وقوله: «**فَإِنَّكَ لَا تَقْطَعُ حَتَّى يَقْطَعَ بِكَ**»: كناية عن صعوبة قطع هذا الوادي، كذلك العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، ولا تناسبه العجلة، وإلا وقع الإنسان في العطب، وزل وضل وأضل من غير علم، وكان كحاطب ليل؛ نزل واديًا، فجمع كل ما يجد وإن خالف صحيح المعتقد.

٨- تشبيه حامل العلم بغير بصيرة بحاطب ليل:

قَالَ يَحْيَى بنُ يُوْسُفَ الزِّمِّيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ(ت:١٩٨هـ) [١].: **قَالَ لِي عَبْدُ الكَرِيْمِ الجَوْزِيُّ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، تَدْرِي مَا حَاطِبُ لَيْلٍ؟، قُلْتُ: لَا. قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يَخْرُجُ فِي اللَّيْلِ، فَيَحْتَطِبُ، فَيَضَعُ يَدَه عَلَى أَفْعَى، فَتَقْتُلُه، هَذَا مَثَلٌ ضَرَبْتُه لَكَ لِطَالِبِ العِلْمِ، أَنَّهُ إِذَا حَمَلَ مِنَ العِلْمِ مَا لَا يُطِيْقُه قَتَلَه عِلْمُه، كَمَا قَتَلَتِ الأَفْعَى حَاطِبَ اللَّيْلِ**[٢].

---

(١) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي (١٩٨هـ) / وفيات الأعيان لابن خلكان ج٢/ ص٣٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء/ ج٥/ ص٢٧٢.

التشبيه هنا تمثيلي؛ حيث شَبَّهَ المكثر من العلم بغير نور وبصيرة - بحاطب ليل يجمع كل ما يقع تحت يده وإن لم تَرَه عينُه. والأفعى يقابلها في الطرف الآخر العلم المشوش، أو المدلس، أو غير المستقيم، والأفعى: حَيَّةٌ رَقشاءُ، طويلةُ العُنُق، عريضة الرَّأس، لا ينفَعُ منها رُقْيَة ولا تِرْياق، وربّما كانتْ ذاتَ قَرْنَيْن[١]. وإن كان الرديء من العلم ضرره أشد من الأفعى؛ لأنه يفسد على صاحبه الدنيا والآخرة، والأفعى تفسد على ملدوغها الدنيا، ولكن ابن عيينة - رحمه الله - أراد أن يظهر لنا الأمر في صورة مألوفة لا ينكرها أحد، وهل يُنكر ضرر الأفعى؟، قال الشيخ أبو موسى: «وهناك صور لا يُنظر فيها إلى قوة الصفة وضعفها؛ إنما ينظر إلى مستوى الوعي بالصفة في المشبه به ... والمهم تقريب الصورة غير المألوفة؛ بإبرازها في صورة معتادة مألوفة»[٢].

وذكر الشافعي مثل ذلك، فعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: «سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ[ت: ٢٠١ - ٢١٠هـ][٣]. وَذُكِرَ من يَحْمِلُ الْعِلْمَ جِزَافًا، فَقَالَ: هَذَا مِثْلُ حَاطِبِ لَيْلٍ، يَقْطَعُ حُزْمَةَ الْحَطَبِ، فَيَحْمِلُهَا، وَلَعَلَّ فِيهَا أَفْعَى تَلْدَغُهُ، وَهُوَ لا يَدْرِي»[٤].

الجُزاف في الشِّراء والبيع دخيل، وهو بالحدس بلا كيل ولا وزن[٥]. والتشبيه

(١) العين / ج٢/ ص٢٦٠.

(٢) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم / لمحمد محمد أبو موسى ص١٢٦/ مكتبة وهبة/ ط:٤ .

(٣) محمد بْن إدريس بْن العبّاس الْإِمَام العَلَم أبو عَبْد اللَّه الشّافعيّ الْمَكّيّ الفقيه،تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٥/ ص١٤٦.

(٤) آداب الشافعي ومناقبه ص٧٤// الرازي ابن أبي حاتم / ت: عبد الغني عبد الخالق/ ن: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان/ ط: ١.

(٥) العين / ج٦/ ص٧١.



تمثيلي: شَبَّهَ من يحمل العلم بلا وعي وتدبر، فيهلك، ويأثم، بحاطب ليل يحمل حزمة الحطب، ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري.

٩- تشبيه حال المؤمن في طلب العلم - بحال من يَجِّد في طلب ضالته حتى يجدها:

قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ عُبَيْدٍ[ت: ١١١ - ١٢٠هـ][١]. **قَالَ: «الْعِلْمُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، يَغْدُو فِي طَلَبِهِ، فَكُلَّمَا أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا حَوَاهُ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ غَيْرَهُ»**[٢].

قوله: «الْعِلْمُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ»: الضالَّةُ، وَهِيَ الضَّائِعَةُ مِنْ كُلِّ مَا يُقْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ[٣].

شبه حال المؤمن في طلب العلم وعدم الكف عن تحصيله - بحال من يجد في طلب ضالته حتي يجدها، وذلك في ديمومة الطلب وعدم الكفِّ والتواني؛ للحصول على ما هو مفيد نافع، والتشبيه تمثيلي. والتشبيه جاء هنا؛ للحث على الزيادة وعدم التواني والتكاسل، فينبغي للمؤمن ألا يهدأ، ولا يركن؛ حتى يجد ضالته.

وقوله: «فَكُلَّمَا أَصَابَ مِنْهُ شَيْئًا حَوَاهُ، وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ غَيْرَهُ»: أفادَ العبارة أنها

---

(١) عَبْد اللَّه بْن عُبَيْد بْن عُمَيْر بْن قَتَادةُ اللَّيْثي الْجُنْدُعي، [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٢٦٣.

(٢) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٢٥٤.

(٣) قَالَ ابْنُ الأَثير: وَهِيَ الضَّائِعَةُ مِنْ كُلِّ مَا يُقْتَنَى مِنَ الْحَيَوَانِ وَغَيْرِهِ. الْجَوْهَرِيُّ: الضَّالَّة مَا ضَلَّ مِنَ الْبَهَائِمِ لِلذَّكَرِ والأُنثى، .... وَقَدْ تُطْلَقُ الضَّالَّة عَلَى الْمَعَانِي، وَمِنْهُ الْكَلِمَةُ الحكيمةُ ضالَّةُ الْمُؤْمِنِ، وَفِي رِوَايَةٍ: ضالَّةُ كُلِّ حَكِيمٍ أَي لَا يَزَالُ يَتَطَلَّبها كَمَا يَتَطَلَّبُ الرجُلُ ضالَّته. لسان العرب / ج١١/ ٣٩٢. والحديث موضوع، عن أبي هريرة قال: قال رسول اله صلى الله عليه وسلم:» الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها». ضعيف سنن الترمذي / ص٣٢٠/ للألباني / ن: المكتب الإسلامي بيروت/ ط:١.

ليست ضالة واحدة، بل سلسلة من الشوارد والأوابد لا تنتهي، فالعلم تنقطع دونه الأنفاسُ، وتمنع المقابر المُضي مع المحابر.

* * *

الخلاصة:

ما جاء في المبحث: إسناد إماتة الأهواء وغلبة الأعداء إلى العلم دليلٌ على قوة العلم وقوة صاحبه وشجاعته على حفظ الدين والعباد والبلاد. وشبَّه أهل الرقائق العلم بالسراج من حيث النفع، وشبهوا العالم الرباني بالسراج الذي ينفع الناس دون أن يقع في ضوئه نقص، وبمن يحمل السراج في طريق مظلم، ومن زاوية أخرى شبهوا عالم السوء بسراج يحرق نفسه وإن نفع الناس، كما شبهوه بحجر في ساقية لا يشرب الماء، ولا يُخلي الماء إلى الشجر.

وأتى أهل الرقائق في المبحث بصورتين من البيئة تبيِّن أمر من يُحصِّل العلم، ولا يعمل به، فلا ينتفع، الصورةُ الأُولى صورة من يجمع اللقمة إلى اللقمة، ويرميها خلف ظهره، فلا يشبع، والآخر من يجمع آلات الحرب، ولا يحارب.

وشبه أهل الرقائق العلم بالينابيع وبالغيث وبالماء، كلُّ ذلك دليلٌ على أن العلم هو مصدر الحياة، به يحيا كل شيء، فلا غنى للبشرية عنه، كما لا غنى لها عن الماء والشراب، والعلماء ينابيع الهدى في كل زمان ومكان.

أما عن تحصيل العلم وحفظه: فبينوا أنه شبيه بواد وعرٍ يحتاج إلى صبر كصبر الحمام، وبكور كبكور الغراب، ويحتاج إلى حلم يصونه كما يصون اللباس صاحبه، فالأمر يحتاج إلى رباطة جأش لا سيما أنهم قد شَبَّهُوا حالَ مَن يحصل العلم بالمسألة بحال مَن يصطاد الوحش، كما بيَّنُوا أن المسائل مفاتيحُ لخزائن العلم.

المبحث الثالث:
التصوير البياني في مقام العمل

المحتوى:

١ - تصوير العمل دابة يوجهها صاحبها.

٢- وتصوير العمل في صورة قائد.

٣- وتشبيه الحزن بلقاح للعمل.

٤- وجعل الحزن نتاج العمل الصالح.

٥- وتصوير الفكرة مخًّا للعمل.

صور بيانية في ربط أمر العمل بالتجارة:

١ - تشبيه الفرائض برءوس الأموال، وتشبيه النوافل بالأرباح.

٢- وتصوير طاعة الله تجارةً.

٣- وتصوير المسجد سوق الآخرة.

٤- وتشبيه من يرجو جنة ربه، فيخف عليه الكد، بتاجر يرجو الربح، فتخف عليه المشقة.

٥- واستعارة الفرش واللُحف للأعمال.

وما جاء من صور بيانية في مطابقة العمل القول وعدمها:

٢- استعارة اللحن لانحراف العمل.

٣- وتصوير بياني: «عِظِ النَّاسَ بِفِعْلِكَ».

٤- واستعارة الموت لترك العمل.

٥- وتشبيه الذي لا يعمل بعلمه بطبيب لا يتداوى بدوائه.

٦- وتصوير حال من لا يعمل ويطلب مزيد علمٍ.

٧- وتشبيه حال الداعي بلا عمل بمن يرمي بلا وتر.

٨- وتصوير بياني «هتف العلم بالعمل».

وما جاء من صور بيانية في وصف العمل والعاملين:

١- تشبيه حال مجتهد اليوم بحال اللاعب فيمن مضى.

٢- ووصف اجتهاد النبي ﷺ.

٣- وتشبيه الصلاة بالكيل.

٤- وتشبيه القائم حال صلاته بالجذع.

٥- وتشبيه القائم حال صلاته بجذم الحائط.

٦- وتصوير الليل جملًا.

٧- وكناية عن قيام الليل كله.

٨- وتشبيه إغفاء ابن عمر ﷺ بإغفاء الطير.

٩- وتشبيه نائم الليل بالجيفة.

١٠- وكناية عن عدم العمل والفراغ.

١١- وتصوير العنف والتيسير دابةً.

١٢- و«كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ» مجاز.

١٣- واستعارة التوسد لمصاحبة العمل.

١٤- وتشبيه ملازمة الأعمال صاحبها إلى يوم القيامة بملازمة القلائد أعناق أصحابها.

١٥- وتشبيه حال من يعمل صالحًا ويخشى عدم القبول.

١٦- واستعارة الكنز للعمل الصالح.

١٧- وتشبيه المسيء بالميت، والمحسن بالحي.

١- تصوير العمل دابة يوجهها صاحبها:

قال مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: سَمِعْتُ الْحَجَّاجَ[ت: ٩١ - ١٠٠هـ](١). يَخْطُبُ وَيَقُولُ: «امْرَأً وَزَنَ نَفْسَهُ، امْرَأً اتَّخَذَ نَفْسَهُ عَدُوًّا، امْرَأً حَاسَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الْحِسَابُ إِلَى غَيْرِهِ، امْرَأً أَخَذَ بِعِنَانِ عَمَلِهِ، فَنَظَرَ أَيْنَ يُرِيدُ؟، امْرَأً نَظَرَ فِي مِكْيَالِهِ، امْرَأً نَظَرَ فِي مِيزَانِهِ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: امْرَأً حَتَّى أَبْكَانِي»(٢).

جاءت كلمة «امرأ» منصوبة بفعل محذوف، تقدير الكلام: رحم الله امرَأً. **وفي قوله: «امْرَأً أَخَذَ بِعِنَانِ عَمَلِهِ»**: صوَّر العمل في صورة دابة، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه «عنان» على سبيل الاستعارة المكنية، وأفادت الاستعارة تمكُّنَ المرءِ من تصويب وتوجيه عمله، تَمَكُّن قائد الفرس من عِنانها، ومثل هذا مأجور مرحوم، قد فاز فوزًا عظيمًا، وقد خاب من قاد هواهُ عملَه. **وقوله: «فَنَظَرَ أَيْنَ يُرِيدُ»**: ترشيح للاستعارة.

٢- تصوير العمل في صورة قائد:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[ت:٣٢](٣). قَالَ: «إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ يَقُودُ إِلَيْهِ الْعَمَلُ الْهَوَى، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَقُودُ فِيهِ الْهَوَى الْعَمَلَ»(٤).

الأصل في الأمر أن يتولى العمل قيادة الهوى، فيكون الهوى تبعًا للعمل

---

(١) الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ الْحَكَمِ الثَّقَفِيُّ، أَمِيرُ الْعِرَاقِ،[ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص١٠٧١.

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا/ ص٢٨.

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٤) الزهد للمعافي ص٣٠٥.

والشرع، أما في زمان المخالفة فيتولى الهوى قيادة العمل، فيكون العمل تبعًا للهوى، والهوى عند أهل الدين أرعن وأحمق، فقيادته ممقوتة منبوذة محفوفة بالمخاطر، وابن مسعود ﷺ يصف أهل زمانه الذين تمكنوا من أهوائهم، فجعلوها تبعًا لدينهم كما يتمكن قائد الدابة من الدابة.

وقد صور العمل في صورة قائد، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه: «يقود» على سبيل الاستعارة المكنية، والصورة تنُمُّ عن أن الزمان زمان حكمة ورشد ووحدة؛ لأن عمل الدين واحد، فالتوجه واحد، وعمل الدين راشد، فالقيادة رشيدة، والعكس يقال في قيادة الهوى.

وقوله: «وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ»: ذُكِر بعد التمام (زمان الرشد)، فكان إشارة إلى النقصان، وأثار الرعب في الوجدان، وأيقظ الخوف من زمان يأتي تطيش فيه العقول، ويكثر فيها الهرج، ويكثر فيه الاختلاف باختلاف الأهواء، وتشتُّتها.

٣- تشبيه الحزن بلقاح للعمل:

عن مالك بن دينار – رحمه الله – قال: إنَّ لِكُل شَيء لِقَاحًا، وإن الحُزن لِقَاح العَمَل[١].

عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارَ[ت:١٣٠هـ][٢]. قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لِقَاحًا، وَإِنَّ هَذَا الْحُزْنَ بِلِقَاحِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ إِنَّهُ لَا يَصِيرُ أَحَدٌ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ إِلَّا يَحْزَنُ، وَوَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ قَطُّ حُزْنُ الْآخِرَةِ، وَفَرَحٌ بِالدُّنْيَا إِنَّ أَحَدَهُمَا لَيَطْرُدُ صَاحِبَهُ»[٣].

(١) صفة الصفوة / ج٣/ ص٢٧٧.

(٢) مالك بن دينار / سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٣) الهم والحزن لابن أبي الدنيا / ص٤٤/ ت: مجدي فتحي السيد/ ن: دار السلام – القاهرة/ ط: ١.



قوله: «**وإنَّ الحزن لقاح العمل**»: شَبَّهَ الحزن باللقاح، واللقاح سبب لبث الحياة، كذلك الحزن سبب لبث العمل الصالح وإحيائه، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يحصل به الشيء وينمو.

وفي قوله: «**حُزْنُ الْآخِرَةِ، وَفَرَحٌ بِالدُّنْيَا إِنَّ أَحَدَهُمَا لَيَطْرُدُ صَاحِبَهُ**»: صوَّر الفرح والحزن في صورة شخصين يتعاركان حتى ينتهي الأمر بطرد أحدهما الآخر، والاستعارة مكنية لازمها: «يطرد»، فصوَّر ابن دينار - رحمه الله - ما يحدث في الوجدان بين الحزن والفرح مِن أمور عقلية في صورة تعارك وتدافع وطرد، والغرضُ العامُّ: بيان استحالة الجمع بين الأمرين.

٤- جعل الحزن نتاج العمل الصالح:

قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الْأَسْوَدُ[ت:١٩١-٢٠٠هـ].[1].: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ نِتَاجًا، وَنِتَاجُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْحُزْنُ، الْمَحْزُونُ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي عُلْوٍ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ»[2].

هنا تحول الحزن من كونه «**لقاحًا**» إلى «**نتاج**»، هذه الصورة بينها وبين الصورة السابقة وشائج، وليس من المستبعد أن تكون هذه الصورة نِتاجَ الصورة السابقة؛ حيث إن كلمتي النتاج واللقاح بينهما ارتباط وثيق[3].

وفي قوله: «**وَنِتَاجُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْحُزْنُ**»: شَبَّهَ الحزن بالنِتاج تشبيهَ مفردٍ بمفرد، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما حاصل شيء وثمرة شيء.

---

(١) أبو معاوية الأسود، [ت: ١٩١ - ٢٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٤/ ص١٢٦٩.

(٢) الهم والحزن لابن أبي الدنيا/ ص٩٧.

(٣) قح: اللِّقاحُ: اسم ماءِ الفَحْل. واللَّقاحُ: ما تُلْقَحُ به النَّخلة من النَّخلة الفُحّالة. معجم العين /ج٣/ ص٤٧.

والصورة البيانية أظهرت العمل الصالح في صورة مَن تمخض، فأنتج، وإن كان الحزن نتاجًا فلا بد له من سبب ينتجه، والصورة البيانية تقول: إن كل عمل لا ينتج حزنًا فهو عقيم (ليس بصالح). والصورة قد تكون مقتبسة من قول الله – تعالى –: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

٥- تصوير الفكرة مخًا للعمل:

قَالَ: وَسَمِعْتُ الْفُضَيْلَ يَقُولُ: قِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ(ت:١٦٢هـ)[١]: إِنَّكَ لَتُطِيلُ الْفِكْرَةَ، قَالَ: «الْفِكْرَةُ مُخُّ الْعَمَلِ»[٢].

المخ الدماغ التى بداخل الجمجمة[٣]. شَبَّهَ الفكرة بالمخ؛ لأنها تحض على العمل، وتثيره، وتحركه، وتفعل كفعل الدماغ بالجسد، فبها ينبثق العمل، وتشتعل شعلته، والتشبيه أوضح منزلة الفكرة من العمل.

وقوله: «الْفِكْرَةُ مُخُّ الْعَمَلِ»: كان ردًا على سؤال سائل، أوجز كثيرًا، ولخص الأمر في كلمتين، وأشبع السائل، ورد عليه إنكاره، وبين أهمية الفكرة ومكانتها، ورفع إيهام (أن العمل أفضل من التفكر) عند السائل، وأثبت أنه لا عمل بلا

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي (ت:١٦٢هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص٣٩٦.

(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص١٠٨.

(٣) وَالْمُخُّ: الدِّمَاغُ؛ قَالَ:

فَلَا يَسْرِقُ الكلْبُ السَّرُوقُ نِعالَنا ... وَلَا نَنْتَقِي المُخَّ الَّذِي فِي الجَماجمِ

وَيُرْوَى السَّرُوُّ وَهُوَ فَعُولٌ مِنَ السُّرى، وَصَفَ بِهَذَا قَوْمًا فَذَكَرَ أنهم لَا يَلْبَسُونَ مِنَ النِّعَالِ إلا الْمَدْبُوغَةَ وَالْكَلْبُ لَا يأكلها، وَلَا يَسْتَخْرِجُونَ مَا فِي الْجَمَاجِمِ؛ لأَن الْعَرَبَ تُعَيِّرُ بأكل الدِّمَاغِ كأنه عِنْدَهُمْ شَرَهٌ ونَهَم. / لسان العرب ج/ ٣/ ص٥٢.

فكرة، وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد أورد ابن المعتز هذه الاستعارة في كتابه[١].

صور بيانية في ربط أمر العمل بالتجارة:

قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الصف: ١٠). وَكَمَا أَنَّ التِّجَارَةَ تُنْجِي التَّاجِرَ من محنة الفقر، ورحمة الصبر عَلَى مَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِهِ: فَكَذَلِكَ هَذِهِ التِّجَارَةُ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ بِالْجنَانِ، وَالْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، كَمَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِ الْإِيمَانِ، فَلِهَذَا قَالَ: بِلَفْظِ التِّجَارَةِ، وَكَمَا أَنَّ التِّجَارَةَ فِي الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ: فَكَذَلِكَ فِي هَذَا؛ فَإِنَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ الْأَجْرُ، وَالرِّبْحُ الْوَافِرُ، وَالْيَسَارُ الْمُبِينُ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَلَهُ التَّحَسُّرُ وَالْخُسْرَانُ الْمُبِينُ[٢].

شُبه العملُ بالتجارة بجامع النفع في كل، ثم حذف المشبه: (العمل الصالح)، واستُعير له المشبه به: (التجارة). قال ابن عاشور - رحمه الله - في تفسير الآية: وَأُطْلِقَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ لَفْظُ التِّجَارَةِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ؛ لِمُشَابَهَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ التِّجَارَةَ فِي طَلَبِ النَّفْعِ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَمُزَاوَلَتِهِ وَالْكَدِّ فِيهِ. وَوَصْفُ التِّجَارَةِ بِأَنَّهَا تُنْجِي مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ: تَجْرِيدٌ لِلِاسْتِعَارَةِ؛ لِقَصْدِ الصَّرَاحَةِ بِهَذِهِ الْفَائِدَةِ؛ لِأَهَمِّيَّتِهَا، وَلَيْسَ الْإِنْجَاءُ مِنَ الْعَذَابِ مِنْ شَأْنِ التِّجَارَةِ، فَهُوَ مِنْ مُنَاسِبَاتِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ[٣].

---

(١) البديع في البديع لابن المعتز (ص٨٠) / ن: دار الجيل/ ط: ١.

(٢) تفسير الرازي/ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٩/ ٥٣١) / ن: دار إحياء التراث العربي - بيروت/ ط: ٣.

(٣) التحرير والتنوير/ ج٢٨/ ص١٩٥.

وهذه صور جاءت على لسان أهل الرقائق في هذا المعنى:

١- تشبيه الفرائض برءوس الأموال، وتشبيه النوافل بالأرباح:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ: سَمِعْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَشْعَثِ يَقُولُ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ (١٠٥ - ١٨٧هـ)[١]. يَقُولُ: «لَنْ يَتَقَرَّبَ الْعِبَادُ إِلَى اللهِ بشيءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْفَرَائِضِ، الْفَرَائِضُ رُءُوسُ الْأَمْوَالِ، وَالنَّوَافِلُ الْأَرْبَاحُ»[٢].

وفي قوله: «**الْفَرَائِضُ رُءُوسُ الْأَمْوَالِ وَالنَّوَافِلُ الْأَرْبَاحُ**»: شَبَّهَ الفرائض برءوس الأموال، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما أصل لا غنى عنه، ولا قيام بدونه، وشبه النوافل بالأرباح، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما فرع تحبه النفس، وتهش إليه. ومن السياق يظهر الغرض، وهو بيان مكانة الفرائض، وتصحيح الأمر لمن يقصر في الفرائض؛ من أجل النوافل، ولمن يُسوي بينهما.

٢- تصوير طاعة الله تجارة:

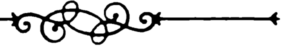
عَنْ أَبِي سِنَانٍ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ(ت:١١٣هـ)[٣]. قَالَ: «يَا بُنَيَّ اتَّخِذْ طَاعَةَ اللهِ - تَعَالَى - تِجَارَةً تَزِيدُ بِهَا رِبْحَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْإِيمَانَ بِاللهِ - تَعَالَى - سَفِينَتَكَ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا، وَالتَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - دَقَلَهَا، وَالدُّنْيَا بَحْرَكَ، وَالْأَيَّامَ مَوْجَكَ، وَالْأَعْمَالَ الْمَفْرُوضَةَ تِجَارَتَكَ الَّتِي تَرْجُو بِهَا رِبْحَهَا، وَالنَّافِلَةَ هَدِيَّتَكَ الَّتِي تُكْرَمُ بِهَا، وَالْحِرْصَ عَلَيْهَا الرِّيحَ الَّتِي تَسِيرُ بِهَا وَتُزْجِيهَا، وَرَدَّ النَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا مَرَاسِيَهَا الَّتِي تُرْسِيهَا، وَالْمَوْتَ سَاحِلَهَا، وَاللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مَالِكُهَا، وَأَحَبُّ التُّجَّارِ إِلَيْهِ أَفْضَلُهُمْ بِضَاعَةً، وَأَكْثَرُهُمْ هَدِيَّةً، وَأَبْغَضُ التُّجَّارِ

---

(١) الفضيل بن عياض (١٠٥ - ١٨٧هـ) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣.

(٢) حلية الأولياء / ج٨/ ص١٠٠.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.



إِلَيْهِ أَقَلُّهُمْ بِضَاعَةً، وَأَرْدَؤُهُمْ هَدِيَّةً، كَمَا تَكُونُ تِجَارَتُكَ تَرْبَحْ، وَكَمَا تَكُونُ هَدِيَّتُكَ تُكْرَمْ»(١).

الوصية هنا جامعة لعدة أمور عقلية مُزِج بعضها في بعض عن طريق صورة بيانية تعددت فيها الجمل بعَد التشبيهات التي يضم بعضها إلى بعض، والصورة البيانية عبارة عن تجارة بحرية استوفت كل العناصر من سفينة ودقل(٢). وبحر وموج وريح ومرسى وساحل.

وقوله: «**اتَّخِذْ طَاعَةَ اللهِ - تَعَالَى - تِجَارَةً، وَالْإِيمَانَ بِاللهِ - تَعَالَى - سَفِينَتَكَ**»: لا يتأتى على الحقيقة، وإنما تقدير الكلام: كأن طاعة الله تجارة، والإيمان بالله كالسفينة، وهكذا يقال في باقي التشبيهات.

والمشبه في النص: «**الطاعة، والإيمان، والتوكل، والدنيا، والأيام، والأعمال، والمفروضة، والنوافل، والحرص على الطاعات، وردُّ النفس، والموت**». والمشبه به فيه: «**السفينة، والدقل، والبحر، والموج، والبضاعة، والهدايا، والريح، والمرسى، والساحل**». كل ذلك مُزج بعضه في بعض مزجًا جزئيًا، كل جزئية مع جزئة تُماثلها، ثم المزج الكلي الذي يربط الجزئيات بعضها ببعض في صورة ممتعة لخصت أمورًا عقلية ضخمة في رحلة سفينة.

وثمة أمر آخر، وهو بيان الروابط والعلاقات بين: «**الطاعة والإيمان والتوكل والدنيا والأيام والأعمال المفروضة والنوافل، والحرص على الطاعات، ورد النفس، والموت**» عن طريق ذكر العلاقات والروابط التي في المشبه به: «**السفينة،**

(١) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٥٤.

(٢) والدَّقَلُ: خشبة طويلة تشد في وسط السفينة يمد عليها الشراع. معجم العين/ ج٥/ ص١١٦.

والدقل، والبحر، والموج، والبضاعة، والهدايا، والريح، والمرسى، والساحل»؛ حيث إن ارتباط عناصر المشبه به واضح مرئي جلي. وأما ارتباط عناصر المشبه «العقلية» فقليل من الناس من يُدركها، ويلمحها؛ فإنها تحتاج إلى بيان بمثل هذه الصورة البيانية.

- **قوله: «طَاعَةَ اللهِ - تَعَالَى - تِجَارَةً»:** الطاعة تشابه التجارة في طلب النفع والحرص وبذل الوقت والدوام.

- **وفي قوله: «وَالْإِيمَانَ بِاللهِ - تَعَالَى - سَفِينَتَكَ»:** شبه الإيمان بالسفينة، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما وسيلة نجاة.

- **وفي قوله: «وَالتَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - دَقْلَهَا»:** شَبَّهَ التوكل بهذه الخشبة (الدقل) التي لا غنى للسفينة عنها، فبها تتوجَّهُ، وبها تتحرَّك، كذلك المؤمن يُحْسِن التوكل على الله في كل أموره، فيوجهه الله، ويرشده، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

- وفي قوله: **«وَالدُّنْيَا بَحْرَكَ»:** تشبيهٌ، الغرضُ منه التخويف من الدنيا، وحصول الخشية كما يُخشى البحر.

- **وفي قوله: «وَالْأَيَّامَ مَوْجَكَ»: تشبيه**، ووجه الشبه بين الأيام والموج: أن كلًّا منهما مكرور، محذور.

- **وقوله: «وَالْأَعْمَالَ الْمَفْرُوضَةَ تِجَارَتَكَ الَّتِي تَرْجُو بِهَا رِبْحَهَا»:** أي: كلاهما أصل لا غنى عن أحدهما.

- **وقوله: «وَالنَّافِلَةَ هَدِيَّتَكَ الَّتِي تُكْرَمُ بِهَا»:** كلاهما زيادة إكرام ومنة، فالنوافل من الله هدايا لبلوغ الدرجات العُلَى في الآخرة.

- **وفي قوله: «وَالْحِرْصَ عَلَيْهَا الرِّيحَ الَّتِي تَسِيرُ بِهَا، وَتُزْجِيهَا»**: شَبَّهَ الحرص على الأعمال المفروضة والنوافل - بالريح التي تُسَيِّر السفينة، وتزجيها، والحرص على الطاعات إذا تعطل عند العبد وخمد تتوقف سفينة إيمانه، فلا إيمان بلا صلاة وبلا صيام وباقي الفرائض، فالطاعات وقود الإيمان، وبغيره يصبح ناقصًا كسيحًا لا محرك له.

- وقوله: «**وَرَدَّ النَّفْسِ عَنْ هَوَاهَا مَرَاسِيَهَا الَّتِي تُرْسِيهَا**»: وقفات النفس عن اقتحام المعاصي والمهلكات شبيه بوقفات السفينة في المراسي عند اشتباك الأمواج واستشعار الخطر.

- **وفي قوله: «وَالْمَوْتَ سَاحِلَهَا»**: تشبيه، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما نقطة نهاية، الموت نهاية العبد، والساحل نهاية السفينة.

٣- تصوير المسجد سوق الآخرة:

رَأَى عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ[ت: ١٠١ - ١١٠هـ][(١)]. رَجُلاً يَبِيعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ سُوقُ الْآخِرَةِ، فَإِنْ أَرَدْتَ الْبَيْعَ فَاخْرُجْ إِلَى سُوقِ الدُّنْيَا[(٢)].

في قوله: «**سُوقُ الْآخِرَةِ**»: أن البائعَ فَعَلَ فِعْل من يعتقد أن المسجد سوقٌ، وقد أَقَرّ عطاء بن يسار - رحمه الله - بذلك؛ مجاراة له ومشاكلة لفعل الرجل، فشبه المسجد بسوق؛ مشاكلةً لفعله، وقيد المشبه به بلفظ: «**الآخرة**»؛ ليبين للبائع أنه أخطأ الموضع، وأن سلعة هذا السوق وتجارته هي: الصلاة والذكر والدعاء، وليست متاعَ الدنيا وزخارفَها.

---

(١) عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَدَنِيُّ الْفَقِيهُ، [ت: ١٠١ - ١١٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣ ص١٠٤.

(٢) الزهد لأبي داود / ص٣٦٦.

٤- تشبيه من يرجو جنة ربه فيخف عليه الكد - بتاجر يرجو الربح، فتخف عليه المشقة:

قال المحاسبي - رحمه الله -: «وإن تقاعست النفس وثقل عليها القيام بذلك الحق: ذكَّرها ثواب الله -تعَالى، وَمَا يُؤْمَل مِن نَعِيم الآخِرة ...؛ لِيطفئ بذكْر حَلَاوة الثَّواب مَرَارَة القِيام بِذَلك الحَق، ويُخفف الثَّواب عَلَى النَّفس ما ثَقُل عليها مِن القِيَام بذلك الحَق؛ لِذِكر حَلاوة الثَّواب، وذَلك مَعْرُوف فِي أَهْل الدُنيا، لَمْ يُر عامل من عمال الدنيا ولا غيره، ولا تاجر من تجار الدنيا يخف عليه التعب والمؤونة إلا لما يرجو من الأجر، فالبنَّاء وغيره لذَّتُه في التعب، وغمُّه في الراحة؛ لحلاوة الأجر ... وكذلك التجار من أهل الدنيا؛ لا يقطعهم عن سفرهم الحَرُّ، ولا البَرْدُ، ولا الأمطار، ولا الخوف من اللصوص ولا السباع؛ لحلاوة ما يَأْمَلُون مِن الأَرْبَاح، فالعَامل لله والتَّاجر لَه أولى أن يَخِف عليه العَمَل إذا ذَكَر الرِبْح الذي لا يَنقَطِع، ولا تَنغِيص فيه، ولا تَصْرِيد من المُربِح الذي لا يظْلِم مِثْقَالًا، بل يُضَاعِف ويُعطي الكثير باليسير من العمل، وتجار الآخرة لا يربَحوُن كما يَرْبَح تُجَّار الدُنيا ولا عمَّالها؛ لأنَ تُجَّار الدنيا إنما يربحون من جنس الدنيا وجوهرها، واللهُ - عز وجل - لا يُربح عمال الدين من جنس الدنيا، ولا من جوهرها، ولا يرضى لهم بربح الدراهم والدنانير؛ لأن ذلك من جنس الدنيا وجوهرها، ولكن يُربحهم قصور الياقوت والزمرد والدر ... إلخ»[1].

وفي قوله: «ليطفئ بذكر حلاوة الثواب مرارة القيام»: استعار الإطفاء لما يحدثه الثواب في القلب من التهوين من التعب والتحمُّل، وجعل ما يجده العامل من التعب والكد في القيام مرارةً، والصورةُ تزخر بالمعاني المتداخلة

---

(١) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي/ ص ٨٨/ ٨٩.



والمتشابكة، فالحلاوةُ تُطفئ، وللثواب حلاوة، والمرارة تُعالج بالإطفاء.

وفي قوله: «وذلك معروف في أهل الدنيا، لم يُر عاملٌ من عُمَّال الدنيا ولا غيره، ولا تاجر من تجار الدنيا يخِفُّ عليه التعب والمؤونة إلا لما يرجو من الأجر»، «وكذلك التجار من أهل الدنيا لا يقطعهم عن سفرهم الحر، ولا البرد، ولا الأمطار، ولا الخوف من اللصوص ولا السباع؛ لحلاوة ما يأملون من الأرباح»: شَبَّهَ هيئة العامل لله الذي يرجو ثواب ربه، فيخف عليه ما يجد من التعب - بهيئة عامل الدنيا وتجار الدنيا يرجون الربح، فيخف عليهم ما يجدوا من مشقة ومخاطر، ووجهُ الشبهِ: أن كلًّا منهما لذَّتُه في التعب وغمُّه في الراحة؛ لحلاوة الأجر.

ثم فضَّل المشبه على المشبه به، فقال: «وتجار الآخرة لا يربحون كما يربح تجار الدنيا ولا عمالها؛ لأن تجار الدنيا إنما يربحون من جنس الدنيا وجوهرها، واللهُ - عز وجل - لا يُربح عمال الدين من جنس الدنيا، ولا من جوهرها، ولا يرضى لهم بربح الدراهم والدنانير؛ لأن ذلك من جنس الدنيا وجوهرها، ولكن يُربحهم قصور الياقوت والزمرد والدر ... إلخ».

٥- استعارة الفرش واللُحف للأعمال:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: نَزَلَ بِأَبِي الدَّرْدَاءِ[ت:٣٢هـ][1]. قَوْمٌ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ بِطَعَامٍ طَيِّبٍ سَخِنٍ، وَلَمْ يَبْعَثْ إِلَيْهِمْ بِلِحَافٍ، وَقَالَ: «إِنَّ لَنَا دَارًا نَنْتَقِلَ إِلَيْهَا، قَدَّمْنَا إِلَيْهَا فُرُشَنَا وَلُحُفَنَا، وَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَئُودًا، الْمُخَفِّفُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمُثَقِّلِ»[2].

---

(١) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

(٢) الزهد للمعافي ص٣٠٢.

وفي قوله: «**قَدَّمْنَا إِلَيْهَا فُرُشَنَا وَلُحُفَنَا**»: استعار الفرش واللُحف للأعمال استعارة تصريحية أصلية، ومما يبرهن على ذلك، ويدل عليه: أنه جاء في كتاب المحتضرين لابن أبي الدنيا عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ حُدَيْرًا الْأَسْلَمِيَّ دَخَلَ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ، وَتَحْتَهُ فِرَاشُ جِلْدٍ، وَسَبَنِيَّةُ صُوفٍ، وَهُوَ وَجِعٌ، وَقَدْ عَرِقَ، فَقَالَ لَهُ حُدَيْرٌ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكْتَسِبَ فِرَاشًا بِوَرِقٍ، وَكِسَاءَ خَزٍّ، وَقَطِيفَةَ خَزٍّ؛ مِمَّا يُعْطِيكَ مُعَاوِيَةُ؟، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «إِنَّ لَنَا دَارًا لَهَا نَعْمَلُ، وَإِلَيْهَا نَظْعَنُ، وَإِنَّ الْمُخَفِّفَ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الْمُثَقِّلِ»[(١)].

وفي قوله: «**وَإِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَقَبَةً كَئُودًا**»: استعارة أصلية ليوم القيامة. وقولُه: «**الْمُخَفِّفُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمُثَقِّلِ**»: ترشيحٌ للاستعارة.

ما جاء من صور بيانية في مطابقة العمل القول وعدمها:

١- تشبيه عدم تأثير موعظة العالم {التارك للعمل) في القلوب، بعدم تأثير القطر على الحجر الصلد:

قال مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ[ت: ١٣٠هـ][(٢)]: إِنَّ الْعَالِمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ كَمَا تَزِلُّ الْقَطْرَةُ عَنِ الصَّفَا[(٣)].

الصَّفا هو العريضُ مِنَ الحِجارَةِ الأَمْلَسُ[(٤)]. زلَّ الشَّيْءُ عَن الشَّيْءِ إِذا دحض عَنهُ[(٥)].

---

(١) المحتضرين لابن أبي الدنيا/ ٢١٣.

(٢) مالك بن دينار / سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٣) حلية الأولياء / ج٦/ ص٢٨٨.

(٤) لسان العرب / ج١٤/ ص٤٦٤.

(٥) جمهرة اللغة/ ج١/ ص١٣٠.



وفي قوله: «**كَمَا تَزِلُّ الْقَطْرَةُ عَنِ الصَّفَا**»: شَبَّهَ عدم تأثير موعظة العالم (الذي لا يعمل بعلمه) في القلوب - بعدم تأثير القطر على الحجر الصلد الأملس، وذلك في عدم الاستفادة بالشيء المفيد النافع، والتشبيهُ تمثيليٌّ.

وهذا مستمد من قوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾[البقرة:٢٦٤]. وإذا خرجت من قلب صادق عامل فإن القلوب تهش لها، وتبش، وتقر، وتسكن، وتنبت.

٢- استعارة اللحن لانحراف العمل:

قال إبراهيم بن أدهم(ت:١٦٢هـ)[١].: «**أعربنا كلامنا فما نحن نلحن، ولحنّا في أعمالنا، فما نعرب حرفًا**»[٢]. أراد استقامة الكلام وانحراف العمل.

وفي قوله: «ولحنّا في أعمالنا فما نعرب حرفًا»: استعار اللحن لانحراف العمل وعدم صوابه، ثم اشتق من اللحن: «لحنا» بمعنى: «حرّفنا» على سبيل الاستعارة التبعية.

وقوله: «فما نعرب حرفًا»: ترشيح للاستعارة، أراد به عدم استقامة أي عمل لهم، وعدم سلامته من الخلل، أو عدم وجود عمل لهم إلا وفيه انحراف.

---

(١) إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر العجلي (ت:١٦٢هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٧/ ص٣٩٦.

(٢) البيان والتبيين / ج:/ ١ص٢١٧ .



٣- تصوير بياني: «عِظِ النَّاسَ بِفِعْلِكَ»:

عَنِ ابْنِ أَبِي حَمَّادِبْنِ كَيْسَانَ، عَنِ الْحَسَنِ [ت: ١١٠هـ][1]. قَالَ: «عِظِ النَّاسَ بِفِعْلِكَ، وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ»[2].

الوَعْظُ هو النُّصْحُ والتَّذْكِيرُ بالعَوَاقِبِ[3]. وغرض الكلام الإرشاد إلى العمل، وبيان أهميته في قلوب الناظرين وعمله في وجدان المطلعين، ورؤية العالِم العامل تعمل في القلب عمل الموعظة، ولا أدلَّ على ذلك من فعل النبي ﷺ يوم الحديبية عندما حلق شعره، فتأسَّى به الصحابة ﵃؛ امتثالًا لفعله.

وقد استعار الوعظ للرؤية، ثم اشتق من الوعظ عظ بمعنى أرِ على سبيل الاستعارة التبعية، ورؤية أعمال الخير تُحْدِث في القلوب ما لا يحدثه الوعظ، وتُنتج الامتثال والاتباع بحب كما يُحدث الوعظ وأكثر، ونهي الحسن - رحمه الله -: «**وَلَا تَعِظْهُمْ بِقَوْلِكَ**»: ما أراد به إلا تفضيل الوعظ بالفعل على الوعظ بالقول (ولم يرد النهي على الحقيقة) تفضيلًا أصبح فيه الوعظ بالقول لا داعي له، ولا حاجة إذا وُجد الوعظ بالفعل.

٤- استعارة الموت لترك العمل:

عَنْ يَحْيَى بْنِ الْمُخْتَارِ، عَنِ الْحَسَنِ [ت: ١١٠هـ][4]. - رحمه الله - قَالَ: «إِذَا شِئْتَ لَقِيتَهُ أَبْيَضَ بَضًّا، حَدِيدَ اللِّسَانِ، حَدِيدَ النَّظَرِ، مَيِّتَ الْقَلْبِ وَالْعَمَلِ، أَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ، تَرَى أَبْدَانًا وَلَا قُلُوبَ، وَتَسْمَعُ الصَّوْتَ وَلَا أَنِيسَ، أَخْصَبُ

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.
(٢) الزهد لأحمد / ص٢٢٢.
(٣) تاج العروس/ ج٢٠/ ص٢٨٩.
(٤) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

أَلْسِنَةً وَأَجْدَبُ قُلُوبًا»[١].

وقوله: «**إِذَا شِئْتَ لَقِيتَهُ**»: الضميرُ فيه يرجع إلى أهل زمانه؛ لما جاء في كتاب العقوبات لابن أبي الدنيا عَنِ الْحَسَنِ[ت: ١١٠هـ][٢]. قَالَ: «**أَرَى رِجَالاً وَلاَ أَرَى عُقُولًا، أَسْمَعُ أَصْوَاتًا، وَلَا أَرَى أَنِيسًا، أَخْصَبُ أَلْسِنَةً، وَأَجْدَبُ قُلُوبًا**»[٣].

وفي قوله: «**مَيِّتَ الْقَلْبِ وَالْعَمَلِ**»: استعار الموت لقسوة القلب، ثم اشتق ميت بمعنى قاسٍ على سبيل الاستعارة التبعية، واستعار الموت لترك العمل، ثم اشتق ميت بمعنى تارك على سبيل الاستعارة التبعية، وأفادت الاستعارة المبالغة في عدم العمل، فلا عمل البتة، كما أن الميت لا حركة له أبدًا.

وقوله: «**أَنْتَ أَبْصَرُ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ**»: تأكيد لموته.

وقوله: «**تَرَى أَبْدَانًا وَلَا قُلُوبَ**»: كناية عن حسن مظهرهم، وفساد باطنهم، وخبث سريرتهم.

وقوله: «**أَخْصَبُ أَلْسِنَةً وَأَجْدَبُ قُلُوبًا**»: صوَّر ألسنتهم بأرض خصبة، وحذف المستعار منه، ورمز إليه بلازم من لوازمه: «أخصب» على سبيل الاستعارة المكنية، والجامع: الوفرة في كل. وصوَّر قلوبهم بأرض جدباء، وحذف المستعار منه، ورمز إليه بلازم من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، والجامع: انتفاء الخير، فقلوبهم أرض صلبة لا تنبت، قَالَ ابْنُ الأَثير: الأَجادِبُ صِلابُ الأَرضِ

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا/ ص ٢٨١.

(٢) الحسن البصري أبو سعيد / سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٣) العقوبات لابن أبي الدنيا (٢٨٨) / ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم، بيروت - لبنان/ ط: ١.

الَّتِي تُمْسِك الماءَ، فَلَا تَشْرَبه سَرِيعًا. وَقِيلَ: هِيَ الأَرَاضي الَّتِي لَا نَباتَ بِهَا، مأْخُوذ مِنَ الجَدْبِ، وَهُوَ القَحْطُ[(١)].

٥- تشبيه الذي لا يعمل بعلمه - بطبيب لا يتداوى بدوائه:

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ(ت:١١٣هـ)[(٢)]. قَالَ: «مَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لاَ يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ طَبِيبٍ مَعَهُ دَوَاءٌ لَا يَتَدَاوَى بِهِ»[(٣)].

وفي قوله: **«مَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا لَا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ طَبِيبٍ مَعَهُ دَوَاءٌ لَا يَتَدَاوَى بِهِ»**: شَبَّهَ الذي لا يعمل بعلمه بطبيب لا يتداوى بدوائه، ووجه الشبه: امتلاك ما ينفع مع عدم الانتفاع به، والتشبيه تمثيلي. والغرض: بيان حال المشبه، وإظهار حماقته، وما عليه من خطر.

وهذا الصنف حق فيهم قول المولى – تعالى -: (**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)(الجمعة:٥). فالعلم هنا دواء، وتاركه أحمق بإجماع العقلاء، وترك العمل بالعلم من هذه المسلمات التي لا ينكرها أحد، والصورة البيانية قريبة من قوله ﷺ: **«ألم يكن شِفَاءَ العِيِّ السؤالُ؟!»**[(٤)].

---

(١) لسان العرب / ج١/ ص٢٥٦.

(٢) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٣) حلية الأولياء / ج٤/ ص٧١.

(٤) قال الأوزاعي: بلغني أن عطاء بن أبي رَبَاح قال أنه سمع ابن عباس يخبر: أن رجلاً أصابه جرحٌ في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، قد أصابه احتلام، فأمر بالاغتسال فمات، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «قتلوه!، قتلهم الله!، ألم يكن شِفَاءَ العِيِّ السؤالُ؟!». مسند الإمام أحمد / ٣٠٥٧.

٦- تصوير حال من لا يعمل ويطلب مزيد علم:

عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ(ت:١١٣هـ)[١]. قَالَ: قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: «ابْنَ آدَمَ، لَا خَيْرَ لَكَ فِي أَنْ تَعْلَمَ مَا لَا تَعْلَمُ، وَلَمْ تَعْمَلْ بِمَا عَلِمْتَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَرَجُلٍ احْتَطَبَ حَطَبًا، فَحَزَمَ حُزْمَةً، فَذَهَبَ يَحْمِلُهَا، فَعَجَزَ عَنْهَا، فَضَمَّ إِلَيْهَا أُخْرَى»[٢].

وفي قوله: «مَثَلَ ذَلِكَ كَرَجُلٍ احْتَطَبَ حَطَبًا، فَحَزَمَ حُزْمَةً ...»: شَبَّهَ حالَ الذي لا يعمل بعلمه، ويطلب مزيد علم - بحال رجل احتطب حطبًا، فحزم حزمة، فذهب يحملُها، فعجز عنها، فضَمَّ إليها أخرى. والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: الكد فيما يفيد مع عدم الاستفادة وضياع الكل؛ لعدم اغتنام الفائدة، والصورة بِنْتُ بيئتها، تظهر فيها الحسرة على الجمع والكد وعدم الانتفاع.

٧- تشبيه حال الداعي بلا عمل بمن يرمي بلا وتر:

عَنْ سِمَاكِ بْنِ الْفَضْلِ قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبًا(ت:١١٣هـ)[٣]. يَقُولُ: «الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ»[٤].

شبه حال الداعي بلا عمل بمن يرمي بلا وتر، ووجه الشبه: عدم إدراك الغاية؛ لغياب الوسيلة. فالداعي إذا خرج الكلام من فمه، ولم يتجاوز حنجرته: لفظت الآذان كلامه، وأغلقت القلوب أبوابها دون كلامه، فلا يُصِيب. أما إذا خرج من قلب عامل صادق: فإنه يخترق المسامع والقلوب، ويصل بسطوته وصول السهم

---

(١) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٢) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٧١.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٤) الزهد لأحمد / ص٣٠١

في غايته، ومن يرمي بغير وتر فإن رميه لن يتجاوز قدمه؛ لفقدان الوسيلة، وعملُ الوتر شد السهم ودفعه إلى الهدف، فبه يبلُغ، كذلك العمل يؤثر في نفوس المتلقين تأثيرَ الوتر في انطلاق السهم. والتشبيه تشبيه معقول بمحسوس، وقد جعل «**الداعي بلا عمل**» محلًّا للسخرية والتعجب عندما كساه صورة مَن يرمي بلا وتر.

٨- تصوير بياني «هتف العلم بالعمل»:

قال عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ[ت:٤٠][١]**. يَقُولُ: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ؛ فَإِنْ أَجَابَهُ، وَإِلَّا ارْتَحَلَ»**[٢].

صوَّر العلم والعمل في صورة شخصين، وحذف المستعار منه، ورمز له بلازمه: «**هتف**» على سبيل الاستعارة المكنية، ورشَّح الاستعارة بقوله: «**أجاب، وارتحل**»، وعبَّر بهذه الأفعال التي تدركها الحواس؛ لإدراك ما هو معقول ومكنون في خبايا النفوس وما يجري في الوجدان والصدور من طرح العلم ونسيانه والجهل به؛ لفقدان العمل.

ما جاء من صور بيانية في وصف العمل والعاملين:

١- تشبيه حال مجتهد اليوم بحال اللاعب فيمن مضى:

عَنْ مُجَاهِدٍ(ت:١٠٤هـ)[٣]**. قَالَ: «مَا الْمُجْتَهِدُ فِيكُمُ الْيَوْمَ إِلاَّ كَاللاَّعِبِ فِيهِمْ»**[٤].

(١) علي بن أبي طالب ﷺ [ت:٤٠] الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.

(٢) اقتضاء العلم العمل/ للخطيب البغدادي / ص٣٥/ / ت: الألباني/ ن:المكتب الإسلامي - بيروت/ ط:٤.

(٣) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي الأسود (ت:١٠٤هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٤٤٩.

(٤) الزهد لابن المبارك / ص٥٩.

شبه حال مجتهد أهل زمانه بحال من كان يلعب في عهد الصحابة الكرام(١). ووجه الشبه: قلة الجد والاجتهاد. والتشبيه يشير إلى تردِّي رجال هذا الزمان. ويشير أيضًا إلى فضل السلف، وما كانوا عليه من جِد وكَدّ وتعب، وفيه توبيخٌ لاذع للقوم إن كان مجتهدهم كاللاعب، وحسرة في عينٍ لا ترى مجتهدًا إلا وهو كاللاعب فيما مضى، وندمٌ في قلب يعيش بين أكناف هذا الخلف، ونحو هذا المعنى جاء عن الْأَوْزَاعِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ [ت: ١١١ - ١٢٠هـ](٢). يَقُولُ: «زَاهِدُكُمْ رَاغِبٌ، وَمُجْتَهِدُكُمْ مُقَصِّرٌ، وَعَالِمُكُمْ جَاهِلٌ، وَجَاهِلُكُمْ مُغْتَرٌّ»(٣).

٢- وصف اجتهاد النبي ﷺ:

قال الْأَوْزَاعِيُّ: حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: لَأَرْمُقَنَّ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اللَّيْلَةَ، قَالَ: «فَصَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ غَيْرَ كَبِيرٍ، ثُمَّ قَامَ، فَفَرَغَ مِنْ حَاجَتِهِ، ثُمَّ أَتَى مُؤَخِّرَةَ الرَّحْلِ، فَأَخَذَ مِنْهُ السِّوَاكَ، فَاسْتَنَّ، فَتَوَضَّأَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا رَكَعَ حَتَّى مَا دَرَيْنَا مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ أَكْثَرَ أَمْ مَا بَقِيَ مِنْهُ، وَحَتَّى رَكِبَنِي مِنَ النَّوْمِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ»(٤).

وقوله: «**مَا رَكَعَ حَتَّى مَا دَرَيْنَا مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ أَكْثَرَ أَمْ مَا بَقِيَ مِنْهُ**»: كنايةٌ عن

---

(١) سياق الباب الذي ذُكر فيه هذا الأثر يمتدح السلف ويعاتب على الخلف، فالضمير يعود على صحابة النبي ﷺ،وهذا أثر آخر ورد في نفس الباب: قَالَ عُبَادَةُ يَعْنِي ابْنَ قُرْصٍ اللَّيْثِيَّ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ الْيَوْمَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»الزهد لابن المبارك ص٦٠.

(٢) بِلَالُ بْنُ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ، أَبُو عَمْرٍو الدِّمَشْقِيُّ، الْمُذَكِّرُ، [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ للذهبي / ج ٣/ ص٢١٢.

(٣) الزهد لابن المبارك / ص٦٠.

(٤) الزهد لابن المبارك / ص ٣٥.

كثرة قيامه وإطالة قراءته ﷺ.

وفي قوله: «وَحَتَّى رَكِبَنِي مِنَ النَّوْمِ»: استعار الراكب للنوم، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه (ركبني) على سبيل الاستعارة المكنية التي أفصحت عن قوة النوم، وتمكنه، واستعلائه، وسيطرته على صاحبه، فهو لا يُزاح كما لا تُزاح الجبال.

وفي قوله: «وَحَتَّى رَكِبَنِي مِنَ النَّوْمِ أَمْثَالُ الْجِبَالِ»: شَبَّهَ استغراقَه في النوم وعدم قدرته على الإفاقة والتخلص منه بالجبال في الثقل وعدم التخلص، وهذا تعريضٌ بأن النبي ﷺ كان لا ينام من الليل إلا قليلًا، وهذا مستمدٌّ من قوله – تعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [المزمل: ١-٣].

وإذا نظرنا إلى قوله: «لأرمقن» وجدنا فيها نفسًا توَّاقة لمعرفة أمر ما، ووجدنا فيها يقظة مَن ينتظر معرفة رأس الأمر وشأوه، ثم ما كان منه إلا أن طال سهره، وكثر انتظاره، وركبه من النوم أمثال الجبال.

٣- تشبيه الصلاة بالكيل:

عنْ أَبِي عَمْرٍو الْعَبْدِيِّ قَالَ: كَانَ يُذْكَرُ عَنْ عَلِيٍّ[ت: ٤٠][(١)]. أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: هُوَ كَيْلُكَ فَأَوْفِهِ، أَوِ امْحَقْهُ[(٢)].

قوله: «هُوَ كَيْلُكَ»: الضمير يعود على ما في الذهن من شأن، فهو مبتدأ، والجملة بعده خبر، أي: الشأن أنه كيلك.

---

(١) علي بن أبي طالب رضي الله عنه [ت: ٤٠] الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.

(٢) الزهد لابن المبارك / ص٤٢٠.

وفي قوله: «**هُوَ كَيْلُكَ**»: شَبَّهَ الصلاة بالكيل، ثم أضاف المشبه به إلى «كاف المخاطَب»؛ ليعلمَ المخاطَب أن ما يفعله من أراكان وأقوال وسنن في الصلاة إنما هو في كيله، وله راجع، فمن سره أن يرى مكياله مملوءًا، فليحسن صلاته، وليتمها. والصورة البيانية تُزيل عن النفوس الثقل الذي يعتريها عند الصلاة، والشعور بالعبء، ويحِل مكان ذلك الخفة والاستعداد؛ فإن النفوس تهش للربح، وتبش للكيل.

وقوله: «**فَأَوْفِهِ، أَوِ امْحَقْهُ**»: هذا من التخيير التهديدي، وترشيح للتشبيه، زاد الصورة قوة، وأقام على المخاطَب الحجة، فلا يحق له أن يمحق كيله، فيكون مجنونًا، أو جاهلًا.

• **صورة أخرى:**

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ سَلْمَانُ[ت: ٣٦هـ][1].: «**الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ، فَمَنْ أَوْفَى أُوفِيَ لَهُ، وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمُطَفِّفِينَ**»[2].

وفي قوله: «**الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ**»: شبهها بالمكيال، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يجازى على إتمامه، ويعاقب على نقصانه.

ومن مستتبعات التراكيب: أن ما وراء الكلمات ينُمُّ عن أن القوم يعظمون أمر المكيال، ويستهينون بأمر الصلاة، فشبه لهم هذا بهذا، وساوى بينهما؛ بناءً على ما في نفوسهم من تعظيم، وإلا فالذي قيل في تاركي الصلاة، والمتكاسلين عنها

---

(١) سلمان الفارسي، أَبُو عبد الله الرامَهُرْمُزِيّ، [المتوفى: ٣٦ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار ج٢/ ص٢٨٦.

(٢) الزهد لابن المبارك / ص٤٢٠.

أشد مما قيل في المطففين. والإضافةُ في الصورة البيانية الأولى «**كيلك**» جعلت الصورة البيانية أبلغَ في النفس من الصورة الثانية. ولعل منزع الصورتين حديث النبي ﷺ «**لَا غِرَار فِي صَلَاة وَلَا تَسْلِيم**»[1].

قال صاحب اللسان: وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: لَا غِرار فِي صَلَاةٍ، وَلَا تَسْلِيم، أَي: لَا نُقْصَانَ. قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: الغرارُ فِي الصَّلَاةِ النُّقْصَانُ فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وطُهورها، وَهُوَ أَن لَا يُتِمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا. قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: فَمَعْنَى الْحَدِيثِ: لَا غِرار فِي صَلَاةٍ، أَي: لَا يُنْقَص مِنْ رُكُوعِهَا، وَلَا مِنْ سُجُودِهَا وَلَا أَركانها، كَقَوْلِ سَلْمان: الصَّلَاةُ مِكْيَالٌ، فَمَنْ وَفَّى وُفِّيَ لَهُ، وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمُطَفِّفِين؛ قَالَ: وأَما الغِرَارُ فِي التَّسْلِيم فنَرَاهُ أَن يَقُولَ لَهُ: السَّلام عَلَيْكُمْ، فَيَرُدَّ عَلَيْهِ الْآخَرُ: وَعَلَيْكُمْ، وَلَا يَقُولُ، وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ[2].

٤- تشبيه القائم حال صلاته بالجذع:

عَنْ عَلِيِّ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ زُبَيْدٍ[ت:١٢١-١٣٠هـ][3]. قَالَ: «رَأَيْتُ زَاذَانَ يُصَلِّي كَأَنَّهُ جِذْعٌ، قَدْ حُفِرَ لَهُ»[4].

المقصود هو بيان ثبات زاذان - رحمه الله - في الصلاة وعدم تحركه، فشبهه في هذا الثبات وعدم التحرك بالجذع[5]. الذي حفر له، وثبت في الأرض، ووجه

(١) صحيح سنن أبي داود/ للألباني/ ج٤/ ص٨٥/ ن:: مؤسسة غراس الكويت/ ط:١.
(٢) لسان العرب ج٥/ ص١٧.
(٣) زُبَيْدُ بْنُ الحَارِثِ الْيَامِيُّ الْكُوفِيُّ [ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٤٠٩.
(٤) حلية الأولياء/ ج٤/ ص١٩٩.
(٥) والجِذْعُ: وَاحِدُ جُذوع النَّخْلَةِ، وَقِيلَ: هُوَ سَاقُ النَّخْلَةِ./ لسان العرب / ج٨/ ص٤٥.

الشبه: الثبات وعدم الحركة، وأنه لا ينثني، إنما هو منتصب انتصاب الجذع. والصورة كناية عن الخشوع التام في الصلاة.

وهذه صورة أخرى منها بسبيل:

٥- تشبيه القائم حال صلاته بجذم الحائط:

قَالَ الْأَعْمَشُ[ت: ١٤١ - ١٥٠هـ][١].: «كَانَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ إِذَا سَجَدَ تَجِيءُ الْعَصَافِيرُ تَسْتَقِرُّ عَلَى ظَهْرِهِ، كَأَنَّهُ جِذْمُ حَائِطٍ»[٢].

شبه الأعمش إبراهيم التيمي - رحمهما الله - حال سجوده بجذم[٣]. الحائط، ووجه الشبه: الثبات وعدم التحرك؛ حيث إن الجذم بقية حائط، أو قطعة من حائط، كذلك الساجد حال سجوده؛ تكون أجزاء من جسده قائمة على الأرض، وليس كله كذلك، فهو شبيه بقطعة من حائط. والصورة أيضًا كناية عن الخشوع التام في الصلاة.

وقوله: «**تَجِيءُ الْعَصَافِيرُ تَسْتَقِرُّ عَلَى ظَهْرِهِ**»: برهان على صدق الصورة البيانية، وتحققها في عقول العصافير، (وهي أعلى درجة في الاستشعار بهذا الأمر من الإنسان)، وبيان أنها أُشربت هذا الأمر وتحسسته بحواسها، فلم تعلم غير أنه جذم حائط، فوقعت عليه.

---

(١) سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ الْأَعْمَشُ، الإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيُّ مَوْلاهُمْ [ت: ١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٨٨٣.

(٢) حلية الأولياء / ج٤/ ص٢١٢.

(٣) الجِذْمُ: الأَصلُ، أَراد بقيَّة حَائِطٍ أَوْ قِطْعة مِنْ حَائِطٍ.

/ لسان العرب/ ج١٢/ ص٨٨

٦- تصوير الليل جملاً:

عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عَاصِمٍ[ت: ١٢١ - ١٣٠هـ][(١)]. قَالَ: «أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا كَانُوا يَتَّخِذُونَ هَذَا اللَّيْلَ جَمَلًا، مِنْهُمْ زِرُّ بْنُ حُبَيْشٍ»[(٢)].

في قوله: «يَتَّخِذُونَ هَذَا اللَّيْلَ جَمَلًا»: شبه الليل بالجمل، والأداة مقدرة، والتقدير: يتخذون الليل كالجمل، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما سببٌ في الوصول إلى المأرب وبلوغ الغاية، قال أبو الخير الهاشمي: اتَّخذ اللّيل جَمَلا تُدْرِك، أي: استعمل السّهر والجدّ تنل بغيتك[(٣)]. وقال ابن الأثير: يُقَالُ للرجُل إِذَا سَرى لَيْلَته جَمْعَاء، أَوْ أَحْياها بصَلاةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ العِبَادات: اتَّخَذ اللَّيْلَ جَمَلًا، كَأَنَّهُ ركِبَه، وَلَمْ يَنَمْ فيه[(٤)].

وهو وجه من الوجوه التي ذكرها صاحب زهر الأكم، قال: يضرب هذا المثل لمن سرى الليل أجمع؛ إما لأنه بات ساريًا مستيقظًا عارفًا بجميع ما مَرَّ عليه من أجزاء الليل، وكان مصاحبًا لليل حقيقة، غير تارك له ولا غافل عنه بالنوم، ولا مفارق له كمصاحبة الراكب لراحلته. وإما لأنه صار الليل له سببًا في وصوله إلى مأربه وبلوغه حين سَرَاه، كما أن الجمل يكون سببًا في وصوله إلى مطلبه حين يركبه. وإما لأن الدلجة تُعِين على السير، وتقطع المسافة البعيدة كما في الحديث، فأشبهت الجمل؛ لأنه أقوى على السير، وأبقى على الأير، وأقطع

---

(١) عَاصِمُ بْنُ أَبِي النَّجُودِ بَهْدَلَةَ، الإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ الأَسَدِيُّ القَارِئُ الكُوفِيُّ. [ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٤٣٥.

(٢) حلية الأولياء/ ج٤/ ص١٨٤.

(٣) الأمثال لأبي الخير الهاشمي/ ص٣٣/ ن: دار سعد الدين، دمشق/ ط:١.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر/ ابو السعادات ابن الأثير/ ج١/ ص٢٩٨.

للفلوات، وأنجح في بلوغ الحاجات[١].

٧- كناية عن قيام الليل كله:

حدث الْأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ[ت: ٩١ - ١٠٠هـ][٢]. قَالَ:» أَصْبَحَ هَمَّامٌ مُتَرَجِّلًا، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: «إِنَّ جُمَّةَ[٣]. هَمَّامٍ لَتُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ لَمْ يَتَوَسَّدْهَا اللَّيْلَ. قَالَ: وَكَانَ صَاحِبَ صَلَاةٍ»[٤].

قوله: «**جُمَّةَ هَمَّامٍ لَتُخْبِرُكُمْ**»: هذا التعبير كناية عن قيام همَّام - رحمه الله - الليل كله، وعدم نومه. وفي قوله: «**لَتُخْبِرُكُمْ**»: استعار الإخبار للدلالة، ثم اشتق من الإخبار (تخبر) بمعنى (تدل) على سبيل الاستعارة التبعية، فالجمة فيها شيء شبيه بالكلام، وهو دلالات حالها على شأن صاحبها.

٨- تشبيه إغفاء ابن عمر ﷺ بإغفاء الطير:

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ أَبَاهُ[الوفاة: ١٠١ - ١١٠هـ][٥]. أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ ﷺ: «كَانَ لَهُ مِهْرَاسٌ فِيهِ مَاءٌ، فَيُصَلِّي مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْفِرَاشِ، فَيُغْفِي إِغْفَاءَ الطَّائِرِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يُصَلِّي، ثُمَّ

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم/ لنور الدين اليوسي/ ج١/ ص٦٦/ ت: د محمد حجي / ن: دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب/ ط:١.

(٢) إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ قَيْسٍ أَبُو عِمْرَانَ النَّخَعِيُّ الْكُوفِيُّ، [ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج ٢/ ص١٠٥٢.

(٣) ابْنُ سِيدَهْ: الجُمَّةُ الشَّعْرُ، وَقِيلَ: الْجُمَّةُ مِنَ الشَّعْرِ أكثر مِنَ اللِّمَّةِ، وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: هُوَ الشَّعْرُ الْكَثِيرُ. لسان العرب ج١٢/ ص١٠٧.

(٤) حلية الأولياء/ ج٤/ ص١٧٨.

(٥) مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْعَدَوِيُّ. [ت: ١٠١ - ١١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج٣/ ص١٥١.

يَرْجِعُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَيُغْفِي إِغْفَاءَ الطَّائِرِ، ثُمَّ يَثِبُ، فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يُصَلِّي، فَيَفْعَلُ ذَلِكَ فِي اللَّيْلَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ أَوْ خَمْسًا»(١).

وصف نوم ابن عمر ﷺ بالإغفاء، ثم شَبَّهَ هذا الإغفاء بإغفاء طائر، وغفوة الطائر سريعة خفيفة، ويغفو وجسمه في هيئة المستيقظ لا يستلقي على ظهر، ولا يتقلب على جنب، ليس بينه وبين اليقظة إلا تفتيح عينيه، والغرض من التشبيه: بيان المقدار.

٩- تشبيه نائم الليل بالجيفة:

عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ [ت:٣٢](٢).: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ جِيفَةَ لَيْلِهِ قُطْرُبَ نَهَارِهِ»(٣). تقدير الكلام: لا ألفين أحدكم كجيفة بالليل، وكقطرب بالنهار.

والتشبيه أدرك كثيرًا من الناس يعملون، ويكدون للدنيا، وهم عن الآخرة غافلون، ووجه الشبه بين المتكاسل بالليل والجيفة هو: الانطراح وعدم العمل، وعند النهار يبدو كالقطرب في السعي وعدم الاستراحة، فهو ابن دنيا، لا يعمل إلا لها.

ويُقَال: إِن القطرب دويبة لَا تستريح نَهَارهَا سعيًا، فشبّه عبد الله الرجل الَّذِي يسْعَى نَهَاره فِي حوائج الدُّنْيَا، فَإِذا أَمْسَى أَمْسَى كالًّا مزحفًا، فينام ليلته حَتَّى يصبح لمثل ذَلِك، فَهَذَا جيفةُ ليل، قُطْرُبُ نَهَار. ويرْوى عَن عمر بن عبد الْعَزِيز أنه كَانَ يتَمَثَّل بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ: (البحر الطَّوِيل)

---

(١) الزهد لابن المبارك / ص٤٣٨.

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٣) الزهد لابن المبارك/ ص٣٨.

نهارك يَـا مغرور سَهْو وغفلة   وليلك نـوم والـردى لَـك لازمُ
وسعيك فِيمَا سَـوف تكره غِبّه   كَذَلِك فِي الدُّنْيَا تعيش الْبَهَائِم[1].

والصورة البيانية قريبة من حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ»[2].

١٠- كناية عن عدم العمل والفراغ:

عَنِ ابْنِ شَوْذَبٍ قَالَ: سَمِعْتُ فَرْقَدًا(ت:١٣١)[3]. يَقُولُ: «إِنَّكُمْ لَبِسْتُمْ ثِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ كَيْفَ يَلْبَسُ أَدْنَى ثِيَابِهِ؟، فَإِذَا فَرَغَ اغْتَسَلَ، وَلَبِسَ ثَوْبَيْنِ نَقِيَّيْنِ، وَأَنْتُمْ لَبِسْتُمْ ثِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ»[4].

قوله: «إِنَّكُمْ لَبِسْتُمْ ثِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ ...»: كناية عن عدم عمل القوم، وعن ترفهم وفراغهم. وقد طُلب من نبينا ﷺ دوامُ العمل حتى يأتيه اليقين، وأن ينصب لربه بالعبادة، وأن يصطبر عليها.

١١- تصوير العنف والتيسير دابةً:

عَنِ الْحَسَنِ [ت:١١٠هـ][5]. قَالَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ دِينٌ وَاصِبٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لاَ يَصْبِرْ عَلَيْهِ يَدَعْهُ، وَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ، وَكَانَ يُقَالُ: لِيَأْخُذْ أَحَدُكُمْ

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ج:٤ / ص١١٢.

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان/ رواه أبو هريرة/ حديث رقم:٧٢.

(٣) أَبُو يَعْقُوب فرقد بن يَعْقُوب السبخي العابد من أهل أرمينية(ت:١٣١) اللباب في تهذيب الأنساب عز الدين ابن الأثير / ج٢/ ص٩٩/ ن: دار صادر - بيروت.

(٤) الزهد لأحمد / ص٢٦٦.

(٥) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

مِنَ الْعَمَلِ مَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا قَدْرُ أَجَلِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا رَكِبَ بِنَفْسِهِ الْعُنْفَ، وَكَلَّفَ نَفْسَهُ مَا لَا يُطِيقُ: أَوْشَكَ أَنْ يُسَيِّبَ ذَلِكَ كُلَّهُ، حَتَّى لَعَلَّهُ لَا يُقِيمُ الْفَرِيضَةَ، وَإِذَا رَكِبَ بِنَفْسِهِ التَّيْسِيرَ وَالتَّخْفِيفَ، وَكَلَّفَ نَفْسَهُ مَا تُطِيقُ: كَانَ أَكْيَسَ - أَوْ قَالَ: كَانَ أَكْثَرَ الْعَامِلِينَ، وَأَمْنَعَهَا مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ، وَكَانَ يُقَالُ: شَرُّ السَّيْرِ الْحَقْحَقَةُ»(١).

في قوله: «**وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا رَكِبَ بِنَفْسِهِ الْعُنْفَ**»، و: «**وَإِذَا رَكِبَ بِنَفْسِهِ التَّيْسِيرَ وَالتَّخْفِيفَ**»: استعار الدابة للعنف والتيسير، ثم حذف المستعار منه، ورمز له بلازمها: «ركب» على سبيل الاستعارة المكنية.

وقوله: «**إِذَا رَكِبَ بِنَفْسِهِ الْعُنْفَ**»: دلت الباء في قوله: «بنفسه» على أنه لم يركب مفردًا، وإنما اصطحب نفسه معه، وصعد بها على ما في الأمر من صعوبة ومشقة.

ثم قال: «**وَكَلَّفَ نَفْسَهُ مَا لَا يُطِيقُ**»؛ تأكيدًا للمعنى الأول، ولكل معنى منهما خواصه، وإشارته، والمعنى الأول فيه مزيد تصوير، فإذا كان العنف دابة فلك أن تتخيل كيف تكون!!. يضعُ الحسن - رحمه الله - دابتين بين يدي العبد، الأولى: العنف فيها كلف وشقة وانقطاع وعدم وصول. والثانية: مُطاقة فيها دوام واسترارية وأريحية وبلوغ.

قوله: «**وَكَانَ يُقَالُ: شَرُّ السَّيْرِ الْحَقْحَقَةُ**»: **قال سلمان الفارسي** ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَقْحَقَةَ، وَعَلَيْكَ بِالْقَصْدِ وَالدَّوَامِ**»(٢).

شَرّ السّير الحَقْحَقَة، وَهُوَ أَن يُلحَّ فِي شدَّة السّير حَتَّى تقوم عَلَيْهِ رَاحِلَته، أَو تعطب، فَيبقى مُنْقَطِعًا بِهِ. وَهَذَا مثل ضربه للمجتهد فِي الْعِبَادَة حَتَّى يحسر(٣).

---

(١) الزهد لابن المبارك / ص٤٦٨.

(٢) حلية الأولياء / ج١/ ص١٩٠.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد / ج٤/ ص٣٨٨.



والاستعارة تمثيلية، وهي مثل سائر يضرب لمن يُبالغ في طلب الشيء، ويُفرِط حتى ربما يُفَوِّته على نفسه.

١٢- «كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ» مجاز:

عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ عُثْمَانَ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - [ت: ٣٥هـ](١).: «مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَمَلًا إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ»(٢).

قال الأصفهاني: وقد قيل: ردَّاه الله رداء عمله، فجعل كنايةً عن مكافأة العبد بما يعمله، أو تشهيره به(٣). وقوله: «كَسَاهُ اللَّهُ رِدَاءَ عَمَلِهِ»: من باب المشاكلة المبنية على المجاز، أي: إلا جازاه الله ثواب عمله، والاستعارة تمثيلية، والقرينة حالية تُفهم من السياق. ويوم القيامة يُكسى المرء من جنس عمله، فترى أناسًا قطعت لهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران، وآخرين ثيابُهم من سندس وإستبرق.

١٣- استعارة التوسد لمصاحبة العمل:

عَنِ الْحَسَنِ[ت: ١١٠هـ](٤). قَالَ: «يَتَوَسَّدُ الْمُؤْمِنُ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ فِي قَبْرِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَاغْتَنِمُوا الْمُبَادَرَةَ - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - فِي الْمُهْلَةِ»(٥).

ففي قوله: «**يَتَوَسَّدُ الْمُؤْمِنُ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ فِي قَبْرِهِ**»: استعار التوسد

---

(١) عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّة بن عبد شمس ﵁ [ت: ٣٥ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج ٢/ ص٢٥٧.

(٢) الزهد لأحمد / ص١٠٤.

(٣) شرح ديوان الحماسة/ ت: أبو علي المرزوقي الأصفهاني/ ص٨٣ /ت: غريد الشيخ/ ن: دار الكتب العلمية/ ط:١.

(٤) الحسن البصري أبو سعيد / سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٥) اقتضاء العلم العمل/ لأبي بكر البغدادي/ ص٩٧.

للمصاحبة، ثم اشتق من التوسد توسد بمعنى صاحب على سبيل الاستعارة التبعية، والمرء يلازم وسادته طيلة نومه، والمقبور يلازم عمله مدة قبره.

١٤- تشبيه ملازمة الأعمال صاحبها إلى يوم القيامة بملازمة القلائد أعناق أصحابها:

قال صالح بن مالك: أخبرنا أبو عبيدة الناجي عن الحسن[ت:١١٠هـ][1]. **قال: ابْنَ آدَمَ، لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِالدُّنْيَا، فَتُعَلِّقَهُ بِشَرٍّ مُعَلَّقٍ، قَطِّعْ حِبَالَهَا، وَغَلِّقْ أَبْوَابَهَا، حَسْبُكَ أَيُّهَا الْمَرْءُ مَا بَلَّغَكَ الْمَحَلَّ، حُمْقًا تُبَاهِي بِمَالِكَ، وَحُمْقًا تُبَاهِي بِوَلَدِكَ، وَأَنْتَ فِي غَمِّ السَّاعَةِ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، ذَهَبَتِ الدُّنْيَا لِحَالٍ، وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ قَلَائِدَ فِي أَعْنَاقِ بَنِي آدَمَ[2].**

ففي قوله: «**الأعمال قلائد في أعناق بني آدم**»: شَبَّهَ ملازمة الأعمال صاحبها إلى يوم القيامة بملازمة القلائد أعناق أصحابها، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: الملازمة وعدم المفارقة. والغرض: التنفير من أعمال السوء، والترغيب في أعمال الخير، والصورة البيانية منزعها قول الله - تعالى -: (**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا**) (الإسراء:١٣).

وجرت العادة أن القلادة لا تفارق صاحبها، وإن كان المشبه أقوى في المعنى من المشبه به؛ (فالأعمال لا تفارق صاحبها، والقلادة ربما فارقت صاحبها)، ولكن أراد إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو معناه.

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٢) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا / ص١٧٦.

١٥- تشبيه حال من يعمل صالحًا ويخشى عدم القبول:

قال سَعِيدُ بْنُ الْعَبَّاسِ: حدثنا أَبِي، حدثنا حَاتِمٌ، قَالَ: سَمِعْتُ شَقِيقًا[ت:١٩١ - ٢٠٠هـ][(١)]. يَقُولُ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ غَرَسَ نَخْلَةٍ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ يَحْمِلَ شَوْكًا، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ رَجُلٍ زَرَعَ شَوْكًا، وَهُوَ يَطْمَعُ أَنْ يَحْصُدَ تَمْرًا، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ كُلُّ مَنْ عَمِلَ حَسَنًا؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَجْزِيهِ إِلَّا حَسَنًا، وَلَا تُنْزَلُ الْأَبْرَارُ مَنَازِلَ الْفُجَّارِ»[(٢)].

ففي قوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ غَرَسَ نَخْلَةٍ، وَهُوَ يَخَافُ أَنْ يَحْمِلَ شَوْكًا»: شَبَّهَ حال المؤمن الذي يعمل أعمالًا صالحة وهو يخاف ألا تُقْبَل - بحال رجل يغرس نخلًا، وهو يخاف أن يحمل شوكًا، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: استقامة العمل، ومخافة العاقبة، وجزئيات المشبه به لها معنى ودلالةٌ ومصادرُ انبثقت منها:

فقوله: «غَرَسَ نَخْلَةٍ»: لها دلالة على طيب عمل المؤمن، فالنخل من أطيب الأشجار؛ لذلك ضربه النبي ﷺ مثلًا للمؤمن[(٣)]. وألَّف أبوحاتم السجستاني كتابًا سمَّاه النخل.

---

(١) شقيق البلْخيّ، الأزديُّ الزَّاهد، [ت: ١٩١ - ٢٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج ٤/ ص١١٢٧.

(٢) حلية الأولياء/ ج٨/ ص٧١.

(٣) عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ مَثَلُهَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ»، قَالَ: فَجَعَلَ الْقَوْمُ يَتَذَاكَرُونَ شَجَرًا مِنْ شَجَرِ الْوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَأُلْقِيَ فِي نَفْسِي أَوْ رَوْعِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ: فَجَعَلْتُ أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ، فَأَرَى أَسْنَانًا مِنَ الْقَوْمِ، فَأَهَابُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمْ يَكْشِفُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ النَّخْلَةُ».[تعليق الألباني] صحيح [تعليق شعيب الأرنؤوط] إسناده صحيح على شرط مسلم. / الكتاب: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان/ ج١/ ص٤٨٠.

وقوله: «**وهو يخاف أن يحمل شوكًا**»: يقابلها في المشبه خوفُ المؤمن أن لا تُقبل عبادته، قال - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ (المؤمنون: ٦٠-٦١).

ففي قوله: «**وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ رَجُلٍ زَرَعَ شَوْكًا**»: شبَّه حال المنافق الذي يعمل أعمالًا سيئة ويطمع في جنة نعيم - بحال رجل يزرع شوكًا، ويطمع أن يحصد تمرًا، ووجه الشبه: اعوجاج العمل مع الطمع في الأجر.

وقوله: «**وَهُوَ يَطْمَعُ أَنْ يَحْصُدَ تَمْرًا**»: هذا المعنى منزعه قول الله - تعالى -: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (المعارج:٣٨). وقوله - تعالى -: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ (الكهف:٣٦). وقوله - تعالى-: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ (فصلت: ٥٠). والظاهر الجلي أن الصورة البيانية منازعها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

١٦- استعارة الكنز للعمل الصالح:

عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «**لَا تَتَّخِذُوا الدُّنْيَا رَبًّا؛ فَتَتَّخِذَكُمُ الدُّنْيَا عَبِيدًا، اكْنُزُوا كَنْزَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا يُضَيِّعُهُ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ كَنْزِ الدُّنْيَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْآفَةَ، وَإِنَّ صَاحِبَ كَنْزِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْآفَةَ**»(١).

وقوله: «**اكْنُزُوا كَنْزَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا يُضَيِّعُهُ**»: أراد: اجعلوا أعمالكم عند من لا يضيعها، قال - تعالى -: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠). استعار الكنز للعمل على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، والاستعارة زادت

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا / ص ٣٤.

من رونق العمل في أعين الناس، فالكنز له في قلوبهم حظ وافر، وقد جُبلت النفوس على الشغف بالكنوز.

ثم ارتقى الكلام بعد ذلك إلى تفضيل عمل الآخرة على الكنز، فقال: «**فَإِنَّ صَاحِبَ كَنْزِ الدُّنْيَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْآفَةَ، وَإِنَّ صَاحِبَ كَنْزِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَخَافُ عَلَيْهِ الْآفَةَ**». إن ما عند الله لا يضيع منه مثقال ذرة؛ قال - تعالى -: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**﴾(الأنبياء:٤٧).

ونرتقي سُلَّم هذه الصورة البيانية، ونقف عند قول ابن مسعود ﷺ[ت:٣٢][١]. قَالَ: «**أَيُّكُمْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَجْعَلَ فِي السَّمَاءِ كَنْزَهُ فَلْيَفْعَلْ، حَيْثُ لَا تَأْكُلُهُ السُّوسُ، وَلَا تَنَالُهُ السَّرِقَةُ؛ فَإِنَّ قَلْبَ كُلِّ امْرِئٍ عِنْدَ كَنْزِهِ**»[٢].

وقوله: «**حَيْثُ لَا تَأْكُلُهُ السُّوسُ، وَلَا تَنَالُهُ السَّرِقَةُ**»: تعريض بكنوز الدنيا، وتحقير لها، وتشويه صورتها في الأعين، وتزهيد القلوب فيها. قال الشاعر [البحر الكامل]:

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ... ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ[٣].

قوله: «**فَإِنَّ قَلْبَ كُلِّ امْرِئٍ عِنْدَ كَنْزِهِ**»: أظهر حب النفوس وشغفها بالكنوز، وهي دعوة للحفاظ على القلب من أن يفجع على سرقة كنزه، أو يحزن على أكل السوس لكنزه، والعبارة موجزة تشير إلى أن القلوب قلبان: قلب عند كنزه في الدنيا، فهو حريص خائف مُشَتَّت مُتوجِّس من السوس والسرقة، وقلبٌ عند كنزه

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٢) الزهد لابن المبارك/ ص٢٢٣.

(٣) قَالَ يَحْيَى بن معين: هَذَا لِلأَخْطَلِ. / اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي/ ص٩٩.

في الآخرة، مطمئن لاحظته عيون العناية، فنام، واطمئن، وبعد هذه المعرفة ما على العبد إلا أن يختار قلبه وكنزه.

١٧- تشبيه المسيء بالميت، والمحسن بالحي:

قال أَبو الْعَبَّاس الْمبرد [ت:٢٨٦هـ][١].: سَمِعْتُ بَعْضَ الْأَعْرَابِ يَقُولُ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، الْمُسِيءُ مَيِّتٌ وَإِنْ كَانَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَالْمُحْسِنُ حَيٌّ وَإِنْ نُقِلَ إِلَى الْآخِرَةِ[٢].

شبه المسيء بالميت، ووجه الشبه: خمول الذكر. وشبه المحسن بالحي، ووجه الشبه: الذكر وعدم النسيان. فيبقى الثناء حتى بعد الموت، بل إن زمن الثناء هو أحسن عمر العبد، وأطوله، وأشرفه، يقول الشاعر [من البسيط]:

قَدْ مَاتَ قَومٌ وَمَا مَاتَتْ مَحَاسِنُهُمْ ... وَعَاشَ قَومٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَمْوَاتُ[٣].

الخلاصة:

من صفات المؤمنين بعد إيمانهم العمل الصالح الذي بدونه لا يكتمل الإيمان، ولكون العمل جزءًا من الإيمان لا ينبغي التهاون به صوّره أهل الرقائق قائدًا، وجعلوا الحزن نتاجه، وصوروا الفكرة والتفكر مخًّا للعمل؛ لأنها المحفِزة والمُوقِظة للهمم.

ولتعلق النفوس بالتجارة والربح ربط أهل الرقائق بين العمل والتجارة، وهذا مأخوذ من كتاب الله؛ إذ يقول رب العزة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم

(١) المبرد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر [ت: ٢٨٦ هـ] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ٥٧٧.

(٢) المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها / ص٤٥.

(٣) الدر الفريد وبيت القصيد/ لمحمد بن أيدمر المستعصمي/ ج٨/ ص٢٩٣/ ت: كامل سلمان الجبوري/ ن: دار الكتب العلمية/ ط:١.

﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [الصف: ١٠]. فشبهوا الفرائض برءوس الأموال، والنوافل بالأرباح، وشبهوا حال المؤمن الذي يكد؛ رجاء رحمة ربه، فيخف عليه أمر الكد - بالتاجر يكد؛ من أجل الربح، فينسى مشقة كده، كما صوروا العمل الصالح بكنز لا تصل إليه الآفة ولا اللصوص.

أما عن ترك العمل الصالح وعدم الأخذ به: فاستعاروا الموت لترك العمل، وشبهوا من ساء عمله بالميت، واستدلوا على عدم توفيق تارك العمل بتشبيهه بالطبيب الذي لا يتداوى بدوائه، وبمن يرمي بلا وتر، وحقّروا أمره، فشبهوه بالجيفة عند الليل، والقطرب عند النهار.

وفي وصف العاملين حالَ عملهم أخذ أهل الرقائق عدة صور من بيئتهم وحياتهم لوصف حال العاملين، فشبهوا القائم حالَ صلاته بالجذع، وبجذم الحائط، وشبهوا غفوته بغفوة الطائر، كما شبهوا خوفه بعد العمل من عدم القبول بحال من يغرس نخلة، ويخاف أن يحمل شوكًا.



المبحث الرابع:
التصوير البياني في مقام حسن الصحبة

المحتوى:

١- تشبيه الصاحب بالرقعة في القميص.

٢- وتصوير الخير والشر خزائن، الناسُ مفاتيحها.

٣- وجعل ذكر الله بيتًا، رؤيةُ الصالحين مفتاحه.

٤- وتشبيه صدور الأحرار بالقبور للأسرار.

٥- وكناية عن الصاحب الذي لا يمُن.

٦- وتشبيه المتعاونين على ذكر الله بالزينة للمساجد.

٧- وتشبيه التفاضل بين الناس بالعقل بالتفاضل بين الشجر بالإثمار.

٨- وتصوير صحبة الأشرار بالحصى أو الشيء الذي لا يعتد به.

٩- وتشبيه حال من يمكث بين أهل سوء ولا يدرك ذلك إلا بعد المفارقة.

١٠- وكناية عن ترك صاحب السوء وعدم الاعتداد به.

١١- وتشبيه الفجار بصخرة لا يرجى منها ماء، وبشجرة لا يخضر ورقها.

١٢- وتشبيه المجادلين بالجرب.

١٣- ومثل الصاحب الذي لا يخاف الله، ويجر على صاحبه آثامًا وذنوبًا.

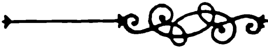
١٤- وتشبيه يوضح النقص الذي يقع في حسنات العبد.

١٥- واستعارة الكلْم للنقصان في الدين.

١٦- وكناية عن المطففين.

١٧- وتشبيه حال من جلس إلى قوم يلتمس الذكر فوجدهم أهلَ دنيا.

١٨- وتشبيه أخوة السوء بخشب مطلي بالذهب.



١٩- واستعارة الرجاج لمهازيل الناس وشرارهم.

٢٠- و«فاض اللئام وغاض الكرام» مجاز.

٢١- واستعارة الكدر للشدة والضيق.

٢٢- وتشبيه حال من فسدت بطانته بحال من غص بالماء.

٢٣- وتشبيه صحبة الناس بحذر وانتفاع بصحبة النار.

٢٤- وتشبيه صاحب السوء بجذوة النار.

٢٥- وتشبيه حال القائم بين أهل السوء بمن يطأ على الجمر.

٢٦- وتشبيه صاحب السوء الذي لا يتغير طبعه بالشجرة المرة التي لا تتغير مرارتها.

٢٧- وتشبيه الإمام بالسوق الذي يحمل إليه ما ينفق فيها وما يروج.

٢٨- وصور بيانية في أصناف الرجال.

٢٩- وتشبيه الإخوان بأنفس الذخائر.

٣٠- وتشبيه احتيال إبليس للعبد باحتيال الصياد للغربان.

٣١- وتشبيه المؤمنين في الناس بالنحلة في الطير.

٣٢- وتشبيه من تبقَّى من الصالحين بالسنبلة أثر الحصاد.

٣٣- وتشبيه حال (القائل) حين يأتيه نعي رجل من أهل السنة.

٣٤- واستعارة اللقاح للنماء، وإعمال الاستعارة في نماء العقول.

٣٥- وتشبيه الحب في الله بيت لا ينفك من قرار.

٣٦- وتشبيه حال من يشكو همومه لأخيه.

٣٧- وتشبيه أمر مداراة الناس بأمر الصلاة المفروضة.

٣٨- وتصوير الإفضال على أهل الإيمان بمطعوم لذيذ.



١- وتشبيه الصاحب بالرقعة في القميص:

حدّث أبو حاتم عن الأصمعيّ(ت:٢١٥هـ)[١]. عن أبيه قال: كان يقال: **الصاحبُ رُقعة في قميص الرجل، فلينظر أحدكمْ بِم يَرقع قميصَه**[٢].

يظهر من الخطاب أن المتكلم يخشى على المخاطَب من خُلة السوء، ويُقبحها في عينه، ويصورها في صورة رقعة قبيحة متنافرة مع باقي الثوب، فشبه الصاحب بالرقعة في القميص التي بها يكمل، وتتجمع أشتاته، وتلتئم أجزاؤه، ويرقى في عين الناظر، وكذلك الصاحب.

وقوله: «في قميص الرجل»: قيد للمشبه به، زاد الأمر عناية، وجعله من الأهمية بمكان؛ حيث إن ثوب الرجل محل اهتمام أكثر من أي ثوب، ومحل نظر الرجال والمجالس دون غيره من الأثواب.

وقوله: «**فلينظر أحدكم بم يرقع قميصه**»: أضاف إلى الصورة البيانية تخيُّلًا جديدًا تتعدد فيه الرقع، فمنها الصوف، ومنها الكتان، ومنها الحرير، والديباج، وما على المرء إلا أن يختار بم يُرقع، فإن كانت الرقعة حسنة تأتلف مع الثوب ازداد بها حسنًا، وسُد بها نقصًا، كذلك الصاحب؛ إن كان على نفس الدرب وطريق الحق اجتمعت الأيدي، واكتمل الأمر، وشُد الأزر، وإن كانت الرقعة قبيحة متنافرة لونًا ونوعًا ورقة وملمسًا: ازداد بها القميص قبحًا، وكانت سببًا لجلب العيب والشين، كذلك صاحبِ السوء؛ يزيد صاحبه سوءًا وتشويهًا في

(١) الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت:٢١٥هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٠/ ص١٨١.

(٢) عيون الأخبار ج:٣ / ص:٦. وأورده صاحب العقد الفريد ونسبه إلى النبي ﷺ العقد الفريد ج٢/ ص١٧٩. ولكن بحثت عنه في كتب الحديث فلم أجده.

أعين الخلق، ويجلب عليه مقتهم. والغرض: بيان حال المشبه، وبيان كيف يضر الصاحب الطالح صاحبه، وكيف يشينه وينقص منه في أعين الناظرين.

٢- تصوير الخير والشر خزائن، الناسُ مفاتيحها:

عَنْ مَكْحُولٍ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ[ت:٣٢هـ][(١)]. كَانَ يَقُولُ: «مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلْخَيْرِ، وَمَغَالِيقُ لِلشَّرِّ، وَلَهُمْ بِذَلِكَ أَجْرٌ، وَمِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلشَّرِّ، وَمَغَالِيقُ لِلْخَيْرِ، وَعَلَيْهِمْ بِذَلِكَ إِصْرٌ، وَتَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ»[(٢)].

في قوله: «مَفَاتِيحُ لِلْخَيْرِ، وَمَغَالِيقُ لِلشَّرِّ»: جعل الخير والشر خزائن، ثم حذف المشبه به، وأبقى لازمه: «مفاتيح، ومغاليق» على سبيل الاستعارة المكنية. وقوله: «مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلْخَيْرِ، وَمَغَالِيقُ لِلشَّرِّ»: أراد هنا الصالحين من المؤمنين العاملين. وقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحُ لِلشَّرِّ، وَمَغَالِيقُ لِلْخَيْرِ»: أراد المفسدين الذين يسعون في الأرض؛ ليهلكوا الحرث والنسل. والغرض العامُّ: بيان أوصاف الناس وتقسيمهم، وإبراز التقسيم في صورة محسة مشاهدة.

٣- جعل ذكر الله بيتاً، رؤيةُ الصالحين مفتاحُه:

عنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ[ت:٣٢][(٣)]. قَالَ: «إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ ذِكْرِ اللَّهِ، إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ»[(٤)].

في قوله: «مَفَاتِيحَ ذِكْرِ اللَّهِ»: جعل ذكر الله بيتًا، ثم حذف المشبه، وأبقى

---

(١) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

(٢) الزهد لابن المبارك / ص٣٣٢.

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي[ت:٣٢] سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١/ ص٤٦١.

(٤) الأولياء لابن أبي الدنيا/ ص١٧.

لازمه: (مفاتيح) على سبيل الاستعارة المكنية، ورؤية الصالحين سبب في ذكر الله وفتح هذا البيت؛ حيث إنهم يجلبون الذكر، ويفتحون بابه أمام الناظرين، فيتذكرون، ويذكرون.

٤- تشبيه صدور الأحرار بالقبور للأسرار:

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الرَّازِيُّ: سَمِعْتُ يُوسُفَ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: قَالَ ذُو النُّونِ (ت:٢٤٥هـ)[١]. «**صُدُورُ الْأَحْرَارِ قُبُورُ الْأَسْرَارِ**»[٢].

في هذا التعبيرِ تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يستر ما بداخله، ويُكِنُّه. والمشبه به: «**القبور**» له خصائص يتميز بها عن غيره؛ حيث إنه لا يعتاد فتحه كالخزائن، وما بداخله يفنى، ويتحلل، ويندثر، كذلك صدور الأحرار ما بداخلها من أسرار يُخفى، وكأنه ذهب واندثر، ولم يكن ثمة شيء، لا سيما في مواطن الخلاف، لا يُخْرِجون سِرَ من كان يألفهم قبل النزاع.

٥- كناية عن الصاحب الذي لا يمُن:

حَدَّثَ الْمُفَضَّلُ بْنُ غَسَّانَ، عَنْ أَبِيهِ[ت: ٢١١ - ٢٢٠هـ][٣]. **قَالَ:» كَانَ يُقَالُ: اصْحَبْ مَنْ يَنْسَى مَعْرُوفَهُ عِنْدَكَ**»[٤].

قوله: «مَنْ يَنْسَى مَعْرُوفَهُ عِنْدَكَ»: كناية عن الصاحب الذي لا يعاير، ولا يمُنّ،

---

(١) ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١١/ ص٥٣٢.

(٢) حلية الأولياء / ج٩/ ص٣٧٧.

(٣) غسان بن المفضل الغلابي الْبَصْرِيُّ. [ت: ٢١١ - ٢٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٥/ ص٤١٩.

(٤) إخوان لابن أبي الدنيا/ ص٩٩/ ت: مصطفى عبد القادر عطا/ ن : دار الكتب العلمية - بيروت/ ط: ١.

ولا ينتظر العوض، ولا يرجو تبادل المصالح والمنافع، وكناية عن الصاحب الذي بلغ في الحب مبلغًا، لا يرى فيه ما يبذل لمحبوبه، كل هذا وأكثر داخل في ساحة هذه الكناية الفسيحة، بعيدة الأطراف، التي يتولد منها عشرات المعاني، ويختلف فهم السامعين لها؛ باختلاف طبائعهم وعقولهم.

٦- تشبيه المتعاونين على ذكر الله بالزينة للمساجد:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي ثُبَيْتٍ، عَنْ خُلَيْدٍ الْعَصْرِيِّ[ت: ١٠١ - ١١٠هـ][١]. قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةً، وَإِنَّ زِينَةَ الْمَسَاجِدِ الْمُتَعَاوِنُونَ عَلَى ذِكْرِ اللهِ»[٢].

ففي قوله: «وَإِنَّ زِينَةَ الْمَسَاجِدِ الْمُتَعَاوِنُونَ عَلَى ذِكْرِ اللهِ»: شَبَّهَ المتعاونين على ذكر الله بالزينة للمساجد، فبهم تَحْسن وتبهج كما تتزيين الأرض بالنبات، والأزهار، ولا ريب في ذلك؛ فإن العمارة الأولى للمساجد هي العمارة المعنوية عمارةُ الذكر، هؤلاء هم عُمَّارها ومصابيحها ونقوشها وزخارفها، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما له في العين بهاءٌ وفرحةٌ، ويُهدي إلى القلب رَوْحًا، ويُوجِد في الصدر انشراحًا، ويُفيد النفس نشاطًا، وتَهِشُّ النفس له، ويميل الطبع إليه، ويُحَبُّ ورودُه عليه.

٧- تشبيه التفاضل بين الناس بالعقل بالتفاضل بين الشجر بالإثمار:

عن وهب بن منبه(ت:١١٣هـ)[٣]. قال: كما تتفاضل الشجر بالأثمار كذلك تتفاضل الناس بالعقل[٤].

---

(١) خُلَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَصَرِيُّ أَبُو سُلَيْمَانَ الْبَصْرِيُّ. [ت: ١٠١ - ١١٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٤٢.

(٢) حلية الأولياء / ج٢/ ص٢٣٣.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٤) العقل وفضله لابن أبي الدنيا ص٤٨.

أراد وهب بن منبه - رحمه الله - إرشاد المخاطب إلى اختيار ذوي العقول دون غيرهم، فمنهم يرجى النفع والخير، ومن غيرهم لا ينتظر إلا العطب والشح، فشبه التفاضل بين الناس بالعقل بالتفاضل بين الشجر بالإثمار، والتشبيه تمثيلي، والشجر المثمر يتفاضل على غيره؛ لما له من مزيد نفع، كذلك العقلاء يتفاضلون على غيرهم برجحة عقولهم.

٨- تصوير صحبة الأشرار بالحصى أو الشيء الذي لا يعتد به:

قَالَ جَعْفَرٌ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ[ت: ١٣٠هـ][١]. يَقُولُ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ حَبِيبٍ: «يَا مُغِيرَةُ انْظُرْ كُلَّ جَلِيسٍ وَصَاحِبٍ، لَا تَسْتَفِيدُ فِي دِينِكَ مِنْهُ خَيْرًا فَانْبِذْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ»[٢].

قوله: «فَانْبِذْ عَنْكَ صُحْبَتَهُ»: ذكر الراغب في المفردات: النبذ: إلقاء الشيء، وطرحه؛ لقلة الاعتداد به، ولذلك يقال: نبذته نبذ النعل الخلق[٣].

صوَّر مالك بن دينار - رحمه الله - صحبتهم بالحصى، أو الشيء الذي لا يُعتد به، وينبغي طرحه، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمه على سبيل الاستعارة المكنية التي أفادت عدم الاعتداد بهم، وعدم الرأفة، وعدم التحسر على ترك صحبتهم، فهل تحسر أحدٌ على شيء لا يُعتد به؟، وإن كان يُستفاد منهم في أمور الدنيا فأمور الدنيا زائلة غير باقية مطروحة منبوذة مثلهم، ولا خير إلا خير الآخرة.

---

(١) مالك بن دينار / سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٢) الزهد لأحمد/ ص ٢٦٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب/ ص٧٨٨/ ت: صفوان عدنان الداودي/ ن: دار القلم، دمشق / ط: ١ .

٩- تشبيه حال من يمكث بين أهل سوء ولا يدرك ذلك إلا بعد المفارقة:

قال إسحاق بن بشر: خرجنا مع بشر [ت: ٢٢١ - ٢٣٠هـ][(١)]. إلى باب حرب (يعني الصحراء)، قال: فقال لي: يا أبا يعقوب تفكرت في هذه القرية، ومن كره الدخول إليها، واعلم أن الدبَّاغ إذا كان في المدبغة لم يشم رائحتها، إنما يشم رائحتها من ورد عليها[(٢)].

ففي قوله: «واعلم أن الدبَّاغ إذا كان في المدبغة لم يشم رائحتها»: شَبَّهَ حالة الدباغ الذي لا يشم رائحة المدبغة؛ لمكوثه فيها - بحالة من يمكث في قرية سوء، ولا يدرك ذلك إلا بعد الخروج منها؛ حيث إن كلًّا منهما لا يدرك حقيقة الأمر إلا بعد المفارقة، والتشبيه تمثيلي.

١٠- كناية عن ترك صاحب السوء وعدم الاعتداد به:

عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ[ت:٩١ -١٠٠هـ][(٣)]. قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ»[(٤)].

قوله: «التَّكْبِيرَةِ الْأُولَى»: كناية عن التبيكير إلى الصلاة. والفاء في قوله: «فاغسل» تنادي بالإسراع، وعدم الإمهال، فالأمر قد حُسِمَ، ومثل هذا لا يتردد المرء في هجره طرفة عين. وقوله: «فاغسل»: كناية عن تركه وعدم الاعتداد به،

---

(١) بشر بن الحارث الزّاهد الكبير المعروف بِبِشْر الحافي / تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٤/ ص٥٤٠.

(٢) الورع لأبي بكر المروزي / ص٢٤.

(٣) إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ قَيْسِ بْنِ الأَسْوَدِ، أَبُو عِمْرَانَ النَّخَعِيُّ الْكُوفِيُّ، [ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج ٢/ ص١٠٥٢.

(٤) حلية الأولياء / ج٤/ ص٢١٥.

والكنايةُ أفادت المبالغة في البعد عمن هذه صفته، فلا يكفي الهجر فقط، بل يمحو له كل أثر، وأفادت قبح ما عليه الساهي عن صلاته، وأن ما به من قبح معنوي - أي: التأخر عن الصلاة - زاد حتى أصبح القبح حسيًا يُغسل منه.

١١- تشبيه الفجار بصخرة لا يرجى منها ماء، وبشجرة لا يخضر ورقها:

جعفر بن محمد الصادق [ت:١٤١-١٥٠هـ][١].: **يَا بُنَيَّ، إِنْ زُرْتَ فَزُرِ الْأَخْيَارَ، وَلَا تَزُرِ الْفُجَّارَ؛ فَإِنَّهُمْ صَخْرَةٌ لَا يَتَفَجَّرُ مَاؤُهَا، وَشَجَرَةٌ لَا يَخْضَرُّ وَرَقُهَا، وَأَرْضٌ لَا يَظْهَرُ عُشْبُهَا، قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى: فَمَا تَرَكَ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ**»[٢].

في قوله: «**فَإِنَّهُمْ صَخْرَةٌ لَا يَتَفَجَّرُ مَاؤُهَا، وَشَجَرَةٌ لَا يَخْضَرُّ وَرَقُهَا، وَأَرْضٌ لَا يَظْهَرُ عُشْبُهَا**»: المشبه واحد، والمشبه به متعدد، شَبَّهَ الفجار في عدم نفعهم بصخرة لا يرجى منها ماء، وبشجرة لا ينتظر منها خضار، وبأرض قِيعَان لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً، والتشبيه تمثيلي. وقد عدَّد التشبيهات؛ لِيُبَرْهِن على شيء واحد، وهو أنهم لا خير فيهم، ولا نفع البتة، وأفاد التعدد قطعَ الطريق على المخاطب مِن أن يظن إتيان النفع من زيارة الفجار، فأثبتت التشبيهات أنه لا ثمة خير عندهم.

وقوله: «**لَا يَتَفَجَّرُ مَاؤُهَا، لَا يَخْضَرُّ وَرَقُهَا، لَا يَظْهَرُ عُشْبُهَا**»: قطع كل طريق، فهو لم يرد كل صخرة، وإنما أراد صخرة لا يتفجر ماؤها، ولم يُرد كل شجرة، وإنما أراد أرضا لا يظهر عشبها، والغرض: قطع المطامع، والإياس من زيارة الفجار.

---

(١) هُوَ ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الإِمَامُ / تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٨٢٨.

(٢) حلية الأولياء/ ج٣/ ص١٩٦.

١٢- تشبيه المجادلين بالجرب:

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَاسِعٍ، قَالَ: رَأَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ مُحْرِزٍ فِي الْمَسْجِدِ، وَقَرِيبًا مِنْهُ نَاسٌ يَتَجَادَلُونَ، فَرَأَيْتُهُ قَامَ، فَنَفَضَ ثِيَابَهُ، وَقَالَ: «إِنَّمَا أَنْتُمْ جرَبٌ»[١].

شبه المجادلين بالجرب، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يؤذي من جاوره، ويُعديه، وأعدى شيء عند العرب هو الجرب، جاء في أساس البلاغة: «أعدى من الجرب، عند العرب»[٢].

- ومما زاد الصورة البيانية وضوحًا وتأكيدًا - وهو ليس من الكلام-: «**نفض الثوب**»، فهذا الفعل أضفى على الصورة يقينًا، وكان لها برهانا، وهو كناية عن تأفُّفِه منهم. وكان صفوان بن محرز حين دخل المسجد يأمل أن يجد ورثة أخلاق الصحابة، فوجد ما وجد من مجادلين، فعلم أن زمان الصالحين مضى، وما بقي إلا الجُرب، وهذه الصورة ربما تكون مستمدةً من قول لبيد: قال ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: قَالَ لَبِيدُ [البحر الكامل]:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي نَسْلٍ كجلْدِ الْأَجْرَبِ
يَتَحَدَّثُونَ مَخَافَةً ومَلَاذَةً ... وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ

قَالَتْ: «فَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَ لَبِيدٌ قَوْمًا نَحْنُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ؟»، قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وَكَيْفَ لَوْ أَدْرَكَتْ عَائِشَةُ مَنْ نَحْنُ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمُ الْيَوْمَ؟»[٣]. وفي هذا البيت كناية عن صلاح الذاهبين، وفساد الباقيين.

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا / ص١٠٠.

(٢) أساس البلاغة / ص١٢٩/ ت: محمد باسل / ن: دار الكتب العلمية/ ط:١.

(٣) الزهد لابن المبارك/ ص٦٠ / بَابُ الِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ.

١٣- مثل الصاحب الذي لا يخاف الله، ويجر على صاحبه آثامًا وذنوبًا:

قال المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)[١].: فَمَن لَمْ يَخَفْ الله ﷻ من الأَصحَاب وإنْ كان مُصَليًا، أو مُدمنًا للصيام، أو غَازيًا، أو حَاجًا: فهو عليك وَبَال؛ لأن صَلَاته وصِيامَه وغَزْوه، وحَجه، وكَثْرة ذِكْره، وزكَاته: له، وخَوضُك معه وخَوضُه مَعَك مما يكره الله ﷻ عليك وَبَالٌ. وإنَّما مَثَله: كَمَثَل صاحب لك غني مُوسِر، وأَنتَ فَقِير مُحْتَاج، فَكُلَما أَتَاك أَكَلَ طَعَامَك، ولَمْ يُواسِك بِمَاله، فمالُه له، وضَرره عَلَيك؛ لأكله طعامك. فكذا هذا؛ له صلاته وصيامه وغزوه وحجه. ووباله -؛ بما يخرجك إليه من الخوض- عليك[٢].

شبه الصاحب الذي لا يخاف الله، ويخوض فيما لا يرضاه الله، ويجر على صاحبه آثامًا وذنوبًا - بالغني الموسر الذي يأكل طعام صاحبه الفقير، ولا يواسيه بماله، والتشبيه تمثيلي. ووجه الشبه: النهي عن ملازمة ما يجلب النفع لنفسه، والضرر لغيره. والغرض العامُّ: تبصير المخاطب بالضرر، وإقناعه بألا يغتر بطاعات صاحبه إن كان يخوض فيما نهى الله عنه.

١٤- تشبيه يوضح النقص الذي يقع في حسنات العبد:

بَوب المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)[٣]. بابَ ما يُسْتَعَان به عَلَى لِقَاء الإِخْوَان الذين يُتَخوف مِن لِقَائِهم قِلَة السَّلامة فِي الدِّين. فذكر صورة بَيانية يستعان بها على

---

(١) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٢) الرعاية لحقوق الله/ للمحاسبي / ص٣١٦.

(٣) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

لقاء هذا الصنف، ويستعان بها على بغضهم، فقال: **ولذلك مثل بين أَن لَو كُنت كُلما لَقِيت إِخْوانك وأَصْحَابك أَخَذُوا من لِحْيتك شَعْرة، أو من ثَوْبِك سِلكًا: لقل لقاؤك لَهم، ولَأَبْغَضْتهم، وأَبْغَضت لِقَاءهم؛ لأنك تَعلم أنه إن دام ذلك ذهبت لِحيتك، وصرت مشوهًا، ينظر إليك العباد بالشَّين والقُبح، وكذلك تَعْرى من ثِيابك سَريعًا. فكَذَلك مَنْ كَان مُشْفِقًا عَلى نَفْسِه وعَلَى دِينه، ثم عَرَف كُنه ما يَنقُص بِلِقَائهم في دِينه أَبْغَضَ لقاءهم**[1].

شبه من يجالس أناسًا يأخذون من حسناته، وينقصون من دينه - بمن يجالس أناسًا يأخذون من لحيته ومن ثوبه، حتى يعرى ويشين ويقبح. **وقوله: «ثم عرف كُنه ما ينقص بلقائهم»**: قد ساق المحاسبي هذه الصورة؛ لبيان كُنه شبيه بكُنه ما ينقص بلقاء القوم.

والغرض الذي تهدف إليه الصورة: بيان النقص العقلي الغيبي الذي يقع في الحسنات في صورة نقص حسي مشاهد يقع في لحية الإنسان وثوبه، وتبصير المخاطب بما يجري له من أمور غير مشاهدة، والصورة تعين المخاطَب المنصوح على ترك لقاء هؤلاء الناس إذا تذكرها عند لقائهم، واستدعاها عند رؤيتهم، ومما ينبغي أن يُستدعى أيضًا عند لقائهم صورة كلْم الدين.

١٥- استعارة الكلْم للنقصان في الدين:

حدث فِطْرُ بْنُ خَلِيفَةَ، عَنْ حَبِيبٍ - يَعْنِي ابْنَ أَبِي ثَابِتٍ - عَنْ حُذَيْفَةَ[ت: ٣٦ هـ][2]**. قَالَ: «خَالِطِ الْمُؤْمِنَ، وَخَالِطِ الْكَافِرَ، وَدِينُكَ لاَ تَكْلِمَنَّهُ»**[3].

---

(١) الرعاية لحقو ق الله / للمحاسبي/ ص٣١٨.

(٢) حُذَيْفَة بن اليَمَان ﷺ [المتوفى: ٣٦ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٢٧٧.

(٣) حلية الأولياء / ج١/ ص٢٨٠.

استعار الكلْم[1] للنقصان، ثم اشتق من الكْلم: «تكلمنه» بمعنى: «تنقصنه» على سبيل الاستعارة التبعية، والاستعارة جعلت نقصان الدين مرئيًا في صورة جرح، هذه الصورة يتحاشاها الناس، ولا يرضونها في أجسادهم؛ حيث إنها سمة عيب ونقصان.

وقوله: «لا تكلمنه»: أفاد أيضًا الحرص، والمحافظة على الدين حتى من أصغر الأشياء، وإن كان بقدر جرح، فضلًا عن أن يبتر الإنسان جزاءً من دينه، أو يُميته مرة واحدة، وكأن حذيفة ﷺ يقول: لا تفرط في حبة شعير.

١٦- كناية عن المطفيفين:

أورد الجاحظ [ت: ٢٤١ - ٢٥٠هـ][2]. في البيان والتبيين: وقالوا: لا تَصْرِف حَاجَتك إلى مَن مَعِيشَتَه مِن رُؤوس المَكَاييل، وَأَلْسِنة المَوَازِين[3].

قوله: «من معيشته من رؤوس المكاييل، وألسنة الموازين»: كناية عن آكِل الحرام المطففين الباخسين، والكناية أفادت المبالغة في المعنى؛ لأن التعبير عن المعنى المكنى بروادفه وتوابعه له من القوة والتأكيد ما ليس في التعبير عنه باللفظ الموضوع له، وذلك؛ لأنه يصبح كإبراز الدعوى بدليلها، وكإثبات الحجة ببيِّنتها.

وبين حروف هذه الكناية اختلاس، وخفية، وجبن يقوم به من يباشر هذا

---

(١) قَالَ اللَّيْث: الكَلْمُ: الجَرْحُ، والجميع: كُلُومٌ، وَتقول: كلَمْتُه وأَنا أَكْلِمُه كَلْمًا وأَنا كالِمٌ، وَهُوَ مَكْلُومٌ. تهذيب اللغة لأبي منصور/ ج١٠/ ص١٤٧./ ت: محمد عوض مرعب/ ن: دار إحياء التراث العربي - بيروت/ ط:١.

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ.[ت: ٢٤١ - ٢٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٥/ ص١١٩٣.

(٣) البيان والتبيين / ج١/ ص١٣٩.

الأمر. وقالوا قديمًا: لا ترق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه، فمن بخس العباد حقوقهم لا يُرتجى منه خير، وكيف ولم يرى حق من خلقه ورزقه وشق سمعه وبصره؟، وكانت معيشته وعيشه من فتات المكاييل وألسنة الموازين.

١٧- تشبيه حال من جلس إلى قوم يلتمس الذكر فوجدهم أهلَ دنيا:

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَشِيطٍ الْوَعْلَانِيُّ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ ثَوْبَانَ أَنَّ أَبَا مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيَّ(ت:٦٢هـ)(١). دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَنَظَرَ إِلَى نَفَرٍ قَدِ اجْتَمَعُوا جُلُوسًا، فَرَجَا أَنْ يَكُونُوا عَلَى ذِكْرٍ عَلَى خَيْرٍ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا بَعْضُهُمْ يَقُولُ: قَدِمَ غُلَامٌ لِي، فَأَصَابَ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ الْآخَرُ: قَدْ جَهَّزْتُ غُلَامِي، فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: « سُبْحَانَ اللَّهِ، هَلْ تَدْرُونَ يَا هَؤُلَاءِ، مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؟، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَصَابَهُ مَطَرٌ غَزِيرٌ وَابِلٌ، فَالْتَفَتَ، فَإِذَا هُوَ بِمِصْرَاعَيْنِ عَظِيمَيْنِ، فَقَالَ: لَوْ دَخَلْتُ هَذَا الْبَيْتَ حَتَّى يَذْهَبَ عَنِّي أَذَى هَذَا الْمَطَرِ، فَدَخَلَ فَإِذَا بَيْتٌ لَا سَقْفَ لَهُ، جَلَسْتُ إِلَيْكُمْ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا عَلَى خَيْرٍ، عَلَى ذِكْرٍ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَصْحَابُ دُنْيَا، فَقَامَ عَنْهُمْ»(٢).

قوله: «**سُبْحَانَ اللَّهِ، هَلْ تَدْرُونَ يَا هَؤُلَاءِ، مَا مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ؟**»: تعجبَ واستفهَمَ استفهامًا توبيخيًا، أعقبه بصورة بيانية أفصحت عن سر التعجب، وأوجبت التعجب، وعلَّلته، ولو ترك ذكر هذا التشبيه؛ لضاع كثير من المعاني التي تفيدها هذه الصورة.

وقد شبه نفسه حال جلوسه إلى القوم يلتمس الذكر، (فوجدهم يتحدثون عن دنيا) – بحال رجل دخل بيتًا؛ ليحتمي من المطر، فوجد البيت بلا سقف، والتشبيه

(١) أبو مسلم الخولاني عبد الله بن ثوب (ت:٦٢هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص١٤.

(٢) الزهد لابن المبارك ٣٣٨.

تمثيلي. والغرض: بيان ما وقع في نفسه، وما ضاع من حقه، ووصف خيبة أمله، وانقطاع رجائه. فالرجل جلس يلتمس الذكر، ويُرضي بلابل شوقه، ويروي ظمأ فؤاده، فوجدهم يتحدثون عن دنيا وغلام ومتاع وحطام، فأصابته الخيبة، وحصَّل الحرمان، وانقلب الشوق إلى أحزان، وهذا تفصيل لما ورد في النص:

قوله: «**كَمَثَلِ رَجُلٍ أَصَابَهُ مَطَرٌ غَزِيرٌ وَابِلٌ**»: يصف حالته النفسية وشعوره، فهذا المطر هو ما استشعره من مشاغل الحياة وملاهي الدنيا، أو ما استشعره من ذنوب وأوزار أثقلت ظهره، وعاقت حركته، كما يعوق المطر السائرين. وتقييدُ «المطر» بـ: «**غزير، ووابل**»: أوضح أن هذه الهموم ليست بالهينة، إنما هي ضخام شديدة كثيرة.

وقوله: «**فَالْتَفَتَ، فَإِذَا هُوَ بِمِصْرَاعَيْنِ عَظِيمَيْنِ**»: كلمات لمعانيها دلالة على معانٍ أخرى، تقول لنا: إنه استشعر في القوم المهابة والوقار، ورأى السمت الصالح في وجوه القوم حين دخل.

وقوله: «**لَوْ دَخَلْتُ هَذَا الْبَيْتَ حَتَّى يَذْهَبَ عَنِّي أَذَى هَذَا الْمَطَرِ**»: يصف ما استشعره من تطلع وتشوق حين رأى القوم جلوسًا. وقوله: «**فَدَخَلَ فَإِذَا بَيْتٌ لَا سَقْفَ لَهُ**»: هنا أسدل الستار على نهاية خاسرة، وطلعة خائبة، وحسرة ملتهبة. وعند ربط قوله: «**بِمِصْرَاعَيْنِ عَظِيمَيْنِ**» بقوله: «**فَإِذَا بَيْتٌ لَا سَقْفَ**»: يظهر لنا مدى الهبوط والسقوط الذي حدث في نفس أبي مسلم الخولاني (رحمه الله)، وتظهر الخيبة من حيث يرجو المرء الأمل، ناهيك عن التوبيخ الموجه للقوم المنفوشين الخاوين من الهمم العالية.

١٨- تشبيه إخوة السوء بخشب مطلي بالذهب:

قَالَ أَبُو يَعْلَى: حدثنا عَبْدُ الصَّمَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ(١٠٥ - ١٨٧هـ)(١). يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْغِيبَةُ ارْتَفَعَتِ الْأُخُوَّةُ فِي اللهِ، إِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَثَلُ شَيْءٍ مَطْلِيٍّ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، دَاخِلُهُ خَشَبٌ، وَخَارِجُهُ حَسَنٌ»(٢).

شبه مَن ظاهره سمتٌ صالحٌ وباطنُه حسدٌ وغلٌّ على الذين آمنوا - بشيء مطلي بالذهب والفضة، وداخله خشب، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: حسن الظاهر مع سوء الباطن. أو يقال: وجه الشبه: حسن المنظر والظاهر مع فساد الباطن وخسته، فظاهر القوم أنهم إخوة، وأمَّا باطنهم فهم أعداء، أفصح عن هذا اغتيابُ بعضهم بعضا.

١٩- استعارة الرجاج لمهازيل الناس وشرارهم:

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ(ت:١٠١هـ)(٣). فَلَمَّا قُمْتُ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ: «إِذَا ذَهَبَ هَذَا وَضُرَبَاؤُهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجَاجٌ»(٤).

والرِّجرِجةُ: بَقيَّة الماء في الحوضِ الكَدِرةُ المُختلطةُ بالطِّين(٥). فقد استعار الرجاج لمهازيل الناس وشرارهم، وهذه استعارة تصريحية أصلية، والجامع: أن كلًّا منهما لا يُنتفع به؛ لخبثه ووضاعته، والكلام فيه تعريض بالناس بعد ميمون

(١) الفضيل بن عياض (١٠٥ - ١٨٧هـ) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣.

(٢) حلية الأولياء / ج٨/ ص٩٦.

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي ﷺ (ت:١٠١هـ) الوافي بالوفيات للصفدي ج٢٢/ ص٣١٢.

(٤) حلية الأولياء / ج٤/ ص٨٣.

(٥) معجم العين / ج٦/ ص١٦.

بن مهران رحمه الله.

وأورد صاحب اللسان: وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا عَلَى شِرارِ الناس كرِجْرِجَة الماء الخبيث. وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ كرِجْراجَةِ الْمَاءِ الَّتِي لَا تُطْعِمُ[1]. كلا الأثرين أوردهما ابن منظور عن ابن مسعود ﷺ، والأول المشبه به فيه مقيد بقوله: «الخبيث»، والثاني: مقيد فيه بقوله: «التي لا تطعم». والأول أنسب للسياق من الثاني؛ حيث إن صفة الخبث من جنس الشر الذي سلكه بقية الناس. والصورة البيانية أظهرت الناس في صورة ماء ذهب صفوه، وبقي رونقه، وفاض اللئام، وغاض الكرام.

٢٠- «فاض اللئام وغاض الكرام» مجاز:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[ت:٥١- ٦٠هـ][2]. قَالَ: «إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ قيظا، وكان الولد غيظا، وفاض اللئام فيضًا، وغاض الكرام غَيْضًا، فَشُوَيْهَاتُ عَفْرٍ بِجَبَلٍ وَعْرٍ خَيْرٌ مِنْ مُلْكِ بَنِي النَّضِيرِ»[3].

قوله: «إِذَا كَانَ الشِّتَاءُ قيظا»: قيظ: القَيْظُ: صَمِيمُ الصيْف[4]. أي: أصبح الشتاء صيفًا على غير عادتة وطبيعته، وهذا كناية عن انقلاب الأحوال. **وقوله: «الأحوال وكان الولد غيظًا»**: كناية عن العقوق، فالولدُ سِرُّ أبيه، وهنا صار الولد غيظًا، والعياذُ برَبِّ العباد.

وقوله: «وفاض اللئام فيضا، وغاض الكرام غَيْضًا»: الرجرجة هنا فاضَتْ

(١) لسان العرب ج٢/ ص٢٨٢.
(٢) أبو هريرة الدوسي. [ت: ٥١ – ٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت: بشار/ ج:٢/ ص: ٥٦٠
(٣) العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا / ص٧٦.
(٤) لسان العرب (٧/ ٤٥٦).

وكثُر أمرُها، وقلَّ الكرام، وغاضوا. وقال الزمخشري: ومن المجاز: غاض الكرام غيضًا، وفاض اللئام فيضًا[1]. وقد استعار الغيضُ للقلة، واشتقَّ غاض بمعنى قلَّ على سبيل الاستعارة التبعية، والقصدُ المبالغةُ في القلة حتى كانوا ماءً غاضَ ونضُبَ، واستعار الفيضَ للكثرةِ، واشتقَّ فاض بمعنى كثروا على سبيل الاستعارة التبعية، والقَصْدُ أيضًا المبالغةُ، وهذا زمانٌ يَغِيبُ فيه الوعول، وتظهر فيه التحوت، ويكثر الرويبضة، ويرعى الهشيم، ويؤتمن الخائن، ويُخون الأمين.

وهذا شاهد آخر من السابقين بسبيل:

٢١- استعارة الكدر للشدة والضيق:

قال الجاحظ[ت:٢٤١-٢٥٠هـ][2].: وكان يقال: «كَدَرٌ الجَمَاعة خَيرٌ مِن صَفو الفُرقة»[3]. **فقد** استعار الكدر (من أوصاف الماء) للشدة والضائقة على سبيل الاستعارة الأصلية التصريحية. فالشدةُ كدرٌ يتناوله العبد على مضض، والكدرُ هنا خيرٌ من الصفوِ؛ لأن في الفُرقة الهلاكَ، وإنما يأكل الذئب مِن الغنم القاصية.

وقد شاع استخدام هذا المعنى، ووصف البشر به، وذكره الإمام عبد القاهر في الأسرار: «هو يَصْفُو، ويكدر، ويَمُرُّ، ويحلُو»[4]. وعلق على التفتازاني بقوله: «ليس من التشبيه المصطلح، بل هو مِن قبيل الاستعارة بالكناية»[5]. ثم علَّق عليه الشريف

---

(١) أساس البلاغة / ص٧١٨.

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ. [ت: ٢٤١ - ٢٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٥/ ص١١٩٣.

(٣) البيان والتبيين ج:١ / ص:٢١٨.

(٤) أسرار االبلاغة / ص١٠٧.

(٥) المطول للتفتازاني ص٣٢٦/ ن: بوسنوي الحاج محرم لسنة ١٣١٠هـ.



الجرجاني في حاشيته على المطول: «أقول: حيث شَبَّهَ زيد في زمان انبساطه بالماء الصافي، وأثبت له بعض لوازمه. ويمكن أن يُجعل استعارة تبعية، ويكون المقصود حينئذ تشبيهَ انبساطه بالماء، ويلزمه تشبيه زيد بالماء، لكنه غير مقصود، بخلاف ما إذا جعل استعارة بالكناية؛ فإن المقصود حينئذ تشبيهه بالماء، فإن لوحظ تشبيه انبساطه بصفاء الماء كان تبعًا لا مقصودًا[1]. والذي أميل إليه: أن الاستعارة في قوله: «**صفو الفرقة**» استعارة أصلية تصريحية؛ حيث استعار الصفو للانبساط.

٢٢- تشبيه حال من فسدت بطانته بحال من غص بالماء:

قال أكثم بن صيفي (ت:٩هـ)[2].: من فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء، ولو بغيره غصَّ أجارته غصَّته[3].

قوله: «**ولو بغيره غصّ أجارته غصَّته**»: إن كان سبب الغصةِ لقمة فإن الماء علاجها، وإن كان سبب الغصة الماء، فبِمَ الدواء؟!، كذلك البطانة تدفع عن صاحبها كل سوء وضرر، فإن كانت البطانة فاسدة جالبة لكل ضرر فأين النجاة؟!.

قوله: «**من فسدت بطانته كان كمن غصّ بالماء**»: شَبَّهَ حالَ مَن فسدت بطانته بحال من غص بالماء، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: إتيان الضرر؛ مِمَّا يرفع به الضرر؛ حيث إن الماء يرفع كل غصة، فإن كانت الغصة منه وبه فكيف العلاج؟، والبطانة بها ومنها يأتي الصلاح، فإذا فسدت فما السبيل إلى الصلاح؟.

---

(١) حاشية الشريف الجرجاني على المطول ص٣٤١/ ت: د:رشيد أعرضي/ ن: دار الكتب العلمية/ ط:١.

(٢) أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث(ت:٩هـ) الأعلام للزركلي / ج٢/ ص٦ .

(٣) المعمرون والوصايا ص٥/ المؤلف: أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني/ نسخة الشاملة.

٢٣- تشبيه صحبة الناس بحذر وانتفاع بصحبة النار:

عَنْ شَقِيقٍ[ت:١٩١-٢٠٠هـ][(١)]. قَالَ: «اصْحَبِ النَّاسَ كَمَا تَصْحَبُ النَّارَ، خُذْ مَنْفَعَتَهَا، وَاحْذَرْ أَنْ تَحْرِقَكَ»[(٢)].

شبَّه صحبةَ الناس بحَذَرٍ وانتفاعٍ – بصحبة النار تشبيهَ معقولٍ بمحسوس، ووجهُ الشبه: الحذر في التعامل وأخْذ الحيطة؛ لتحصيل المنفعة ودفع المضار، والتشبيه تمثيلي، ووجهُ الشَّبَهِ: أن كلا الأمرين له منفعة تُرجى، ومفسدة تترك، ويُحتاط منها. بثت الصورة نوعًا من الأنس و»الأُنس الحاصل بانتقالك في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر، ليس له سببٌ سوى زَوَالِ الشكِّ والرَّيْبِ»[(٣)]. ومع هذه الأهمية أيضًا له «ضرب من التأثير زائد على القول والنطق»[(٤)].

٢٤- تشبيه صاحب السوء بجذوة النار:

أورد صاحب عيون الأخبار[ت:٢٧٦هـ][(٥)]. ويقال: صَاحِب السُوء جَذْوة مِن النَّار[(٦)]. شبَّه صاحب السوء بجذوة[(٧)]. من النار تشبيهًا بليغًا، ووجه الشبه: أن

---

(١) شقيق البلْخيّ، الأزديُّ الزَّاهد،[ت: ١٩١ – ٢٠٠ هـ]تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج ٤/ ص١١٢٧.

(٢) حلية الأولياء / ج١٠/ ص٤٧.

(٣) أسرار البلاغة/ ص١٢٥/ ت: شاكر.

(٤) أسرار البلاغة/ ص١٢٧/ ت: شاكر.

(٥) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري[ت:٢٧٦هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٣/ ص٣٠٠.

(٦) عيون الأخبار/ ج:٣ ص:٩٠.

(٧) وَقَالَ أَبو سَعِيدٍ: الجَذْوَة عُودٌ غَلِيظٌ يَكُونُ أَحدُ رأْسَيْه جَمْرةً والشهابُ دُونَهَا فِي الدِّقَّةِ. لسان العرب / ج١٤/ ص١٣٨.

كلًّا منهما مُؤْذٍ. والغرض: بيان خطورة صاحب السوء، والتذكير بعاقبة اتباعه، وأراد هنا الإشارة إلى موضع الضرر في الجذوة دون غيره؛ لأن السياق يتحدث عن صاحب السوء، فمثل هذا لا يأتي منه إلا التألم والحرق والخسران، وهذه الصورةُ قريبةٌ من حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: عن أبي موسى الأشعريِّ ﷺ عن رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - قال: «إنّما مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحًا خبيثة»[١].

٢٥- تشبيه حال القائم بين أهل السوء بمن يطأ على الجمر:

قال حسن بن الربيع قلت لبشر[ت: ٢٢١ - ٢٣٠هـ][٢]. إيش مقامك ببغداد، فقال لي: إني لأمسي بينهم، وكأني أطأ على الجمر[٣].

شبه حاله وهو بين ظهراني قوم سوء - بحال من يطأ على الجمر. والتشبيه مركب، ووجه الشبه: المعانة والألم، وصعوبة التحمُّل والمعايشة، فأصبح بشر - رحمه الله - يجد في معاملتهم وجوارهم ومخالطتهم ما يجد من يطأ الجمر من الألم، وكلاهما يرجو زوال ما هو فيه، والمشبه به حسي كما هو الغالب في مثل هذا.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٢٨).

(٢) بشر بن الحارث بن المعروف بِبِشْر الحافي [ت: ٢٢١ - ٢٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٤/ ص٥٤٠.

(٣) الورع لأبي بكر المروزي/ ص٢٣.

٢٦- تشبيه صاحب السوء الذي لا يتغير طبعه بالشجرة المرة التي لا تتغير مرارتها:

أورد صاحب العقد الفريد(ت:٣٢٨هـ)(١).: وفي كتاب للهند: إِنَّ الرجُل السّوء لا يَتَغَير عن طَبْعِه، كَمَا أَنَّ الشَّجرة المُرّة لَو طَلَيتها بِالعَسَل لَم تثمر إلا مُرًّا(٢).

شَبَّهَ الرجل السوء الذي لا يتغير طبعه - بالشجرة المرة التي لا تتغير مرارتها، ولو طليت بالعسل، ووجه الشبه: استحالة التغيير. والصورة البيانية برهان ودليل على قول القائل؛ حيث إن المشبه به شيء لا يُنكر، ويراه كل ناظر، أما المشبه فربما وقع في أمره شك، أو ظن أحدهم صلاحه وتغيُّره، فجاءت الصورة؛ لبيان أن الطبع لا يتغير كما أن الأصل لا يتغير.

قال ابن أبي حازم (بحر مجزوء الرمل):

قد بلوت الناس طرًّا لَمْ أَجِدْ في النَّاس حُرًّا
صَارَ أَحْلَى النَّاس في العَـ ـين إذا ما ذيق مرًّا(٣).

٢٧- تشبيه الإمام بالسوق الذي يحمل إليه ما ينفق فيها وما يروج:

عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ[ت:٧١-٨٠هـ](٤).

---

(١) ابن عبد ربه أحمد بن محمد بن عبد ربه المرواني (ت: ٣٢٨هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج١٥/ ص٢٨٣.

(٢) العقد الفريد ج٢/ ص١٩٢.

(٣) العقد الفريد ج٣/ ص١٦٧.

(٤) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ بْنِ وَأَبُو خُبَيْبٍ الْقُرَشِيُّ الأَسَدِيُّ. [ت: ٧١ - ٨٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٢/ ص٨٢٩.



بِمَوْعِظَةٍ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ لِأَهْلِ التَّقْوَى عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، وَيَعْرِفُونَهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ مِنْ صَبْرٍ عَلَى الْبَلَاءِ، وَرِضًى بِالْقَضَاءِ، وَشُكْرِ النَّعْمَاءِ، وَذُلٍّ لِحُكْمِ الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ كَالسُّوقِ، مَا نَفَقَ فِيهَا حُمِلَ إِلَيْهَا، إِنْ نَفَقَ الْحَقُّ عِنْدَهُ حُمِلَ إِلَيْهِ، وَجَاءَهُ أَهْلُ الْحَقِّ، وَإِنْ نَفَقَ الْبَاطِلُ عِنْدَهُ جَاءَهُ أَهْلُ الْبَاطِلِ، وَنَفَقَ عِنْدَهُ»[1].

وأورد هناد - رحمه الله - في كتاب الزهد: عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ [ت:١٢١ - ١٣٠هـ][2]. قَالَ: كَتَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ حِينَ بُويِعَ: «سَلَامٌ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ لِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ وَأَهْلِ الْخَيْرِ عَلَامَةً يُعْرَفُونَ بِهَا، وَتُعْرَفُ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّمَا مَثَلُ الْإِمَامِ مَثَلُ السُّوقِ؛ يَأْتِيهِ مَا زَكَّى فِيهِ، فَإِنْ كَانَ بَرًّا جَاءَهُ أَهْلُ الْبِرِّ بِبِرِّهِمْ، وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا جَاءَهُ أَهْلُ الْفُجُورِ بِفُجُورِهِمْ»[3].

شبه الإمام بالسوق الذي يحمل إليها ما ينفق فيها وما يروج، فإذا راج الباطل جاءه أهله، وإذا راج الحق جاءه أهله، والتشبيه تمثيلي: ووجه الشبه: أن كلًّا منهما يقع عليه ما يُشاكله، والصورة رسمت في المخيلة سوقين وأهلين، يَشِع من أحدهما الصدق، والوضوح، والشفافية، وتُظلم الآخرة بالكذب، والغش، والتدليس، والغبن، وينبثق من أحدهما دعة، وطمأنينة على النفس والمال، ويخرج من الأخرى خوف، وتوجس من مكر وخداع.

---

(١) حلية الأولياء / ج١/ ص٣٣٦.

(٢) وَهْبُ بْنُ كَيْسَانَ، أَبُو نُعَيْمٍ الْمَدَنِيُّ الْمُؤَدِّبُ، [ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٥٥٥.

(٣) الزهد لهناد / ص٢٩٩.

٢٨- صور بيانية في أصناف الرجال:

وقال الحسن[ت:١١٠هـ][(١)].: الرجال ثلاثة: فَرَجُل كالغِذَاء، لاَ يُسْتَغنى عَنه، وَرَجُل كالدَّوَاء، لا يُحتاج إليه إلا حِينًا بَعْد حِين، ورجل كالدّاء، لا يُحتاج إليه أبدًا[(٢)].

أحسن الحسن – رحمه الله – التقسيم، فجمع واستقصى، وذكر وجه الشبه لكل صنف في كلمات قليلة:

- فرجل كالغذاء – وجه الشبه- لا يستغنى عنه.

- ورجل كالدواء – وجه الشبه- لا يحتاج إليه إلا حينًا بعد حين.

- ورجل كالدّاء – وجه الشبه- لا يحتاج إليه أبدا.

أرانا الحسن – رحمه الله – الناسَ بصورٍ أخرى، فإذا التبست علينا الشخوص، وظننا أن كلهم رجال: تذكرنا تقسيم البصري ومقولتَه التي ألبست الناس ثلاثة أثواب، لا رابع لها: رجل في صورة غذاء، ورجل في صورة دواء، ورجل في صورة داء.

٢٩- تشبيه الإخوان بأنفس الذخائر:

قال إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْجُنَيْدِ [ت: ٢٦١ - ٢٧٠هـ][(٣)].: قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْإِخْوَانُ مِنْ أَنْفَسِ الذَّخَائِرِ، فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَأَنَّى لِاكْتِسَابِهِمْ، وَيَصِيدَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، كَمَا تُصَادُ الطَّيْرُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ[(٤)].

---

(١) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٢) العقد الفريد ج٢/ ص١٥١.

(٣) إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الله بْن الْجُنَيْد، أبو إسحاق الختلي، [ت: ٢٦١ - ٢٧٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج ٦/ ص٢٨٧.

(٤) المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها / ص١٧٠.

شبه الإخوان بالذخيرة، ثم فضّلهم على سائر الذخائر بقوله: «**أنفس**»، والمشبه به محذوف دل عليه قوله: «أنفس الذخائر»، وتقدير الكلام: الإخوان ذخيرة من أنفس الذخائر. والغرض: بيان فضل الإخوان وعلو منزلتهم. وقوله: «**فَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَأَنَّى لِاكْتِسَابِهِمْ**»: تفريع على التشبيه؛ حيث إن صفة الاكتساب من المعاني المتعلقة بالذخائر دون الإخوان. وقوله: «**وَيَصِيدَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ**»: استعار تمثيلية، أراد أن ينال العاقل صداقة أصدقائهم بصداقتهم، وأن يتخذهم وسيلة لصداقة أشباههم.

وقوله: «**كَمَا تُصَادُ الطَّيْرُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ**»: شَبَّهَ من يتخذ الصديق وسيلة لصداقة غيره بمن يتخذ الطير وسيلة لاصطياد غيره، والتشبيه تمثيلي، وذِكْرُ الصيد والطير لم يبعد عن صورة الذخائر التي بدأ بها النص، فكلا الأمرين ينتشي المرء لهما، ويُسر بالظفر بهما، وهما من الأشياء المحببة للقلب، ويكثر الساعون لهما، والماضون في طلبهما، والصيد كان حديث البيئة يومئذ، وهذا مثال آخر يوضح كيفية الاصطياد.

٣٠- تشبيه احتيال إبليس للعبد - باحتيال الصياد للغربان:

قال المحاسبي: "وإنما تُؤْتَى من الصَّاحب الذي هو شَكلك، ومِثلك، وأَنِيسك، فيَستريح قَلْبُك إليه، ويَغفل معه، حَتَى تَعْصِي الله عز وجل، وأنتَ غَافِل لا تَذْكر الله عز وجل، أو تَذْكره ولا تُبَالي؛ لِغَلَبة الهوى فيه وفي محادثته، وهو من مَكَائد إبْلِيس وحَبَائله، يُخيلُك به حَتَى يُوقعك في حَبَائله؛ لأنه شكلك وأنيسك ومثلك، وهو أَرْفَق من الصَّياد الرفِيق. ألا تَرى الصَّياد يَحْتَال للغِربَان، فيَصْنَع شِبَاكًا؛ ليصيدها به من العَصَافير، ولا يَحتال للعصافير بالغِربان، فإنَّما يحتال، فينصب لكل طير من صِنفه وشَكله؛ لأن الشكل بالشكل يُألف، فَعليه يَقَع، وبه يُصطاد، ألم تَسْمَع إلى كتاب أبي الدَّرداء ﷺ إلى سلمان ﷺ: «أما بعد، فإن يَكن البدن من البدن بعيدًا: فإن

الرَّوح من الروح قَرِيب، وطَير السماء على شكله من الأرض يقع»[١].

قوله: «**ألا ترى الصياد يحتال للغربان، فيصنع شباكًا؛ ليصيدها به من العصافير ...**»: شَبَّهَ احتيال إبليس للعبد بصاحب يأنس العبد له، ويستريح إليه، ويغفل قلبه معه - باحتيال الصياد للغربان بالعصافير، والتشبيه تمثيلي، ساقه المحاسبي - رحمه الله -؛ ليبرهن على أن الصديق السيء الذي يأنس العبد له ما هو إلا فخ، ومنه يأتي العطب، وأن هذا الأنس خلفه مخاطر، ومهالك، والمغرم فيما يظنه العبد مغنمًا. والغرض: تبصير السامع بما يحاك له، ويدبر من قِبل الشيطان. وقد كان المحاسبي - رحمه الله - يُكْثِر من التشبيه التمثيلي، ويشبع تشبيهه بجمل عدة، وينظر إلى المشبه والمشبه به من عدة زوايا، ثم يذكر ما وجد من جوامع وفروق.

ومن البين أنه انتزع صورته من كتاب أبي الدرداء لسلمان ﷺ: «**أما بعد، فإن يكن البدن من البدن بعيدًا: فإن الروح من الروح قريب، وطير السماء على شكله من الأرض يقع**».

٣١- تشبيه المؤمنين في الناس بالنحلة في الطير:

رَبِيعَةَ بْنِ ناجِدٍ قَالَ: خَطَبَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ [ت:٤٠][٢]. أَوْ قَالَ: خَطَبَ عَلِيٌّ أَصْحَابَهُ، فقَالَ: «كُونُوا فِي النَّاسِ كَالنَّحْلَةِ فِي الطير؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا يَسْتَضْعِفُهَا، وَلَوْ يَعْلَمُ مَا فِي أَجْوَافِهَا لَمْ يَفْعَلْ، خَالِقُوا النَّاسَ بِأَخْلَاقِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ، وَزَايِلُوهُمْ بِأَعْمَالِكُمْ وَقُلُوبِكُمْ؛ فَإِنَّ لِامْرِئٍ مَا اكْتَسَبَ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[٣].

(١) الرعاية لحقوق الله / ص٣١٤.

(٢) علي بن أبي طالب ﷺ [ت:٤٠] الوفيات لابن قنفذ / ص٢٨.

(٣) مداراة الناس لابن أبي الدنيا / ص٤٠/ ت: محمد خير رمضان يوسف/ ن: دار ابن حزم - بيروت / ط:١.

قوله: «**كُونُوا فِي النَّاسِ كَالنَّحْلَةِ فِي الطَّيرِ**»: أراد علي بن أبي طالب ﷺ من الناس أن يتشبهوا بالنحلة، ثم ساق بعد أمره جملتين، كلُّ جملة منهما وجهُ شبه.

وقوله: «**فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا يَسْتَضْعِفُهَا**»: أراد منهم أن يلينوا مع الناس، ويظهروا ضعفهم كما تفعل النحلة.

وقوله: «**وَلَوْ يَعْلَمُ مَا فِي أَجْوَافِهَا لَمْ يَفْعَل**»: أراد منهم ألا يسعوا لإظهار ما عندهم من علم أو تقوى؛ فإنما يكفيهم أن يجعلوا ذلك في أجوافهم كما تفعل النحلة، وألا يسعوا في طلب مدح. ووجه الشبه: اللين وخفض الجناح وعدم الظهور، ونفي حب التطلع.

٣٢- تشبيه من تبقى من الصالحين بالسنبلة أثر الحصاد:

قال إِسْحَاقُ بْنُ إِسْرَائِيلَ: حدثنا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ الصَّنْعَانِيُّ، عَنْ مُنْذِرٍ الْأَفْطَسِ، عَنْ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ دَانِيَالُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «يَالَهْفَتَا عَلَى زَمَانٍ يُلْتَمَسُ فِيهِ الصَّالِحُونَ، فَلَا يُوجَدُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَالسُّنْبُلَةِ أَثَرَ الْحَصَادِ، أَوْ كَالْخَصْلَةِ فِي أَثَرِ الْقَاطِفِ، يُوشِكُ نَوَائِحُ أُولَئِكَ وَبَوَاكِيهِمْ أَنْ تَبْكِيَهُمْ»(١).

قوله: «**إِلَّا كَالسُّنْبُلَةِ أَثَرَ الْحَصَادِ، أَوْ كَالْخَصْلَةِ فِي أَثَرِ الْقَاطِفِ**»: شَبَّهَ من تبقَّى من الصالحين بالسنبلة أثر الحصاد وبالخصلة(٢). في أثر القاطف، والسنبلة والخصلة بيئتهم واحدة، وهي الزرع.

---

(١) حلية الأولياء / ج٤/ ص٣٣. وأورد أحمد في كتاب الزهد / ص٨٥: قَالَ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ مَعْقِلِ بْنِ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَحِيرٍ الْقَاصُّ قَالَ: قَالَ وَهْبٌ يَعْنِي ابْنَ مُنَبِّهٍ:» قَالَ بَعْضُ أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَصْبَحْتُ مِثْلَ الْخُصْلَةِ فِي أَثَرِ الْقَاطِفِ، وَمِثْلَ السُّنْبُلَةِ فِي أَثَرِ الصَّارِمِ؛ فَكَمْ عَسَى أَنْ أَتَّقِيَ».

(٢) والخَصْلَة والخُصْلَة: العُنْقود. لسان العرب / ج١١/ ص٢٠٨.

قوله: «**كَالسُّنْبُلَةِ أَثَرِ الْحَصَادِ**»: أظهر أنه ذهب الكثير، وبقي شيء قليل، يكد ويتعب المرء في التماس هذا القليل وتحصيله، كما يكد المرء في التماس سنبلة بعد الحصاد.

وقوله: «**كَالسُّنْبُلَةِ أَثَرِ الْحَصَادِ، أَوْ كَالْخَصْلَةِ فِي أَثَرِ الْقَاطِفِ**»: أظهرت الصورة البيانية فيه الحسرةَ، والتأسف الذي في نفس المتكلم، وعكست ما في نفسه من إحساس بالجدب، والقحط؛ لقلة الصالحين. وعن هذه القلة تحدث النبي ﷺ، فقال: «**وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**»(١). وقوله: «**يُوشِكُ نَوَائِحُ أُولَئِكَ وَبَوَاكِيهِمْ أَنْ تَبْكِيَهُمْ**»: كناية عن بلوغهم منتهى العمر وقرب آجالهم.

٣٣- تشبيه حال (القائل) حين يأتيه نعي رجل من أهل السنة:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الْبَاهِلِيُّ: سَمِعْتُ ابْنَ عُيَيْنَةَ، يَقُولُ: قَالَ أَيُّوبُ[ت: ١٣١ - ١٤٠هـ](٢).: «إِنَّهُ لَيَبْلُغُنِي مَوْتُ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، فَكَأَنَّمَا يَسْقُطُ عُضْوٌ مِنْ أَعْضَائِي»(٣).

شبه حاله حين يأتيه نعي رجل من أهل السنة بحال من يسقط له عضو من أعضائه، ووجه الشبه: شدة الألم، وحرقة الوجدان، ولهيب الصدر، وضياع السند، والتشبيه تمثيلي. والصورة توضح حجم المصيبة، ومقدار النقص الذي

---

(١) صحيح مسلم / ت:محمد فؤاد عبد الباقي / ن: دار إحياء التراث العربي - بيروت / ج٤/ ص٢١٩٧.

(٢) أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي تَمِيمَةَ كَيْسَانَ الْبَصْرِيُّ، [ت: ١٣١ - ١٤٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٦١٨.

(٣) حلية الأولياء/ ج٣/ ص٣.

يلحق المؤمن إذا مات له رجل من أهل السنة على دربه، وعلى شاكلته شريك له في الأمر مَثيلُه في الحرد به يُشد الأزر. ومثل هذه الصورة البيانية الصادقة لا تخرج إلا من صادق بصير بما يجيش في وجدانه، واصف لما يتملك عقله وكيانه، مؤمن بما قال نبيه ﷺ: **«ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»**(١).

٣٤- استعارة اللقاح للنماء، وإعمال الاستعارة في نماء العقول:

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ(ت:١٠١هـ)(٢). لَيْلَةً: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا بَقَاؤُكَ عَلَى مَا أَرَى؟، أَمَّا فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ فَأَنْتَ عَلَى حَاجَاتِ النَّاسِ، وَأَمَّا وَسَطَ اللَّيْلِ مَعَ جُلَسَائِكَ، وَأَمَّا آخِرُ اللَّيْلَةِ فَاللهُ أَعْلَمُ إِلَى مَا تَصِيرُ، قَالَ: فَضَرَبَ عَلَى كَتِفِي، وَقَالَ: «وَيْحَكَ يَا مَيْمُونُ، إِنِّي وَجَدْتُ لِقَاءَ الرِّجَالِ يُلَقِّحُ الْعُقُولَ»(٣).

قوله: «**لِقَاءَ الرِّجَالِ يُلَقِّحُ الْعُقُولَ**»: استعار اللقاح(٤). للنماء، ثم اشتق من اللقاح يلقح بمعنى ينمي على سبيل الاستعارة التبعية التي صوَّرَت ما يجري في العقول من زيادة لا تدرك إلا بالعقل في صورة محسة مشاهدة عند أهل هذا الزمان،

---

(١) الجامع الصحيح المختصر للبخاري/ ج٥/ ص٢٢٣٨/ د. مصطفى ديب البغا، ن: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت/ ط:٣.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي ﷺ (ت:١٠١هـ) الوافي بالوفيات للصفدي ج٢٢/ ص٣١٢.

(٣) شعب الإيمان / أبو بكر البيهقي / ج١٠/ ص٤٠ / ت:عبد العلي عبد الحميد/ ن: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند/ ط: ١.

(٤) قح: اللَّقاحُ: اسم ماءِ الفَحْل. واللَّقاحُ: ما تُلْقَحُ به النَّخلة من النَّخلة الفُحّالة. معجم العين / ج٣/ ص٤٧.

وأصحاب هذه البيئة، وهي التلقيح، فالعقول هنا فارقت جماجمها، وتلاقحت تلاقح النخل والأزهار، وهكذا نرى في مثل هذه الصور «اختفاء صفات وأحوال وخواص، وكأن الأشياء تخلق بها خلقًا جديدًا، وتصير كوائن أخرى، وهكذا تتداخل الأشياء، ويمتص بعضها مزايا بعض، وتنهدم حدود الماهيات، وترى شيئًا ثالثًا، هو نتاج امتزاج الشيئين اللذين نسميهما طرفين»[1].

٣٥- تشبيه الحب في الله بيت لا ينفك من قرار:

أورد أبو بكر المروذي[ت: ٢٧١ - ٢٨٠هـ][2].: **سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنَ يَزِيدَ الْخُزَاعِيَّ يَقُولُ: الْحُبُّ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي اللَّهِ يَزُولُ، وَإِلا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَ إِلَى صَخْرَةٍ، فَاحْتَفَرَ فِيهَا بَيْتًا، فَأَمِنَ أَعْلاهُ مِنَ الْوَكَفِ، وَأَسْفَلَهُ مِنَ السَّيْلِ، فَكُلَّمَا لا يَنْفَكُّ الْبَيْتُ مِنْ قَرَارِهِ كَذَلِكَ لا يَزُولُ الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِيُخْلِفَ وَعْدَهُ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}** [آل عمران: ٣١].

وَأَنْشَدَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاسَانِيُّ، رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّاشِ (البحر الطويل):

وَكُلُّ صَدِيقٍ لَيْسَ فِي اللَّهِ وُدُّهُ ... فَإِنِّي فِي وُدِّهِ غَيْرُ وَاثِقِ[3].

ففي قوله: «**وَإِلا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ جَاءَ إِلَى صَخْرَةٍ فَاحْتَفَرَ فِيهَا بَيْتًا، فَأَمِنَ أَعْلاهُ مِنَ الْوَكَفِ**[4]. **وَأَسْفَلَهُ مِنَ السَّيْلِ**»: شَبَّهَ الحب في الله ببيت أرضه صلبة أصله ثابت آمن من المطر والسيل، والتشبيه مركب، ووجه الشبه: عدم الزوال في كلٍّ.

---

(١) الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم / لأبي موسى ص١٣١/ ط:٤ .

(٢) أَحْمَد بْن محمد بْن الحجاج. أبو بَكْر المَرُّوذيّ الفقيه. [ت: ٢٧١ - ٢٨٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج ٦/ ص٤٩٤.

(٣) أخبار الشيوخ وأخلاقهم للمَرُّوذِيُّ) ص١٩٧.

(٤) ووَكَفَتِ الدلْوُ وَكْفًا ووَكِيفًا: قَطَرَتْ، وَقِيلَ: الوَكْف الْمَصْدَرُ لسان العرب / ج٩/ ص٣٦٢.

وأردف حديثه بالآية الكريمة؛ تقوية لكلامه، ولبيان أن الضامن لهذا البيت «الحب» هو الله، إذا حقق العبد الشرط - وهو اتباع النبي ﷺ - تحقَّق جواب الشرط: «يحببكم». ثم ذكر أبو بكر المروذي - رحمه الله - بعد ذلك بيت الشعر؛ تأكيدًا لنفس المعنى الأول الذى ذكره، وبيان أن الود إن لم يكن في الله فهو زائل، لا قرار له، ولا ثقة فيه.

٣٦- تشبيه حال من يشكو همومه لأخيه:

روى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سُلَيْمَانَ[ت:١٤١-١٥٠هـ][1]. قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَشْكُو إِلَى أَخِيهِ كَمَثَلِ الَّذِي يَغْسِلُ إِحْدَى يَدَيْهِ بِالْأُخْرَى»[2].

شبه حال من يشكو همومه لأخيه بحال من يغسل يده بالأخرى، ووجه الشبه: إصلاح الذات بما له صلة بالذات، والتشبيه مركب، والشكوى إلى الأخ تُنفِث عن الصدر، وتزيل ما يشغله، كما يزيل الغسل الدرن، والأخ لأخيه يربطهما رباط واحد، وهو الدين والاجتماع في الدين، كاليدين يربطهما رباط واحد، ألا وهو الجسد.

٣٧- تشبيه أمر مداراة الناس بأمر الصلاة المفروضة:

عَنْ زَيْدِ بْنِ رُفَيْعٍ[ت:١٣١-١٤٠هـ][3]. رَفَعَهُ قَالَ: «أُمِرْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أُمِرْتُ بِالصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ»[4].

(١) سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ الْأَعْمَشُ، [ت: ١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٨٨٣.

(٢) الزهد لابن المبارك / ص ٣٠٣.

(٣) زَيْدُ بْنُ رُفَيْعٍ الْجَزَرِيُّ. [ت: ١٣١ - ١٤٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشار/ ج٣/ ص٦٥٩.

(٤) مداراة الناس لابن أبي الدنيا / ص٢٥.

قوله: «أُمِرْتُ بِمُدَارَاةِ النَّاسِ كَمَا أُمِرْتُ بِالصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ»: قال ابن بطال: المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والمداهنة هي أن يلقى الفاسق المظهر لفسقه، فيؤالفه، ويؤاكله، ويشاربه، ويرى أفعاله المنكرة، ويُريه الرضا بها، ولا ينكرها عليه ولو بقلبه، وهو أضعف الإيمان، فهذه المداهنة التى برأ اللهُ - عز وجل - منها نبيه - عليه السلام - بقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[القلم:٩]. والمداراة هى الرفق بالجاهل الذي يستتر بالمعاصي، ولا يجاهر بالكبائر، والمعاطفة فى رد أهل الباطل إلى مراد الله بلين ولطف حتى يرجعوا عما هم عليه[١].

شبه أمر مداراة الناس بأمر الصلاة المفروضة، ووجه الشبه: الفرضية في كُلٍّ. وجعل مداراة الناس ركنًا وأصلًا، والتشبيهُ لم يدَع مجالًا لأحد أن يعتقد أنها من المستحبات أو الأمور المندوبة، وجاء التشبيهُ؛ للتسوية بينها وبين الصلاة المفروضة.

٣٨- تصوير الإفضال على أهل الإيمان بمطعوم لذيذ:

قَالَ سُفْيَانُ: قِيلَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ[ت: ١٢١ - ١٣٠هـ][٢]. مَا بَقِيَ مِمَّا يُسْتَلَذُّ؟، قَالَ:

«**الْإِفْضَالُ عَلَى الْإِخْوَانِ**»[٣]. سُئل ابن المنكدر - رحمه الله - مَا بَقِيَ مِمَّا يُسْتَلَذُّ؟، فأجاب: الْإِفْضَالُ عَلَى الْإِخْوَانِ، وتقدير الكلام: يستلذ بالْإِفْضَالُ عَلَى

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٩/ ٣٠٦) ت:أبو تميم ياسر بن إبراهيم/ ن: مكتبة الرشد - السعودية/ ط:٢.

(٢) مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْهُدَيْرِ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ الْمَدَنِيُّ / تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص٥٢١.

(٣) إخوان لابن أبي الدنيا/ ص٢١٣.



الْإِخْوَانِ. جاء في لسان العرب: واللَّذّة واللَّذَاذَةُ واللَّذِيذُ واللَّذْوَى: كُلُّهُ الأَكلُ وَالشُّرْبُ بِنَعْمَةٍ وَكِفَايَةٍ[1]. صوَّر ابن المنكدر الإفضال على الإخوان بشيء من المطعومات أو المشروبات التي يتلذذ بها، وأجاب بها على السؤال المطروح، والاستعارة مكنية لازمها: «يستلذ».

والسائلُ في سؤاله لم يرد غير شيء من المعنويات والأمور العقلية؛ لأنه بعيد عن هؤلاء الأفاضل أن يسألوا عن شيء من المطعومات أو غيرها؛ لترفعهم عن ذلك، والحديثُ في مثل ذلك فضول عندهم وغفلة. وبين حروف السائلِ يأس أحجبَ عنه ما يُستلذ به، وأخفى عنه ما يستلذ به، فسأل: ما بقي مِمَّا يُسْتَلَذُّ به؟، نعم، سؤالُه سؤالُ مَن يعتقد أنه ذهب الكثير مِمَّا يُستلَذُّ به، فيسأل عن المتبقِّي، وسؤاله ينُم لنا عن شدة زمانه.

* * *

الخلاصة:

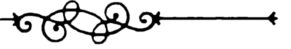
تحدَّث أهل الرقائق عن صنفين من الأصحاب: **الصنف الأول**: صحبة الصدق والحق: صوَّر أهل الرقائق صحبةَ الصدق مفاتيح لخزائن الخير، ومفاتيح لذكر الله، وشبهوهم بزينة المساجد، وبأنفس الذخائر، وبالنحلة في عِظم نفعها، وبالغذاء الذي لا يستغنى عنه، وصوَّرُوا صدورهم بأنها قبورٌ للأسرار، وشبه أهل الرقائق حال من يشكو إلى صاحب الصدق - بحال من يغسل إحدى يديه بالأخرى.

أما عن الصنف الآخر صحبةِ السوء: فصوَّرُوهُم مفاتيحَ لخزائن الشر،

(١) لسان العرب / ج٣/ ص٥٠٦.

وصخرةً لا يُرجى منها ماء، وبشجرة لا يخضر ورقها، وأرض قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، وشبهوا المجادلين منهم بالجرب، وبخشب مطلىّ بالذهب أو الفضة، وصوَّروهم رجاجًا، وبشجرة مرة لا تتغير مرارتها، وبالداء الذي لا يُحتاج إليه أبدًا، وبجذوة النار، وشبهوا حال القائم بين صحبة السوء بحال من يطأ على الجمر.

كذلك أورد أهل الرقائق عدة صور بيانية توضح للمرء من يختار، وتحمِل المرء على التريث قبل الاختيار، منها: تشبيه الصاحب بالرقعة في القميص، وعلى العاقل أن يختار ما يرقع به قميصه. ومنها: أن «مصاحبة من ينسى معروفه عندك»: كناية عن الصاحب الذي لا يَمُنُّ. كما أوردوا عدة صور تُبيِّن كيف يساير العبد الناس، ويصاحبهم، منها: أن يسايرهم بحذر، فيأخذ نفعهم، ويترك شرهم كما تصاحب النار، وأن يسايرهم بالمداراة، فالمداراة فرض كالصلاة، وأن يسايرهم بالحب في الله، فهو بيت لا ينفك من قرار.



المبحث الخامس:
التصوير البياني في مقام حسن الخلق

المحتوى:

١- تشبيه حال المؤمنين في توادِّهِم - بحال انقياد الجمل الذلول لصاحبه.

٢- وتصوير حسن الخلق في صورة ما له رائحة طيبة.

٣- وتشبيه الناس بالقوارير المغلقة التي يُعرف ما فيها عند الاختبار.

٤- وتصوير المكارم في صورة طعام كريهِ مر.

٥- وتصوير الحلم في صورة سيف يقرع الخصوم.

٦- وتشبيه الحليم بالمطية.

٧- واستعارة الأمطار للبذل.

٨- واستعارة الجمر للغيظ.

٩- وتشبيه اللئيم بالأرض السبخة، والمؤمن بالأرض الخصبة.

١٠- وتصوير أخلاق الآباء والأبناء.

١١- وتشبيه ضرب الأبناء بالسماد.

١٢- وكناية عن خفض الصوت.



١- تشبيه حال المؤمنين في توادِّهِم - بحال انقياد الجمل الذلول لصاحبه:

عَنْ مَكْحُولٍ[ت:١١١-١٢٠هـ](١). قَالَ: «الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ، مِثْلُ الْجَمَلِ الْأَنِفِ، إِنْ قُدْتَهُ انْقَادَ، وَإِنْ أَنَخْتَهُ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ»(٢).

قوله: «**مِثْلُ الْجَمَلِ الْأَنِفِ**»: الجمل الأنف الذي يجعل الزمام في أنفه، ويجر به، شَبَّهَ حال المؤمنين في توادهم وتراحمهم ولين جانبهم - بحال انقياد الجمل الذلول لصاحبه، والتشبيه تمثيلي، والمؤمنُ لا يتغيَّرُ معدنُه كالذهب، ويتكبَّد المخاطر فى سبيل الحق وأهله، والذلُّ هنا ذلُّ التواضُعِ الذي يقتضيه الدين لا ذل الهوان، قال - تعالى -: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤).

٢- تصويرُ حُسْنِ الخُلُقِ في صورة ما له رائحةٌ طيبةٌ:

قال المحاسبي: (ت:٢٤٣هـ)(٣). «مَا وجَد أحْدٌ من صَاحبه رَائِحَة أطيب من رَائِحَة حسن الخلق»(٤).

صوَّر حُسْنَ الخَلُق في صورة زهر، أو عطر له رائحة طيبة، وحذف المستعار منه، وأبقى لازمًا من لوازمه: «**رائحة**» على سبيل الاستعارة المكنية، والجامع: أن كلًّا منهما يُنْعِش النفس، ويَنشرح لهما الصدرُ، ويطمئنُّ لهما الوجدانُ، ويفرحُ

---

(١) مكحول بن أبِي مُسْلِم، أبُو عَبْد اللَّه [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٣٢٠.

(٢) حلية الأولياء/ ج٥/ ص١٨٠. الزهد لأحمد/ ص ٣١٣.

(٣) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

(٤) أداب النفوس للمحاسبي / ص١٨٢.

بهما الفؤاد، وتنبسطُ لهما الأسارير، ويزدادُ العبد بهما أُنْسًا.

وهذه الصورةُ الرائعةٌ مقتبسةٌ من كلام خاتم المرسلين ﷺ الذي قال فيه: **«إنّما مثل الجليس الصَّالح والجليس السُّوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد ريحًا خبيثةً»**[1].

وهذه صورة أخرى منبثقة أيضًا من الحديث الشريف:

٣- تشبيه الناس بالقوارير المغلقة التي يُعرف ما فيها عند الاختبار:

قال المحاسبي:(ت:٢٤٣هـ).[2].: **«إن الأشياء تعرف بالدلالات، والعلامات، والأمثال، وسأضربُ لَكَ فِي ذَلِك مَثَلًا يكونُ عِلْمًا لَمَّا سَأَلت عَنهُ، إن مثل النَّاس فِي جُمْلَتهمْ، وَفِي تفرقهم بعد الْمعرفَة بهم، والخبرة لَهُم وتفاوتهم، وتفاضلهم مِثْلُ سفط مَوْضُوع فِي طَرِيق فِيهِ قَوَارِير مَمْلُوءَة موكاة الرُّءُوس يَمَرُّ بِهِ النَّاس لَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ، فَعَرَض لَهُ من النَّاس عَارض من الْمَارَّة، فَقَالَ: لأكشفن عَن هَذَا السفط فلأنظرنَّ مَا فِيهِ، فكشَف عَنهُ، فرأى قَوَارِير مَمْلُوءَة لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، فَحل أوكيتهن كُلهنَّ، فَبَدَا لَهُ من هَذِه رَائِحَة الْمسك، وَمن هَذِه رَائِحَة العنبر، وَمن هَذِه رَائِحَة البان، وَمن هَذِه رَائِحَة الخلوف، وَمن هَذِه رَائِحَة الغالية، وَمن هَذِه رَائِحَة الياسمين، وَمن هَذِه رَائِحَة الْوَرْد، وَسَائِر الطّيب والأدهان، وَمن هَذِه رَائِحَة الكبريت، وَمن هَذِه رَائِحَة النفط، وَمن هَذِه رَائِحَة القطران، وَمَا لَا طَاقَة لَهُ بِالْقيامِ عِنْدهَا من شدَّة نَتن رِيحهَا. فَالنَّاس فِي جُمْلَتهمْ مثل السفط والقوارير، وهم**

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٢٨).

(٢) المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد البغدادي / سيرأعلام النبلاء/ ج١٢/ ص١١٠/ ط: الرسالة.

فِي معرفتهم والبحث عَن أخلاقهم متفرقون على قدر الْقَوَارِير، وَمثل السفط أيضًا فِي جملَته مثلك أنت وَحدك، والقوارير أخلاقك وآدابك، وريحُها الطّيب خير أخلاقك وآدابك الْحَسَنَة المرغوب فِيهَا، والرائحة المنتنة شَرّ أخلاقك وآدابك السَّيئَة القبيحة، وَلَا تعرف النَّفس حَتَّى تمتحن وتختبر، فاختبر نَفسك؛ حَتَّى تعلم مَا فِيهَا، وإن أردت ذَلِك، فعاملها بالموافقة لَهَا والمفاتشة لهمتها فِي وَقت الهمة، وَأحد اليها النّظر حَتَّى تعرف حلمك فِي الْوَقْت الَّذِي عرض لَك فِيهِ سَفِيه، فسفه عَلَيْك، لَيْسَ فِي الْوَقْت الَّذِي وَافق هَوَاك»[1].

في قوله: «إن مثل النَّاس فِي جُمْلَتهمْ، وَفِي تفرقهم بعد الْمعرفَة بهم، والخبرة لَهُم وتفاوتهم، وتفاضلهم مثل سفط مَوْضُوع ...»: شَبَّهَ الناس بالقوارير المغلقة التي يُعْرَف ما فيها عند الاختبار، فمنها الطيب (وقد ذكر المحاسبي سبعة أصناف من الروائح الطيبة)، ومنها الخبيثة (وذكر المحاسبي منها ثلاثةَ أصنافٍ)، فأظهر أصناف الناس بمختلف مشاربهم في صورة قوارير، والتشبيهُ تمثيليٌّ.

قوله: «وَمثل السفط أيضًا فِي جملَته مثلك أنت وَحدك، والقوارير أخلاقك وآدابك، وريحها الطّيب خير أخلاقك وآدابك الْحَسَنَة المرغوب فِيهَا ...»: لَمَّا كان الإنسان حامِلًا ومهيأً للخير والشر، كما قال - تعالى -: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس:٧-٩]. شَبَّهَ الإنسان بالسفط[2]. الذي يحوي قوارير مملوءة بالطيب وقوارير مملوءة بغير ذلك، والصورةُ البيانيةُ جعلت الأخلاقَ حسنها، وسيئها جِرْمًا يُعبأ، وخلف المعنى كلمات تهمس في

---

(١) أداب النفوس للمحاسبي ص١٢٨.

(٢) السَّفَطُ، مُحَرَّكَةً: الَّذي يُعَبَّى فِيهِ الطِّيبُ وَمَا أَشْبَهَه من أَدَواتِ النِّساءِ. وَفِي المُحْكَم: كالجُوَالِقِ، وَفِي غَيره: أَو كالقُفَّةِ، وَهُوَ عَرَبِيٌّ معروفٌ. تاج العروس / ج١٩/ ص٣٥٠.



أذن المستمع ألا تحرك قوارير السوء، ولا تفتح، فتؤذيك، وتؤذي غيرك.

والمراد إعانة السامع على معرفة نفسه، ورؤية أخلاقه، وتجلية الأمر أمامه؛ لذلك قال: «**فاختبر نَفسك؛ حَتَّى تعلم مَا فِيهَا، وإِن أردت ذَلِك فعامِلْها بالموافقة لَهَا والمفاتشة لهمتها فِي وَقت الهمة، وَأحد إليها النّظر؛ حَتَّى تعرف حلمك فِي الْوَقْت الَّذِي عرَض لَك فِيهِ سَفِيه، فسفه عَلَيْك لَيْسَ فِي الْوَقْت الَّذِي وَافق هَوَاك**».

٤- تصويرُ المكارمِ في صُورَةِ طعامٍ كريهٍ مُرٍّ:

أورد ابن أبي الدنيا[ت:٢٨٢هـ][1].: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْمَدِينِيُّ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ: «يَا بُنَيَّ، إِنَّ الْمَكَارِمَ لَوْ كَانَتْ سَهْلَةً يَسِيرَةً لَسَابَقَكُمْ إِلَيْهَا اللِّئَامُ، وَلَكِنَّهَا كَرِيهَةٌ مُرَّةٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَهَا، وَرَجَا ثَوَابَهَا»[2].

قوله: «**وَلَكِنَّهَا كَرِيهَةٌ مُرَّةٌ**»: صوَّر المكارم في صورة طعام له مذاق مُرٌّ، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: «مرة»، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، والجامع: أن كلًّا منهما يُسْتدعى له الصبر، فلا يقبل على المكارم إلا مَن يرجو ثوابها وشرفها، ولا يقبل على المُرِّ إلا مَن أراد الشفاء والبُرء. وأما أبواب الشهوات فهي يسيرة سهلة؛ لذلك يتكاثر عليها اللئام.

ولعل منزع هذه الصورة ما رواه أنس ﷺ عن النبي ﷺ: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[3].

---

(١) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد[ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨.
(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا / ص٣٠.
(٣) الجامع الكبير - سنن الترمذي / ٢٥٥٩/ وعلق عليه المحقق بقوله: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

٥- تصوير الحلم في صورة سيف يقرع الخصوم:

قَالَ مُعَاوِيَةُ[ت:٦٠هـ][١].: «**يَا بَنِي أُمَيَّةَ، قَارِعُوا قُرَيْشًا بِالْحِلْمِ، فَوَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّجُلَ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ يُوسِعُنِي شَتْمًا، وَأُوسِعُهُ حِلْمًا، فَأَرْجِعُ، وَهُوَ لِي صَدِيقٌ أَسْتَنْجِدُهُ، فَيُنْجِدُنِي وَأُثِيرُهُ، فَيَثُورُ مَعِي وَمَا دَفَعَ الْحِلْمُ عَنْ شَرِيفٍ شَرَفَهُ، وَلَا زَادَهُ إِلَّا كَرَمًا**»[٢].

قوله: «**قَارِعُوا قُرَيْشًا بِالْحِلْمِ**»[٣]. لَمَّا كانت النفوسُ تميل إلى الثأر مِمَّن ظلمها، والدفع والانتصار، وترى في الحلم التنازل، وترك الحق والجبن؛ أراد معاوية - رحمه الله - أن يظهر الحلم في صورته الحقيقية، ويدفع ما في عقول الناس، فلجأ إلى الصورة البيانية التي اختصرت كثيرًا من الألفاظ، والحجج، وأظهرت الحِلْم في صورة سيف يُحْدِث ما تحدثه السيوف من خضوع الخصم، ومنع شره، واجتلاب خيره وسلبه.

والسياقُ يدور رَحَاه على بيان الحلم؛ حيث صوَّره في صورة سيف، وحذف المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: «**قارعوا**» على سبيل الاستعارة المكنية.

قوله: «**وَأُوسِعُهُ حِلْمًا، فَأَرْجِعُ، وَهُوَ لِي صَدِيقٌ أَسْتَنْجِدُهُ، فَيُنْجِدُنِي، وَأُثِيرُهُ، فَيَثُورُ مَعِي**»: هذا شيء آخَرُ لا تفعله السيوف، إنما يفعله الحلم، يجلب مودة القوم، وتتسخر لصاحبه أركانهم، ويمتلك جنانهم.

---

(١) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي [ت:٦٠هـ] سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص١٦٢.

(٢) الحلم لابن أبي الدنيا / ص٣٧.

(٣) والقِراعُ والمُقارَعةُ: المُضاربةُ بالسيوف، وقيل: مُضَارَبَةُ الْقَوْمِ فِي الْحَرْبِ، وَقَدْ تَقارَعُوا. لسان العرب ج٨/ ص٢٦٤.

٦- تشبيه الحليم بالمطية:

قال أبو عبيد: ومن قولهم: الحليم مطيّة الجهول[١].

شبه الحليم بالمطية للجهول تشبيهًا بليغًا، ووجهُ الشبه: عدم المجازاة على الإساءة، والتجاوز وغضُّ الطرف عن قول كلِّ ذي جهل، وهذا الغضُّ يحمل الجهول على المضي في جهله وسفهه، فيتحمل الحليم منه السفه بعد السفه. وقيل: الحليم مطية الجهول؛ لاحتمال جهله وتركه الانتصاف منه[٢]. وقيل: أي: الحليم يتوطّأ للجاهل، فيركبه بما يريد، فلا يُجازيه عليه كالمطيَّة[٣]. وفي العدول عن: «الجاهل» إلى: «الجهول»، وهو صيغة مبالغة فيه، حسن رعاية لفضل الحليم وقوة احتماله، فهو ما دام يحتمل كثير الجهل: فإن احتماله لقليله من المسلَّمات التي لا تقبل جدلا[٤].

٧- استعارة الإمطار للبذل:

وأنشد عبد الله بن جعفر ﷺ قول الشاعر [مِن الكامل][٥]:

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً … حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَصْنَعِ
فَإِذَا اصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِدْ بِهَا … لِلَّهِ أَوْ لِـذَوِي الْـقَـرَابَـةِ أَوْ دَعِ

---

(١) العقد الفريد / ج٣/ ص٤٠.

(٢) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري/ ج١/ ص١٣٣/ ن:دار الجيل بيروت / ط:١.

(٣) الأمثال للهاشمي ص٨٨.

(٤) من قضايا البلاغة والنقد للمطعني / ص٧٩/ ن: مكتبة وهبة / ط:١.

(٥) لم أصل إلى الشاعر، وقد ذكر المبرد في كتابه الكامل البيت ولم يذكر قائله/ ج١/ ص١١٥.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ[ت:٧١-٨٠هـ][١]. هَذَانِ الْبَيْتَانِ يُبَخِّلَانِ النَّاسَ، وَلَكِنْ أَمْطِرِ الْمَعْرُوفَ مَطَرًا، فَإِنْ أَصَابَ الْكِرَامَ كَانُوا لَهُ أَهْلًا، وَإِنْ أَصَابَ اللِّئَامَ كُنْتَ له أهلا[٢].

البيتان يأمران بإنزال المعروف على أهله دون غيرهم، وينهى عن اصطناع المعروف لغير ذوي القربة. وفي قوله: «**وَلَكِنْ أَمْطِرِ الْمَعْرُوفَ مَطَرًا**»: استعار الإمطار للبذل، ثم اشتق من الإمطار (أمطر) بمعنى ابذل على سبيل الاستعارة التبعية، والمراد الحض على كثرة البذل؛ حيث إن الإمطار فيه من التَّوَسُّع، والكثرةُ ما لا يكونُ في البذل، وللمعروف أثَرٌ في النفس شبيه بأثر المطر، وكلاهما تحبه النفس، وتبش له. وقوله: «**فَإِنْ أَصَابَ الْكِرَامَ**»: ملائم للمستعار، فهي منَ باب الترشيح، وأسند الإصابة إلى المعروف؛ تأكيدًا للصورة.

٨- استعارة الجمر للغيظ:

عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ هِلَالٍ[ت:١١١-١٢٠هـ][٣]. قَالَ: «أَدْرَكْتُ النَّاسَ يَعُدُّونَ الْمُدَارَاةَ صَدَقَةً تَخْرُجُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانَ يُقَالُ: إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ مَا تَكْرَهُ فَالْقَهُ بِمَا يُحِبُّ؛ فَإِنَّكَ تَقْضِمُهُ جَمْرَتَهُ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ»[٤].

وقوله: «**تَقْضِمُهُ جَمْرَتَهُ**»: أراد ترد غيظه، وتدفع غضبه، فاستعار الجمر للغيظ استعارة تصريحية أصلية. وقوله: «**تقضمه**»: ترشيحٌ للاستعارة. والصورة

---

(١) عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، [ت: ٧١ - ٨٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٢/ ص٨٢٥.

(٢) اصطناع المعروف لابن أبي الدنيا / ص٥٢.

(٣) حُمَيْدُ بْنُ هِلالٍ الْعَدَوِيُّ؛ [ت: ١١١ - ١٢٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٢٢٨.

(٤) مداراة الناس لابن أبي الدنيا / ص٤٨.

البيانية ليست ثمة ألفاظ استعملت في غير ما وضعت له، إنما تعالج أمرًا نفسيًا، وتبرز حقائقَ غائبةً؛ حيث إن النفس الإنسانية تَمِيلُ إلى ردِّ السيئة بالسيئة، وتشفى بالانتقام، وكثيرٌ مِن النفوس لا تقوى على الإحسان لمَن أساء إليها؛ ربما لشعورها بالمظلومية، أو خوفًا من إلحاق الجبن والخنا بها، فالأمر صعب لا يستطيعه كثير من الناس، والصورةُ البيانيةُ هنا كشفت الستار، وأثبتت أن ردَّ السيئة بالحسنة فيه ما تريده النفس من الانتصار والمعاقبة، فما هو إلا إقضام جمر، وأفصحُ مِن هذا وأبينُ حديثُ النبيِّ ﷺ: الذي رواهُ أبو هريرة ﷺ: **أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ، وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ، وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ[1]. وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»[2].**

٩- تشبيه اللئيم بالأرض السبخة، والمؤمن بالأرض الخصبة:

أورد ابنُ أبي الدنيا[ت:٢٨٢هـ][3]. عن حَفْص بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ غَلَّابٍ النَّمِرِيِّ عَنْ خَالِدِ بْنِ... قَالَ: **كَانَ يُقَالُ: لَا تَصْنَعَنْ مَعْرُوفًا إِلَى ثَلَاثَةٍ: إِلَى الْأَحْمَقِ وَالْفَاحِشِ وَاللَّئِيمِ، فَأَمَّا الْأَحْمَقُ: فَلَا يَعْرِفُ الْمَعْرُوفَ، فَيَشْكُرُهُ عَلَى قَدْرِ فِعْلِهِ. وَأَمَّا الْفَاحِشُ**

---

(١) كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الْحَارَّ وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَلَمِ بِمَا يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمَادَ الْحَارَّ مِنَ الْأَلَمِ وَلَا شئ عَلَى هَذَا الْمُحْسِنِ بَلْ يَنَالُهُمُ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ فِي قَطِيعَتِهِ وَإِدْخَالِهِمُ الْأَذَى عَلَيْهِ وَقِيلَ مَعْنَاهُ إِنَّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لِكَثْرَةِ إِحْسَانِكَ وَقَبِيحِ فِعْلِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْحَقَارَةِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَمَنْ يُسَفُّ الْمَلَّ وَقِيلَ ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحْسَانِكَ كَالْمَلِّ يُحَرِّقُ أَحْشَاءَهُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج/ للنووي/ ٢٥٥٨/ ن: دار إحياء التراث العربي - بيروت/ ط:١.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٢).

(٣) ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد بن عبيد[ت:٢٨٢ هـ] فوات الوفيات / ج٢/ ص٢٢٨.



فَلَا ... يَقُولُ: إِنَّمَا صَنَعْتَ إِلَيَّ لِاتِّقَائِي ... وَأَمَّا اللَّئِيمُ فَكَالْأَرْضِ السَّبِخَةِ «لَا يُنْبِتُ، وَلَا يُثْمِرُ، وَلَكِنْ إِذَا أَصَبْتَ الْمُؤْمِنَ فَازْرَعْهُ مَعْرُوفَكَ تَحْصُدْ بِهِ شكرًا»[١].

شبه اللئيم بالأرض السبخة[٢]. ووجه الشبه: انتفاء الانتفاع. وقوله: «وَلَكِنْ إِذَا أَصَبْتَ الْمُؤْمِنَ فَازْرَعْهُ مَعْرُوفَكَ تَحْصُدْ بِهِ شكرًا»: فيه أن كلمة: «أصبت» مملوءةٌ بالظفر، وفيها شعور بالمغنم الذي يتناسب مع السياق. فالمؤمن أرض خصبة على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «فازرعه معروفك»، والجامعُ بين المؤمن والأرض الخصبة: أن كلًّا منهما مرجو النفع، ويَحصُل منهما الخير، والمعروفُ هنا نباتٌ لا يليق به إلا الأرض الطيبة، والشكر ثمرته ونتاجه الذي يُحَصِّلُه الزارعُ. وزرعُ المعروف وإسداؤه إلى المؤمنين، وانبعاث الشكر منهما: كلها من المعاني اللطيفة التي هي مِن خبايا العقل تجسَّمت أمامنا في صورة مألوفة مستجدة. وقوله: «تَحْصُدْ بِهِ شكرًا»: ترشيح للاستعارة، وهو ثمرة تنتجها الأرض المؤمنة التي تعرف لصاحب المعروف معروفه، فتجازي الإحسان بالإحسان.

١٠- تصوير أخلاق الآباء والأبناء:

قال الْحُسَيْنُ بْنُ الْحَسَنِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ السَّهْمِيُّ، حَدَّثَنِي صَاحِبٌ لَنَا يُكْنَى أَبَا وَاثِلَةَ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ دَخَلَتْهُ مَوْجِدَةٌ عَلَى ابْنِهِ يَزِيدَ، فَأَرِقَ لِذَلِكَ لَيْلَتَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ بَعَثَ إِلَى الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ[ت:٧١ -٨٠هـ][٣]. فَأَتَاهُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ

---

(١) اصطناع المعروف لابن أبي الدنيا/ ص٥١.

(٢) والسَّبَخَةُ: الأرض الْمَالِحَةُ. والسَّبَخُ: الْمَكَانُ يَسْبَخُ فَيُنْبِتُ المِلْحَ وتَسُوخُ فِيهِ الأَقدام والسَّبَخَةُ: أرض ذَاتُ مِلْحٍ ونَزٍّ/ لسان العرب ج٣/ ص٢٤.

(٣) الأحنف بن قيس بن مُعَاوِيَةَ بنِ حُصَيْنٍ، أَبُو بَحْرٍ التَّمِيمِيُّ [ت: ٧١ - ٨٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج ٢/ ص٧٧٩.

لَهُ: يَا أَبَا بَحْرٍ، كَيْفَ رِضَاكَ عَلَى وَلَدِكَ؟، وَمَا تَقُولُ فِي الْوَلَدِ؟، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا سَأَلَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذِهِ إِلَّا لِمَوْجِدَةٍ دَخَلَتْهُ عَلَى يَزِيدَ، فَحَضَرَنِي كَلَامٌ لَوْ كُنْتُ زَوَّقْتُ فِيهِ سَنَةً لَكُنْتُ قَدْ أَجَدْتُ، فَقُلْتُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ ثِمَارُ قُلُوبِنَا، وَعِمَادُ ظُهُورِنَا، وَنَحْنُ لَهُمْ أَرْضٌ ذَلِيلَةٌ، وَسَمَاءٌ ظَلِيلَةٌ، وَبِهِمْ نَصُولُ إِلَى كُلِّ جَلِيلَةٍ، فَإِنْ غَضِبُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَرْضِهِمْ، وَإِنْ طَلَبُوكَ فَأَعْطِهِمْ، يُمْحِضُوكَ وُدَّهُمْ، وَيَلْطُفُونَ جُهْدَهُمْ، وَلَا تَكُنْ عَلَيْهِمْ ثِقَلًا، لَا تُعْطِيهِمْ إِلَّا نَزْرًا، فَيَمَلُّوا حَيَاتَكَ، وَيَكْرَهُوا قُرْبَكَ»، قَالَ: لِلَّهِ دَرُّكَ، يَا أَحْنَفُ، وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ مَوْجِدَةً عَلَى يَزِيدَ، فَلَقَدْ سَلَلْتَ سَخِيمَةَ قَلْبِي[(١)].

ففي قوله: «**ثِمَارُ قُلُوبِنَا**»: شَبَّهَ الأولاد بالثمار، ووجه الشبه: أن كلًّا منهما تحبه النفوس، وله بهجة في العيون، وزاد التشبيهَ حسنًا إضافةُ: «**قلوب**» إلى: «**ثمار**»؛ حيث إن القلب أمير الجسد، وأعلى مكانه، ومقر الحب.

وفي قوله: «**وَعِمَادُ ظُهُورِنَا**»: شبَّهَهُم بالعماد، والعِمادُ والعَمُود: الْخَشَبَةُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْبَيْتُ. وأَعمَدَ الشيءَ: جَعَلَ تَحْتَهُ عَمَدًا[(٢)]. ووجه الشبه: إسداء الدعم. وقوله: «**وَنَحْنُ لَهُمْ أَرْضٌ ذَلِيلَةٌ**»: تشبيه بليغ، ووجه الشبه: الليونة واليسر. وقوله: «**وَسَمَاءٌ ظَلِيلَةٌ**»: أيضًا تشبيه بليغ، ووجه الشبه: الإحاطة والحماية والحفظ. وصورة الأرض تتضافر مع صورة السماء، وتكتمل بهما الصورة الكلية التي تجمع كل مقومات الحياة.

وفي قوله: «**وَبِهِمْ نَصُولُ إِلَى كُلِّ جَلِيلَةٍ**»: استعار الخيول للأبناء، وحذف

---

(١) العيال لابن أبي الدنيا / ج١/ ص٣٠٨/ د نجم عبد الرحمن خلف/ ن: دار ابن القيم – السعودية – الدمام/ ط:١.

(٢) لسان العرب/ ج٣/ ص٣٠٣.

المستعار منه، وأشار إليه بلازم من لوازمه: «نصول» على سبيل الاستعارة المكنية، أي: نسطو، ونثب، ونقهر، والاستعارةُ تأكيدٌ لقوله: «**عماد ظهورنا**».

١١- تشبيه ضرب الأبناء بالسماد:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ(ت:١٠٨هـ)[١]. قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ضَرْبُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ كَالسَّمَادِ لِلزَّرْعِ[٢].

شبه ضرب الأبناء؛ من أجل الاصلاح بالسماد، ووجه الشبه: النفع والتقوية. والضرب يفعل في نفوس الأبناء فِعْلَ السماد في الزرع، والصورةُ أظهرت أهمية المشبه ومدى نفعه.

١٢- كناية عن خفض الصوت:

عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ، عَنْ حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ[ت: ١٠١ - ١١٠هـ][٣]. قَالَتْ: «كَانَ مُحَمَّدٌ إِذَا دَخَلَ عَلَى أُمِّهِ لَمْ يُكَلِّمْهَا بِلِسَانِهِ كُلِّهِ؛ تَحَشُّمًا لَهَا»[٤].

وقوله: «**لَمْ يُكَلِّمْهَا بِلِسَانِهِ كُلِّهِ؛ تَحَشُّمًا لَهَا**»: كنايةٌ عن خفض الصوت، وإن كان المراد قلة الكلام، وأنه لا يكلمها بكل كلامه، إنما يختصر ويُوجز، فـ: «لسان» مجاز مرسل علاقته الآلية.

***

(١) بكر بْن عَبْد اللَّهِ المزني، وهو ابن عَمْرو بْن هلال (ت:١٠٨هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ ط: الرسالة / ج٤/ ص٢١٨.

(٢) العيال لابن أبي الدنيا / ص٥١٠.

(٣) حَفْصَةُ بِنْتُ سِيرِينَ أُمُّ الْهُذَيْلِ الْبَصْرِيَّةُ. [ت: ١٠١ - ١١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص٣٧ .

(٤) الزهد لأحمد/ ص ٢٤٨.

الخلاصة:

صوَّر أهل الرقائق المؤمن في لينه وخلقه وتواضعه مع المؤمنين - بالجمل الأنف الذلول لصاحبه، وبالمطية للجهول، وذلك في عدم المجازاة واحتمال الجاهلين وترك جهلهم، وصوَّرُوا المؤمن بالأرض الخصبة، واللئيم بالأرض السبخة، وهذه صور مأخوذة من بيئة العرب.

ومن جانب آخر صوَّر أهل الرقائق الحِلْم سيفًا يقرع الخصوم، ويلجمهم، ويحقق ما يحققه السيف من إسكات الخصم. وصوَّرُوا المكارم طعامًا كريهًا مُرًّا، وهذه صورة مقتبسة من مشكاة النبوة. وجاء عنهم تشبيهُ الآباء بالأرض الذليلة، والسماء الظليلة، والتشبيه أحاط بالأبناء عنايةً من فوقهم وتحتهم. أما عن عنصر الأرض وما يتصل بها: فقد تكرر في المبحث عدة مرات، عند وصف اللئيم بالأرض السبخة، والمؤمن بالأرض الخصبة، وعند وصف الآباء بالأرض الذليلة، ووصف ضرب الأبناء بالسماد الذي يصلح الأرض، وعند وصف الأبناء بالثمار الذي تحبه النفس، وتتمتع به العيون.



المبحث السادس:
التصوير البياني في مقام النصيحة

المحتوى:

١- تشبيه حال من يُلقي العلم على الحمقى.

٢- وتشبيه حال من يُحدِّث ما لا يعقل.

٣- وتشبيه حالة العاجز عن النصح لكثرة المنكر.

٤- وتشبيه حال من يسمع الكلام فيقبل جيده، ويرد باطله.

٥- وتشبيه خروج الحكمة مِمَّن ليس لها بأهل.

٦- وتشبيه موقع النصح والعمل من بعضهما البعض.

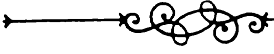
٧- وصورة في الاصطبار على النصح.

٨- وصورة بيانية في من تجب عليه النصيحة.

٩- وتشبيه من لا يقبل النصح بإبل لا تنزجر.

١٠- وتشبيه المسلم بالمرآة لأخيه.

١١- واستعارة الإهداء للإخبار بالعيوب.



١- تشبيه حال من يُلقي العلم على الحمقى:

قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ[ت: ١٤١ - ١٥٠هـ](١). يَقُولُ: «انْظُرُوا أَنْ لَا تَنْثُرُوا هَذِهِ الدَّنَانِيرَ عَلَى الْكِبَاشِ» - يَعْنِي الْحَدِيثَ - وَقَالَ حُمَيْدٌ: وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ الْأَعْمَشَ يَقُولُ: «لَا تَنْثُرُوا اللُّؤْلُؤَ تَحْتَ أَظْلَافِ الْخَنَازِيرِ»(٢).

مثَّل حال من يُلقي العلم على الحمقى بحال من ينثر الدنانير على الكباش (استعارة تمثيلية)، وقد برز العلم فيها في صورة دنانير، والجهال في صورة كباش.

وقوله: «**لَا تَنْثُرُوا اللُّؤْلُؤَ تَحْتَ أَظْلَافِ الْخَنَازِيرِ**»: أيضًا استعارة تمثيلية، ولكن تفارق الاستعارة السابقة في وصف الحمقى بالخنازير، (فالتوبيخ أشد)، وكذلك تفارقها في وصف العلم باللؤلؤ (واللؤلؤ أغلى ثمنًا، وأندر من الدنانير، وكذلك تفارقها وتزيد عليها بكلمة: (تحت أظلاف) التي أفادت مدى إهانة العلم حين إلقائه على أموات القلوب. والصورة فيها تعريضٌ بمن يُلقي العلم على الحمقى، ففعله مَشِين، يرفضه العقلاءُ.

٢- تشبيه حال من يُحدِّث ما لا يعقل :

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: «لَمَّا بَلَغَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مَطْلَعَ الشَّمْسِ قَالَ لَهُ مَلَكُهَا: يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ صِفْ لِي النَّاسَ. قَالَ: إِنَّ مُحَادَثَتَكَ مَنْ لَا يُعْقَلُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَضَعُ الْمَوَائِدَ لِأَهْلِ الْقُبُورِ، وَمُحَادَثَتُكَ مَنْ لَا يَعْقِلُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَبُلُّ الصَّخْرَةَ حَتَّى تَبْتَلَّ، أَوْ يَطْبُخُ

(١) سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ الْأَعْمَشُ، الإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الأَسَدِيُّ [ت: ١٤١ - ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي / ج٣/ ص٨٨٣.

(٢) حلية الأولياء/ ج٥/ ص٥٢.

الْحَدِيدَ يَلْتَمِسُ أَدَمَهُ نَقْلُ الْحِجَارَةِ مِنْ رُءُوسِ الْجِبَالِ أَيْسَرُ مِنْ مُحَادَثَتِكَ مَنْ لَا يَعْقِلُ»[1].

المشبه واحد، وهو من لا يعقل، والمشبه به متعدد. وفي قوله: «**إِنَّ مُحَادَثَتَكَ مَنْ لَا يُعْقَلُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَضَعُ الْمَوَائِدَ لِأَهْلِ الْقُبُورِ**»: شَبَّهَ حال من يحدث ما لا يعقل - بحال من يضع الموائد لأهل القبور، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: عدم حصول النفع؛ لخللٍ في المستقبِل، أو المُتلقِّي.

وقوله: «**وَمُحَادَثَتُكَ مَنْ لَا يَعْقِلُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَبُلُّ الصَّخْرَةَ حَتَّى تَبْتَلَّ أَوْ يَطْبُخُ الْحَدِيدَ يَلْتَمِسُ أَدَمَهُ**»: تشبيه مركب أيضًا، والتشبيهات الثلاثة: (**وضع الموائد للأموات، وبل الصخور، وطبخ الحديد**): تتكاتف وتنتج صعوبة وثقلًا، وشعورًا بالعجز يحيط بالنفس، فتقطع رجاءها من حصول النفع ممن لا يعقل.

٣- تشبيه حالة العاجز عن النصح لكثرة المنكر:

قِيلَ لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ[ت:١٦١هـ][2]: **لِمَ لا تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟، قَالَ: إِذَا انْبَثَقَ الْبَحْرُ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُسَكِّرَهُ**[3].

مَثَّل حالة العاجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لكثرة المنكر، وفساد الأخلاق - بحال العاجز عن تسكير البحر، والاستعارة تمثيلية، جاء بها؛ لتبرئة ساحته، وتبرير موقفه، ورفع الحرج والملامة عن نفسه، فكانت الصورة البيانية حُجَّةٌ على صحة فعله، وبيانِ ضعفه أمام الموج المتلاطم.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي/ ٤٣٦٩.
(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.
(٣) أخبار الشيوخ وأخلاقهم / ص٥١.

٤- تشبيه حال من يسمع الكلام، فيقبل جيده، ويرد باطله:

قَالَ الْفُضَيْلَ(١٠٥ - ١٨٧هـ)[(١)]: «اجْعَلُوا دِينكُمْ بِمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الْجَوْزِ، إِنَّ أَحَدَكُمْ يَشْتَرِي الْجَوْزَ، فَيُحَرِّكُهُ، فَمَا كَانَ مِنْ جَيِّدٍ جَعَلَهُ فِي كُمِّهِ، وَمَا كَانَ مِنْ رَدِيءٍ رَدَّهُ، وَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ مَنْ تَكَلَّمَ بِحِكْمَةٍ قُبِلَ مِنْهُ، وَمَنْ تَكَلَّمَ بِسِوَى ذَلِكَ فَدَعْهُ»[(٢)].

ففي قوله: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يَشْتَرِي الْجَوْزَ، فَيُحَرِّكُهُ، فَمَا كَانَ مِنْ جَيِّدٍ جَعَلَهُ فِي كُمِّهِ، وَمَا كَانَ مِنْ رَدِيءٍ رَدَّهُ، وَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ»: شَبَّهَ حال من يسمع الكلام، فيقبل جيده، ويرد باطله، وقبيحه - بحال من يشتري الجوز، فيأخذ جيده، ويرد رديئه، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: التمييز بين الأشياء، ثم الانتقاء، أو الرد، والغرض العامُّ: التدبر عند كل قول وقبول الحكمة، ورد غيرها.

٥- تشبيه خروج الحكمة ممن ليس لها بأهل:

عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(ت:٦٨هـ)[(٣)]. قَالَ: «خُذِ الْحِكْمَةَ مِمَّنْ سَمِعْتَهَا؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ، وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، فَتَكُونُ كَالرَّمْيَةِ خَرَجَتْ مِنْ غَيْرِ رَامٍ»[(٤)].

ففي قوله: «كَالرَّمْيَةِ خَرَجَتْ مِنْ غَيْرِ رَامٍ»: شَبَّهَ خروج الحكمة مِمَّن ليس لها بأهل برمية خرجت من غير رامٍ، والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: خروج الشيء الصائب من غير أهله بغير قصدٍ. ورُبَّ رمية بغير رام: مَثَلٌ يُضرب عندما يتفق

---

(١) الفضيل بن عياض (١٠٥ - ١٨٧هـ) الأعلام للزركلي/ ج٥/ ص١٥٣.

(٢) حلية الأولياء / ج٨/ ص٩٩.

(٣) عبد الله بن عباس البحر أبو العباس الهاشمي(ت:٦٨هـ) سيرأعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٣/ ص٣٥٩.

(٤) مساوئ الأخلاق ومذمومها للخرائطي ص١٧٩.

الشيء لمن ليس من شأنه أن يصدر منه. وقد يُحذف رُبَّ، فيقال: رمية من غير رامٍ[١]. وقيل: لا يمنعنّك ضعة القائل عن الاستماع إليه، فرُبَّ فم كريه مجَّ علمًا ذكيًا وتبرًا صافيًا في صخر جاس. وسمع الكنديّ كلمة من مخنّث، فكتبها، فلاموه على ذلك، فقال: ربّ لسان خنث نتج لفظًا فحلًا، والجوهرة النفيسة لا يشينها سخافة غائصها، ولا دناءة بائعها[٢].

٦- تشبيه موقع النصح والعمل من بعضهما البعض:

قَالَ غَوْثُ بْنُ مَعْقِلٍ،: سَمِعْتُ عَمِّيَ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ (ت:١١٣هـ)[٣]. يَقُولُ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: فَاجْتَهِدْ فِي نُصْحِكَ وَعِلْمِكَ لِلَّهِ؛ فَإِنَّ الْعَمَلَ لَا يُقْبَلُ مِمَّنْ لَيْسَ بِنَاصِحٍ، وَإِنَّ النُّصْحَ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللهِ، كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ الطَّيِّبَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، كَذَلِكَ مَثَلُ طَاعَةِ اللهِ، النُّصْحُ رِيحُهَا، وَالْعَمَلُ طَعْمُهَا، ثُمَّ زَيِّنْ طَاعَةَ اللهِ بِالْعِلْمِ، وَالْحِلْمِ، وَالْفِقْهِ»[٤].

ففي قوله: «**كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ الطَّيِّبَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، كَذَلِكَ مَثَلُ طَاعَةِ اللهِ، النُّصْحُ رِيحُهَا، وَالْعَمَلُ طَعْمُهَا**»: شَبَّهَ موقع النصح والعمل من بعضهما البعض - بموقع الطعم والرائحة من الثمرة، والتشبيه تمثيلي، والمراد بيان أهمية النصح والعمل، وأن كلًّا منهما يُكْمِل صاحبه، فثمرة من غير طعم لا حاجة إليها، وثمرة من غير رائحة ليس لها مزيد فضل.

---

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم / ج٣/ ص٣٨.

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء/ للراغب الأصفهاني/ ج١/ ص٧١/ ن: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت/ ط:١.

(٣) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣ هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.

(٤) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٣٦.

٧- صورة في الاصطبار على النصح:

قال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الصَّنْعَانِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ(ت:١١٣هـ)[١]. يَقُولُ: «لَقِيَ رَجُلٌ رَاهِبًا ... فَقَالَ الرَّجُلُ لِلرَّاهِبِ: فَأَوْصِنِي؛ فَإِنِّي أَرَاكَ حَكِيمًا. قَالَ: ... وَانْصَحْ لِلَّهِ نُصْحَ الْكَلْبِ لِأَهْلِهِ، يُجِيعُونَهُ، وَيَطْرُدُونَهُ، وَيَضْرِبُونَهُ، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يَنْصَحَ لَهُمْ. قَالَ: فَكَانَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ إِذَا ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ: وَاسَوْأَتَاهُ إِذَا كَانَ الْكَلْبُ أَنْصَحَ لِأَهْلِهِ مِنْكَ لِلَّهِ»[٢].

وفي قوله: «وَانْصَحْ لِلَّهِ نُصْحَ الْكَلْبِ لِأَهْلِهِ، يُجِيعُونَهُ وَيَطْرُدُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ»: تشبيه بليغ، ووجه الشبه: المصابرة والدوام وعدم التغيير. والصورة مطالبة هنا بمزيد تواضع وصبر على الإيذاء، وعدم التغير على المسيئين، والتشبيه بالكلب غالبًا ما يأتي في موضع الذم، دون الالتفات إلى هذه الصفة، كما يأتي التشبيه بالأسد في موطن المدح، دون الالتفات إلى صفة البخر، وإنما جاء بها هنا؛ من أجل أن يمتهن الإنسان نفسه في جنب الناس، ولا يمنعه كبره وعزته عن خفض الجناح، والكلب يفوق كثيرًا من البشر مِمَّن يملون النصح، أو يتركونه أبدًا، وقد ألَّف أبو بكر المحولي كتابًا سماه تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، فيه كثير من الفوائد. وصفة النصح بارزة جدًا في الكلب بلغ فيها مبلغًا جعل ابن منبه يقول (مخاطِبًا نفسه): «وَاسَوْأَتَاهُ إِذَا كَانَ الْكَلْبُ أَنْصَحَ لِأَهْلِهِ مِنْكَ لِلَّهِ».

٨- صورة بيانية في من تجب عليه النصيحة:

قَالَ ابْنُ مُحَيْرِيزٍ[ت:٩١-١٠٠هـ][٣].: مَنْ جَلَسَ عَلَى الْوَسَائِدِ وَجَبَتْ عَلَيْهِ

(١) وهب بن منبه بن كامل(ت:١١٣ هـ) سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٥٧.
(٢) حلية الأولياء/ ج٤/ ص٢٧.
(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَيْرِيزِ بْنِ جُنَادَةَ بْنِ وَهْبٍ الْقُرَشِيُّ أَبُو مُحَيْرِيزٍ، [ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج ٢/ ص١١٢٧.

النَّصِيحَةُ[١]. وقوله: «مَنْ جَلَسَ عَلَى الْوَسَائِدِ وَجَبَتْ عَلَيْهِ النَّصِيحَةُ»: كناية عن الترأس وتولي السيادة، والكناية هنا أوجزت وعمَّت كل من يجلس على الوسائد من أمراء، وولاة، وقضاة، ورءوس قبائل، وغيرهم.

٩- تشبيه من لا يقبل النصح بإبل لا تنزجر:

قَالَ سُفْيَانُ[ت:١٦١هـ][٢].: حَتَّى مَتَى تُسَاقُونَ كَمَا تُسَاقُ الإِبِلُ؟!، قَدْ أَتْعَبْتُمُ الْوَاعِظِينَ، كَأَنَّكُمْ إِبِلٌ لا تَنْزَجِرُ، عِظْهُمْ، وَذَكِّرْهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ[٣].

وقوله: «حَتَّى مَتَى تُسَاقُونَ كَمَا تُسَاقُ الإِبِلُ»: كناية عن غلظ طباعهم، وقسوة قلوبهم وقلة فهمهم. وفي قوله: «كَأَنَّكُمْ إِبِلٌ لا تَنْزَجِرُ»: شَبَّهَ سفيان – رحمه الله – المنصوحين في زمانه بالإبل التي لا تنزجر، ووجه الشبه: في النفور وعدم التذلل، والتشبيه منزعه البيئة التي يعيشها قائله.

١٠- تشبيه المسلم بالمرآة لأخيه:

حَدَّثَ الْمُبَارَكُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ بِلَالِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: «بَلَغَنِي أَنَّ الْمُسْلِمَ مِرْآةُ أَخِيهِ، فَهَلْ تَسْتَرِيبُ مِنْ أَمْرِي شَيْئًا»[٤].

شبه المسلم بالمرآة، ووجه الشبه: الإظهار في كل، وهذا سبيل من سبل إصلاح النفس لا تستطيعه هي؛ لأن العجب قد أغشى بصرها، فلا ترى لها عيبًا.

---

(١) أخبار الشيوخ وأخلاقهم لأبي بكر المَرُّوْذِيُّ ص٤٢/ ٤٣.

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٣) أخبار الشيوخ وأخلاقهم لأبي بكر المروذي / ص١٨٣.

(٤) الزهد لأحمد / ص ٣١٢.

١١- استعارة الإهداء للإخبار بالعيوب:

قال عمر بن الخطاب ﷺ: أحبّ الناس إليّ من أهدى إليّ عيوبي[١]. يحض الفاروق ﷺ الناس على إخباره بعيوبه، والكثير من الناس لا يستطيع أن يُقْدِم على ذلك الأمر مع أمير المؤمنين، فأراد تهوين الإقدام على ذلك الأمر من خلال صورة بيانية تُبيِّن أن الإخبار إهداء، فلا ثمة حرج في الإخبار، والأمرُ محبوبٌ إلى أمير المؤمنين كمحبة الإهداء، فاستعار الإهداء للإخبار على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والغرض بيان أهمية الإخبار بالعيوب، فهي من الهداية التي لا ينبغي لعاقل أن يردها، والإخبار يترتب عليه تصحيح المسار في الدنيا والآخرة، ويترتب عليه السعادة الأبدية، فلِمَ لا يكون الإخبار إهداء؟، والتجوز هنا في كلمة: «أهدى»، أما العيوب فلا تجوُّز فيها؛ لعدم وجود الداعي إلى ذلك.

* * *

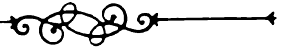
الخلاصة:

إن الذي اعتنى به أهل الرقائق في مقام النصيحة: هو بيان من تجب له، ومن لا تجب له، ومتى تترك؟، ووجوب قبولها، واستعانوا على بيان ذلك بصور بيانية: فتكون النصيحة واجبة على كل من جلس على الوسائد (كناية عن الترأس وتولي السيادة). ولا يجب أن تنثر بين أشباه الكباش والخنزير؛ لعدم نفعها إياهم، كما شَبَّهُوا من لا يقبل النصح بالإبل التي لا تنزجر، كذلك صوَّرُوا ناصحَ هؤلاء بمَن يضع الموائد لأهل القبور، وبمن يبل الصخور، وبمن يطبخ الحديد، وينتظر إِدْمه. والصورُ هنا - وإن اختلفت - تدل على شيء واحد، هو عدم انتفاع الجاهل

---

(١) عيون الأخبار / ج٢/ ص١٧.

بالنصيحة. أما عن قبولها فقد صوَّرُوا النصح والإرشاد بالإهداء، ولا ينبغي أن ترد الهدية، وعلى المنصوح قبول النصيحة مِمَّن جاء بها، كما يقبل ضالته مِمَّن جاء بها أيًّا كان هو. أما عن ترك النصح فقد أشاروا إلى أنه يترك عند كثرة المنكر والعجز عن التغيير، واستدلوا على ذلك بصورة بيانية، وهي عدم تسكير البحر؛ لغياب القدرة.



المبحث السابع:
التصوير البياني في مقام الثبات

المحتوى:

١- تشبيه الدين برأس المال.

٢- وتشبيه الدين باللحم والدم.

٣- وكناية عن لزوم الصف الأول في الصلاة.

٤- وتشبيه ذهاب الدين وضياع سننه بذهاب الحبل قوة قوة.

٥- وتشبيه الإيمان بالسربال.

٧- و«رعاء الشمس والقمر» كناية عن الذاكرين.

٨- وتصوير الفتنة كيرًا والمؤمن ذهبة حمراء.

٩- وتشبيه المؤمن الثابت باللؤلؤة التي لا ينفك عنها حسنها.

١٠- وتشبيه الذاكر في الغافلين بالمقاتل عن المدبرين.

١١- وتشبيه ابتلاء الله للعبد لإصلاحه بإعطاء المرأة ابنها الحضض؛ ابتغاء عافيته.

١٢- وتصوير الواقع في الفتنة بغارق في البحر.

١٣- وتصوير الحق والباطل.

١٤- واستعارة الحائط للوقاية.



١- تشبيه الدين برأس المال:

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُمَيْطٍ: سَمِعْتُ أَبِي [ت: ١٤١ – ١٥٠هـ][١]. يَقُولُ: رَأْسُ مَالِ الْمُؤْمِنِ دِينُهُ، حَيْثُمَا زَالَ زَالَ مَعَهُ، لَا يُخَلِّفُهُ فِي الرِّحَالِ، وَلَا يَأْمَنُ عَلَيْهِ الرِّجَالَ»[٢].

ففي قوله: «**رَأْسُ مَالِ الْمُؤْمِنِ دِينُهُ**»: شَبَّهَ الدين برأس المال، ووجه الشبه: هو كونهما صمام أمان للإنسان، إذا ذهب أحدهما أفلس صاحبه، فذهاب المال إفلاس مادي، وذهاب الدين إفلاس روحي.

وقوله: «**حَيْثُمَا زَالَ زَالَ مَعَهُ، لَا يُخَلِّفُهُ فِي الرِّحَالِ، وَلَا يَأْمَنُ عَلَيْهِ الرِّجَالَ**»: ترشيح للتشبيه، ومنه يظهر وجه الشبه، ودين العبد أهم من رأس ماله، والاحتياط له أولى من الاحتياط للمال، ولكن الناس يمجدون المال، فجاءت الصورة البيانية حاضَّةً على الاعتناء بالدين، مُبيِّنةً أنه هو رأس المال، داعيةً إلى التمسك به وعدم التهاون فيه، والمداهنة عليه.

٢- تشبيه الدين باللحم والدم:

حَدَّثَ الْقَاسِمُ بْنُ فَائِدٍ، عَنِ الْحَسَنِ [ت:١١٠هـ][٣]. قَالَ: «ابْنَ آدَمَ، دِينَكَ دِينَكَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ، فَإِنْ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ يَسْلَمْ لَكَ جِسْمُكَ وَدَمُكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى – فَنَعُوذُ بِاللَّهِ – فَإِنَّهَا نَارٌ، وَلَا تُطْفَأُ، وَجَسَدٌ لَا يَبْلَى، وَنَفْسٌ لَا تَمُوتُ»[٤].

---

(١) شُمَيْطُ بْنُ عَجْلانَ الْبَصْرِيُّ الْعَابِدِ [ت: ١٤١ – ١٥٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج٣/ ص٨٩٢.

(٢) الزهد لأحمد/ ص ١٨٦.

(٣) الحسن البصري أبو سعيد / سير أعلام النبلاء/ ط: الرسالة/ ج٤/ ص٥٨٧.

(٤) الزهد لأحمد / ص ٢٢٩.

فقد شبه الدين باللحم والدم، ووجه الشبه: الحفظ والصون، ثم لا يسلم للعبد لحمه ودمه في الآخرة إلا إذا سلم دينه. وكل الناس في الدنيا حريصون على صون دمائهم، وحفظ عافيتهم، والدين أولى بهذا الحرص؛ لأن مصير العبد في الآخرة مربوطٌ بهذا الدين، والدَّعْوَى هنا إلى الاعتناء بالدين، والثبات عليه، وعدم التفريط فيه، ويجب أن تكون هذه الصور البيانية متعلقة في ذهن المخاطب عند كل موقف وحادثة يتعرض لها في دينه.

وقوله: «يَسْلَمْ لَكَ جِسْمُكَ وَدَمُكَ»: كناية عن نعيم الجنة، وعافيتها وسرمديتها.

وقوله: «وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَنَعُوذُ بِاللَّهِ»: كناية عن النار، وعذابها.

٣- كناية عن لزوم الصف الأول في الصلاة:

عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ[ت:١٥١-١٦٠هـ][١]. قَالَ: «كَانَتْ لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فَضِيلَةٌ لَا نَعْلَمُهَا كَانَتْ لِأَحَدٍ مِنَ التَّابِعِينَ، لَمْ تَفُتْهُ الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً، عِشْرِينَ مِنْهَا لَمْ يَنْظُرْ فِي أَقْفِيَةِ النَّاسِ»[٢].

قوله: «لَمْ يَنْظُرْ فِي أَقْفِيَةِ النَّاسِ»: كناية عن لزومه الصف الأول، وجاءت الدعوى هنا بدليلها والحجة ببينتها.

---

(١) الأوزاعيُّ عَبْد الرحمن بْن عمرو بْن يُحْمَد [ت: ١٥١ - ١٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٤/ ص١٢٠ .

(٢) حلية الأولياء / ج٢/ ص١٦٣.

٤- تشبيه ذهاب الدين وضياع سننه بذهاب الحبل قوة قوة:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَيْرِيزٍ[ت: ٩١ - ١٠٠هـ][١]. قَالَ: «يَذْهَبُ الدِّينُ سُنَّةً سُنَّةً، كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً قُوَّةً»[٢].

ففي قوله: «**كَمَا يَذْهَبُ الْحَبْلُ قُوَّةً[٣]. قُوَّةً**»: شَبَّهَ ذهاب الدين وضياع سننه بذهاب الحبل قوة قوة، والتشبيه تمثيلي، والدين وسننه من المعقولات، والحبل وقواه من المحسوسات، فالصورة جسدت أمر الدين وسننه. وهنا أمر آخر في المشبه به: «**الحبل**»، **وهو** أنه إذا انقطع إحدى قواه كانت ما بعدها أضعف وأسرع في الإلحاق بها، كانفلات حَبَّات العقد، فيكون وجه الشبه: سرعة الذهاب.

٥- تشبيه الإيمان بالسربال:

قال سُفْيَان الثَّوْرِيَّ[ت:١٦١هـ][٤]. يَقُولُ: «الْإِيمَانُ كَالسِّرْبَالِ، إِذَا شِئْتَ لَبِسْتَهُ، وَإِذَا شِئْتَ خَلَعْتَهُ»[٥].

ففي قوله: «**الْإِيمَانُ كَالسِّرْبَالِ**»: **شَبَّهَ** الإيمان بالسربال، ووجه الشبه: الستر والزينة والتحلي، ومن نزع عن نفسه الإيمان ذهبت مروءته، وانكشفت سوأته،

---

(١) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَيْرِيزِ بْنِ جُنَادَةَ بْنِ وَهْبٍ الْقُرَشِيُّ، أَبُو مُحَيْرِيزٍ، [ت: ٩١ - ١٠٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي/ ج ٢/ ص١١٢٧.

(٢) حلية الأولياء / ج٥ ص١٤٤.

(٣) القُوَّة: الخَصْلة الْوَاحِدَةُ مِنْ قُوَى الحَبل، وَقِيلَ: القُوَّة الطَّاقَةُ الْوَاحِدَةُ مِنْ طاقاتِ الحَبْل أَو الوَتَر، وَالْجَمْعُ كَالْجَمْعِ قُوًى وقِوًى. وَحَبْلٌ قَوٍ ووترٌ قَوٍ، كِلَاهُمَا: مُخْتَلِفُ القُوَى. وأَقْوَى الحبلَ والوَتر: جَعَلَ بَعْضَ قُواه أغلظ مِنْ بَعْضٍ. / لسان العرب / ج١٥/ ص٢٠٧.

(٤) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري / سير أعلام النبلاء / ط:الرسالة/ ج٧/ ص٢٧٩.

(٥) حلية الأولياء / ج٧/ ص٣٢.

وفضح أمره. وقوله: «إِذَا شِئْتَ لَبِسْتَهُ، وَإِذَا شِئْتَ خَلَعْتَهُ»: تخيير تهديدي، وتعريض بمن يخلع عن نفسه الإيمان، فيكون كالعاري.

٧- «رعاء الشمس والقمر» كناية عن الذاكرين:

عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ[ت:٣٢هـ][١]. قال: «إِنْ شِئْتُمْ لَأُحَدِّثَنَّكُمْ مَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؛ الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللَّهَ إِلَى عِبَادِهِ، وَيَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ نُصْحًا، وَإِنْ شِئْتُمْ لَأُقْسِمَنَّ لَكُمْ إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ لِرِعَاءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ»[٢].

قوله: «لِرِعَاءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ»: كناية عن الذاكرين الذين يُراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله عز وجل[٣]. وأفادت الكناية حرص القوم على الذكر وترقبهم لأوقاته قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وآناء الليل وأطراف النهار.

٨- تصوير الفتنة كِيرًا والمؤمن ذهبة حمراء:

قال قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ الْبُخَارِيُّ - بِبَغْدَادَ -: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ خَشْرَمٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ[ت:٢٢١-٢٣٠هـ][٤]. يَقُولُ «أُدْخِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ

---

(١) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

(٢) الزهد لأحمد / ص١١٨.

(٣) أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري/ تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ص٢١٤.

الزهد لأحمد / ص١١٨.

عَنْ أَبِي قَالَ: إِنَّ أَحَبَّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ، وَيُحَبِّبُونَ اللَّهَ إِلَى النَّاسِ، وَالَّذِينَ يُرَاعُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْأَظِلَّةَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ/ الزهد لابن المبارك/ ١٣٠٣.

(٤) بشر بن الحارث المعروف ببِشْر الحافي [ت: ٢٢١ - ٢٣٠ هـ]] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٤/ ص٥٤٠.



الْكِيرَ، فَخَرَجَ ذَهَبَةً حَمْرَاءَ»[1].

ففي قوله: «الكير»: استعار الكير للمحنة التي كان فيها ابن حنبل استعارة تصريحية أصليةً. وفي قوله: «ذَهَبَةً حَمْرَاءَ»: تشبيه أداته مقدرة، والمراد «فخرج منها كالذهبة الحمراء»، وهو أجود الذهب، وأغلاه ثمنًا، والتشبيه أفاد أنه خرج من الفتنة قويًا إيمانُه، ثابتًا على الأمر، لم يتغيَّر، ولم يتبدَّل، ولم يتلوَّن، ولم يُداهِن، والكلامُ كنايةٌ عن صفائه ونقائه وحسن معدنه، والصورة البيانية منزعها حديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُجَرِّبُ أَحَدَكُمْ بِالْبَلَاءِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدُكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ فَذَلِكَ الَّذِي نَجَّاهُ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ دُونَ ذَلِكَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَشُكُّ بَعْضَ الشَّكِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْأَسْوَدِ فَذَلِكَ الَّذِي قَدِ افْتُتِنَ»، هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»[2].

٩- تشبيه المؤمن الثابت باللؤلؤة التي لا ينفك عنها حسنُها:

عَنِ السَّرِيِّ بْنِ يَحْيَى، قَالَ: سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ[ت: ١٣٠هـ][3]. يَقُولُ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَةِ أَيْنَمَا كَانَتْ حُسْنُهَا مَعَهَا»[4].

ففي قوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَةِ»: شَبَّهَ المؤمن الذي لا يتزعزع إيمانُه، ولا ينفكُّ - بحال من الأحوال باللؤلؤة التي لا ينفك عنها حسنها أينما كانت،

---

(١) حلية الأولياء/ ج٩/ ص١٧٠.

(٢) المستدرك على الصحيحين/ للحاكم/ ٧٨٧٨/ ت: مصطفى عبد القادر عطا/ ن: دار الكتب العلمية - بيروت/ ط:١.

(٣) مالك بن دينار / سير أعلام النبلاء ط الثالثة / ن:الرسالة:ج٥/ ص٣٦٤.

(٤) حلية الأولياء / ج٢/ ص٣٧٧.

والتشبيه تمثيلي، ووجه الشبه: ملازمة الحسن، وعدم الانفكاك عنه، فالمؤمن شيء واحد في سره، وفي علانيته، وفي خلوته، وفي مخالطته، أم من يخلو بمحارم الله، فينتهكها، فليس بمؤمن، إنما هو مسلوب الإيمان.

١٠- تشبيه الذاكر في الغافلين بالمقاتل عن المدبرين:

عَنْ حَسَّانَ بْنِ أَبِي سِنَانٍ [ت:١٢١-١٣٠هـ](١). قَالَ: «ذَاكِرُ اللهِ فِي الْغَافِلِينَ كَالْمُقَاتِلِ عَنِ الْمُدْبِرِينَ»(٢).

ففي قوله: «كَالْمُقَاتِلِ عَنِ الْمُدْبِرِينَ»: شَبَّهَ الذَّاكِرَ الذي يَذْكُر الله بين جماعة لا يذكرون بمجاهد يقاتل الكفار بعد فرار أصحابه منهم، فالذاكر قاهر لجند الشيطان، وهازم له، والغافل مقهور، والتشبيه تمثيلي، ووجهُ الشَّبَهِ: عِظَمُ المنقبة، وعلوُّ الشرف.

١١- تشبيه ابتلاء الله للعبد لإصلاحه بإعطاء المرأة ابنها الحضض؛ ابتغاء عافيته:

عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (ت:١٠٨هـ)(٣). قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُجَرِّعُ عَبْدَهُ الْمَرَارَةَ؛ لِمَا يُرِيدُهُ بِهِ مِنْ صَلَاحِ عَاقِبَتِهِ، قَالَ بَكْرٌ: أَمَا رَأَيْتُمُ الْمَرْأَةَ تُوجِرُ وَلَدَهَا الصَّبْرَ، أَوْ قَالَ: الْحُضَضَ؛ تُرِيدُ بِهِ عَافِيَتَهُ»(٤).

(١) حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ الْبَصْرِيُّ. [ت: ١٢١ - ١٣٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي، ت:بشار/ ج٣/ ص٣٩٥.

(٢) حلية الأولياء / ج٣/ ص١١٩.

(٣) بكر بن عَبْد اللَّهِ المزني، وهو ابن عَمْرو بْن هلال (ت:١٠٨هـ) تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ ط: الرسالة / ج٤/ ص٢١٨.

(٤) الزهد لأحمد / ص٢٤٦



وقوله: «لَيُجَرِّعُ عَبْدَهُ الْمَرَارَةَ»: كناية عن ابتلائه بالشدائد، والمدلهمات. وفي قوله: «المرارة»: استعارة للمصائب، والابتلاءت، وهذه استعارة تصريحية أصلية. وفي قوله: «أَمَا رَأَيْتُمُ الْمَرْأَةَ تُوجِرُ[1]. ولَدَهَا الصَّبْرَ أَوْ قَالَ الْحُضَضَ؛ تُرِيدُ بِهِ عَافِيَتَهُ»: شَبَّهَ ابتلاء الله للعبد؛ مِن أجل إصلاحه بإعطاء المرأة ابنها الحضض[2].؛ ابتغاء عافيته، والتشبيه تمثيلي جاء أعقاب المعاني، فضاعَفَ قُواها في تحريك النفوس، وكان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر.

فدلت الصورة البيانية وأثبتت رحمة الله بعباده لا سيما عند ابتلائه جل في علاه.

١٢- تصوير الواقع في الفتنة بغارق في البحر:

طُلب أبو قلابة[ت:١٠١-١١٠هـ][3]. للقضاء، فلحق بالشام هربًا، فأقام حينًا، ثم قدم البصرة، قال أيّوب: فقلت له: لو أنك وليت القضاء، وعدلت بين الناس رجوت لك في ذلك أجرًا، قال لي: يا أيوب، إذا وقع السابح في البحر فكم عسى أن يسبح؟[4].

---

(١) وجر: الوَجْرُ: أَن توجِرَ مَاءً أَو دَوَاءً فِي وَسَطِ حَلْقِ صَبِيٍّ. الْجَوْهَرِيُّ: الوَجُورُ الدَّوَاءُ يُوجَرُ فِي وَسَطِ الْفَمِ. ابْنُ سِيدَهْ: الوَجُورُ مِنَ الدَّوَاءِ فِي أَيِّ الفَمِ كَانَ، / لسان العرب / ج٥/ ص٢٧٩ .

(٢) رَوَى ابْنُ الأَثير فِيهِ هَذِهِ الوجوهَ كلَّها مَا خَلاَ الضادَ والذالَ، وَقَالَ: هُوَ دَوَاءٌ يُعْقَدُ مِنْ أَبوال الإِبل: وَقِيلَ: هُوَ عَقَّارٌ مِنْهُ مَكِّيٌّ وَمِنْهُ هِنْدِيٌّ، قَالَ: وَهُوَ عُصارة شَجَرٍ مَعْرُوفٍ؛ وَقَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: الحُضُض والحُضَض صَمْغٌ مِنْ نَحْوِ الصَّنَوْبَرِ والمُرِّ وَمَا أَشبههما لَهُ ثَمَرَةٌ كالفُلْفل وَتُسَمَّى شَجَرَتُهُ الحُضَض / لسان العرب ج٧/ ص١٣٦.

(٣) أَبُو قِلاَبَةَ، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الْجَرْمِيُّ الْبَصْرِيُّ، [ت: ١٠١ - ١١٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٣/ ص١٩٣.

(٤) عيون الأخبار ج:٢ / ص٤٠٢ .

في قوله: «**إذا وقع السابح في البحر فكم عسى أن يسبح؟**»: سؤال يحتوي على صورة بيانية: (استعارة تمثيلية)، أوجز كثيرًا من الكلام، وكان جوابًا شافيًا؛ حيث صوّر حال من يقع في الفتن فتهلكه لا محالة في وقت وجيز - بحال من نزل في البحر، فأخذ يسبح حتى خرَّ وغرِق، والاستعارة تمثيلية، جاء بها؛ ليُبرر هروبه إلى الشام وفراره من القضاء.

١٣- تصوير الحق والباطل:

قَالَ مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ الرَّبَذِيُّ: حَدَّثَنِي أَبُو عَمْرٍو الْمَدِينِيُّ، قَالَ: وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ أَدْرَكَ عَلِيًّا وَابْنَ مَسْعُودٍ، قَالَ: «الْحَقُّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَالْبَاطِلُ خَفِيفٌ وَبِيٌّ، وَرُبَّ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا حُزْنًا طَوِيلًا»[1].

ففي قوله: «**الْحَقُّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ**»: صوَّر الحق في صورة جِرْم له كثافة ووزن على سبيل الاستعارة المكنية التي لازمها: «**ثقيل**». **وقوله**: «**مريء**»[2]. أي: سائغ، صوَّر الحق في صورة طعام، وحذف المستعار منه، ورمز إليه بلازم من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية. وقوله: «**وَبِيُّء**»، وهو المكان الكثير الوباء، شَبَّهَ الباطل به تشبيهًا بليغًا، ووجه الشبه: الضرر وعدم السلامة.

١٤- استعارة الحائط للوقاية:

عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدٍ [ت:١٥١-١٦٠هـ][3]. قَالَ: مَرَرْتُ بِرَاهِبٍ فِي

---

(١) الزهد للمعافي / ص ٢٨٧.

(٢) وَقَالَ شَمِرٌ عَنْ أصحابه: يُقَالُ مَرِئَ لِي هَذَا الطعامُ مَراءَةً أي: اسْتَمْرَأْتُه، وهَنِئَ هَذَا الطعامُ، وأَكَلْنا مِنْ هَذَا الطَّعَامِ حَتَّى هَنِئْنا مِنْهُ أَي: شَبِعْنا، ومَرِئْتُ الطعامَ واسْتَمْرَأْته، وقَلَّما يَمْرَأُ لَكَ الطعامُ/ لسان العرب / ج١/ ص١٣٥.

(٣) عَبْد الواحد بْن زيد، أَبُو عُبيدة البَصْريُّ [ت: ١٥١ - ١٦٠ هـ] تاريخ الإسلام للذهبي،ت:بشار/ ج٤/ ص١٣٩.



صَوْمَعَتِهِ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: قِفُوا حَتَّى أُكَلِّمَهُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: «يَا عَبْدَ الْوَاحِدِ إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ، فَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا حَائِطًا مِنْ حَدِيدٍ»(١).

قوله: **«حَائِطًا مِنْ حَدِيدٍ»**: عبر عن الوقاية بالحائط الذي يُتخذ من حديد استعارة تصريحية أصلية. **وقوله: «من حديد»**: إشارة إلى تقوية مانع الشهوات في القلب؛ حتى لا تخترق الشهوات القلب.

* * *

الخلاصة:

أراد أهل الرقائق في مقام الثبات إيضاح أمور تتعلق به، منها: عِظم أمر الثبات وثقله، وأن في الثقل خيرًا للعبد، فشبهوا الفتنة بالكير الذي تُنقى فيه المعادن، وصوروا الحق شيئًا ثقيلًا، واستدل أهل الرقائق على إرادة الله بالعبد خيرًا عند تجرع البلاء والمرارة - بالأُمِّ التي تعطي ولدها الحضض؛ ابتغاء العافية. ومنها: بيان منزلة الثابت على دينه، فقد شَبَّهَ أهل الرقائق المؤمنَ الثابت باللؤلؤ، وبالذهبة الحمراء التي تزيد قدرًا كلما اشتدت عليها النار، وبالمقاتل الثابت بين فارين يحمي ظهورهم، ويدفع عنهم. ومنها بيان منزلة الدين، فقد شبهوا الدين برأس المال الذي ينبغي على العبد الاعتناءُ به، وشبهوه باللحم والدم، وشبهوا الإيمان بالسربال الذي يستر العبد، ويزينه.

---

(١) اليقين لابن أبي الدنيا / ص٥٠/ ت: ياسين محمد السورس/ ن: دار البشائر الإسلامية.

فهرس المحتويات







